محمد جواد مغنية

عقليات إسلامية

بحث عقلاني في الألوهية والنبوة والآخرة
الامامة، المهدي المنتظر، ومسائل أخرى

الجزء الأول

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

عقليات إسلامية

بحث عقلاني في الألوهية والنبوة والآخرة

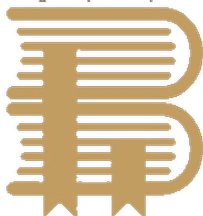
الإمامة، المهدي المنتظر ومسائل أخرى

الشيخ محمد جواد مغنية

عقليات إسلامية

بحث عقلاني في الألوهية والنبوة والآخرة
الإمامة، المهدي المنتظر ومسائل أخرى

الجزء الأول



عز الدين

الطبعَة الأولى

١٤١٤هـ ١٩٩٣م



مُؤسَسة عِزّ الدِّين للطبَاعَة وَالنشر

الإدارة: ٨٣٤٧٤٨/٩ ـ ٨٢١٨٤٣ ـ المخازن: ٨٢٣٨٢٩ ـ المطابع: ٨٣٧١٤٢٠

فاكس: ٨٢٠٣٧٨ ـ تلكس: ٢٠٣٩٣

بناية لاندزاين ـ بئر حسن ـ ص.ب: ١٣/٥٢٥١ ـ بيروت ـ لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

أحمد الله سبحانه ، وأستعين به ، وأصلي على النبي المختار وآله الأطهار .

وبعد :

فقد جاء في الحديث الشريف عن الرسول الأعظم (ص) : « أصل ديني العقل » . ودين محمد يقوم على دعائم ثلاثة : الايمان بالله ، والنبوة ، واليوم الآخر ، وتتفرع الإمامة عن النبوة ، لأنها رياسة عامة في أمور الدين والدنيا عن النبي ، والمهدي المنتظر قسم من الإمامة ، لأنه الإمام الذي يأتي في آخر الزمان .

ووضعت سلسلة أعرض فيها الدليل العقلي على أصول الاسلام ، ودعائمه الأولى جنباً إلى جنب مع الاحساس القلبي في عبارة سهلة واضحة مكتفياً من الموضوع بمعالمه الرئيسية مجتنباً كل ما يعوق الفهم ، ويأباه العقل . . . وجاءت السلسلة في خمس حلقات : الله والعقل . النبوة والعقل . الآخرة والعقل . إمامة علي والعقل . المهدي المنتظر والعقل .

وقد وفقت ، بحمد الله ، إلى ما قصدت إليه من تقوية الروح الدينية وتثبيتها بالمنهج العقلي في نفوس كثير من الشباب ، وحققت السلسلة نجاحاً كبيراً ، فطبع بعضها أربع مرات ، وبعضها الآخر ثلاثاً . . . وبعد أن نفدت النسخ من جميع الطبعات ، رأينا ان نجمع الحلقات الخمس ، ونخرجها في كتاب واحد باسم « عقليات إسلامية » تسهيلاً على الراغبين ، ومساهمة في نشر الثقافة الدينية ، والفلسفة الاسلامية . . . والله ولي التوفيق .

الله والعقل

هذه الصفحات بسم الله ، والحمد لله والصلاة على صفيه المرسل وجميع الأنبياء والصلحاء .

وبعد فقد اتصلت بكتب الدين ، وأنا في سن الخامسة ، وأول ما حفظت منها سورة الفاتحة .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

أما صلتي بكتب التشريع والعقائد فقد مر عليها اربعون عاماً أو تزيد قليلاً . وما زلت أراجع هذه الموضوعات ، وأتابع ما يقع في يدي من كتاب أو مقال جديد يتصل بها من قريب أو بعيد ، أبحث وأنقب عن فكرة أو كلمة تُشعر بتعزيز الدين ودعمه ، وقد ظهر أثر ذلك فيما كتبته رداً على الملحدين والطاعنين في الاسلام ، ومبادئه وتعاليمه ، وجمعت الكثير من هذه الردود في كتاب « مع الشيعة » و« أهل البيت » و « الاسلام مع الحياة » .

من تتبع ما كتبت ونشرت في مباحث الدين ، وما يتصل به يجد اني أحارب على جبهتين : أكافح التعصب والجمود في بعض الأفراد من المتدينين ، وأكافح الإباحيين الذين يثيرون الشبهات والشكوك حول عقيدة الاسلام وشريعته وتعاليمه . أقف وسطاً بين الاثنين راغباً إليهما العدل والتوازن ، أدعو المؤمن المتدين أن يلائم بين ايمانه وأهداف الحياة ، وأدعو الإباحي أن يؤمن ويدين بما يفرضه العقل والواقع ، ولا يسير وراء الأهواء والأحلام . لقد أهمل هذا الدين وتجاهله ، فوقفت منه موقف المرشد المدافع ، وخاطبته برفق ولين أستدرجه وأستميله . ونظر ذاك إلى ناحية واحدة من الدين ، وأشاح ببصره عن غيرها ، وأبى إلا التعصب لتقاليد سيئات ليست من الدين في شيء ،

فهاجمته وقسوت ، لأن التعصب يحجب الحق عن الأبصار ، ويلقي ستاراً كثيفاً بينه وبين من ينشده .

وخلق لي هذا الموقف المحايد بين الفريقين أعداء من كل منهما ، وقالوا ما شاء لهم الهوى والجهل ، فانصرفت عن لغوهم ، وأقبلت على العمل منقطعاً إليه متعظاً بحكمة الإمام علي (ع) : « العلم يهتف بالعمل ، فان أجابه وإلا ارتحل » . وقوله : « ليس بعاقل من انزعج بقول الزور فيه ولا بحكيم من رضي بثناء الجاهل عليه » . وصدق الرسول الأعظم حيث قال « كل انسان ميسر لما خلق له » .

إني أتعصب للجوهر ، وأتسامح في العرض ، واجمع بين قوله سبحانه «وما جعل عليكم في الدين من حرج » وقوله « وذر الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً » . وذلك دين القيّمة .

قال لي بعض الطيبين من الأصدقاء[1]: ما بالك تجمد في مورد واقفاً عند النص الحرفي ، وتنطلق مع روح النص في مورد آخر ؟ فإما أن تبقى سائراً ، واما أن تظل واقفاً .

قلت ، لو ترك لي الخيار لفعلت ، ولكنني عبد مأمور ، أقف حيث ينهاني الدين عن المسير ، ويسد في وجهي جميع المنافذ ، وأسير حيث أجد طريقه رحباً فسيحاً[2] .

---

(١) هما الأخ العلامة الشيخ عبد الله نعمة ، والأخ المجاهد صاحب العرفان الشيخ عارف الزين .

(٢) مثال الجمود على النص ما جاء في الحديث ان المسافر إذا قطع ثمانية فراسخ يقصر ويفطر . يعم هذا الحكم كل مسافر ، سواء أسافر طائراً أو مشياً على الأقدام ، وسواء أكان في سفره حرج أم فرج ، لأن الشارع أطلق ولم يقيد الحكم ، ولو أراد القصر والافطار في حال دون حال لبين ، وحيث لم يبين تحتم الشمول جميع الحالات . أما مثال التجاوز إلى روح النص فكالأحاديث الواردة في بذل الماء وفضله ، وان من سقى ظمآناً فله من الأجر ما يفوق الحصر ، فان مورد هذه الأحاديث حيث يعز الماء ويندر ، كما هي الحال في عهد الرسول الأعظم ، وبنوع خاص في الصحراء إذ يكون الماء أندر من الكبريت الأحمر ، أما في البلاد التي يكون فيها كالتراب والهواء فلا ثواب إلا بمقدار ما يعود النفع وسد الخلة .

والآن ، وفي هذا الكتاب قد أخذت على نفسي أن أتقيد بحكم العقل لا رائد لي سواه ، فاسمه « الله والعقل » وسأحاول أن لا أحيد قيد شعرة عما يدل عليه اللفظ . وما أحوجنا اليوم إلى معالجة هذا الموضوع الهام حيث طغى تيار الإلحاد على كل شيء وتفشى روحه في كل قطر . فهذا شاب مصري وضع كتاباً أسماه « الله والانسان » ينكر فيه وجود الخالق ، ويقول :

« الله في العلم الحديث معناه الطاقة الخام التي في داخلنا ، والحركة التي كشفها العلم في الذرة . والمعبد برلمان حر ومدرسة عصرية ، والصلاة هي الطعام الجيد والكساء الجيد والمسكن الجيد »[1] .

ومصري آخر ألّف كتاباً دعاه « الدين والضمير » ، وهو أكبر حجماً وأكثر لؤماً . رأى هذا المؤلف ان لا سبيل إلى إنكار الخالق . فاعترف به ولكن جعله وجودياً قال :

« ان الله يدخل جنته الطيب الرشيد وان لم يؤدّ صلاة واحدة ، ولم يعمل حسنة قط . وان زنى وان سرق . وان الدعوة إلى الدين تستطيع أن تنبت من الأرض ، وليس لزاماً أن تتصل إلى السماء بوحي ولا نسبب »[2] .

(١) كتاب « الله والإنسان » لمصطفى محمود ص ٢٤ و ١١١ الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧ .

(٢) كتاب « الدين والضمير » لمحمود الشرقاوي ص ٤١ و ٨٥ و ٩٨ و ١٠٠ الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨ . ونشرت جريدة الجمهورية في عدد ٢ كانون الثاني ٥٩ مقالا للأستاذ عبد المنعم النمر يرد فيه على المؤلف وقد جاء فيه : « ان الشرقاوي هذا عالم وكاتب مجيد اشتغل بالصحافة مدة حتى استقر به المطاف بالأزهر » . قال كاتب المقال : « علمت ان وزارة الأوقاف قد اشترت من الكتاب كثيراً . والمفروض انها لا تشتري كتاباً وتشجعه ، وفيه هذه المآخذ الدينية الكبيرة » .

وقد رددت على الأول في صحف بيروت والقاهرة ، ثم أدرجت الردّ في كتاب « الاسلام مع الحياة » ، ورددت على الثاني في جريدة التلغراف تاريخ ٦ – ٤ – ٥٩ . وسأتعرض لأقواله مفصلاً في كتاب « النبوة والعقل » .
أما الباعث على وضع هذه الصفحات ، وفكرة العودة إلى مصطفى محمود فحديث جرى بيني وبين صديق طبيب ، قال في مجرى الحديث عن كتاب « الله والانسان » . أمثـــل هذا الكتاب يكتفى بالردّ عليه في مقال يقرأ ثم ينسى ويهمل ؟ ! وبقيت هذه الكلمة تتردد في نفسي ، حتى لاحظت ان الكثير ممن قرأ الرد لم يقرأ الكتاب ، وان أكثر الذين قرأوا الكتاب لم يصلهم ردي عليه ، لأن مصطفى محمود نشر فصول الكتاب عما وراء الطبيعة في مقالات متسلسلة بمجلة « روز اليوسف » التي أضلت الناشئة ، وهي – في الغالب – لا تنشر إلا لمصطفى محمود وأمثاله من الذين يروجون للفساد والالحاد ، وهذا القول ردده أمامي أكثر من مرة عدد من المصريين ، وفيهم الأجلاء من شيوخ الأزهر الذين أغضبهم سلوك هذه الصحيفة . وبالرغم من مصادرة الحكومة المصرية هذا الكتاب فقد تسرب الكثير من نسخه إلى مصر وبعض البلاد العربية .

ولمصطفى محمود مكانة يغبط عليها بين الشباب والطلاب ، فقد رأيتهم يقبلون على كلماته في شوق ، ويلتهمونها في لهفة ، ويتحدثون عنها بثقة وايمان كأنها وحي . أما سر هذا الاقبال فاسلوبه الساحر ، ومقدرته الفائقة على اغراء المراهقين والتلاعب بعقولهم بألحان لا شيء وراءها سوى أنغام لا تعبر عن معنى سليم .

لذا رأيت من الأفضل أن أضع كتاباً مستقلاً يكون في متناول الجميع ، وقد تعرضت فيه للقسم الذي خصصه المؤلف للكلام عن الله سبحانه ، وعالم

ما بعد الموت . وهدفي الأول أن أبين لمن يثق به وبآرائه انه غير جدير بهذ الثقة فيما يختص بما وراء الطبيعة ، لأن فلسفته في هذا الموضوع بالذات وهم وخيال لا تقوم على أساس من الواقع .

ونحن رجال الدين ، وان حز الألم قلوبنا من هذا التيار الفاسد الملحد فاننا بحمد الله نملك من الحجج ما نذود به عن عقيدتنا ، ولا نطلب ممن يلحد ويشكك إلا أن يستمع لما نقول ، وينظر فيما نستدل بسلامة في العقل ، وتجرد عن الهوى ، ثم ندعه إلى احساسه وشعوره يتخذ منه رسولاً أميناً ورائداً حكيماً .

أما من يتكلم ويجادل لا لشيء إلا للتلهي وسد الفراغ ، أو اظهار شخصه وفهمه ، كأكثر الذين يتكلمون في هذا الموضوع – أما هذا فيشق معه التفاهم ويعسر ، ان لم يكن محالاً ، ومن هنا اتسعت مسافة الخلف بيننا وبين الكثيرين من الشباب .

نحن لا نحرّم الكلام على انسان ، ولا نفرض عليه أقوالنا فرضاً ، غير اننا لا نحترم من يرسل نفسه مع الظنة والتهمة ، ويجزم باللمحة والشبهة ، ويتجاهل الحقائق التي آمن بها من خلقوا الحضارات ، وغيروا وجه التاريخ ، وأخرجوا الأمم من الظلمات إلى النور .

نحن لا نفرض على أحد الايمان بآراء الألوف من الأنبياء والعلماء والفلاسفة والمصلحين ، وانما نطلب إليه أن يقرأ ما قالوا ، وما قيل عنهم قبل أن يتهمهم في عقولهم وعقائدهم ، وهم الذين علّموا الأجيال البحث والتفكير .

والله سبحانه المسؤول أن يجعل هذه الأوراق تبصرة للمشككين ، وقوة في يد المؤمنين ، وهو يعلم اني تقربت بها إليه رغبة في مرضاته يوم ألقاه انه غفور رحيم .

سبب المعرفة

ترتسم في أذهاننا صور عن أشياء هذه الطبيعة من المادة الجامدة أو الحية ، كتصورنا بأن الأرض كروية متحركة وأن الماء يغطي ثلاثة أرباعها . وترتسم أيضاً في أذهاننا صور عن أشياء غير مادية ، لا تمت إلى هذه الطبيعة بسبب ، كتصورنا وجود قوة تكمن وراء هذا الكون ، وهي التي تديره وتدبره . وقد تأتي هذه الصور من الالهام والتخيل ، أو التقليد والمحاكاة ، أو النقل والسماع ، أو الاستنتاجات العقلية ، أو التجربة الشخصية والمشاهدة الحسية .

فهل هذه التصورات بكاملها علم وحقائق ، أو جهل وأوهام ، أو ان بعضها حق ، وبعضها الآخر باطل ؟

الحواس الخمس :

ذهب فريق من الفلاسفة إلى أن كل صورة ترتسم في ذهنك لا تكون علماً صحيحاً ومعرفة حقة إلا إذا أتت عن طريق الحواس الخمس : البصر والسمع والشم واللمس والذوق ، فما تذوقه أو تلمسه أو تشمه أو تسمعه أو تراه تحكم بأنه موجود وحقيقة واقعة ، وما عدا ذلك يجب أن تقف منه موقفاً سلبياً .

ولكن الحواس كثيراً ما تخدعنا . فالنسيج الذي تشتريه ترى لونه في الدكان غير لونه في ضوء الشمس والهواء الطلق وهذه المنضدة تبدو لك مستديرة ، وأنت قريب منها ، ولا تبدو كذلك إذا ابتعدت عنها ، وهذه المرأة جميلة في نظرك ، قبيحة في نظر من تنافسها وتزاحمها . وهذا الطعام تستطيبه ، وأنت جائع ، ولا تستطيبه وأنت شبعان ، وكذلك الحال بالنسبة إلى الرائحة والسمع يختلفان باختلاف الأشخاص ، وكذلك بالنسبة إلى الحرارة

والبرودة : ضع احدى يديك في ماء حار ، والأخرى في ماء بارد، ثم ضعهما بعد ذلك ، في ماء فاتر ، فيبدو هذا الماء بارداً بالنسبة لاحدى يديك، وحاراً بالنسبة للاخرى . ان المعاني والحقائق أكثر مما يرى ويسمع ومما يؤكل ويُشم ويُلمس . فكما نعرف كثيراً من الأمور بواسطة الحواس معرفة مباشرة كذلك نتوصل إلى معرفة أمور أخرى بصورة غير مباشرة عن طريق الاستنتاج . قال افلاطون : إذا كانت الحقيقة لا تثبت إلا بالحواس الظاهر فيجب أن يكون القرد والفيلسوف الحكيم سواء بسواء! لأنهما يشتركان في هذه الاحساسات.

الملاحظة والتجربة :

وقال آخرون : ان اسباب المعرفة والكشف عن الحقيقة لا تنحصر بهذه الحواس الخمس ، بل تشمل الملاحظة والتجربة ، والمراد بالملاحظة مشاهدة الأشياء على ما هي عليه في الطبيعة ، كملاحظة النجوم وغيرها من الأجرام السماوية دون أن تمسها يد التجربة ، أما التجربة فهي مشاهدة الأشياء في ظروف خاصة يهيئها العالِم ، ويتصرف بها حسب ارادته، ويرتبها بآلاته العلمية الدقيقة. وكل تجربة تستتبع الملاحظة ، ولا عكس . وعليه فما يمكن استخدام التجربة والملاحظة فيه فهو موجود، وما يخرج عن هذه الدائرة فلا وجود له . وهذا القول قريب من سابقه غير انه أعم وأوسع ، لأنه يشمل الأشياء التي لا تُرى ولا تلمس ، كالألكترون ومكروب السرطان وما إليه .

والنتيجة الحتمية لهذا القول ان الألوهية ، وما يتصل بها من ارسال الرسل وانزال الكتب والبعث والنشر ان هي إلا أسماء لا تعبر عن حقيقة ، لأن كل ما وراء التجربة والملاحظة لا وجود له ، وان الأقيسة المنطقية والاستنتاجات العقلية تركيب ألفاظ ، وصور خيالية لا يربطها بالواقع أي رابط .

ويرد هذا القول أولاً : ان التجربة تختص بحادثة جزئية ، ولا يمكن أن تثبت بها قاعدة كلية عامة ، هذا مضافاً إلى انها لن تكون حقيقية مئة بالمئة ، فقد يجزم العالم بحقيقة ما عن طريق التجربة ، ثم تظهر له حادثة أخرى يستكشف منها ان التجربة الأولى كانت خاطئة وغير صالحة لتفسير ما كان يفسره بها من الحوادث . فهذا اينشتين زعم « ان أقصر الخطوط هو الخط المنحني ، وان الضوء يسير على خط غير مستقيم ، ثم اتفق ان رصد ثانية بآلات أحدث وأتقن فتبين له ان أقصر الخطوط الخط المستقيم ، وان الضوء يسير عليه لا على خط منحني » .

ثانياً : ليس من شك ان للتجربة مزايا لا توجد في غيرها ، وانه كان لها وما زال الفضل الأول في تقدم العلوم ، ولكن ليس معنى هذا ان التجربة هي كل المعرفة . وان غيرها ليس بشيء لأن العالم لا يمكنه اجراء تجاربه في جميع الموضوعات التي تعرض له ، طبيعية كانت أو غير طبيعية ، فقد يعتمد على الملاحظة وحدها ، كما هي الحال في علم الفلك ، وعلم الحياة ، حيث لا يستطيع الانسان أن يجري أية تجربة على حركات الأفلاك ، كما انه لا يستطيع أن يخلق الحياة ، أو يعيدها بعد الموت . لذا يقتصر في علم الفلك وعلم الحياة على المشاهدة والملاحظة فقط ، كما هي الحال في الأمور العقلية المجردة عن المادة والعالم المحسوس . حيث لا مجال للتجربة ولا للمشاهدة ولا أي شيء سوى العقل ومنطقه السليم واستنتاجاته الصحيحة . وانما تصح وتصدق هذه الاستنتاجات إذا كانت مقدماتها صادقة لم يكذبها العيان والتجربة ولا تستلزم شيئاً من المحالات العقلية .

ولو أسقطنا العقل عن الاعتبار فهل يبقى الانسان على انسانيته ؟ ! وبماذا نميزه عن الحيوانات والحشرات . ونعرف الصحيح من الفاسد . والخير من

الشر ، والجمال من القبح ؟ ! بل وكيف نشاهد ونجرب ؛ ثم ننفي أو نثبت صدق التجربة إذا طرحنا العقل جانباً ؟ ! وإذا تنازل غيرنا عن عقله فراراً من الايمان بما وراء الطبيعة فنحن غير مستعدين لمثل هذا التنازل مهما كانت الحال، بل نعتمد على خبرة العقل تماماً كما نعتمد على خبرة التجريب والمشاهدة، ولا نرى أي فرق بين الاثنين سوى ان خبرة التجريب عملية تطبيقية، وخبرة الاستنتاج عملية عقلية لا يمكن فيها التطبيق الخارجي ، أي أن كل واحدة منها تصدق في مجالها الخاص ، فالتصورات التي ترتسم في الذهن عن الطبيعة تكون صادقة إذا كانت انعكاساً عن الوجود الخارجي الملموس، أما تصوراتنا عن ما وراء الطبيعة فتصدق إذا أقرها وأثبتها العقل . وان موازين الحقيقة وشواهد المعرفة تختلف باختلاف أسبابها ، فكما اننا لا نتعلم الانكليزية بالعربية — مثلاً — كذلك لا نستدل على كذب غير المرئيات بعدم مطابقتها للمرئيات .

ومرة ثانية نكرر القول ونؤكده بأنه لا مفر من تفسيرات العقل والتزاماته بصدق هذه الفكرة أو كذبها . ولا نعرف قولاً بلغ من العبث واللغو ما بلغه القول بطرح العقل وعدم الثقة به ؛ وما أبعد ما بين هذا الرأي ، وبين رأي من قال بأن الموجود هو المدرك بالعقل فقط ، وكل ما لا يدركه العقل لا وجود له .

وبعد أن تبين معنا أن ما يرجع إلى ما وراء الطبيعة هو من شؤون العقل وحده يتجه هذا السؤال : هل في أدلة العقل ما يلزم بوجوب الايمان بالله ؟ وفي حالة قيام الدليل على ذلك فهل مؤداه أن الايمان بالله مطلوب لذاته كغاية ؛ أو مطلوب كوسيلة إلى الترغيب في الخير ، والتخويف من الشر ، بحيث لو أمكن أن يكون الانسان قويم الأخلاق دون هذا الايمان لكان في حل منه ؟

وسيجد القارىء الجواب مفصلا عن هذا التساؤل في الصفحات التالية .
وستعطيه صورة صادقة عن أن رجال الدين ، وكل عالم آمن بالله لا يعتمدون في ايمانهم على الوراثة والتلقين ، بل ولا على الوحي مستقلاً عن حكم العقل . اننا نؤمن بالله كعقلاء لا كمتدينين فحسب .



اسألوا اهل العلم

إن للكون مظاهر شتى لا يجمعها علم واحد ، لأنها تفوق الحصر عداً بخاصة في هذا العصر الذي تشعبت فيه العلوم . وما زالت تتسع وتتنوع كلما تكشفت حقيقة من حقائق الكون ، وإذا أحاط أرسطو بعلوم زمانه كافة ، فيستحيل عليه لو وجد اليوم ، وعلى أي عبقري سواه أن يجمع بين علومنا كلها أو جلها. لذا اضطر العلماء إلى الاقتصار والاختصاص، وانقسم العلم بينهم ، كما انقسم العمل بين التاجر والفلاح والعامل . وهكذا تقسم الكون إلى مناطق ، واكتفت كل طائفة من الباحثين بمنطقة واحدة ، كالأفلاك، أو الأشكال الهندسية، أو الانسان أو الحيوان أو النبات، وغير ذلك.

وهذه العلوم ، وان كانت متباينة إلا أن اتصالها بكون واحد . واستخدامها جميعاً في حياة عملية واحدة جعل بينها ارتباطاً قوياً ؛ بحيث إذا كشف بعض العلوم عن حقيقة جديدة أدى ذلك إلى التبديل أو التعديل في وجهات النظر من العلوم الأخرى ، وعلى الرغم من هذا الاتصال الوثيق بين العلوم فإنك إذا سألت أحد العلماء عن مسألة لا تدخل في الفرع الذي تخصص به يجيبك بأن هذا خارج عن دائرة اختصاصه . كما لو سألت عالم النبات — مثلاً — عن أمر يتعلق بالتشريح ، بل لو سألته ما هي المادة المشتركة بين النبات وغيره من المعادن لقال لك لا أعلم ، وهو محق لأنه لا يريد الكلام عن جهل .

إذن ما بال بعض الشباب من الذين درسوا الحقوق أو الطب أو الآداب ، ولم يدرسوا فلسفة ما وراء الطبيعة . ما بال هؤلاء يقفون موقف المنكر المعاند . ويصدرون أحكاماً في أشياء لا يعرفون منها كثيراً ولا قليلاً ؟ ! ان مصطفى محمود تخرج من كلية الطب ، ولم يدرس اللاهوت ولا الفلسفة . ومع ذلك

ألّف كتاباً موضوعه « الله والانسان » ! لا يا أستاذ . انك لا تصلح ساعتك عند « سنكري » ولا تنظف بدلتك عند « اسكافي » . ولا تتعلم الطب في كلية الزراعة . إذن كيف تكلمت عما وراء الطبيعة . وعلم ما كان قبلها ، ويكون بعدها وأنت لا تعلم عنه شيئاً ؟ ! وهل ترضى أن نتكلم نحن عن الطب الذي درسته أنت في كلية الطب بالقصر العيني ؟ !

ومهما يكن ، فإن كل فئة من علماء الكون تقتصر على ناحية خاصة لا تتجاوزها . فالعالم النبات لا يتعرض للمعادن والحيوان ، والطبيب البيطري لا يبحث في جسم الانسان وعلله وأمراضه . وكذلك عالم الفلك وعالم الكيمياء فإنه لا يرى إلا ناحية واحدة من الكون على أن معرفته بها تبقى ناقصة مهما اجتهد وتقدم . فكيف بمعرفة أسرار الوجود وأسبابه ، وطبيعته ونظمه ! ومن هنا تخصص لمعرفة الكائن وراء الطبيعة طائفة من العلماء لا يفكرون بشأن غير شأنه . ولا يهتمون بأمر غير أمره .

إن علماء الطبيعة يدرسون المادة . ويطلبون أسبابها القريبة ، ويقفون عند الظواهر . ولا يذهبون إلى الأعماق . أما الفلاسفة ، أما علماء ما وراء الطبيعة فيبحثون عن علة العلل . والسبب الغامض البعيد عن المادة والمحرك الأول لها . لقد تجرد هؤلاء ، وهم عدد غير قليل من العقول الكبيرة العظيمة . تجردوا إلى البحث عن خالق الكون ومدبره ، ووضعوا الأسفار الطوال في البراهين القاطعة على وجوده . ودفعوا عنها كل شبهة . حتى أصبحت كالشمس في رائعة النهار .

فإلى هؤلاء وحدهم يجب أن نرجع في معرفة الفكرة عن الله ، وأن ندرس أقوالهم ونحاكمها بتجرد واخلاص. أما أن نجحد ونعاند دون أن نستمع إلى أرباب العقول من ذوي الاختصاص فقد جادلنا بغير علم ولا هدى .

وبالتالي ، فإذا بحثنا عن نواحي الطبيعة وحدها وتركنا البحث عما بعدها لظلت فكرة الألوهية دون حل ، وتصوراتنا عما يتعلق بها دون امتحان، لأنها لا تعلل بالمادة ولا تطرح على بساط البحث في المصانع والمختبرات، ولا يسال عنها رجال السياسة أو علماء الأخلاق والاجتماع . إذن لا بد من الرجوع إلى علم ما بعد الطبيعة الذي يبحث عن واجب الوجود وامتناعه وامكانه ، وواجب الوجود هو ما اقتضت ذاته وجوده بالضرورة ، وإلزام العقل بافتراض وجودها على كل حال وان عجز العلم عن اثباته بالطرق الموضوعية . وممتنع الوجود على العكس ، أي ما اقتضت ذاته امتناع وجوده ، وأحال العقل افتراض وجودها ، أما الممكن فهو ما خلا من هذا الاقتضاء ، ولم يحكم العقل لا بضرورة الوجود ، ولا بضرورة العدم فيحتمل أن يكون موجوداً ، كما يحتمل أن لا يكون له وجود .

ومن الخير أن نشير إلى أن الفلاسفة يلتقون هنا مع رجال الدين ، لأن كلاً من الفريقين يتطلع إلى ما وراء الطبيعة ، والفرق بينهما ان الفلاسفة يعتمدون على العقل وحده ، ورجال الدين يعتمدون على الوحي والعقل، لأنهم يعتقدون أن العقل إذا استقل في معرفة وجود الخالق وصفاته ، وارسال الرسل وما إليه فإنه محتاج إلى معونة خارجية لإدراك كثير من المسائل .

من خلق الله ؟

إن من يدعي وجود شيء يقع عليه عبء الاثبات ، سواء أكان ذلك الشيء حقاً من الحقوق أم مسألة علمية أم فنية أم تاريخية ، أم كان شأناً من شؤون العقيدة والايمان . وهذه القاعدة ــ البينة على من ادعى ــ لا يشذّ عنها أحد مهما سما بعظمته ومركزه ومهما وُصف وعرف بالعدالة والصدق . والورع والتدين ، وإذا وجب الأخذ بشهادته اعتماداً على اخلاصه وتجرده فإنه ليس بفوق أن يناقش في ذاكرته وأفكاره ، ولا بفوق أن يطالب بالدليل على صدق أقواله ، فالله جل وعلا قد أقام الآيات . وضرب الأمثال على وحدانيته وعظمته ، وعلى يوم الحساب والجزاء ، ودفع كل شبهة وتعلة تحوم حول وعده ووعيده ، ومن هنا أمد الله أنبياءه بالحجج الدامغة والبراهين القاهرة ، وشرح صدورهم لكل سائل ومجادل ، فأفسحوا المجال للمحقّ والمبطل ، ليقول كل ما يشاء ، ويجادل دون تصنع وتحفظ .

ان لدى الانسان من أسباب الجدل والنقاش ما لا يبلغه الاحصاء :

﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ الكهف ٥٥ .

إن في الانسان منذ طفولته ميلاً طبيعياً إلى التساؤل عما يجري حوله ، ويدور في خلده . ورغبة ملحة في الاطلاع على حقائق الأشياء وعللها وأسبابها . وفي انتقاد الآخرين في عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم ، ولكن الانسان كثيراً ما ينخدع بالمشاهدة السطحية للوهلة الأولى ، فيجادل ويناقش على هذا الأساس ،

أساس ما سمعه من الأقوال ، وألفه من العادات وانقاد إليه من النزعات الشخصية . وإلى هذا أشارت الآية ٩ من سورة الحج :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾

وقبل أن نعرض أدلة المؤمنين بالله نذكر طرفاً من جدل أولئك الملحدين، وما علق بأذهانهم من الأوهام . فمن أوهامهم هذا السؤال الذي يعرض للبسطاء السذج :

ـ إذا كان الله قد خلق العالم فمن خلق الله ؟

وبقليل من التفكير ندرك أن هذا التساؤل من مخلفات عهد الطفولة وبقليل مرحلة « السن السئول » . أما الذين نضجت عقولهم فيدركون ان كلمة « خلق الله العالم » تعني انه تعالى خالق غير مخلوق ، وان كل ما عداه يتلقى وجوده منه ، ولم يتلق هو وجوده من أحد . إذن ينبغي أن يكون التساؤل على الشكل التالي :

لماذا يجب علينا الايمان بأن الله موجود منذ القدم لا يفتقر إلى موجد وانه يهب الوجود لكل كائن سواه ؟

الجواب :

لو قلنا : ان كل كائن لا بد أن يستمد وجوده من غيره للزم أن لا يوجد شيء أبداً ، لأن معنى قولنا لا يوجد من يعطي إلا بعد أن يأخذ ، معناه انه لا أحد يعطي أبداً . مثلاً ، لو افترضنا ان النقد لا يمكن أن نأخذه من شخص إلا إذا أخذه هو من شخص آخر ، بحيث يستحيل أن يوجده فرد أو هيئة ،

للزم أن لا يوجد شيء يسمى نقداً . ومثلاً آخر : تعلمتَ نظرية النسبية من أستاذك ، وتعلمها هو من أستاذه ؛ وهكذا إلى أن يصل الدور إلى اينشتين الذي اكتشفها بنفسه ؛ ولو افترضنا ان أحداً لم يكتشفها من تلقائه لكانت هذه النظرية مجهولة حتى اليوم . وهكذا علم النحو وسائر العلوم لا بد أن تنتهي إلى شخص معين ، وإلا لم يكن لها عين ولا أثر . وبتقريب ثان ليس من شك انه قد وجد شيء كالأرض والنجوم ، وإذا وجد شيء وجب أن يكون قد وجد شيء ما بالضرورة يحمل في ذاته علة كافية لوجوده منذ الأزل ، لأن كل ما يوجد إما انه وجد بذاته دون أن يتلقى وجوده من غيره ، وأما أن يكون قد تلقاه من موجود آخر ، فإذا كان وجوده من ذاته لا من غيره فهو موجود بالضرورة ، وهو الله ؛ وأما إذا كان تلقاه من غيره فلا بد أن يكون هذا الغير قد وجد بالضرورة ولم يستمد وجوده من أحد .

وبتعبير ثالث ان الباحث العلمي إذا لم يدرك سبب الحوادث مباشرة لجأ إلى الافتراض فيفترض وجود شيء يفسر الحادث على أساسه ، ثم يختبر هذا التفسير . وهنا افتراضان لا ثالث لهما الأول أن نفترض ان كل موجود يتلقى وجوده من غيره بحيث لا يوجد شيء بدون سبب . الثاني وجود شيء بذاته ولم يتلق وجوده من غيره . والفرض الأول باطل حيث يلزم منه عدم وجود شيء ؛ فيتعين الثاني وهو وجود علة أولى تعطي ولا تأخذ . ومن هنا قال فولتير : « ان الرأي القائل بأن الله غير موجود ينطوي على أمور مستحيلة » أي يلزم منه أن لا يوجد شيء أبداً ؛ وهو خلاف المشاهد بالبديهة وبالتالي فإن الأدلة العقلية تحملنا على الاعتقاد بوجود كائن بالضرورة وهو الله تبارك وتعالى . وتوهم الملحدون أن الكون لا يحتاج إلى مُوجد ، لأنهم لم يدركوه بالحس ؛ ولم يستعملوا في معرفته العقل . ونذكر طرفاً من أقوالهم للتدليل على انها أوهام وتضليل .

الله والطبيعة :

فمن أوهامهم ، ان الطبيعة قد وجدت دون موجد ، لأنها تحمل علة وجودها بذاتها . لا انها مخلوقة من قبل كائن يتميز عنها بالاستقلال والقدم والكمال ، أي أن الطبيعة هي الله ، والله هو الطبيعة ، ولا شيء غيرها والجواب :

أولاً : ان لازم هذا القول ان ما في الكون من نظام وانسجام ، وفن وجمال ، وروعة وجلال قد صدر عن قوة عمياء صماء لا علم لها ولا مشيئة ، تفعل عبثاً ، وتترك لا لسبب موجب ، ولا لحكمة وغاية ، وهي مع ذلك تخلق انساناً مستوي الخلقة تهبه العقل والعلم والشعور ، وتضع كل شيء في مقره ومكانه لا تخطيء ولا تنحرف ، مهما طال الزمن ! وبديهة أن البرودة لا تلتمس في اللهيب ، والحرارة في الثلوج . ولذا قيل : ان فاقد الشيء لا يعطيه .

ثانياً : قال علماء الطبيعة : ان المادة تتلاشى وتتبخر إلى شحنات كهربائية وإنها تفقد بذلك وزنها وطولها وعرضها وعمقها ، وسائر الخصائص التي تمتاز بها ، ولو كان وجودها ذاتياً وضرورياً لاستحال ان تتغير وتتبدل ، لأن الذي يحمل علته بنفسه لا يزول إلا بزوال علته ، وزوالها يعني انها غير ذاتية. ولذا قيل : ان ما بالذات لا يتغير ، ثم اننا نرجع بعض الحوادث إلى حوادث أخرى ، ونعتبرها السبب الفاعل ، وان بينهما ارتباطاً وثيقاً ، ولو كان كل شيء يحمل علة وجوده بالذات لما كان هناك علل ومعلولات وأسباب ومسببات.

ثالثاً : ان الانسان قد اكتشف قوى الطبيعة ، وسخرها في مصالحه وسد حاجاته ، وكادت تصبح أطوع إليه من بنانه . ومحال أن يكون الخالق عبداً مسخراً لغيره .

الألوهية فكرة !

ومن أوهامهم أيضاً :

إن الالوهية فكرة ابتدعها الانسان ، ليفسر بها المجهول ، وقد تطورت من عبادة الشمس والنار والبقر إلى عبادة الحياة والشجر ، إلى الملائكة والأرواح إلى إله حكيم يكمن وراء الطبيعة . وأخيراً أدرك الانسان الحقيقة . وعلل الحوادث بحوادث طبيعية مثلها . وهذي هي غاية العلم الحديث الذي يهدف إلى معرفة الأشياء كما هي .

والجواب : اننا نعلل بعض الحوادث بما نراه من الأسباب القريبة . ولكن هناك وراء هذه أسباب أخرى بعيدة فبماذا نفسرها ؟ مثلاً ، نرجع وجود الشجرة إلى الأرض ، والأرض إلى الشمس . ولكن بماذا نفسر وجود الشمس ، وإلى أي شيء نرجعها ؟ أنرجعها إلى المادة الأولى . وما هي هذه المادة ؟ هل هي الأثير – مثلاً – ونحن على الرغم من اننا نجهل ما هو الأثير . وانه هل هو نوع من المادة أو لا مادي ؟ وهل هو حقيقة تحل المشكلات أو خرافة ابتدعت لاخفاء الجهل نتساءل : من أين جاء هذا الأثير ؟ وكيف وجد ؟ ومن أوجده ؟ وهل هو من الكائنات الحية أو الجوامد ؟ وكيف تجمع وتكتل ؟ وهل يسير إلى هدف معين أو على غير هدى ؟

أما الجواب عن هذه الأسئلة فلا نجده في علم الطبيعة على الرغم من تقدمه يوماً بعد يوم ، لأنه عاجز عن الوصول إلى معرفة الحقيقة المطلقة . إنه لا يعرف شيئاً إلا عن طريق المشاهدة والتجربة ، وهي أبعد ما تكون عنهما ، كما اننا لا نجد الجواب عند علماء النفس والاجتماع ، لأنهم يرفضون اليوم ما آمنوا به في الأمس . لا نجد الجواب إلا عند الفلاسفة الذين يبحثون عن سر الكون وأصله والسبب الأول له وهو الإله القدير الحكيم .

قال فرنسيس بيكون : « ان عقل الانسان قد يقف عندما يصادفه من أسباب ثانوية مبعثره ، فلا يتابع السير وراءها ، ولكنه إذا أمعن النظر فشهد متسلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها لا يجد بدّاً من التسليم بالله . . . »

أين يوجد الله :

ومن أوهامهم أيضاً هذا التساؤل : أين يوجد الله ؟

والسؤال . كما ترى ، وجيه في ظاهره ، ولكنه يحتوي على مغالطة منطقية في الواقع ، لأن الذي يسأل عن مكان وجوده هو الذي وجد بعد أن صح التعبير ، حيث لا زمان ولا مكان ، أما الأول بلا أول كان قبله ، والآخر بلا آخر يكون بعده ، أما الذي لا يحتاج وجوده إلى علة فلا يقال أين كان ؟

والمفروض ان علة وجود الخالق ذاتية لا تنفك عنه بحال ، وما هو من لوازم الذات لا يسأل عنه بزمان أو مكان ؛ فلا يقال متى كانت النار حارة ؟ وأين توجد الحرارة فيها ؟ ولا متى كان الثلج بارداً ؟ وفي أي مكان تستقر فيه البرودة ، ولا يقال متى كان الجسم قابلاً للابعاد الثلاثة : الطول والكتلة والزمن ؟ وأين توجد هذه القابلية في الجسم . ومتى لم توجد فيه حتى يقال متى وجدت ؟ ! وأي جانب من الجسم خلا من القابلية للابعاد حتى يقال في أي جانب تكمن ، فكذلك سؤال « أين يوجد الله ؟ ومتى وجد ؟ » إذ متى لم يوجد حتى يقال متى وجد ؟ ! وأي مكان لا يوجد فيه أثره حتى يقال أين يوجد ؟ ! انه دائم لا بزمن ، وكائن لا بحلول .

إن الجاهل هو الذي يسأل هذا السؤال ، لأنه يقيس الخالق بالمخلوق ويشبه من لا يرى بما يرى ، إن وجود الله سبحانه مباين لوجود الكائنات التي توجد في مكان دون مكان . ولو شغل مكاناً خاصاً خلت منه بقية الأمكنة ، ولكان جسماً مفتقراً إلى حيّز مع انه غني عن كل شيء .

بقي أن نتساءل : ماذا أراد للألهون من قولهم : « ان الله لا مكان له ، وهو موجود في كل مكان » ألا يدل هذا القول على أن الله موجود وغير موجود ؟ ! أليس هذا جمعاً بين الشيء ونقيضه ، مع ان اجتماع النقيضين محال كارتفاعهما ؟ !

ومن تدبر ما قدمناه من الأدلة على أن الله لا يمكن أن يوجد في مكان أدرك ان المراد من وجوده في كل مكان وجود قدرته وعظمته ، وان الأشياء كلها تشهد بوجود خالق الكون ومدبره . وعليه يكون معنى « وجود الله في كل مكان » هو ما عناه الشاعر بقوله :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وبالتالي فإن الدليل على عدم حلول الله وتحيزه في مكان خاص يدل بنفسه أيضاً على عدم تحيزه في كل مكان إذن ، معنى لا مكان له انه غير حالّ في مكان ، ومعنى وجوده في كل مكان ان آثار عظمته وجلاله تملأ كل مكان ، ومع اختلاف الجهة بالسلب او الايجاب يرتفع التناقض ، كما لو قلت : زيد يكتب بالعربية ، ولا يكتب باللاتينية .

من رأى الله ؟

ومما قدمنا يتبين معنا ان سؤال « من رأى الله » هو تماماً كسؤال « من خلق الله » أو من رأى ما لا يرى ! إن الذي يرى هو الكائن الطبيعي ، بل ان نوعاً من هذا الكائن لا يُرى بحال حتى بواسطة المجهر – كالإلكترون وما إليه . فكيف بمن هو فوق الكائنات الطبيعية ! ان الله يرى بالبصيرة لا بالبصر . ومعنى هذا ان العقل يعلم بوجوده . لعلمه بأفعاله وصفاته ، أما معرفته بالذات فمحال حتى على العقول النيرة . لذا قال الإمام علي بن أبي طالب : « تكلموا في خلق الله ، ولا تكلموا في الله . ان التكلم في الله لا يزيد صاحبه إلا تحيراً » . لأنه محاولة للمحال .

إن هذا السؤال : « من رأى الله » يتوجه إلى القائلين بأن الله جسم ، ومن هؤلاء فرقة تنتمي إلى الاسلام ، اشتهر منها أبو عامر القرشي ، نذكر للقراء مثالاً من أقواله للمتعة والتسلية ، قال في تفسير قوله سبحانه : « ليس كمثله شيء » : ان الله لا يمكن أن يقاربه أحد في الألوهية وان هذه الآية كالآية ٣٢ من سورة الأحزاب :

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ﴾

أي أن النساء الأخريات في مكان أدنى من مكانتهن ، ولكن يشبهنهن تماماً في الصورة ، كذلك الله هو مثلي ومثلك في هيئته وصورته .

وذكرني هذا القول بما قرأته في بعض الكتب القديمة أن النملة تظن ان لله شاربين كشاربيها . وبالتالي ، فإن الذي حدا بالانسان إلى مثل هذا التفكير هي نزعته إلى المادة وارتباطه بها في جميع أدوار حياته .

وربما سأل سائل : إننا نعيش في عصر انتصار العلوم ، ومع هذا لم يكتشف عالم واحد في معمله وجود الخالق لا قصداً ولا عفواً . ولو كان لبان .

الجواب :

ان للمختبرات وأدوات المعامل حداً لا تتعداه ، وهو أجزاء الطبيعة ، فالعلم الطبيعي يبحث عن أجزاء الكون ، وارتباط بعضها ببعض ، وما تحويه من المواد ، أما ما يتعدى ذلك إلى ما وراء الكون فبعيد كل البعد عن التجربة والاختبار في المعامل والمصانع . وهل وجد العلماء في مختبراتهم العقل أو النفس أو غريزة من غرائزها ؟ !

أجل ، لقد اكتشفوا في معاملهم معادلات دقيقة وقوانين محكمة وطاقات تفوق الحصر ، ونحن نتساءل : من أوجد هذا التدبير والانسجام ؟ ! وهل تفسر نظرياتهم الحديثة أسرار الكون ؟ ! ومن أين جاءت تلك الطاقات والمواد ؟ ! وكيف تألفت منها المادة على ما بينها من تفاوت ؟ ! ولماذا اختصت الحياة بجزء من الكون دون جزء ؟ ! ومن أعطى هذه الحياة للنبات . والاحساس للحيوان . والعقل للانسان ، مع أن العلماء قد اعترفوا « ان كل شيء في الطبيعة ، مهما بدا مختلفاً عن غيره من الأشياء . مكون من الإلكترونات وتدخل هذه الإلكترونات في تكوين المادة من أشجار ومنازل وانسان . وغيره من الكائنات ، كالزجاج والمعادن . وهي بكاملها متشابهة . وتتحرك حول المركز بحركات متماثلة »[1] وعلى هذا يجب أن تكون جميع الموجودات من نوع واحد . اما جماداً واما نباتاً واما حيواناً واما انساناً فقط . ولكن الله سبحانه أراد تنوعها ، ولا رادّ لمشيئته :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً
أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

يس ٨٣ .

كيف خفي وجود الله وهو أوضح من الشمس ؟!

ربما يقول القائل : إذا كان لله تعالى في كل شيء آية تدل عليه ، وكانت آثاره تملأ الوجود . فكيف جحده الجاحدون ؟ ! وهل وجد أو يوجد واحد ينكر ضوء الشمس . مع ان أدلة وجوده سبحانه أوفر وأظهر ؟ !

---

(١) كتاب «الالكترون وأثره في حياتنا» لجين بندك، ترجمة الدكتور أحمد أبو العباس ص ٩، وكتاب « التكامل في الأسلام » للأستاذ أحمد أمين المفتش بوزارة التربية العراقية ص ٢٠١ .

وأجيب بأن الانسان لا يشعر بالأحوال إذا اتصلت ، فاللذة تزول إذا استمرت ، والألم ينقص إذا اتصل ، وطقطقة الساعة مهما تعلو لا تكاد تسمع بعد أن يأنس بها السمع ، والطحان لا يفيق من جعجعة رحاه ، بل من انقطاعها . وقديماً مل بنو إسرائيل المنّ والسلوى ، وقالوا : « لن نصبر على طعام واحد » كما قيل : ان الراحة في التغيير من حال إلى حال ، وان النعمة لا تعرف إلا بعد فقدها . وهكذا عرفت الشمس بعد غيابها ، ولو دام شروقها لخفيت على كثيرين. قال الإمام الغزالي في تفسير آية :

﴿ اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾

« إذا رأيت خضرة الربيع في ضياء النهار ، فلا تشك انك ترى الألوان ، وربما ظننت انك لا ترى مع الألوان ضياء الشمس ، وتقول: لست أرى مع الخضرة غيرها ، إلا انك عند غروب الشمس تدرك تفرقة ضرورية بين اللون حال وقوع الضوء عليه ، وحال عدم وقوعه ، فلا جرم تعرف ان النور معنى يخالف اللون ، وانه يدرك مع الألوان ، إلا انه لشدة ظهوره واتحاده باللون يختفي ، وقد يكون الظهور سبباً للخفاء .

وهكذا لما تساوت الأشياء كلها على نمط واحد في الشهادة على وجود خالقها ، وان كل شيء يسبح بحمده لا بعض الأشياء ، وفي جميع الأوقات لا في بعضها ، لما تساوت الأشياء – ارتفعت التفرقة ، وخفي الطريق ، لأن الأشياء كثيراً ما تعرف بالأضداد ، فما لا ضد له تتشابه أحواله ، ولا يبعد أن يختفي ، ويكون خفاؤه لشدة ظهوره وجلائه . فسبحان الذي دل على ذاته بذاته ، وتنزه عن مجانسة مخلوقاته ، واختفى عن الخلق لشدة ظهوره . واحتجب عنهم باشراق نوره .

الاله الذي نعبد

رأيت عدداً غير قليل من الشباب ينكرون الخالق ، لاعتقادهم بأنه وهم من الأوهام ، وأسطورة من الأساطير . فهو في أذهانهم كما هو في خيال الانسان البدائي قوة سحرية تُفسر بها مقتضيات الطبيعة . وكما هو في أذهان المتفعين يخدم الاستعمار والاقطاع ، وأرباب الجاه والمال أو في أذهان العجائز يجمع بين العشاق والأحباب ، أو كما هو في الإصحاح الأول من سفر يوحنا اللاهوتي ، يحمل في فمه سيفاً ذا حدين ، وفي يمينه سبعة كواكب[1] . وما إلى ذلك مما ابتدعه خيال الانسان القديم والحديث . قال صاحب كتاب « الله والانسان » صفحة مئة :

« ان الله عند جدي يداوي من الروماتيزم ، ويقوي المفاصل ، وهو عند أمي مأذون يجمع رؤوس بناتها على رؤوس عرسان أغنياء في الحلال ، وهو عند الأطفال يشبه عروسة المولد ، وعند اينشتين معادلة رياضية ، وهو عند عاشق مثلي حب ، وهو عند مشايخ الصوفية يوزع الكساوى والإعانات والمعاشات » .

ونحن رجال الدين نلتقي مع الكاتب في ان هذا الرب الذي تصوره الأطفال وهؤلاء المتصوفون لا وجود له . وأظن ان الكاتب أيضاً يلتقي مع الراشدين من أهل الإيمان لو عرف الله كما عرفوه بأوصافه وأفعاله على حقيقتها ، وعليه تكون المسألة بينه وبينهم مسألة التباس وسوء تفاهم : ظن الكاتب ان الدين من صنع الانسان . وان الإله من وهم الخيال فجحد وفند ، وهو على حق

(١) كتاب « بين الدين والعلم » لأندرو ديكسون وايت ، ترجمة اسماعيل مظهر ص ٦٠ طبعة ١٩٣٠ .

لو كان الأمر كذلك ، ولكن أنى يكون؟ ! وهل يستطيع الانسان ان يفرض تصوراته على الكائنات الموجودة ، بل العكس لو هو الصحيح، لأن الكائن يوجد مستقلاً عن كل احساس وتفكير . وقد تصور كثير من الناس واعتقدوا ان الأرض مسطحة تقوم على قرن الثور ، وان الشمس تدور حول الأرض وما زالوا حتى اليوم يقولون طلعت الشمس ، وغربت الشمس ؛ فهل لعاقل ان يتخذ من هذه الأوهام والأخطاء دليلاً على عدم وجود الأرض والشمس ؛ لأن الناس رسموا لها في أذهانهم أشكالاً كاذبة ؟ ! . .

ولا أدري كيف اعتمد مصطفى محمود وأمثاله لنفي الخالق على تخيلات العجائز والأطفال ، وتجاهلوا أفكار الأقطاب الكبار الذين يعبدون إلهاً لم تبتدعه الخواطر والظنون ، بل تجلى للعقول النيرة، والقلوب الصافية بقدرته ، وانه خلق كل شيء ، وهو لا يفتقر إلى شيء ، ولا يظلم أحداً ، وينهى عن الظلم ويعاقب عليه ، يحكم بالقسط ويأمر به ، ويكافيء أهله بأضعاف ما يستحقون ، يساوي بين الجميع دون تفاضل الا بالتقوى وصالح العمل ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، كريم رحيم لا ييأس أحد من رحمته ، لأنها أوسع من غضبه ونقمته . هذا جزء من صفاته القدسية التي لا تحيط بها الافهام ، وتجمعها كلمة واحدة ، وهي ان كل ما يمكن نسبته إليه تعالى من الحق والخير والجمال فهو ثابت له بالضرورة ، إذ لا فرق بالقياس إلى واجب الوجود بين القوة والفعل .

هذا هو الإله الذي نعبده وندعو إلى عبادته ، وهو يغاير الإله الذي يعبده الانتهازي ويدعونا إلى عبادته . ان إلهنا إله الفضيلة والخيرات ، لا إله الأساطير والخرافات ، ولا حامي الأسطول السادس والشركات ومن كفر بما ندين ونعبد فقد كفر بالحق والخير والجمال .

العقل . . . وعالم ما بعد الموت

حرية الفكر :

كل شيء يقبل التساؤل والنقاش حتى الأديان . هذا حق لا ريب فيه ؛ ولكن لمن يعطى هذا الحق . ؟ يسأل الطفل عن كل ما يراه : ما هذا ؟ من أوجده . ولماذا وجد . . ويفرض الأب السكوت على طفله لا لعجزه عن الجواب . بل لأن عقل السائل لا يتسع لشيء . ومهما عظمت مقدرة الأب فانه لا يستطيع ان يدخل الأرض في البيضة . ومهندس العمار لا يمكنه ان يبني قصراً من حبة الرمل . واجمل ما قيل في ذلك : « انه عجز في المقدور لا في القادر ، وفي الفعل لا في الفاعل » . كذلك نحن الرجال كالأطفال في عقولنا لا ندرك النظريات والحقائق العلمية . وان تقدمنا في السن ما لم نؤهل أنفسنا بالدراسة للتفكير العلمي ؛ فاذا درس الانسان وتعلّم أصبح عالماً في مهنته فقط . أما في غيرها فيبقى على جهله كالطفل لا فرق بينه وبينه إلا أن الكبير يشعر بقصوره عن التفهم دون الصغير . اذ لا يحق للفيلسوف ان ينكر على الفلاح معرفته بالزراعة تماماً كما لا يسوغ للفلاح ان يناقش الفيلسوف في منطقه واستنتاجه . فكل منهما عالم بما يجهله الآخر ، هذا، مع العلم ان ما توصل إليه العالم المتخصص في موضوع دراسته ليس إلا قطرة من بحر .

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً ﴾

الاسراء ٨٦ .

اذن حرية الفكر تعطى لأصحاب الفكر الذين يمتازون بالقدرة على الملاحظة ومعرفة المقاييس ، أما الجاهل فهو كالطفل لا يتسع فكره لادراك الحقيقة ، فكيف يسمح له بأن يكون صاحب الرأي في مجال العلم والتحقيق ؟ ! ان اطلاق العنان للجهال والأطفال معناه الفوضى والانهيار . ان القوة شرط أساسي في الحرية بشتى أنواعها ، فقوة الوعي والنضوج شرط لحرية التفكير ، وقوة المال شرط لحرية الشراء ، وقوة الصحة شرط لحرية العمل والسفر .

ومصطفى محمود يعترف بهذه الحقيقة ، حيث قال في كتابه « الله والانسان » لا تستطيع ان تختار شيئاً إلا إذا كنت تملك ثمنه ، وإذا كنت لا تملك شيئاً تستطيع ان تنتحر » . وقال في مكان آخر : « أستطيع ان أمتنع عن الأكل ، ولكني لو امتنعت عن الأكل فاني أموت ، وبالتالي تموت حريتي معي » وعلى هذا الأساس يصح القول : ليس لانسان ان يناقش ويرفض إلا إذا توفرت له قوة التمييز والمعرفة .

وقد تكلم المؤلف عن « الله والانسان » وحق علي وعلى كل منصف ان يعترف بأنه يملك الخبرة الكافية في كثير من أمراض المجتمع وعلاجها ، وقد ظهرت هذه الخبرة في كلامه عن الحرية ، ومنطق اللص ، ومعنى التقدم ، وأبدى ملاحظات دقيقة ونافعة . أما أسلوبه فعطر وزهر ، وليته أطال الكلام عن الانسان وحصر موضوعه فيه وحده ، وترك الحديث عن « الله » لذوي الاختصاص ، ولو فعل لسلم من تهمة القول بلا دليل ، ومن الجزم في مقام الشك .

الكلب المتدين :

قال المؤلف صفحة ١٠٣ :

« هل رأيت الخوف والذهول في عين الكلب ، وهو يتأمل ورقة طائرة في الهواء . انه لا يرى الهواء . . واراهن انه ينظر إلى الورقة كما ينظر إلى

مخلوق حي . . ويظن ان بها روحاً تحركها ، انه كلب متدين »[1] .

ونحن نفترض الصدق – جدلاً – في هذا القول ، ولا نناقش مدعيه ، لأننا نجهل لغة الكلاب ، وقراءة أفكارها ولكننا نسأل الكاتب : إذا كان الأمر كذلك فماذا يكون ؟ وما هي النتيجة اليقينية لخوف الكلب من الورقة ؟ ! لنفترض ان النتيجة هي تدين الكلب ، وان هذا التدين كان بدافع الخوف من الورقة فهل لازم ذلك ان تدين الفيلسوف الحكيم الذي يؤمن بالله تماماً كتدين الكلب ؟ ! وإذا كانت عقول الفلاسفة وكل من آمن بما وراء الطبيعة « كعقول » الكلاب ، فمن أي نوع هو عقل الكاتب ؟ ! وبماذا نسمي هذا الاستدلال ؟ ! هل نسميه دليل الاستقراء ، اي ان الكاتب تتبع عقول المؤمنين بالله من الناس واحداً واحداً ، ثم تتبع عقول الكلاب « المتدينين » الواحد بعد الآخر ، ولما رآها متشابهة من جميع النواحي بهذه النتيجة الحتمية ؟ !

وأقسم قسم حق وصدق ان أدلة الملحدين كلها من هذا النوع تغرق في بحر من المتناقضات ، وتتبخر مع الهواء بلا مدلول معقول .

الموت :

قال في صفحة ١١٨ :

النفس ظاهرة من ظواهر الجسم ، انها الحرارة المنبعثة من الفرن . وإذا انطفأ الفرن ، وتحول إلى رماد انطفأت وضاعت . . . ان دعوى الخلود الشخصي

(١) أخذ مصطفى محمود هذا القول بحرفه من كتاب مباهج الفلسفة الجزء الثاني ص ١٩٩ ترجمة أحمد الأهواني ، وننقل عبارة هذا الكتاب للمقارنة بينها وبين عبارة مصطفى محمود . قال صاحب مباهج الفلسفة : « ألم تر قط الدهش والخوف في عيني كلب يرى ورقة يدفعها الريح في طريقه ، إنه لا يستطيع أن يرى الريح . واني لأراهن انه تخيل وجود روح في الورقة تجعلها تتحرك ، انه كلب متدين » .

لا يسندها العلم كما ان الدواعي الاجتماعية التي استلزمت افتراض بقائنا بعد الموت قد انتهت . . . ان دوران العجلة في المعمل يستطيع أن يولد حرارة وكهرباء وضوء ومغناطيسية . . . والانسان أيضاً ظاهرة مؤقتة . . وهو يموت كغيره من الظواهر .

يدعي الكاتب انه لا حشر ولا نشر ولا عالم آخر غير عالمنا هذا ، ودليله ان النار إذا انطفأت تحول الحطب إلى رماد ، وان العجلة في مولد الكهرباء إذا توقفت انقطع التيار الكهربائي ، فكذلك الانسان إذا مات ! وهذا الدليل تماماً كالدليل السابق على ان الانسان المؤمن كالكلب المتدين الذي خاف من الورقة ! ولا أدري ما هي العلاقة بين انسان مثقف كمصطفى محمود ، وبين الحطب الذي يستعمله للطبخ والتدفئة ، كما خفي عليّ وجه الشبه بينه وبين العجلة في المعمل الذي يولّد الكهرباء ؟ ! وهل تستطيع الأشجار والحيوانات والمصانع وكل ما في السماء والأرض ما عدا الانسان ان تكتب مقالاً واحداً يشبه مقالاً من كلمات المؤلف في مجلة « روز اليوسف » ؟ ! وهل لها نثر كنثره الساحر الممتع ؟ ! لا يا أستاذ . . . ان الفرق كبير بينك وبين القلم الذي تكتب به .

ومهما يكن ، فان فريقاً من الذين أنكروا اليوم الآخر قد اعتمدوا لانكارهم على ان العقل نوع من المادة ، وانه في جميع وظائفه جزء من الجسم ينمو بنموه ، ويفنى بفنائه ، فهو أشبه شيء بالتنفس والافراز ، فكما انه لا تنفس ولا افراز بلا جسم كذلك لا عقل بدونه .

الجواب :

أولاً : إذا نظرنا إلى أدلة القائلين بأن العقل نوع من المادة نجدها مصادرة على المطلوب ، حيث يتخذون أدلتهم من الدعوى نفسها . كقولك : « زيد هو ابن نزار بدليل ان نزاراً أب لزيد » هذا ، ومع الموافقة والتسليم بأن العقل جسم فان كثيراً من العلماء ذهبوا إلى ان الجسم لا يفنى ، وان التغيرات التي تحدث فيه ان هي الا انتقال وتحول من صورة إلى اخرى بطريقة مطردة .

ثانياً: من المعلوم لدى الجميع ان عمل العقل هو ملاحظة الحوادث ، وتمييز بعضها عن بعض ، والبحث عن عللها وأسبابها ، ثم استنتاج الحقائق ، وكثيراً ما تنتقل من حقيقة عقلية إلى أخرى مثلها ، فتكون العملية ذهنية تأملية صرف بحيث لا يمكن بحال أن ترجعها – من غير جدل ونقاش – إلى المادة ، لأن المادة لا تدرك نفسها بنفسها ، ولا يكذب ما شهدت به . ان العين ترى الشمس جرماً صغيراً ، والعقل تكذبها ، فلو كان مادة كالعين لكذبت المادة نفسها وحكمت على الشيء الواحد بأنه كبير وصغير .

ثالثاً : ان العلماء قارنوا مقارنة دقيقة بين قوى الادراك ووزن المخ ، ومقدار سطحه ، وعدد تلافيفه فلم يجدوا فرقاً بين رأس اينشتين ورأس أي همجي . ولو كان العقل هو المخ لتنوعت الرؤوس بتنوع العقول . ولوجب أن نجد فجوات وآفات في المخ إذا نسي بعد الحفظ ، وان يحصل الالتئام إذا تذكر بعد النسيان . ان الآلة التي تعطيك صوتاً خاصاً أوحركة معينة لا تعطيك غيرها إلا إذا غيرت فيها وبدلت . والظواهر المختلفة المتباينة لا تصدر عن مادة واحدة بشكلها وموضوعها وحقيقتها .

وبتقريب ثان ان للجسم خصائص ، أظهرها اذا قبل شكلاً من الأشكال ،

كالتثليث فلا يقبل غيره من التربيع والتدوير إلا بعد زوال الشكل الأول ، وإذا قبل صورة من نقش أو رسم فلا يقبل أخرى . فإذا رسمت صورة على لوحة أو ورقة فلا يمكنك أن ترسم عليها شيئاً غيرها حتى تمحي الأولى . أما العقل فتتراكم فيه الانطباعات المختلفة والصور المتنوعة من المحسوسات والمعقولات دون أن تمحي الأولى ، بل تبقى كاملة . وتزداد قوة بالثانية ، لأن الانسان يزداد فهماً كلما ازداد علماً . وهذه صفة مضادة لصفات الأجسام التي يلحقها الفتور والكلل كلما تكدست عليها الأثقال .

أما القول بأن العقل لا يوجد من غير مخ فأمر لا أستطيع الجزم به وكل ما أعلمه أن الجسم لا يدرك من غير عقل ، وان العقل اسم مجرد نطلقه على عملية التفكير والنظر ، وانه يغاير المادة ، والمادة تغايره . أما افتقار العقل إلى الجسم فعلمه عند ربي ، كما اني ما زلت أجهل نوع العلاقة بين العقل والمخ ، وهل هي علاقة حالّ ومحل ، أو كعلاقة الحياة بالجسم ، أو كعلاقة الآلة بمديرها . الله أعلم . وإذا عجزنا عن تصور وجود العقل بلا مخ ، وعن نوع العلاقة بينهما فذلك لنقص فينا نحن لا لعدم امكانه في ذاته .

وبالتالي ، فان مصطفى محمود أنكر العالم الآخر ، لأنه عجز عن رسم خريطة أو صورة هندسية له . أما سقراط وأمثاله من أرباب الذكاء والفكر فقد حكموا على الذين جحدوا يوم الحساب والجزاء بما يعملون من خير أو شر ، حكموا عليهم بأنهم أموات في صور متحركة كصور الأفلام ء

وأكتفي الآن بهذه الاشارة تاركاً التفصيل إلى كتاب مستقل يجمع أقوال المؤمنين والملحدين وكل ما يتصل بهذا الموضوع الخطير ، واسم الكتاب «الآخرة والعقل » . وغرضي من هذه الكلمة ان أستدرك بها ما لم أتعرض له

في ردي على الكاتب الذي نشرته في صحف القاهرة وبيروت . ثم أدرجته في كتابي « الاسلام مع الحياة » .

وختاماً أود التنبيه إلى ان كلام مصطفى محمود عن « لغز ما بعد الموت » كلام ناقل لا مؤلف . ومترجم لا واضع . انه لا يملك مما يذكره في كتابه إلا التبسط والتوضيح ، وتحويل الغامض إلى مفهوم . فلقد سلخ جميع الملاحظات التي دوّنها « ول ديورانت » تحت عنوان الموت في كتابه « مباهج الفلسفة » . أنظر ج ٢ ص ٣٠٣ طبعة ١٩٥٦ ترجمة أحمد فؤاد الأهواني ، أما الأفكار التي ذكرها مصطفى محمود في الموضوعات الاخر فقد استوحى الكثير منها من كتاب « فلسفة من الصين » للفيلسوف الصيني الشهير « لين يوتانغ » وبخاصة ما ذكره بعنوان « في كوننا ذوي معدة » ص ٥٦ الترجمة العربية طبعة ١٩٥٣ . وليس في كتاب « الله والانسان » أية اشارة إلى احد الكتابين .

والحق يقال : ان مصطفى محمود أوتي ألمعية فائقة في تفسير الألغاز وحل الطلاسم ، كما أوتي مقدرة بالغة على الاستفادة من كتب الآخرين .

والخلاصة ان العقل لا يحكم ببطلان فكرة ، أو استحالة شيء إلا إذا استلزم القول به اجتماع النقيضين أو اجتماع الضدين كوجود الظلمة والنور معاً ، والقول بوجود الحياة بعد الموت لا يستلزم شيئاً من ذلك .

السبب قال صاحب كتاب « الله والانسان » في صفحة ١٢٤ :

« الباب يصفق لأن الرياح تهب . والرياح تهب لأن هناك تخلخلاً في طبقات الجو . وهناك تخلخل في طبقات الجو ، لاختلاف درجات الحرارة . وقانون السببية الذي يقول بترابط الحوادث في سلسلة من الأسباب هو مجرد ملاحظة علمية مأخوذة من وقائع جزئية . . . ولكنه لا ينطبق على حدث كلي . لأن الكل غاية وسبب في ذاته ، ولا يحتاج إلى سبب من الخارج » .

ان هذه الكلمات ان عبرّت عن شيء فانها تعبر عن مزاج كاتبها وتفكيره ، لا عن الكون وأسبابه . رأى قلمه يتحرك ، لأن يده هي المحرك له ، يده تكتب بالقلم ، لأنه أراد الكتابة ، وأراد الكتابة ، ليقبض راتبه كاملاً من صاحب مجلة « روز اليوسف » ، وأراد الراتب لأنه يريد الحياة وارادة الحياة لا تعلل ولا تحتاج إلى سبب.. كذلك الوجود في مجموعة لا يعلل ولا يحتاج إلى سبب !.. وهذا الاستدلال تماماً كالاستدلال بتدين الكلب على تدين الفلاسفة ! .

أجل ، ان الشجرة تحيا وتنمو وتثمر إذا توفر لها التراب والماء والضوء والهواء ، ولكن من أين جاءت هذه العناصر ؟ وكيف تكونت ؟ وإذا كانت الأرض قطعة من الشمس ، والماء من البخار الذي تصاعد من الأرض بعد أن أخذت تبرد تدريجياً ، فمن أين جاءت هذه الغازات ؟ ! ومن أوجد هذه الملايين من الكواكب والنجوم التي تزخر بها السماء ، والتي قال العلماء ان بعضها يبعد عن الأرض مسافة يقطعها الضوء في ألف مليون سنة . ومعلوم ان سرعة الضوء تبلغ ١٨٦ ألف ميل في الثانية .

ومهما اختلف أساتذة العلم الحديث فانهم يتفقون جميعاً على ان الكون أرحب وأعظم من أن تتصوره العقول [1] وانه لا حقائق مطلقة . بل نسبية . وانه لا يقين أبداً في الطبيعة. أي ان ملاحظة العلماء لظاهرة ما لا تصل إلى مرتبة علم اليقين . وإنما هي نظريات وانعكاسات خاصة تتبدل من حين إلى حين ولا يعتمد عليها كحقيقة ثابتة « فقد اتضح في هذا القرن ان كل المعارف الطبيعية التي حصل عليها العلم ليست إلا معرفة احصائية تختفي وراءها حقيقة الأشياء وحقيقة الدنيا بالذي فيها من علل ومعلولات. وان هذه الدنيا المختفية وراء ما نعلم من ظواهر ليست معروفة . وبناء على نظرية اينشتين غير قابلة لان تعرف ، بل غير قابلة للتصور . وان علم الطبيعة في حالة من الفوضى لا يكاد يعرف أين يقف . والبحث العلمي لا يفضي إلى معرفة طبيعة الأشياء الباطنية [2] » .

وإذا قضى العلماء في مختبراتهم وبين معداتهم أمداً طويلاً يلاحظون ويدققون ومع ذلك لم يصلوا إلى حقيقة مطلقة يقينية لظاهرة واحدة من ظواهر هذا الكون العجيب ، فكيف عرف مصطفى محمود هذا الكون بكامله ؟ والذي يحوي من نوع النجوم فقط ما يعد بالبلايين لا لا بالملايين ؟ وكيف عرف ، وهو يحرر مجلة « روز اليوسف » ان هذا الكون العظيم بأسراره وعجائبه ودقته وجماله لا يحتاج إلى سبب ؟ ! قال افلاطون : علمت اني لا أعلم شيئاً . وقال

---

(١) اقرأ كتاب « الله والعلم الحديث » للأستاذ عبد الرزاق نوفل وكتاب « العلم يدعو إلى الايمان » لكريسي موريسون ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكي ، وكتاب « مع الله في السماء » للدكتور أحمد زكي ، وكتاب « التكامل في الإسلام » للأستاذ أحمد أمين المفتش بوزارة التربية العراقية .

(٢) « مواقف حاسمة في تاريخ العلم » لجيمس ، ترجمة الدكتور أحمد زكي ص ٣٤٢ ؛ وكتاب مباهج الفلسفة لديورانت ج ١ ص ٧٢ .

نيوتن : ان علمي بحقائق الأشياء أقل من علم الأطفال بما في أعماق البحر ، وقال صاحب كتاب « الله والانسان » : لا شيء وراء الطبيعة ! . أبهذه السرعة يا أستاذ تعطي احكاماً على الله ؟ ! وبهذه السهولة تطرح أقوال الألوف من الأنبياء والفلاسفة والعلماء والفقهاء ؟ ! . . إذن لا شيء أسهل وأهون من طرح أقوالك وآرائك . وعلى الرغم من انها لا تحتاج إلى رد فاننا نذكر الملاحظات التالية :

أولاً — قال : ان الجزء يحتاج إلى سبب دون الكل . مع ان الكل هنا عبارة عن المجموعة الواسعة من الكائنات والحوادث ، ولا يمكن أن يوجد هذا الكل بدونها ، وإذا احتاج كل شيء منها إلى سبب ينتج ان الكل الذي يضم جميع الأشياء مفتقر إلى سبب ؛ ان البيت يتألف من الحيطان والسقف ، ومعنى افتقار الحيطان والسقف إلى الباني ان البيت يحتاج إليه — مثلاً — إذا وجد جماعة كل واحد منهم أسود فلا يصح أن نقول هؤلاء من البيض . وهكذا نجد دائماً في منطق هذا الكاتب ما يكفي للرد عليه .

ثانياً — ان التفصيل بين الكل الموجود فعلاً وأجزائه خطأ ظاهر ، لأن قانون السببية عقلي ، والقوانين العقلية لا تقبل التخصيص والاستثناء ، وإنما تقبله القوانين الوضعية والتشريعية — مثلاً — لنا ان نضع قانوناً ينص على ان كل من يخالف السير يعاقب بكذا إلا إذا كان غريباً عن الوطن ، وليس لنا ان نقول بأن المساويين لثالث متساويان إلا إذا كانا من خشب [1] .

ثالثاً — لو كان الكل هو سبب الأسباب للزم ان لا يكون هناك قوة واعية

(١) ذكرت هذا النقض في كتاب « الإسلام مع الحياة » وهو من جملة النقوض التي أوردتها لى الكاتب .

تنشيء وتنظم . إذ لا شيء في الوجود إلا كتل من المادة لا حول لها ولا قوة ، مع ان الكاتب قال في صفحة ٩٦ ما نصه بالحرف الواحد :

« ان حقيقة الحياة غير معروفة . انها حركة دبت في المادة . حركة واعية هادفة حرة . ولعلها مادة . ولعلها أي شيء . ولكنها ليست الجثة على كل حال » .

أليس هذا اعترافاً صريحاً بأن وراء المادة « الجثة » قوة مدركة « واعية » و« هادفة » تعمل لغاية حكيمة و« حرة » مختارة ؟ ! ثم ألا يتنافى هذا مع قوله في صفحة ١١١ : « الله في العقل الحديث معناه الطاقة الخام التي في داخلنا »؟ ! وهكذا ناقض الكاتب نفسه بنفسه .

وقال في صفحة ١٠٠ : كان اسمه في فلسفة شوبنهور الإرادة ، وفي فلسفة نيتشه كان اسمه المطلق ، وفي فلسفة ماركس كان اسمه المادة ، وفي فلسفة بارجسون كان اسمه الطاقة الحية ، وفي الأديان كان اسمه الله ، وكثرت أمامي الأسماء ، وكثرت الأصابع التي تشير ، واتفقت كلها على رغم اختلاف ألوانها على أن هناك شيئاً داخل الخباء يحرك الخيوط .

أجل يا أستاذ ، إن في الخفاء حقيقة محركة لا ينكرها حتى شوبنهور وماركس ونيتشه الذي قال على لسان زرادشت : « إن الله قد مات » . اعترف هؤلاء وغيرهم بأن في الخفاء قوة فاعلة ؛ حيث لم يجدوا وسيلة إلى الإنكار ، وأشاروا إليها بعبارات شتى . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن تلك القوة لا يمكن معرفتها بالكنه والحقيقة ، بل بآثارها وأفعالها .

بقيت حقيقة الماء مجهولة مئات السنين ، وكان فلاسفة الإغريق كسقراط وأفلاطون وأرسطو يعبرون عنه بالجسم البسيط السائل بطبعه ، ثم اكتشف

العلم أنه مركب من الأوكسيجين والهيدروجين . وحديثاً تبين للعلماء أن فيه مواداً أخرى لا تدخل تحت المجهر ، وإذا كانت حقيقة الماء الذي نستعمله في كل شيء وفي كل آن غير معلومة بجميع نواحيها عند العلماء ، فكيف يستطيعون معرفة خالق الكون وحقيقته ؟ ! قال أحد العارفين : أنى لهذا الإنسان أن يحيط بعظمة الكون وخالقه ، وقد كان نطفة ، ولا يزال جاهلاً مسيراً إلا ما كان من إرادته في اتباع طريق الخير وطريق الشر ؟ !

لقد حار العلماء في سر الكون بعد أن أدركوا وتحققوا انه لا يكتشف في المعمل ، ولا في جزء من أجزاء الطبيعة ، وبعد أن أخطأت جميع الفروض والحلول المادية التجأوا الى القول بأن وراء الطبيعة قوة مدركة تخلق وتبدع .

وقد يقال : ان فكرة قانون السببية تعتمد على ان قائلها لم يرَ موجوداً بلا موجد وهذا لا يدل على انه لم يوجد ولن يوجد شيء من غير سبب ، إذ من الجائز أن يتحقق شيء كذلك، ونحن لا نعلم به . وقديماً وقبل اكتشاف الكهرباء قيل : لا توجد نار بلا دخان ، ثم وجدت هذه النار .

والجواب : ان العقل هو الذي يحكم بأن الوجود يحتاج إلى موجد ، ولا للرؤية والاستقراء ، فهو يرفض رفضاً باتاً أن يكون العالم في جملته قد وجد بطريق الصدفة والاتفاق، لأن الصدفة هي الفوضى بعينها، والعالم يسوده النظام والاتساق ، واجتماع النظام والفوضى محال ، وما أدى إلى المحال فهو محال ، يكون حكم العقل بوجود الخالق بديهياً كحكمه بأن الكل أكبر من الجزء .

ثم من الذي خلق في كل صنف زوجين الذكر والأنثى ؟ ولماذا لم تكن جميع الأصناف ذكوراً فقط أو أناثاً فقط ؟ وإذا أجاب مجيب بأن الغاية هي حفظ النوع قلنا له : أحسنت، كذا نقول نحن، وعليه فلا يبقى مكان للصدفة .

وإذا أردت أن أذكر أمثلة من نظام الكون وأسراره ملأت مجلدات . ثم لم أفعل شيئاً . لذا أكتفي هنا بمثال قرأته قريباً في كتاب « أضواء على الأرض والفضاء » لـ« مارغبت أ . هايد » ، ترجمة الأستاذ أسعد نجار صفحة ٣٤ . قال : يوجد في القارة الجنوبية المتجمدة نوع من الطيور يسمى « البانجوين » تضع الأنثى بيضها في أشهر الشتاء المظلمة . حيث تتلبد الثلوج في الأرض والسماء ، تضعه في جيب جلدي في الطرف الأعلى من رجلها ، وتبقى الصغار ، في ذلك الجيب إلى ان تقوى ويشتد مراسها . فهل وجد هذا الجيب صدفة وجزافاً دون ارادة وحكمة ؟! وإذا كان الأمر كذلك فلماذا وجد الجيب في رجل الأنثى ، ولم يوجد في ظهرها ؟ !

وقد يقول القائل : إذا حلّت الحياة في جسم أخذت مجراها الطبيعي وكيّفته حسب حاجاته ومحيطه دافعة به إلى الأمام ، سالكة طريق الترتيب والتنظيم ، أي ان الحياة هي القوة الخالقة والمبدعة في الكائن الحي .

الجواب :

ان الحياة عامل طبيعي ما في ذلك ريب ، ولكنها لا تسير على نظام وترتيب واع بحيث لا تحيد عنه بحال . ولو كانت كذلك لأمكن التنبؤ عن مجراها وسلوكها في كل شيء . واستطاع المرء أن يتنبأ بمقدار ما ستحمله غداً هذه النبتة الصغيرة من الثمر والورق والزهر ، وكم تزن من الخشب . وإلى أي جهة تتجه فروعها . ولكن لم يدّع أحد مثل هذه الدعوى .

قال « ول ديورانت » في كتاب « مباهج الفلسفة » ج١ ص ١١١ : « ان التفسير الميكانيكي أخذ يختفي من الفلسفة . وعلم الحياة . وعلم وظائف الأعضاء . بل وعلم الطبيعة » . ثم نقل أقوالاً لعلماء العصر الحديث تدل بصراحة

على ان هذه النظرية أصبحت في خبر كان . هذا إلى ان الترتيب موجود أيضاً في جميع العناصر غير الحية ، حتى كتلة الحديد تمثل التوازن بين طاقتها الداخلية والطاقات الخارجية . وعليه فالذي أوجد الترتيب والتوازن في الجوامد أوجدها في الكائنات الحية ، وهي القوة المدركة التي تكمن وراء هذه الحياة .

عود على بدء :

ومرة ثانية نعود إلى أوهام المشككين ، فقد يقول قائلهم : ان الاستغراب من رؤية نظام في الطبيعة من غير منظم لا يستند إلى دليل ، بل هو استغراب كفى ما دام وجود الخالق لم يثبت بالعلم .

ونجيب بأن الطريق الطبيعي إلى معرفة الله سبحانه والايمان به هو العقل ، والنظر إلى ملكوت السموات والأرض ، لما قدمنا ، وقد رجعنا إليه فوجدناه لا يتقبل وجود الكون بلا موجد ، وان ما فيه من تنظيم واتساق قد وجد بالصدفة والاتفاق ، ولو وجهنا هذا السؤال إلى المشككين : كيف وجد الكون ؟ ومن أوجده ؟ ولماذا وجد ؟ لارتبكوا ، ولم يهتدوا إلى جواب ، ولو كان لهم شيء من العلم والمنطق لأجابوا بثقة واطمئنان . لو ان قانون الجاذبية ونظرية النسبية وسنن القوة والطاقة وما إلى ذلك يكفي في تفسير النظام وتعليل الكون لاحتجوا به واعتمدوا عليه .

وان قالوا وجد الكون من غير موجد ، قلنا : بل أوجدته العلة الأولى . وان طالبونا بالدليل سألناهم بدورنا عن دليلهم . وان قالوا : ان كلاً منا لا يملك أية حقيقة يعتمد عليها . فعلينا جميعاً ان لا ننفي ولا نثبت ، اجبناهم .

أولاً — ان تفسير الكون بالارادة الإلهية أقرب إلى العقل والضمير من

من فكرة وجوده بلا سبب ، أي ان ألفة العقل تتطلب سبباً لهذا العالم ، وأقرب الأسباب ان يكون من صنع خالق مبدع يوجه كل شيء نحو غايته الحكيمة ، وثمرته المفيدة ، أما وجوده صدفة من غير عقل ولا أخلاق ولا حقوق ولا واجبات فبعيد عن العقل كل البعد . ومن هنا نجد الذين أنكروا على الأنبياء رسالاتهم لم يجحدوا وينكروا لفكرة الألوهية ، بل رأيناهم يعترفون بوجود خالق الكون ، ولكنهم ينكرون ان يكون هؤلاء رسلاً مبعوثين من الله إلى عباده .

ثانياً — لقد تقدم معنا ان التجربة ليست كل المعرفة . وقد اعتقد العلماء بحقائق كثيرة . مع ان العلم يعجز عن اثباتها بالتجربة ، نذكر منها المثال التالي :

قال العلماء : ان كمية القوة الموجودة في الكون ثابتة لا تزيد ولا تنقص ، لأنها إذا لم تكن كذلك أصبحت جميع المقاييس والنظريات باطلة ، حيث لا يمكن ضبطها واستمرارها على نهج واحد ، بل تتغير بين حين وحين تبعاً لزيادة القوة ونقصانها ، مع ان لدينا مقاييس علمية تضبط الحقائق بكل دقة . هذا مع العلم بأن مبدأ بقاء القوة كما هي لا يمكن اثباته بطريق التجربة ، لأن العلماء مجتمعين لا يستطيعون ان يطلعوا على جميع ما في الكون من قوى ، ثم يتأكدوا بأنها ثابتة راسخة مدى الدهور والعصور .

إذن ليس من الضروري لنؤمن بشيء ان نراه رأي العين ، فقد نؤمن بما نراه استنتاجاً واستنباطاً من المعقولات ايماننا بأنفسنا ، كالمثال المذكور . وقد لا نؤمن بما نراه رأي العين احتراساً من خداع العيون . ولو حصرنا أسباب المعرفة بالتجربة فقط لتهدمت معارفنا أو أكثرها من الأساس .

ثالثاً — نعيد هنا هذا التساؤل الذي ذكرناه في كتاب « الاسلام مع الحياة » : هل هناك مخترع واحد وضع تصميمه على أساس نظرية الالحاد بحيث لو وضعه على أساس الايمان بالله لفشل التصميم ، واستحال ان يتوصل الى شيء ؟

الاديان وتطور الوعي

قال صاحب كتاب « الله والانسان » ص ١٠٨ :

« ان الأديان تمر بمرحلة انهيار تشبه المرحلة التي مرت بها ديانة الإغريق . وهناك صفحة ثانية في طريقها لأن تطوى. والسبب هو نفس السبب في الحالين . هو العلم وتطور الوعي وظهور المعارف الجديدة » .

يفترض هذا القائل ان جميع الديانات حتى الاسلام جهل وخرافة تماماً كديانة الإغريق . والنتيجة الحتمية لهذا الافتراض انه كلما تقدمت العلوم تأخرت الأديان . فالمقدمة بديهية . والنتيجة طبيعية ! .

ذكرني هذا القول بمنطق السفسطائيين وأقيستهم الماجنة . . رأى سفسطائي شاباً ، فقال له : هل تحب أن أبرهن لك بالعقل على انك حمار ؟

قال الشاب : تفضل واتحف السمع .

قال السفسطائي للشاب : أنا لست أنت ، أليس كذلك ؟

الشاب : أجل . أنت غيري ، وأنا غيرك .

السفسطائي : وأنا لست حماراً .

الشاب : بكل تأكيد ان الحمار يمشي على أربع ، وأنت تمشي على رجلين .

السفسطائي . وقد امتلأ سروراً بهذا الانتصار : اذن أنت حمار .

ولا فرق بين هذا القياس ، وبين تشبيه الاسلام — مثلاً — بديانة الإغريق . لقد قضى العلم على عقيدة الإغريقيين ، لأنهم عبدوا أعضاء التناسل والنبات والحيوان والانسان . وارتكب بعض آلهتهم . وهو زيوس . أسوأ العيوب وأقبح الجرائم . فقتل أباه وضاجع بنته . وطارد العرائس وغازل البنات .

أما الاسلام فقد حارب الوثنية بشتى ألوانها ، و بكل وسيلة ، ودعا إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق ، وحث على العلم ، وأثنى على الراسخين به . وذم التقليد وشبّه الجهل بظلمات ، بعضها فوق بعض . والجاهل بالميت ، وبالأعمى الأصم الأبكم : وهل يرفع العلو من شأن عدوه ؟ ! وهل يقضي العلم عل دين يقوم على أساس الحق والعدل . ويقول : « يرفع الله الذين أوتوا العلم درجات » ؟ ! وهل ينكر العلم نبوة من قال : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . . أتيتكم بالشريعة السهلة السمحة » ! وهل يحارب العلم ديناً يخرج الناس من العبودية إلى الحرية ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الفقر إلى الغنى ؟ ! ولو صح قول هذا الكاتب بأن العلم إذا تقدم تأخر الدين لكان العلم عدو نفسه . والحقيقة ان العدو الأول للعلم هو الذي يتكلم عن الدين والعلم بلا دين ولا علم . فلقد تحدث الكاتب عن الأديان ، وهو لا يعلم عنها إلا أن ديانة الإغريق قد زالت من الوجود . وإذا زالت هذه من الوجود فلا بد أن تزول جميع الأديان ، ومنها الاسلام ! ألا يشبه قوله هذا قول السفسطائيين الذين يلغون بالتهريج والتضليل ، ويتلهون بالمغالطات والسخافات !

وربما اعتذر معتذر عن الكاتب بأنه لم يتعرض للاسلام ، وانما قال ان الأديان تمر بمرحلة انهيار .

قلت : ان تركه لذكر الاسلام ، وعدم استثنائه من الأديان دليل واضح على انه لا يفرق بين الاسلام وسائر الأديان التي تسير في طريق الزوال والانهيار .

لقد أكثر القرآن من الحث على طلب العلم :

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾

وأوجبه الرسول الأعظم على الذكور والاناث : «العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وأمر بارسال البعثات العلمية : « أطلبوا العلم ولو بالصين » .

وقال الإمام علي بن أبي طالب : « العلم دين يدان به . . واعلم الناس من جمع علوم الناس إلى علمه » .

وهذه دعوة صريحة إلى التعاون الثقافي بين الأمم والشعوب . بل إلى توحيد التربية والتعليم الذي هو أساس التآلف والتكاتف . فرب شعبين أو أخوين تباعدا . لأن أحدهما يتخبط في ظلمات الجهل . والآخر يهتدي بنور العلم . أو لأن كلاً منهما جاهل بما عند الآخر . أو يتجه بمعارفه وجهة معاكسة ، فإذا تعاهدا على التعاون الثقافي تم بينهما التقارب . وأصبح كل منهماقوة لأخيه .

أمر الإسلام اتباعه ان يجمعوا علوم الناس إلى علومهم ليسيروا في طليعة الأمم ، وليزدادوا يقيناً بعقيدتهم . ودعا أهل الأديان الأخرى ان يتدبروا كل حكم من أحكامه . وكل آية من آياته :

﴿ أفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أمْ
عَلَى قُلُوبٍ أقْفَالُهَا ﴾ محمد ٢٥ .

ليتأكدوا انه دين العقل والعدل :

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ
الَّذِي أُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ
الحَقَّ ، وَيَهْدِي إلى صِرَاطِ العَزِيزِ
الحَمِيدِ ﴾ سبأ ٧ .

أجل ، لقد رأى العلماء بعد ان تقدمت معارفهم ان في القرآن أسراراً لا تُفسر إلا بصدق الاسلام وعظمة المبدع وقد تجاوزت الآيات الواردة في وصف

الكون حد الأحصاء [1] نذكر بعضها على سبيل المثال . فقد جاء في الآية ٣٩ يس :

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

وكان العلم إلى عهد قريب يرى ان الشمس ثابتة ، ولما تقدمت العلوم الرياضية وآلات الرصد اكتشف ما نطق به القرآن الكريم منذ أكثر من ١٣ قرناً من انها تجري لمستقر وهذا المستقر نجمة تدعى بالنسر الواقع على شكل لولبي .

وجاء في الآية ٤٩ الذاريات :

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

اكتشف العلم الحديث ان الزوجية متأصلة في كل شيء حتى ان الذرة مركبة من الالكترون والبروتون كهربائية سالبية ، وأخرى موجبة . وان جميع ما في الكون من حيوان ونبات وانسان وجد بصورة زوجية ، فمن أوجد هذا الازدواج . هل الصدفة أو قوة عظيمة حكيمة تسيطر على الكون بمن فيه وما فيه ؟

وجاء في الآية ٤١ فاطر :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾

(١) انظر كتاب « التكامل في الإسلام » للأستاذ أحمد أمين الطبعة الأولى سنة ١٣٧٧ هـ . وكتاب « نظرات في القرآن » للشيخ محمد الغزالي .

تشير الآية الكريمة إلى ان الجاذبية ليست بين الأرض وما عليها فقط ، بل بينها وبين ما عداها من الكواكب أيضاً ، وان كل كوكب يجذب كل كوكب بقوة متناسبة . ولو ان العلماء درسوا القرآن بامعان . وتدبروا ما أشار إليه من حقائق ، ووضعوا تصاميمهم على أساسها لتكشفت لهم هذه الحقائق بوضوح من خلال دراستهم ومختبراتهم ، ولتوفر عليهم الكثير من الوقت والجهد . ولله در ابن عباس حيث قال : « في القرآن معان سوف يفسرها الزمن » وهذه المعاني هي أسرار الكون التي تكشفت للعلماء يوماً بعد يوم .

أين تلقّى محمد (ص) هذه الدروس ! وعمّن أخذ نظرية الجاذبية ، والتزاوج ، وعلم الفلك ، وغير ذلك مما عجز عن ادراكه كبار المخترعين ، وعظماء المكتشفين ! وهل كان لديه آلات ومختبرات . أو ان كل ذلك وجد صدفة ، ونزل الوحي به على قلب العربي الأمي صدفة !

ثم نود أن نوجه إلى مصطفى محمود هذا التساؤل :

لقد حكمت دون تردد بأن الأديان تمر بمرحلة انهيار . وبديهة ان الحكم في قضية ما يستدعي العلم بطرفيها ، فهل أحطت بجميع أسرار الكون وتتبعتها واحداً واحداً ، ثم استقرأت الأديان والآيات القرآنية والأحاديث النبوية بكاملها ، وبعد ان شاهدت وجربت رأيت ان الدين والعلم ضدان لا يجتمعان وعدوان لا يتفقان ! ثم انك أشدت بفضل العلم وعظمته . لكنك في نفس الوقت شننت الحملات على دين يدعم العلم ، ويؤآزره العقل ، ويحث اتباعه والناس أجمعين على البحث والنظر والتأمل والتفكير . فكيف جمعت بين الضدين ! وعلى أي شيء يدل هذا التضارب والتناقض ! هل يدل على

« العلم وتطور الوعي » . وإذا كان الدين جهلاً وخرافة يتأخر كلما تقدم العلم ، فبماذا تفسر — يا استاذ — تقدم العرب بعد الاسلام وتحولهم من جاهلية جهلاء إلى حضارة أدهشت العالم ، وقلبته رأساً على عقب ، مما جعلتهم يدعون بجدارة آباء العلم الحديث ، كما قال نهرو رئيس وزراء الهند !

ان الاسلام لن يزول ولن ينهار ، لأنه حق :

﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ﴾

ولأنه واقع :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾

أما الذي ينهار إلى غير رجعة فهو الذي يقول بغير علم . ويعتقد قبل ان يتصور . . ان صح التعبير .

وبالتالي ، فمهما تقدم العلم وتطور الوعي فان الاسلام أرحب وأوسع من أن يضيق به . ان عظمة الاسلام لا تظهر إلا بالعلم . ومن هنا لم ينكر هذه العظمة إلا جاهل أو مكابر .

إله ايزنهاور

بعد ان تكلم صاحب كتاب « الله والانسان » عن الإله بوجه عام عقد فصلاً خاصاً في آخر كتابه للكلام عن إله ايزنهاور، وإذا أخفق في آرائه هناك فقد أصاب كبد الحقيقة هنا .. ولو تحدث مصطفى محمود في كتابه عن الإنسان وإله ايزنهاور فقط لأحرز الثقة والاعجاب من جميع الفئات . ولرأيت فيه المنطق والذكاء ، والتفكير الصحيح ، والصدق الذي ينبع من معين القلب . والابداع والفن في ابراز الحقائق .

وهل تستطيع أن تملك نفسك ، وتمنعها عن الضحك والبكاء في آن واحد إذا قرأت كلماته التالية في صفحة ١٢٩ :

« لم ينزل القرآن في نيويورك . ولا الانجيل في هوليوود . ولا التوراة في كابري . وانما نزلت كلها في بلادنا ، فلم هذا القول من جون بول والعم سام على تراثنا الديني ؟ ان في الأمر سراً » .

أجل يا أستاذ . وأي سر انه عميق جداً عمق ينابيع البترول . وخطير كشركات شل وفاكوم . ونحن نعلم جيداً ان المستعمرين وأعوانهم لا يهتمون بالدين ولا بالثقافة ولا بالقومية العربية ولا بالقيم الأخلاقية إلا إذا خافوا على مصالحهم . فعندها يصرخون بحرارة « الدين في خطر »[1] .

(١) أوضح هذه الفكرة مفصلا في كتاب مستقل الإمام المرحوم الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ، أسماه « المثل العليا في الإسلام لا في بحمدون » . طبع مرات عدة في سنة واحدة . وأود لو يقرأه كل شرقي بخاصة الشباب . ليعلموا ان في المسلمين علماء حقيقيين يجهرون بالحق وبه يعملون . ولا يخدمون الاستعمار والاقطاع وأصحاب الجاه والمال وإن بذلت لهم الملايين.

وقال :

« ولنفس السبب تطبع السفارات ألوف المنشورات تمزج فيها ارادة الله بارادة ايدن ومولييه وايزنهاور ، وتجعل من الاستعمار وصياً وقيّماً على شؤون المساجد والكنائس والبطرخانات . انها تدخل علينا من الباب الوحيد الذي لا يقف عليه حراس . . باب الله » .

كلا ، يا أستاذ ، ان على باب الله صفوة من الحراس الهداة الذين نصحوا الله ورسله وكتبه وهم لا يستقبلون إلا المطهرين من الدنس . ان الاستعمار يدخل من باب المزيفين الذين ينتظرون أوامر العملاء للكلام باسم الدين ، وهم أعدى أعدائه . انه يدخل من باب الذين لا يحرصون ولا يغارون على الدين إلا حين يقول ايزنهاور : « ان الكونغرس مجتمع لحماية الشرق من الالحاد » .

في هذا الوقت بالذات ينادون : « وادينناه ! أصبح الدين في خطر » .

كلا ، ان الدين في حصن حصين :

﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾

ان الخطر يحيط بالمرتزقة من أتباع ايزنهاور الذين يحاربون الالحاد السياسي ، أما الالحاد الذي جاءنا من الأجانب ، وطغى طوفانه في المدارس والمسارح وفي كل مكان فهو عندهم ايمان وروح وريحان . قال مصطفى محمود :

« انهم يستعملون كلمة «الله» في السياسة الدولية كما يستعملون الجوكر – البعبع – ان الدين علاقة بين المواطن وربه ، وكل متدين حر في تصور هذه

العلاقة وفهمها كما يجب . انها مسألة من صميم مسائله الشخصية ولا علاقة لها بالسياسة ، ولا بالقومية العربية ، ولا بالوحدة العربية ، وكل من يخرج بهذه العلاقة عن بساطتها الشخصية إلى خصم الأحداث العالمية ، ويستخدمها ليخدع بها الجماهير ويمزجها بالسم والديناميت ويبرر بها مشاريعه مشعوذ ونصاب » . أي والله . انه مشعوذ ونصاب وكذاب كل من يتكلم باسم الدين لمآرب شخصية ويبيعه سلاحاً للمستغلين والسفاحين .

ثم قال :

« ان الذي يدافع عنه ايزنهاور ليس هو إله الاسلام ، ولا إله المسيحية وانما هو عضو في مجلس ادارة شركة الزيت العراقية . اننا نعلن سقوط الرب الوثني الذي يدعو له ايزنهاور » .

سيسقط لا محالة . هذا الرب الذي يعبده ايزنهاور وأعوانه الذين استعان بهم على ظلمه وطغيانه ، واتخذ منهم دعاة ضد الشعوب يحمون له البترول باسم التوراة والقرآن والإنجيل ، ويبقى ويدوم إله الجميع الذي « يؤمن الخائفين. وينجي الصالحين . ويرفع المستضعفين . ويضع المستكبرين . ويقصم الجبارين ويبيد الظالمين . ويهلك ملوكاً ويستخلف آخرين »[1] .

• • •

وبالتالي. فإن من يرمي خصومه السياسيين بالالحاد ويتهمهم بالمروق من الدين بدافع السياسة والتجارة . ثم يسكت ويرضى عن الملحدين إذا كانوا حلفاءه على الباطل ، وانصاره على العدوان . ان هذا أسوأ حالاً من الملحد .

(١) من دعاء يقرأه الشيعة في كل ليلة من أيام شهر رمضان المبارك ويسمونه دعاء الافتتاح و لعله إشارة إلى ما يعتقدونه من أن الأرض ستمتلىء قسطاً وعدلا بعد ما ملئت ظلماً وجوراً (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) .

لأنه مراء يتاجر بقداسة الدين ويتستر باسمه كذباً ونفاقاً . ان المؤمن حقاً يحارب من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ولو كان مقيماً في مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، لأنه يكره الإلحاد من حيث هو الحاد بقطع النظر عن الأشخاص والأفراد ، ويسالم من يؤمن بالله واليوم الآخر . ولو سكن في الحي اللاتيني بباريس . أما الذين يحاربون إلحاد الشرق ، ويركعون لكفر واشنطن ولندن فأولئك عليهم ما يستحقون .

لقد دلتنا التجارب ان ادعاء القومية والوطنية والاشتراكية والديموقراطية وما اليها ان هي إلا تضليل وتمويه يختفي وراءها الحكام والزعماء لغايات شخصية . وأغراض دنيوية ، ولذا لم نعد نثق بأحد ما لم نكن على يقين من دينه وإيمانه بالله والسير على نهجه القويم. وبقدر ما في نفسه من التقوى والخوف من الله بخدمة عبيده وما في أعماله من الخير والاحسان لوجه الله يكون حظه عندنا من الاحترام والتقدير .

وليت شعري ماذا يبتغي هؤلاء الناس الذين ينادون بالقومية والاشتراكية ؟ هل يريدون محاربة الاستعمار والفوضى والفساد والاقطاع والاستعباد أو يريدون أن ينهجوا بالعرب ثقافياً واقتصادياً .

فإذا أرادوا شيئاً من هذا قلنا لهم : ان العرب كانوا أذلاء مستعبدين فأصبحوا سادة اعزاء بمحمد والاسلام وبالعروبة والاعراب وكانوا امة امية فاصبحوا اساتذة العلوم بفضل القرآن الكريم وسنة الرسول العظيم . وكانوا فقراء بائسين فصاروا بين عشية وضحاها وفي أيديهم مصادر بالله واتباعهم رسول الله الذي هداهم إلى الجد والعمل .

لقد كان العرب في جاهلية جهلاء . فارتفعوا إلى أسمى مكان باسم الله واسم محمد بن عبد الله . وصدق الله العظيم :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

قال الشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف السابق بمصر في كتاب « عروبة ودين » .

« ان أمة العرب قد عزت ومجدت بالدين . فلا سبيل إلى غير الدين ان أرادت البعث والحياة . . ان الأمة العربية لا تقوم إلا بما قام به أولها . وهو الايمان بالحق وبالحرية والعزة والكرامة . والحق ان يستقيم الناس على طريق الدين. ويلتزموا حدوده .. والحرية أن تتحرر العقول من الأوهام والخرافات وأن تتصل اتصالاً مباشراً بالمعرفة . . ذلك هو الدين الحق . وتلك المعاني التي تلقّاها العرب أول ما تلقوا من هدي السماء . فكانوا خير أمة أخرجت للناس » .

لذلك نحن لا نثق بزعيم أو حاكم أو عالم إلا على أساس الدين والتقوى. ونعني بالدين الايمان بالله مع البسالة والجرأة والتضحية والاستهانة بالموت في سبيل الحق ومن سكت عن الحق خوفاً من الناس لا من الله فقد دعانا إلى الشك في دينه وعدم احترامه .

عقائد المفكرين

ان فكرة خالق الكون يقترن تاريخها بتاريخ الانسان . فمنذ وجود الانسان البدائي حتى هذا اليوم وفكرة مدبر الكون حسب مشيئته وارادته تسيطر على العقول والقلوب بسلطان لا يقهر ولا يغلب حتى ظن كثير من الفلاسفة وعلماء النفس ان هذه الفكرة جبلّة متأصلة في الانسان ، وقد ظهر سلطانها في كل عصر بمظاهر شتى من الطقوس والضحايا والقرابين ، ومن بناء المعابدوالهياكل ، وما إلى ذلك من دلائل الاحترام والاجلال .

ولو أراد الانسان ان يدرس تاريخ الأديان والأدوار التي مرت بها لظهرت أمامه صور شتى تختلف في المظهر ، وتتفق على وجود خالق قدير . وفي نفس الوقت يجد الأدلة على وجود الخالق مختلفة في الشكل والأسلوب ، ومتفقة في الهدف والقصد ؛ فلعلماء الطبيعة أدلة غير أدلة الأدباء ، وأدلة علماء النفس والاجتماع غير أدلة الأطباء ، بل أدلة الفلاسفة تختلف عن أدلة المتكلمين ولكنها تتوافق الى نتيجة يجمع عليها الكل وان دل هذا على شيء فانما يدل على صدق ما قاله الشاعر :

عجبت للعبد كيف يعصي الإ   له ويجحد آلاءه الجاحد
وفي كل شيء له آيـــة   تدل على انه واحـــد

وقد أخذ الشاعر هذا المعنى من قول الإمام علي : « ما رأيت شيئاً الا رأيت الله معه » وترجع هذه الحقيقة في أصلها إلى القرآن الكريم :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (1) .

ومن الخير والفائدة أن نشير إلى كتاب للأستاذ العقاد اسمه « عقائد المفكرين في القرن العشرين » جمع فيه عدداً غير قليل من مفكري هذا العصر الذين يعتقدون بدافع من تفكيرهم وتجاربهم الخاصة بوجود قوة وراء الكون تديره بحكمة ونظام . ولم يتأثر هؤلاء المفكرون ببيئة أو مدرسة أو كتاب يمت إلى الدين بسبب . وفيهم العلماء والأدباء والفلاسفة والأخلاقيون .

الدكتور الكسس كاريل :

فمن العلماء الدكتور الكسس كاريل ، ولد بفرنسا سنة ١٨٧٣ ومات فيها سنة ١٩٤٤ ، وهو طبيب متخصص في بحوث الخلية ونقل الدم والأعضاء . اشتغل بالطب علماً وجراحة واشرافاً على معاهد العلاج . وصاحب جائزة نوبل ١٩١٢ ، ومدير معهد الدراسات الانسانية بفرنسا .

(١) تسبيح كل شيء بحسبه فالعاقل يسبح الله بقلبه ولسانه ، وغير العاقل يسبح بدلالة الحال على وجود الله وتوحيده ، إذ كل موجود سوى الله مفتقر إليه تعالى . والافتقار إليه دليل قائم على تعظيمه وتقديسه . قال الرازي في تفسيره : إن التسبيح باللسان لا يكون إلا مع العلم والفهم والنطق ، وكل ذلك محال في الجماد ، فلم يبق إلا التسبيح بلسان الحال .

يؤمن بأن الله لازم للانسان لزوم الماء والاوكسيجين . لأنه لاحظ من تجاربه بأن كل خلية في الجسم تهتدي بالعقل الأبدي إلى موضعها من البنية المرسومة . وتعمل في كل من خطواتها كأنها ترى تكوين الجسم كله ماثلاً أمامها .

الصلاة :

ووضع هذا العالم رسالة في الصلاة قال فيها :

« إن الصلاة تسام إلى أوج اللامادية من الدنيا . وهي على أكثر ما تكون شكاية أو ابتهال أو صرخة أو استغاثة . وهي في بعض الأحايين تأمل خالص في أصول الوجود ومصادره ويصلح ان يقال: انها ارتفاع إلى المقام الإلهي وعنوان للتوجه بالحب والعبادة إلى الذي منه صدرت الأعجوبة التي هي الحياة . وبالصلاة يسمو الانسان إلى الله ويدخل الله سريرته وهي ضرورة لا غنى عنها لنمو الانسان في أرفع حالاته » .

فرانز ويرفل :

من الأدباء وكتاب القصة العالميين الأديب النمسوي فرانز ويرفل توفي سنة ١٩٤٥ . قال في كتاب « بين السماء والأرض » .

« ان تفسير الكون بالقياس والتعقيب هو أنجع أحابيل الشيطان . لأن حجته التي تقوم عليها جميع المذاهب الوضعية المادية هي ان الشيء يساوي نفسه . والأمة وليدة الأقليم الجغرافي والفرد محكوم بظروفه . ومطالب الشعب تتوقف على حاجاته الاقتصادية . والفيل له جلد فيل » لأنه ضروري

له . . وقد نجح الشيطان في ترويغ الأصول الأولى من المسألة كلها . وهي أصول الخلق والكينونة ووجود الله . . ان الله أعظم جداً من ان يحتوي كلام الانسان برهاناً على وجوده » .

الدين بعد مليون سنة :

ما زلنا نسمع ونقرأ ان مستقبل الدين في خطر . والذين يقولون هذا القول منهم المؤمنون الذين يغارون على الدين حقاً . ومنهم الذين يعبرون عن أمنيتهم وعدائهم للدين . وتأتي كلمة العلم لترد على هؤلاء . وتبشر أولئك .

نقل الأستاذ العقاد ان لداروين الشهير حفيداً . اسمه السير شاول داروين . قد بلغ من العلم مبلغ الرياسة والأستذة ألف كتاباً اسمه « بعد مليون سنة » قال فيه :

« ان الانسان سيحتفظ بالعقيدة الدينية في المليون السنة المقبلة قياساً على المعهود من تاريخه القديم والحديث ، ولهذا كانت العقائد على جانب عظيم من الأهمية بالنظر إلى المستقبل لأن العقيدة تبعث الأمل فعلاً في دوامها بعد صاحبها . وفي سيطرة الإنسان على مصيره بفضلها » .

وبالتالي : فالى كتاب « عقائد المفكرين في القرن العشرين » يا شباب هذا العصر . لتتبينوا ان موقف العلماء والأدباء والفلاسفة في عصر الذرة من الدين ، موقف التسليم والاذعان .

شبهات الملحدين
والإجابة عنها

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة على محمد وآله الأكرمين

مع أخ كريم :

قال لي أخ فاضل وكريم من السادة الأشراف آل بحر العلوم : نحن وانت في سباق مع الفارق في الميدان . . انت تكتب ونحن نقرأ . . وكان فرحي بقراءته أشد من غبطتي بما يدره عليّ حق التأليف ؛ لأنه إلى زوال قلّ أو كثر . ولكن هاج بي الطمع في العقبى .

وأنا بدوري سلخت أعواماً مديدة في القراءة . . أنقب عن شوارد الأفكار ونوادرها . أدرّب بها ذهني على النمو والتفكير . وأرمم ما فيه من ثغرات وفجوات قبل أن أمسك بالقلم . . وحتى الآن ، لأن ترميم البيت أولاً ، ثم السكنى . . وإذا اهتديت إلى حكمة استضيء بنورها أصابني ما يشبه مس الكهرباء . وأتذكر قول من قال حين يطالع ويذاكر : « أين السلاطين مما نحن فيه ! . . أما لو فطنوا لنا لقاتلونا عليه بالسيوف »[1] . وقال غيره: هذي هي اللذة من غير إثم .

---

(١) قرأت هذا القول منسوباً إلى أبي حنيفة في الحكمة الخالدة لابن مسكويه .

يقرأ ويصفق :

ومن جملة ما قرأت في هذا الباب : أن رجلاً كان يقرأ . وهو مستلق في فراشه . وفجأة وبلا شعور قفز وأخذ يهتف ويصفق طرباً ! . . وهكذا تفعل البذرة الصالحة في الأرض الطيبة . أو كما قال الامام أمير المؤمنين (ع) حين صعق همام عند سماعه الخطبة الشهيرة الخطيرة : « أهكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها » واذن الفكرة الانسانية ليست بشيء إذا لم تصادف قلباً راغباً ومزاجاً فارناً . . وقال شاعر من الصين : « يحس المفكر الذي تمضي عليه ثلاثة أيام دون أن يقرأ شيئاً ان حديثه قد فقد نكهته . كما يرى أن وجهه أصبح كريهاً إذا نظر إليه في المرآة » . . وليس من شك أن الوجه القبيح يستره العلم وسحر الحديث . والوجه الجميل تشوهه الجهالة والحماقة . . وشاع في أوساط النجف عن عالم ذي شأن أنه قال : « إذا تركت المطالعة والمذاكرة بضعة أيام شعرت بأني عدت إلى حيث ابتدأت » .

الأخطاء المطبعية :

لاحظت أكثر من مرة أن صاحب المزاج القارىء يتجاهل الأخطاء المطبعية ويتغافل عن رداءة الطبع والإخراج ، لأنه منصرف بكله ومن أعماقه إلى المضمون والمحتوى لا إلى الشكل والصورة . كما هو الشأن فيمن يبحث عن العبقات لا عن اللعنات . . وصدق الله العلي العظيم :

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً ﴾ ٨٤ الاسراء .

وقال حكيم خبير : « من اشتغل بتفقد اللحن نسي الحجة » .

أعلام وعمائم :

ورحم الله علماءنا القدامى . عاشوا – على فقرهم وحاجتهم – مع كتب الورق الأصفر المطبوع بالحجر بلا فواصل ودلائل ورؤوس اسطر وما شبه . واقبلوا عليها بحب وتقدير . ودرسوها بفهم وعمق ، وناقشوها بوعي وروية . . يسهرون معها حتى الصباح على مصباح شاحب تحوم عليه وعليهم البعوض اللاسعة . وتدب من حولهم العقارب اللادغة . وما زادهم ذلك إلا ظمأً للعلم ، ونشاطاً في طلبه حتى بلغوا منه قمة القمم ؛ وكان منهم صاحب الكفاية والرسائل . والمستمسك والجواهر . ومن قبلهم الشيخان : المفيد والطوسي . والشهيدان : الجزيني والجبعي ، والمحققان: الحلي والعاملي . والعلامتان : الحلي والمجلسي . . إلى ما لا يبلغه عد وحصر .

ولا أدري : هل البؤس يحث على الحركة . والحاجة على البحث والتفكير ؟ واياً كان السبب فان العديد من العلماء والفلاسفة والأدباء – قد حطموا الحواجز على صخرة الصبر ، وانتصروا على الآلام ، وابدعوا في كل ميدان . . ورأيت : وانا طالب في النجف . اساتذة وتلاميذ قد عضهم الجوع ، وانهكتهم الشدة ، وبالرغم من هذا كانوا عند النقاش كالسيل الدافق . . ثم عشت رأيت نوعاً من الطلاب لا يهتم واحدهم بدرس وتحصيل ، وشغله الشاغل – وهو طالب – أن يبني داراً فارهة بالأدوات والمكيفات . . والسجاد والحجرات وإذا فتح كتاباً شعر بالاختناق ! . . لا يا شيخ . . أما العلم وحده لا شريك له ، وانت حبيس في طلبه ، واما الدنيا وكفى .

شطحات فقهية :

حين انتهيت من تأليف الاسلام بنظرة عصرية – شرعت بكتاب شطحات فقهية ، وسودت منه صفحات . وعزمت على المضي فيه حتى النهاية . كما هو شأني في سائر ما كتبت ونشرت . . ودون أية سابقة اصبحت ذات يوم . وقد تملكني الخوف والهلع من هذه الفلتات التي تبرز المساويء . وتخفي المحاسن ، وقلت في نفسي : يا سبحان الله ! . . وأينا المعصوم ؟ وكيف أجمع بين هذا وكتاب « مع علماء النجف » ؟ . . وهل أنا « برأ مما أرمي به سواي ! . . واذن فأنا مغرور . أو مخدوع من نفسي حين آثرت هذه الكبوات ، وان كنت فيها من الصادقين .

ورغم ذلك استخرت الله بكتابه وإذا بآية غاضبة لاهبة تهددني بالاحباط والانحطاط . . . يا ساتر يا عظيم . . « ا هذا الصاروخ الجهنمي بعد العمل الطويل ، والجهد الجهيد ؟ . فعدلت عن القصد . وشكرت الله على لطفه وهدايته . وسألته خير القضاء في العاجلة والآجلة :

﴿ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ ١٠٧ يونس .

وغريبة الغرائب أن كبيراً من علماء النجف كان قد اطلع على بضع مسائل من الشطحات ، فقال لي بهدوء الواثق ، وهو يقرأها : « ستعدل عنها لا محالة » فتعجبت وقلت في نفسي : ماذا أراد بهذا ؟ ومن اين جاءه العلم ؟ وأنا محب لعلمي ، وأعتزم الجد فيه حتى الحرف الأخير ، كما سبقت الاشارة . -

هذا الكتاب :

تركت الشطحات إلى هذا الكتاب ، وكان اسمه في بادئ الأمر « الدين والفطرة » ثم تبين لي أن أكثر فصوله أو الكثير منها تلتقي عند الرد على الملحدين ، والتصدي لأقوالهم ونقاشها بمنطق هادئ وصارم ، فتركت الاسم الأول إلى اسم « شبهات الملحدين والاجابة عنها » ومهما يكن فليست العبرة بالاسم . بل بما يقع عليه . . . ولا بالحجم وكثرة الأوراق ، بل بالعلم وعدد القراء .

وتسأل : لقد كتبت كثيراً في هذا الموضوع ، وافردت لكل أصل من أصول العقيدة كتاباً خاصاً به ، فهل في كتابك هذا من جديد ؟ .

الجواب :

١ — ان شبهة الإلحاد تقوم عند اصحابها على العديد من الأدلة ، ناقشت بعضها من قبل ، ثم لاحظت أنهم يركزون كثيراً من على ان العلم الحديث ينافر الايمان بالله ويناقضه متشبثين بنتائج اثبتها علم الطبيعة . وعلم الأحياء وعلم النفس ، كما يزعمون ، وهذا الكتاب يفند هذا الزعم والوهم بعد أن يعرض اقوال الزاعمين بأوضح بيان .

٢ — ان الملحدين لا يكفون عن التكرار والمعاودة « وان عدتم عدنا » .

٣ — لا بد لكل آمر بمعروف ، وداع لأية فكرة — من التوكيد والتكرار ، لأنهما من اقوى العوامل وأجداها لتكوين الآراء وانتشارها . . ومن هنا كرر القرآن الكريم آيات التدليل والترغيب والتحذير بشتى الأساليب ، ومن قبل قال المشركون لنبيهم :

﴿ يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا ﴾ ٣٢ هود .

ولا أعرف عصراً انتشر فيه الالحاد . وكثرت وسائله وتنوعت كهذا العصر . . وعلينا ان نبذل كل جهد مخلص . ونسلك كل طريق من شأنه أن يقنع أو يُفحم . . هذا هو الأهم والأساس في هذا الزمن العصيب الغريب . . اما الاحتفال بمولد النبي (ص) واهل بيته . واحياء ذكرى ما كان وجرى فهو فرع عن الايمان بالله والتصديق بوجوده حيث لا نقش بلا عرش ، ولا عبادة بلا معبود .

ولكن الذين يمكرون في الخفاء يتجاهلون هذه الحقيقة . ويحيلون عنها إلى مجرد المظاهر والشعائر . وألف ملحد وملحد يسخر منهم ومنها . . ولو كان الدين من همهم واهتمامهم لجاهدوا في هذا الميدان أولاً وقبل كل شيء . لأنه اصل الاصول .

وهو سبحانه من وراء القصد . والمسئول أن يوفقنا جميعاً لما هو خير وأبقى . ويستعملنا بما هو أزكى وأرضى . والصلاة على محمد وآله الابرار .

سارتر وفكرة الالحاد

وجّه بعض المؤمنين سؤالاً لعالم من اساتذة الحوزة العلمية وكبارها في النجف الأشرف ، يقول : ما رأيكم في دعوة الفيلسوف الفرنسي والاديب الشهير «سارتر» التي تحدى بها المؤمنين في شرق الأرض وغربها بأن يختاروا منهم قديراً يرسلونه إليه للجدال في الله . وعليه نفقاته في ذهابه وايابه . . مع العلم بأن المؤمنين قد تجاهلوا هذا التحدي الصارخ وسكتوا عنه ! . . فهل يجوز السكوت في مثل هذه الحال ؟ .

واجاب المسئول الكبير : لو ان المؤمنين دعوا « سارتر » إلى نقاش الحساب عن كفره والحاده ، وتعهدوا بنفقاته ذهاباً واياباً ، وتجاهل هو بدوره واحجم — فهل يعني هذا انه افحم واستسلم ، وأن الجاحدين من امثاله يتوبون ، على فرض أحجامه ، ويؤبون إلى الرشد لا محالة ؟ . (انتهى السؤال والجواب) .

وغير بعيد ان يكون هذا التحدي مفتعلاً على لسان سارتر . . لمجرد الاعلام والدعاية إلى الالحاد ، عسى ان يخدع به ساذج ابله .. ولا انزه « سارتر » عن الكفر والالحاد ، كيف ؟ وهو الرائد الأول في هذا العصر للوجودية التي لا تتجاوب مع دين من الاديان السماوية ، ولا تلتمس عذراً علمياً لمؤمن في ايمانه بالله . . ولكني استبعد عنه هذا الغرور والحمق الذي يسيء إلى سمعته ومكانته !.. واية مصلحة لسارتر في تحديه شعور أهل الأرض أو جلهم ، فيصرخ في وجوههم بوقاحة وصلافة : كلكم على خطأ وضلال ، وانا وحدي على الحق المبين ، وفيهم الأدمغة التي تزخر بالعلم والعمق وترد له الصاع صاعين ؟

هذا ، إلى ان فكرة الالحاد كانت منذ القديم ولم يبتدعها سارتر من موهبته وعبقريته . . فمن قبل ومن بعد أيضاً لاكها الجاهل والاحمق . ولا فضل لسارتر في طرحها الآن والدفاع عنها . . وإذا كان لديه شيء جديد حول الالحاد لا يعرفه احد سواه . ويريد ان يعلنه على الناس — فلماذا يتحمل النفقات ويبذل الاموال ما دام قادراً في كل حين ان يعبر عن رأيه في كتبه أو مجلته أو في أية صحيفة يختار . كما هو شأنه وديدنه في سائر الموضوعات ؟

وان اراد سارتر من دعوته وتضحيته بالمال ان يطلع على ادلة المؤمنين ويحيط بها علماً — فتلك حجتهم بين يديه ويدي كل طالب وراغب . يجدها في كتاب الله . واحاديث النبي واهل بيته وكلام الصحابة والتابعين . واقوال الفلاسفة والعلماء . وآثار أهل الفن والادب من ابناء هذا العصر وكل عصر وفيهم من يملك ارقى ما بلغته الانسانية من معارف في كل ميدان حتى في ألعلوم الطبيعية . وادلتهم في غاية البساطة والوضوح .. فليناقشها سارتر بما حب . . ومرة ثانية لماذا تحمل النفقات وبذل الأموال ؟

وكفى بالله هادياً ونصيراً لعباده المؤمنين ، وحكماً بينهم وبين الجاحد الذين تحداهم سبحانه بقوله :

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ١١٢ البقرة .

تحداهم جل وعلا بعد ان دعاهم إلى الايمان . وارشدهم إلى البرهان وقال لهم فيما قال . علت كلمته : هذا كتاب الوجود فتعقلوه . وذا قرآني فتدبروه . وذاك رسولي إليكم فانظروا في سيرته ورسالته بامعان لعلكم تهتدون .

وبعد . فان فكرة الالحاد ليست بالمشكلة التي ترتفع إلى مستوى النقاش الجاد والاسهاب في الجدال بين العارفين المنصفين ، لأنها لا تقوم على اساس

من الواقع ، ولا الشواهد على وجود الله عزيزة المنال وفوق العقول والافهام كيف وفي كل شيء له آية؟ كما قال الشاعر الملهم .. وانما الألحاد عقدة نفسية لدى بعض المتفلسفين والمتحذلقين ، نشأت من كلمة الدين بالذات التي توحي بنوع من الفرضية القبلية . كما يتوهمون ، ففروا منها إلى « موديل » الانكار والتحرر من كل قيد وقيمة ! . . ويمثلهم جميعاً ما قاله واحد منهم « من المستحيل ان يوجد نظام بمحض الاتفاق والصدفة ، بل لا بد انه وجد نتيجة لارادة مدبرة ، ولكن ذهني لم يكن على استعداد لتقبل هذه الفكرة » . (كتاب الاسلام يتحدى لوحيد الدين خان) .

وعلى اية حال ، فان وجودية سارتر تعتبر كل فرد من الانسان قلعة في نفسها ، وتضع حريته فوق أي اعتبار آخر ، ويمتاز عن غيره من الكائنات بالاختيار ، وهو يؤكد ذاته ووجوده من خلال المواقف التي يختارها وينخرط فيها . . ولا وجود اطلاقاً قبل الانسان او بعده لاية قوة أو مبدأ أو شريعة خارجة عنه يسوغ لها ان تفرض نفسها عليه .

هذا تلخيص سريع لفلسفة سارتر أو وجوديته . . واية كانت أو تكون فلست الآن بصدد شرحها والرد عليها . وغرضي الأول هو التصدي لتحديه في دعوته إلى الجدال في الله سبحانه ، ان صح انه دعا وتحدى . . . وقبل كل شيء اشير إلى ان المؤمنين بالله يعتمدون في ايمانهم على منطق العقل الذكي والحس السليم ، ويخاطبون الجاحدين عند الجدال والنقاش بالضمير الحي والفطرة الصافية . وعلى هذا الأساس اوجه الأسئلة لسارتر وغيره من المشككين :

١ ــ لنفترض ان الانسان هو ذاك الكائن الحي الذي حدده سارتر . فهل اكتشف هو أو اي عالم آخر دليلاً قاطعاً على ان الانسان بعد وجوده في هذه الحياة يستحيل ان يملك عقلاً نيراً يهديه ويرشده . بمعونة الحس

إلى خالقه وخالق الكون ، او اكتشف ان ارشاد هذا العقل وهدايته سراب وتضليل ؟ فان كان شيء من ذلك فليدلنا عليه سارتر وغير سارتر ونحن له من الشاكرين .

٢ ـ ان سارتر ألّف كتاب المذهب المادي والثورة . وجاء في ترجمته العربية بقلم سامي الدروبي ص ٤٢ وما بعدها ـ ما يتلخص بأن الماديين ينفون وجود اي شيء وراء المادة والطبيعة . ويزعمون ان الايمان به ايمان بالغيب لا يعتمد على الحس التجربة . . ثم ردّ سارتر قولهم هذا بأن النفي المطلق لما وراء المادة والطبيعة هو أيضاً في حقيقته ايمان بالغيب لا يعتمد على الحس والتجربة . فكيف ابرموا هنا ما نقضوه هناك ؟ .

وإذا صح ان سارتر قد دعا وتحدى بعد هذا الرد يكون تماماً كالماديين ينقض ما ابرم . ويبرم ما نقض .

٣ ـ ليس من شك ان القضايا الانسانية والاجتماعية لا وجود لها قبل الانسان لأنه هو موضوعها ومحورها . فالحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوجين والجارين وبين الولد ووالديه . كل ذلك وما إليه انما يوجد بوجود الانسان . وينتفي بانتفائه . لانه الشجرة . وقضاياه الثمرة . اما الكون وما فيه من نظام وشواهد على وجود الخالق ووحدانيته فهو موجود قبل ان يوجد الانسان . ومن الشواهد الكونية ينطلق عقل الانسان بعد وجوده إلى الايمان بالله .

وقد اباح سارتر للعقول والافهام ان تكتشف قوى الكون وعناصره واسراره الكامنة فيه منذ البداية . وان تستغلها لخدمة الانسان ومنافعه ،

ما يرى منها كالمعادن ، وما لا يرى كالجاذبية والالكترون — فعليه أيضاً ان يبيح للعقول الاستدلال بالشواهد الكونية على وجود المبدع والمدبر . . اما ان يحجر عليها هنا ، ويطلقها هناك فتفريق بلا مبرر ، وتقسيم للشيء الواحد إلى نفسه ونقيضه في آن واحد ، ومن جهة واحدة .

وبعد ، فان اشياء الكون وانواعه لا يبلغها الاحصاء . . ومن أجل هذا تقاسم العلماء فيما بينهم دراسة الكثير منها ، وتخصص لكل نوع فئة منهم ، فللفلك — مثلاً — علماؤه ، وللنبات خبراؤه ، وللحيوان اخصائيوه . . إلى ما هو واضح ومعروف ، ويستحيل على الفرد أو الجماعة ان يحيط ويحيطوا علماً بجميع اشياء الكون وانواعه . اما الفلاسفة فقد اتجهوا إلى البحث عن الوجود مطلقاً في كلياته وجزئياته وقدمه وحدوثه ، ومصدره وماله ، واستنطقوا ما فيه من بينات وشواهد على ذلك ، وبالخصوص على علته الأولى التي تحدد اتجاهه وحركاته ، وتنظم سننه وقوانينه ، وانتهى الاقطاب منهم إلى الايمان بوجودها وصفاتها تماماً كمن سمع ورأى .

- لنفترض ان وجود الله من المسائل النظرية تقبل الجدال والنقاش على الرغم من وضوح الدلائل وكثرة الشواهد ، ولكن من المعروف والمؤكد بين العلماء منذ القديم ان لكل مجتهد رأيه وقناعته في كل مسألة نظرية ، ولا يجوز بحال ان يتنازل عن رأيه لمجتهد آخر يخالفه في النظر ما دام كل منهما يعتمد على حجة ودليل عنده ، ولا برهان واضح ومسلم به عند الطرفين على ان هذا مصيب قطعاً ، وذاك مخطيء يقيناً .

ونحن نؤمن بالله لدليل عندنا وليس عند سارتر ، وهو يكفر لشبهة

عنده وليست عندنا ، فهل يسوغ له ، وهو لا يملك الدليل المسلم به عندنا ان ينكر علينا الايمان لشبهته ، ولا يسوغ لنا ان ننكر عليه الالحاد لدليلنا ؟

ومهما يكن فان صخب الملحدين وهتافهم لأئمة الكفر والالحاد لا يثني المؤمن عن ايمانه ، ولا يشكك العالم بالله في علمه ويقينه .

٥ ـ ان ادلة المؤمنين بالله ليست ارتجالية ، ولا هي جزئيات وكلمات متناثرة هنا وهناك لا يجمعها ضابط ، ولا ترجع إلى اصل واساس . . كلا ، فان العلماء والفلاسفة حددوها على اسس منهجية واضحة تعتمد مباشرة او بالواسطة على حقائق بديهية ومسلمات اولية . وخصصوا لها المعاهد . وألفوا فيها الاسفار ، ودعوا المؤمن والجاحد إلى تمحيصها ودراستها . واوجبت الاكثرية الكاثرة من علماء الدين على كل عاقل النظر فيها ، وحرموا عليه التقليد والمتابعة العمياء ، في اي اصل من اصول الدين . . وامر القرآن الكريم في العديد من آياته بالاحتكام إلى منطق الحس والعقل والقلب في كل ما يمت إلى العقيدة بسبب . وفي التشريع وشئون الاجتماع وآداب السلوك ، كما حث على النظر في ملكوت السموات والأرض .

ولا أريد هنا ان أغرق القارىء في زحام المقدمات والنتائج والتفاصيل والارقام ، واكتفي بهذا التساؤل على لسان من ايقن بالله وآمن :

ان كل شيء في الوجود من الذرة الصغيرة إلى اعظم المجرات يسير على سنة محكمة . وينسجم مع غيره من اشياء الكون على ما بينه وبينها من تضاد كالحرارة والبرودة . والحركة والسكون . والليل والنهار . والكل يعمل في تعاون واتحاد كامل . ويتجه إلى غاية واحدة تماماً كعمل الجسم المؤلف من اعضاء متباينة . وقوى متضادة يدبرها جميعاً عقل واع وارادة حكيمة .

فمن الذي احكم ونظّم هذا الكون بما فيه ، ودبره وهيمن عليه ؟ ووضع كل شيء في المكان الملائم له حتى ادى الغاية من وجوده على اكمل وجه ؟ ومن اين جاءته الحياة والادراك وغيره من الانفعالات البشرية وغير البشرية؟ وهل ذلك كله من صنع الطبيعة العمياء الصماء؟ وهل الطبيعة علة لنفسها ولما فيها من ارادة وعقل ونظام ؟ كيف وهي تفتقر في اصل وجودها إلى مقوّم ومدبر ؟ . اما الصدفة فلا تدخل في علم وقانون ، ولا يلجأ إليها إلا من شهد على نفسه بالجهل والقصور عن معرفة السبب الموجب . وبالتالي كيف يسوغ لنا ان نحتمل الصدفة في وجود الكون وعجائبه ، ولا يسوغ ذلك في وجود عود ثقاب واحد ؟ .

إلى كثير من الاسئلة التي ما وجدت حتى الآن ولن تجد اجوبة حاسمة في نظر العاقل المحايد ، بل العكس هو الصحيح فان اقوال الملحدين زادت المؤمنين بصيرة ويقيناً حيث تجاوزت منطق العقل والعلم إلى الخرافات والحماقات التي اكدها فولتير ونعت بها الملحدين في قوله : « ان فكرة وجود الله فرض ضروري ، لأن الفكرة المضادة حماقات » . (فولتر تأليف جوستان لانسون ترجمة محمد غنيمي هلال ص ٧٣ طبعة سنة ١٩٦٢) . واطرف هذه الحماقات قول نيتشه : « لو كان الله موجوداً لكنت انا هو . وكيف استطيع ان لا كون اله ؟ . . واذن فليس ثمة اله » . نقل هذا عن نيتشه الفيلسوف الانكليزي الشهير راسل في كتاب السلطان ، ترجمة خيري حماد طبعة سنة ١٩٦٢ ص ٢٩٠) .

وليس من شك ان نيتشه لو كان يملك وسيلة واحدة من وسائل الاقناع — ما لجأ إلى هذه الخرافة والحماقة . . اما المؤمنون بالله فان رائدهم العقل ، وحليفهم العلم ، وما تقدم خطوة في أي مجال من مجالاته ، وبخاصة في عالم

الاحياء، وبصورة اخص في التشريح والفلك – الا وزاد الادلة على وجود الله وضوحاً وقوة ، وادلى ببراهين جديدة ؛ وكشف عن نتائج علمية لا تفسير لها إلا بقوة لا تشبه شيئاً من اشياء الطبيعة ، ولا يشبهها شيء . . ومن هنا ايقن بالله وآمن به العديد من رجال العلم واقطابه في هذا العصر . انظر كتاب الله يتجلى في عصر العلم الذي ترجم إلى كل اللغات وطبع العديد من المرات .

ومن قبل كان هؤلاء العلماء لا يهتمون بكفر وايمان ، ولا يرون اي داع وموجب للبحث عن ادلة الاثبات او شبهة النفي . . وانما شغلهم الشاغل وظيفتهم وما يدخل في اختصاصهم وكفى ، ولكن الواقع الذي عاشوه مباشرة . ومارسوه فعلاً هو الذي فرض نفسه عليهم ، وخلق الايمان بالله في قلوبهم من حيث لا يشعرون ويقصدون .

وربما قال قائل : ولماذا البحث فيما وراء الطبيعة ما دمنا نعيش فيها لا وراءها وفي خارجها ، وقد اكتشفنا من اسرارها ما ننتفع به ، وما زلنا على هذه الطريق نجدّ السير للغاية نفسها ؟ . أليس الاجدر والانفع ان نسكت عما لا يعنينا من قريب او بعيد ؟ .

الجواب :

ان الايمان بالله وقدرته وعدله يعني ان الانسان لا يترك سدى . وانه مسئول عما يفعل ويترك ، وان المسيء لا يفلت من العقاب . وان المحسن يكرّم ويثاب . . هذا . إلى ان آثار الدين ومعطياته لا تقف على العبادة في المساجد والكنائس . بل تتجاوزها إلى السياسة والاقتصاد ونظام الاسرة والكتب السماوية والاماكن المقدسة ، وكثير من التقاليد والعادات . . ومن أجل الدين قامت حروب اجرت الدماء انهراً. وثارت خلافات قسمت البلد بل البيت

الواحد إلى اجزاء . وشيدت صروح ومعاهد ، استهلكت الكثير من الارزاق والاقوات ، وتكونت هيئات ودول واحزاب . ووضعت مؤلفات بمختلف اللغات . . حتى الدول الملحدة فيها دوائر خاصة للشئون الدينية .

وقال كثير من أهل الاختصاص : « ثقافة كل امة تنطلق من دينها وايمانها » وترفض الكثير من الفلسفات والانظمة . لأنها لا تتجاوب مع ما تدين وتعتقد . . ابعد هذا وغيره كثير وخطير يقال : لماذا البحث في الدين وأيهما ابعد اثراً في الحياة الدين : او الوجودية والبرجمانية والماركسية ؟ وكيف حسن البحث في هذا دون ذاك ؟ .

وبعد ، فان الدين هو السمة العامة التي تحدده حياة البشرية كلها او جلها في كل مرحلة من مراحل التاريخ . . والايمان بالله قديم واصيل ، يقوم بنيانه على اساس العلم والعقل والحجة والقناعة ، وقد واجه الكثير من التحديات والمؤامرات ، وكلها تبخرت مع الريح . . وبقي الدين متوجاً على عرشه تركع له جباه الملوك والجبابرة « بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون » .

بين المؤمنين والملحدين

هذا الفصل تابع للفصل السابق . أو كل منهما فرد مستقل من موضوع عام ينطبق على العديد من الفصول .

كيف يؤمن بما لا يرى ؟

قال الملحدون : لقد آمن بالله من آمن دون أن يراه بحس . ويتناوله بتجربة . وإنما فرض وجوده ليُفسر به الكون ونظامه الحكيم الدقيق بعد العجز عن تفسيره بالعلم ومنطق الحس . زاعماً أن مثل هذا النظام الكوني لا يمكن ان يصنعه شيء إلا قوة خارقة فوق المادة والطبيعة . . ثم قال الجاحدون وهذا مردود اولاً لأنه ايمان بالغيب . ثانياً ان النظام الكوني تولد من نفس الكون لا من قوة خارجية عنه . وقد أودعت فيه النظام والانسجام – كما يدعي المؤمنون – ويعرف هذا التعليل بالتولد الذاتي والتفسير الميكانيكي .

حتمية الايمان بالغيب :

وأجاب المؤمنون عن الاعتراض الأول بأن كل من آمن بشيء لم يره فقد آمن بالغيب . والمنكرون للقوة الخارقة المدبرة يعتقدون بوجود أشياء لا يمكن أن تنالها يد التجربة . ويستحيل على الحس أن يصل إليها بأية وسيلة من الوسائل . ومن ذلك – على سبيل التمثيل – الجاذبية في المادة . والمغناطيس في الحديد . ووجود الكترون . وما يجري في العقل من تفكير واستنتاج . ويرتسم في الذهن من صور . ويختلج في القلب من ميول . ويرسخ فيه من

ايمان . . وكيف تختزن الذاكرة المعلومات . وتحتفظ بها لوقت الحاجة . . وقد حير لغز الذاكرة العلماء بعد أن اكتشفوا أن في طاقتها أن تستوعب بلايين المعلومات . وأيضاً يعتقد الماديون بوجود الأثير الذي تألف منه الكون دون أن يقع تحت اختبارهم . وتأتي الاشارة . . ومثله الزعم بأن أصل الانسان قرد .

هذا ، إلى أن عالم الفلك يؤمن بوجود كوكب غائب عنه ويحدد مكانه من حركة كوكب آخر شاهده وراءه ، والطبيب يكتشف نوع المرض من ظهور آثاره ، والقاضي يحكم بالدماء والأموال من القرائن القضائية وغيرها دون أن يرى الجريمة ويشاهدها ، وصاحب الحفريات يتحدث عن الأمم الماضية ، والقرون الخالية من مشاهدة البقايا والحطام ، وكل الناس يحكمون على الانسان من خلال سلوكه دون أن يطلعوا على سريرته ، بل ومن صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وأيضاً يؤمنون بصدق المحدث أو كذبه من طبيعة كلامه وسياق حديثه ، بل اتفق العلماء والفلاسفة قولاً واحداً على ان الانسان يستحيل عليه أن يُدرك ذات الاشياء الموجودة في الكون وحقيقتها ، وان كل ما يعرفه عن أي شيء صغير وحقير هو صفاته وظواهره كل ذلك وغيره كثير — ايمان بما لم تنله يد التجربة ولا يصل إليه الحس .

وبعد ، فان الكون يزخر بالحقائق الخفية التي لا تُرى بالعين ذات الطاقة المحدودة ، وما من عاقل على وجه الأرض إلا يؤمن بالعديد من هذه الحقائق ويرى الايمان بها من الضرورات الأولية التي لا مفر منها لأحد على الإطلاق واذن فبالاولى أن يكون الإيمان بالله ضرورياً بعد ظهوره آثاره في خلقه الذي تعجز الأوهام والألسن عن وصفه . وقال بعض الفلاسفة : « حد العقل أن ينتقل الانسان من معلوم إلى مجهول . من شاهد إلى غائب . من حاضر إلى

مستقبل لم يحضر بعد أمام البصر . أو إلى ماضٍ ذهب وانقضى ولم يعد مرئياً مشهوداً . . فإذا لم يكن ذلك فلا عقل » [1] .

ومعنى هذا أن من لا يؤمن بالله لا لشيء إلا لأنه لم يره بالذات — فلا عقل له . لأن مهمة العقل أن يرشدنا إلى ما لا يمكن ادراكه بالحس والتجربة وان يحذرنا مما تخبئه الايام . وينفعنا برؤيته وموعظته . . والذكي الألمعي هو الذي يفهم من الاشارة . ويدرك المغيبات من القرائن . ويؤمن بها حتى كأنها مجسدة أمام عينيه . وقديماً قال الشاعر العربي :

الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

خطأ التفسير الميكانيكي للكون :

وأجاب المؤمنون عن الاعتراض الثاني : وهو التفسير الميكانيكي والتولد الذاتي . أجابوا بأن المادة جامدة عمياء لا روح فيها وشعور . ولا وعي وادراك فكيف نظمت نفسها بنفسها . وقدرت كل شيء في الكون تقديراً على سنن ثابتة ونواميس محكمة ؟ . .

وحاول الماديون او الكثير منهم حل هذه المشكلة بفرض ضروري عندهم حدساً وتخرصاً . وهو أنه — في بداية ذي بدء وقبل أن يوجد الكون على وضعه الحالي — كان هناك أثير ساكن راكد يملأ اطراف الفضاء . . ثم حدثت حركة قوية فجأة ومن باب الصدفة . واستمرت ملايين السنين . ومن هذه الحركة

(١) كتاب تجديد الفكر العربي للدكتور زكي نجيب محمود . الفصل السابع قيم باقية من تراثنا

الدائبة وحتمية تطور المادة تألف هذا الكون الموجود الآن بأرضه وسمائه ، وجماله وبهائه . وتخطيطه ونظامه وترتيبه وانسجامه .

وتساءل المؤمنون بالله : من أين جاء العلم بوجود هذا الأثير الذي سبق وجود الكون مع القطع واليقين بأنه لم تحت الحس ولا دلت عليه الآثار والقرائن ؟ ولو سلمنا جدلاً بوجوده فمن الذي أوجده ؟ ثم من الذي حركه ؟ وهل الصدفة والحركة العشوائية الهوجاء تنتج هذا النظام البديع الشامل لأفلاكه وكواكبه وذراته ومجراته ؟.

وإذا وجد الكون بما فيه ومن فيه من باب الصدفة فلماذا لا يكون هذا الزعم صادراً عن زاعمه صدفة وعن غير قصد . . وكذلك قفز الانسان إلى القمر ، ووجود القرى والمدن . والمصانع والمعاهد . وجميع المخترعات . والأسفار والأشعار ، كل ذلك وما إليه ما كان ويكون من باب الاتفاق والصدفة ! . . وكيف ننسب الكون ونظامه العجيب إلى الصدفة ، ولا نترك لها نحن اتفه الأمور ؟ ثم هل يسوغ لنا أن نذم ونعاقب من أساء وأجرم ، ونمدح ونثيب من أحسن وأنعم ، ونحن نؤمن بنظرية الاحتمال وقانون الصدفة ؟

وهل يقبل العاقل الخبير العليم أن عقله وشعوره تولدا من مادة لا عقل لها ولا شعور . وان سمعه وبصره أوجدهما ما لا يسمع ولا يبصر ؟ وأيضاً هل يقبل عقل عاقل أن بصمات الاصابع وملامح الوجوه وروائح الاجسام قد اختلفت بين الملايين من ابناء البشر . هل يقبل العقل ان كل ذلك حدث لمجرد الصدفة ؟ .

القرود واشعار شكسبير :

واستدل متفلسف في القرن العشرين على صحة قانون الصدفة – بأنه لو فرضنا ان عدداً من القرود ضربوا اجيالاً طويلة على آلات كاتبة ، لوجدنا بين ما خطته كلٍ اشعار شكسبير ، وهكذا حدث نظام الكون بعد الحركة العشوائية التي طرأت على الأثير .

ونقول في رده : ان هذا الفرض ليس ضرورياً ، بل الأقرب إلى إلفة العقل أن لا نجد في خطوط القرود عيناً ولا أثراً لأشعار شكسبير . ، ولو سلمنا جدلاً بهذا الفرض لوجدنا إلى جانب اشعار شكسبير ملايين الخطوط بلا هدى ومعنى مع العلم بأن ما من شيء في هذا الكون الكبير العظيم الا بتقدير محكم ، ونظام مستمر بحيث لو زحزح عنه لانفرط عقد الكون وتناثر .

وتسأل : إذا كان الله أوجد الكون ممن الذي أوجد الله سبحانه ؟ .

الجواب :

ان الكون المستمر التغيير والتطور لا بد أن ينتهي إلى علة أولية قائمة بذاتها ، لأن تسلسل العلل إلى غير نهاية يرفضه العقل ولا يألفه ، ولو احتاج كل شيء في وجوده إلى علة لاستحال ان يوجد شيء على الاطلاق . وبقي العالم طي العدم والكتمان . . وبكلام آخر كل مالا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده لا بد ان ينتهي إلى موجود يحمل في طبيعته سبباً كافياً وافياً لوجوده.

وبهذا يتبين معنا مكان الخطأ في قول من قال : يستحيل ان يوجد شيء من لا شيء . . إذا اعتبرنا هذا القول أصلاً طبيعياً وقانوناً حتمياً يطرد في كل شيء ، بلا استثناء ، إذ يلزم ، والحال هذه ، أن لا يوجد شيء من الأساس مهما كان ويكون حتى هذا القول وقائله .

وبقصد التوضيح نضرب مثلاً بالمخترعات : فكل اختراع من أي نوع كان لا بد أن ينتهي إلى مخترع أول ابتدعه من افكاره وبالذات ، ولم يأخذه من غيره ، ولو افترض انه لا مخترع أول وجب أن لا يوجد اختراع على الاطلاق . . مثال ثان : كل ما كان دليلاً على غيره لا بد أن يكون من الأوليات الضرورية والمسلمات البديهية . يستدل به ولا يستدل عليه ، أو ينتهي إلى دليل كذلك ؛ ولو احتاج كل دليل إلى دليل ما كان لفكرة الاستدلال عين ولا أثر .

سؤال ثان : أجل ؛ لا بد أن نفترض وجود علة قائمة بذاتها معلولة لغيرها . ولكن لماذا لا نفترض أن المادة هي واجبة الوجود ، وانها تحمل في طبيعتها السبب الكافي لوجودها ؟ وسبق الجواب عن ذلك في فقرة « خطأ التفسير الميكانيكي للكون » وان المادة الجامدة العمياء يستحيل أن تنظم نفسها بنفسها . وان القوانين والمقادير لا توجد بلا خالق قادر وعالم وحكيم . وأيضاً تقدم قول فولتير : « انّ وجود الله فرض ضروري ، لأن الفكرة المضادة حماقات » .

وتجدر الاشارة إلى ان بعض المؤمنين قالوا : لا فرق بيننا وبين الماديين لأن كلاً منا يؤمن بفكرة واجب الوجود سوى أننا نسميه نحن الله ، وهم يسمونه الطبيعة ! . وذهلوا عن ان التفسير الميكانيكي للكون معناه أن المادة هي الموجود الوحيد ، وانه لا شيء وراءها اطلاقاً . وهذا انكار لله الذي ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته .

فلسفات متهافتات :

وبعد ، فلا بدع إذا ارتابت فئة قليلة أو كثيرة في وجود الله ، لأنها ما رأته ولا يمكن أن تراه ، فان السفسطائيين شكوا في وجود الكون وفي أنفسهم وفي شكهم انهم يشكون . ونظروا إلى الكون نظرتهم إلى العدم المحض، لأن العقل بزعمهم يعجز عن معرفة أي شيء حتى عن معرفة نفسه ! .

وقال انصار المذهب السلوكي ، كما في كتاب « الفلسفة بنظرة علمية لراسل » قالوا : لا وجود للصور الذهنية ، لأنها لا تُرى وتحُس ، فإذا شعر الانسان بأنه يفكر ويتصور فشعوره هذا وهم وخرافة .

وقال المثاليون ، وفيهم اساتذة واقطاب : لا وجود لعالم قائم بذاته ، ولا شيء في الوجود على الاطلاق إلا إذا أدركه عقل من العقول . وما لا يدركه عقل فلا وجود له .

فكل واحدة من هذه الفئات انكرت وجود المحسوس لفلسفة تؤمن بها ، وترى غيرها خطأ وضلالاً . . واذن فلا غرابة أن يجادل في الله لسبب أو لآخر من رأى أثره في خلقه دون أن يراه ! . هذا اعترف بالخلق وانكر الخالق . واولئك المتفلسفون انكروا الخالق والخلق الذي رأوه بالعين ولمسوه باليد . . فكيف نتوقع اعتراف الجميع بالله سبحانه وبالحق والواقع مع هذه الفلسفات المتناقضة المتضاربة ؟ . هذا بالإضافة إلى التعصب الأعمى الذي نشير إليه في الفقرة التالية .

لا انسانية بلا حرية :

ونعطف على الفلسفات المتهافتة من اعماهم التعصب ، شعر هؤلاء بقصورهم وعجزهم عن مواجهة الأدلة الكونية والعقلية على وجود الله فلفوا وداروا وحاكوا بعض الشبهات والأوهام ، يلقونها في عقول البسطاء السذج ، ومنها : لو كان الله موجوداً لانتصر لمن آمن من المستضعفين ، وأهلك الجبابرة والجاحدين وزلزل الأرض بالاستعمار والصهيونية واسرائيل . . وأسخف من هذا ما حدثني به احد الشباب : ان زميلاً له في الدراسة قال لرفاقه : ان كان الله موجوداً فليقطع يده او يردها إلى الوراء ! .

الجواب :

ان الله سبحانه كرم الانسان بنعمة العقل والارادة والقدرة ، وبين له الخير والشر ، ونهاه عن هذا . و أمره بذاك ، وفي الوقت نفسه حثه على التفكير وإعمال العقل ، واعتبر إهماله جريمة تستحق العقاب . وبالعقل يميز الانسان بين الهدى والضلال وبالإرادة يختار لنفسه ما يحب . وبالقدرة يفعل وينفذ .

وبهذه العناصر الثلاثة قوام الانسان وماهيته ، إذ لا انسانية بلا عقل وقدرة وحرية . . ولو أن الله سبحانه تدخل بالقهر والغلبة في أي شأن من شؤون الانسان ، أو ألجأه إلى الايمان الجاء . أو أهلك اعداءه بالخوارق والمعجزات كقطع يد التلميذ الأرعن او ردها إلى الخلف ، لو فعل الله شيئاً من ذلك لسلب الانسان حقه في أن يوافق او يرفض ، وان يؤمن او يكفر ، وأن يفعل او يترك ، ومعنى هذا أنه لا وزن لعقل الانسان ، ولا لإرادته من موضوع ،

ولا لقدرته من أثر . . ومن أجل هذا ترك سبحانه النواميس الكونية والاجتماعية تعمل عملها في المؤمن والكافر :

﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾

٤ محمد .

ومن طريف ما قرأت في هذا الباب : أن الريح إذا كانت تهب جنوباً ، وابحر المؤمن بالله باتجاه الشمال فان الله سبحانه لا يأمر الريح بالهبوب شمالاً إكراماً لمن آمن به واخلص له . . وإذا أبحر المؤمن باتجاه الريح المواتية لقصده ، وشكر الله على ذلك فان شكره هذا وقاحة وانانية ، لأنه يعني أن الله لا يحب الذين أبحروا بالاتجاه المعاكس لاتجاهه .

وأوقح من هذا وأقبح أن اليهود ما آمنوا بالله قديماً وحديثاً الا بزعم أنه لهم وحدهم ، ومع مصالحهم الشخصية يدور معها حيثما تدور ، فإذا تركها غضبوا عليه ، وما آمنوا بموسى (ع) إلا بعد أن اشترطوا أن يكون إلهه قوة عاملة في حياتهم اليومية . وفي التوراة سفر التثنية الفقرة ٧ من الاصحاح ٧ والفقرة ٢ من الاصحاح ١٤ : ان اليهود هم شعب الله المختار وانهم فوق الشعوب . . وفي الاصحاح ٣١ من سفر العدد ، والاصحاح ١٣ من سفر التثنية : ان الله أباح لليهود دماء سائر الشعوب واموالهم .

وبعد نكسة حزيران سنة ١٩٦٧ جاءني بعض الشباب يسألون : كيف يسلط الله الصهيونية على العرب والمسلمين ؟ . فضربت لهم مثلاً برجلين : أحدهما يكفر بالله ولا يطيعه في شيء ، ولكنه يحسن فن السباحة ، وآخر يؤمن بالله ، ويعبده باخلاص ، ولكنه يجهل طريق العوم والسباحة . .

فاقتحما البحر معاً بقصد المباراة ، فرسب المؤمن وهلك لأنه أطاع الله في كل شيء ، وعصاه في النزول إلى البحر قبل أن يُعد له العدة ، وعام الكافر ونجا لأنه عصى الله في كل شيء وأطاعه في النزول إلى البحر ، بعد أن أعد له عدته . . . وهكذا ربحت اسرائيل ، وخسرنا نحن ١٩٤٨ ، و ٦٧ .

والخلاصة ان الله سبحانه أبى أن يقبل الايمان به إلا إذا تجسد في العمل الحي المثمر . . وأيضاً أبى . عظمت حكمته ، أن يجري الامور الا تبعاً للسنن والنواميس التي لا تبالي بمصير كبير أو حقير ، ولا تدخل في حسابها مؤمن أو كافراً .

حول الدين والعلم

الاستاذان : صعب والترك :

قرأت في ملحق جريدة النهار ٣ — ٣ — ١٩٧٤ مقالاً بعنوان « الملحدون عن طريق العلم لم يفهموا العلم » للاستاذ اديب صعب ، ثم قرأت الرد عليه بعنوان « حرب المواقع بين العلم والايمان » للاستاذ زياد الترك في الملحق ٢٤ — ٤ — ٧٤ . . ولهذا البحث أهميته الكبرى من حيث الفكر والعمل ، واتمنى لو يكون مقال صعب وكلمة الترك بداية حسنة لحوار طويل ومفيد بأقلام اخصائيين يتمتعون برؤية مجردة الا من وسائل العلم ومناهجه . . وعسى ان تكون امنيتي هذه حافزاً للاقلام الراشدة الناقدة .

تحديد المعنى والخطأ المحتمل :

وقبل كل شيء أمهد بما يلي :

أولاً : تحديد المراد بكلمة العلم والدين كيلا نقع في سوء الفهم الذي يجرنا إلى خلافات جانبية ، ويقف حائلاً دون الاتفاق على رأي . والعلم بمعناه العام معرفة الشيء بما هو عليه عن أي طريق كان ، ونريد به هنا معناه الشائع النابع من الحس والتجربة . وللدين معان شتى ، ونريد به الايمان بالله الذي يهدي للتي هي اقوم ، ولا يريد بعباده الا الخير واليسر ، وهذا الايمان

هو اصل الاصول ، ولا يمكن الحديث عن النبوة والوحي ، وحلال الله وحرامه الا بعد الدليل القاطع على وجود الله وصدق الايمان به .

ثانياً : ينبغي للعالم ان يتذكر على الدوام ان ما غاب عن علمه اكثر بكثير مما احاط به علماً . . حتى هذا قد يكون خطأً وجهلاً مركباً ، وان يتقبل النقد الواعي بفهم وتواضع . . وفي نهج البلاغة ان منافقاً اثنى على الامام علي (ع) فقال له : انا دون ما تقول ، وفوق ما في نفسك . . واثنى عليه مؤمن فقال له : « لست في نفسي بفوق ان اخطيء ، ولا آمن ذلك من فعلي إلا ان يكفي الله من نفسي ما هو املك به مني » . أبداً لا ترى عالماً بحق ، ولن تراه إلا متهماً لنفسه خائفاً من الوقوع في الخطأ .

احدى الدعوتين ضلالة :

ركز الاستاذ صعب مقاله على ان معطيات العلم الحديث بشتى انواعها لا تتنافى مع الايمان ، لا من حيث هي ولا من حيث مصدرها . . وابتدأ كلامه بتقسيم هذه المعطيات إلى اقسام ثلاثة ، وقارن بين كل قسم منها وبين الدين وانتهى إلى انه لا تناقض بينهما ، وان من قال بوجود التناقض بين العلم والايمان بالله فهو جاهل او شرير .

وقال الاستاذ الترك : ان الصراع بين العلم والدين قائم ودائم ولا يتفق الدين ويتعايش إلا مع الفلسفة المثالية القائلة بأن الفكر لا تسبق الواقع ، وهو انعكاس عنها على الضد من الفلسفة المادية القائلة بأن الواقع يسبق الفكرة ، وهي انعكاس عنه .

وبعد هذه الاشارة الخاطفة إلى قول صعب والترك — اعرض الحقيقة كما هي في فهمي ومعرفتي . . وليس من غرضي ان اؤيد أو أفنّد هذا او ذاك ، ولكن الحقيقة تعرف وجه صاحبها ، وتشهد له .

الحقائق اخوات :

يصعب على الفهم ان يحدد المعنى لكلمة الحقيقة مطلقة من غير قيد ــ تحديداً جامعاً مانعاً ، لانها تعم وتشمل حقائق عديدة ومتنوعة في كونها وماهيتها .. ويهون ذلك إذا اردنا تحديد اية حقيقة بطابعها ونوعها الخاص مستقلة عن غيرها من الحقائق كالحقيقة اللغوية او الاقتصادية وما إليها . والذي يهمنا في هذا البحث هو تحديد الحقيقة الدينية والعلمية : هل بينهما صراع واصطدام تماماً كالايمان والالحاد ؟

وفي رأينا ان الاصطدام لا يحدث ، ولا يمكن ان يحدث بين اية حقيقة واخرى من اي نوع تكون ما دامت كل واحدة منهما تدور في فلكها المحدد ولا تتعداه وتقاس بمقياسها ولا تتجاوره ، وكيف يحدث الاصطدام بين الحقائق ، والانسان بحاجة إليها جميعاً ؟ . . أجل إذا حرّفت الحقيقة عن مواضعها ، وتكلم باسمها جاهل متطفل ، أو خائن منافق ــ يحدث عندئذ الصراع والنزاع ، ولكن بين هذا الدخيل والطرف الاصيل .

ويجدر التوكيد على ان عدم الصراع بين الحقائق ، لا يعني ان بعضها يدل على صحة بعض . . كلا ، فأية علاقة بين تفتيت الذرة ــ مثلاً ــ وبين الحقيقة السياسية ، او بين زيادة الانتاج والالحاد ؟ . وانما يعني ان طبيعة اية حقيقة لا تعاند طبيعة غيرها من الحقائق ، سواء التقت الحقيقتان في النهاية على صعيد واحد كالعلم والدين يلتقيان في خدمة الانسان وتحقيق رغباته وامانيه ، أم لم يلتقيا اصلاً .

الفرق بين الحقيقتين :

تفترق الحقيقة الدينية – أي الايمان بالله – عن الحقيقة العلمية بأن موضوع الاولى وراء الطبيعة ، وموضوع الثانية الطبيعة . . أجل ، الاحكام الالهية موضوعها عقيدة الانسان واقواله وافعاله . ولكن موضوع احكامه تعالى شيء ، والايمان به شيء آخر .

هذا من ناحية الموضوع ، أما من ناحية الطريق والمنهج فالحس للحقيقة الرياضية ، وهما معاً للايمان بالله . . تنظر العين إلى الكون ونظامه العجيب فيحكم العقل – مستنداً إلى مبدأ العلية – بوجود المكون العظيم ، والمنظم الحكيم .

تعاون العلم والدين :

وإذا اختلف الدين والعلم موضوعاً ومنهاجاً فانهما يلتقيان على صعيد واحد ، وهو خدمة الانسان ومصلحته – كما سبقت الاشارة – ومن هنا حث الانبياء والكتب السماوية على طلب العلم ، وجعله الاسلام فريضة ، ورفع اهله درجات ، واثنى على الراسخين فيه . . والعدو لا يرفع من شأن عدوه . . اما المصادمات التي ظهرت في التاريخ بين المنتسبين إلى اهل الدين والعلم فهو من الدخلاء واللصقاء .

وبعد ، فان الدين يهدي لحياة أفضل ، ويبارك كل ما يعود بالنفع على الفرد والمجتمع ، والعلم يسهم عملياً في هذا الميدان إلى ابعد الحدود . واذن من اين يأتي الصراع والنزاع ! . وعلى الاقل يقف كل منهما من الآخر موقف الحياد . لا صراع ولا اصطدام .

اتخذ الهه هواه :

جاء في آخر مقال الأستاذ صعب : « الشرير هو من قال في ذاته: انا هو الاله » . وختم الاستاذ الترك كلمته بقوله : الفلسفة المثالية تجعل الانسان يقول : انا هو الله .

وفي ظني ان هذه الكلمة أليق بالفلسفة المادية وألصق ، لانها تعتبر المادة هي الموجود الوحيد. ولا شيء قبلها ولا بعدها وهذا الوصف من اخص خصائص الاله . . وفي كتاب تفكير كارل ماركس نقد الدين والفلسفة ، ترجمة سامي الدروبي وجمال الاتاسي : ان فورباخ قال : قال : الانسان هو إله الانسان . . وكان فورباخ من اقطاب الماديين ، كما في كتاب تفسير الاشتراكية للتاريخ تأليف انجلز ، ترجمة الدكتور راشد براوي .

وقال سبحانه في قرآنه الكريم الآية ٤٣ من الفرقان :

﴿ أرَأيْتَ مَنْ إتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ
أفَأنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾

وتومىء هذه الآية الكريمة إلى ان نزعة الايمان الذي يدفع على العمل والثبات والاصرار هي اصيلة في فطرة الانسان ، وانه إذا تخلى عن الايمان بالحق آمن وتعبد بهواه . . وقد يتمثل هذا الهوى بالجاه والمال ، او بالتعصب للاهل والعشيرة ، أو لأي صنم من الأصنام .

وبالتالي فنحن نؤمن بالله عن طريق الحس والعقل ، وأيضاً بأنه تعالى ما شرع حكماً منافياً للعلم ، ولا للطبيعة ونواميسها ، ولا لمصلحة أي انسان ، وان نسب شيء إلى دين الله يتنافى مع هذه الحقيقة فهو من جهل الجاهلين ، او دسائس المفترين .

اللادينية والعلمانية

هذا الفصل من توابع الفصل السابق وذيوله ، أو جزء منه ومكمل له ، وأفردته بالبحث لأهميته ، ولأن الفصل السابق كان من وحي مقال صعب ورد الترك عليه .

تشكيل العقول :

للإعلام في العصر الحاضر علم مستقل ، له اصوله وقواعده وعلماء بارزون واساتذة في علم النفس والاجتماع ، اما اجهزته ووسائله فقد بلغت الغاية والنهاية من الدقة والتطور حتى أصبح القائمون عليها يشكلون عقول السذج ، ويتجهون بها عن طريق التضليل والتمويه إلى حيث يشاؤون .

فباسم السلم يسيرون بالعالم إلى حافة الهاوية ، وباسم الدفاع عن الحرية يقتلون الأحرار ، وينعتون قوى الشر والبغي « بالعالم الحر » وباسم التجدد والتطور يحاربون الدين والقيم الانسانية ، ومن ذلك — على سبيل المثال — تسمية اللادينية بالعلمانية ، ويعنون بها ان الدين والعلم ضدان لا يجتمعان ، لأن الدين غيب كله [1] وفوق الحس والعقل ، كما يزعمون ، والعلم يدرس الشيء المحسوس الذي يخضع للملاحظة والتجربة .

(١) ينطبق هذا على المسيحية دون الاسلام . . ولكن بعض المعممين يصر فيما يخطب ويكتب بأن الاسلام كله غيب في غيب حتى الاجتهاد ، وهو في ذلك مع أعداء الدين من حيث يريد أو لا يريد . وفي كتابي الاسلام بنظرة عصرية فصل الدفاع عن الدين اثبت ان قضايا الاسلام على انواع ، وليست بكاملها غيباً .

وحدّد الملحدون أهم القضايا العلمية التي تُنافر الدين وتعانده ، وهي بزعمهم ثلاث : الأولى اكتشفها علم الطبيعة والثانية علم الاحياء ، والثالثة علم النفس : والتفصيل فيما يلي :

من علم الطبيعة :

قالوا : كان البدائيون يعللون ما يحدث بالكون بقوة تكمن وراءه وخارجة عنه، ومع الايام اكتشف علماء الطبيعة أن في الكون نفسه قوانين ثابتة وصارمة لا تتغير ولا تتبدل ، وبها وحدها ترتبط حركات الأفلاك وكل ظاهرة طبيعية من اكبر كبيرة إلى اصغر صغيرة ، ومن هذه القوانين الجاذبية ، وحركة الذرة واغلفتها الالكترونية وغير ذلك . . واذن فلا شيء وراء الطبيعة يدعو إلى الايمان به .

الجواب :

أبداً لا علم ولا فلسفة بلا عقل مادية كانت أو مثالية ؛ والفرق ان وجود الحقائق سابق على وجود العقل في الفلسفة المادية على العكس من الفلسفة المثالية التي تعتبر وجود العقل هو السابق . وايضاً تعتمد المثالية على التأمل التجريدي والمادية على التأمل الناشيء من الممارسة والتجربة الحية . . والمهم انه لا غنى عن العقل اطلاقاً لأية فلسفة كانت وتكون .

واعتماداً على العقل ومنطقه نسأل : إذا فسرنا حركات الكون وحوادثه وضروب نشاطاته ، إذا فسرنا كل ذلك بالقوانين الموجودة في الكون نفسه — فبأي شيء نفسر هذه القوانين الموجودة في نفس الكون ؟ ومن الذي اودعها فيه لتحفظ عليه نظامه ووحدته ، وتكون سبباً مباشراً لأشيائه واحداثه ؟

وهل يسوغ في منطق العقل ان نترك كل ذلك للفوضى والصدفة ؟ وعلى حد ما قال شوقي امير الشعراء : « الطبيعة من طبعها ؟ » . وهل من جواب عند العقل السليم الا القول : ان وراء هذه القوانين الدقيقة الصارمة علة أولية ذات قصد وغاية وعلم وقدرة ينتهي إليها كل شيء . ولا تنتهي هي إلى شيء . بل لا يعقل بحال أن يكون غيرها علة لها والا لما وجد شيء على الاطلاق .

ولمجرد التوضيح نضرب مثلاً بالساعة وصانعها . . انه نظّم آلاتها وربط بعضها ببعض على شكل هندسي معين بحيث تعمل بمجموعها تلقائياً لتدل على الدقيقة والساعة ، بل واليوم والشهر تماماً كما أراد الصانع المنظم . . وهكذا الكون : كواكبه واشياؤه كآلات الساعة ، وترتيب كل شيء وكوكب في فلكه ومكانه كتنظيم آلات الساعة ، وكلٌ من ظواهر الكون وحركة الساعة تستند إلى السبب المباشر الملاصق ، وينتهي هذا السبب إلى الصانع والمنظم .

من علم الأحياء :

وايضاً قالوا : ثبت في علم الأحياء أن أصل الانسان قرد ، والدين ينكر هذا ويقول : وجد الانسان اول ما وجد على ما هو عليه الآن .

ونجيب بايجاز شديد : ما من أحد شهد خلق الانسان الأول ، ورآه كيف وُلد وتكوّن . . وهل من المستطاع ان يثبت ذلك بالممارسة الحسية ، او البراهين الرياضية ؟ أما مجرد التشابه بين كائنين في شيء او اشياء — فلا يستدعي أن يكون احدهما اصلاً للآخر . . وقال كثير من العلماء الجدد : ان اصل الانسان غامض ومجهول ، وان القول بتطوره من الاحياء السفلى مجرد حدس وتخمين » .

وآخر ما قرأت حول هذه النظرية ما نشرته مجلة « الايكونوميست » .

البريطانية في عدد ١٠ آذار سنة ١٩٧٣ ونقلته عنها جريدة الأخبار المصرية تاريخ ٢٣ آذار من السنة نفسها : « ان المجلس التعليمي الحكومي بولاية كاليفورنيا الامريكية قرر ان تشير جميع الكتب المدرسية للعلوم إلى ان نظرية دارون هي افتراضية. وليست حقيقية » . وتكلمت عن هذا الموضوع مفصلاً في كتاب الاسلام بنظرة عصرية فصل الانسان والقرد .

من علم النفس :

وقالوا الدين لا يتفق مع التحليل النفسي في نظرية فرويد الذي أدى دوراً ايجابياً في تطور علم النفس . . وتتلخص هذه النظرية بأن نفس الانسان في طبيعتها وملامحها — لا تحدد بعقل او دين ، وانما تحدد بغرائزه وميوله اللاشعورية ، وبخاصة الجنس الذي يكاد يبتلع كل شيء ، ولا سبيل على الاطلاق لإصلاح وتغيير هذه النفسية او الشخصية ، لأن اللاوعي واللاشعور طبيعة ثابتة لها ، وليس وصفاً عارضاً عليها . . ومن هنا لم يفرّق فرويد بين ما يفعله الانسان في نومه ويقظته . . ابداً كلاهما بمنزلة سواء .

أجل ما زال الحديث عن نظرية فرويد — قد تصطدم رغبات الفرد وغرائزه اللاواعية ، وبالأخص الجنس ، بل كثيراً ما تصطدم مع البيئة وإلزاماتها ، فيضطر الانسان مرغماً — في مثل هذه الحال — إلى كبت غرائزه ، وتصلح نفسه مستودعا للمكبوتات والمحرومات إلى ان تجد مخرجاً ومنطلقاً . . وبكلمة إن افعال الانسان عند فرويد تخضع لمبدأ الضرورة والحتمية ولا اثر فيها للعقل والحرية تماماً كظواهر الطبيعة الخاضعة لقوانين الكون الثابتة الصارمة ، واذن لا مكان اطلاقاً للدين والقيم في السلوك البشري. هذا تلخيص شديد لنظرية فرويد.

الجواب :

١ – ان غرائز الانسان وملكاته لا تنحصر باللاشعور ، بل فيه قوى اخرى ترى وتميز ، وتختار وتدبر والا كان الانسان كريشة في مهب الريح غير مسؤول عن شيء ، ولا يستقيم حسابه عن فعل او ترك .

٢ – ان فرويد يتجاهل أبسط الحقائق وأوضحها حين يقول : « لا سبيل إلى تغيير البنية النفسية ، لانها ذات طبيعة ثابتة » ! واذن لماذا المربي والتربية ؟ . . ان كل شيء فينا وحولنا يتغير ، والجمود والثبات من طبيعة الأموات . . وهنا نحن بني آدم نرمم انفسنا وحياتنا ونتحكم فيها وفي الطبيعة ، ونعمل جاهدين لنصل إلى ابعد مدى من الرقي والتقدم في كل ميدان .

٣ – قرأت مقالاً مطولاً ومتخماً بالعلم للدكتور فؤاد زكريا ، نشرته مجلة عالم الفكر الكويتية م ١ ع ٤ ، جاء فيه: « أوجد العلم الحديث انفصالاً قاطعاً بين عالم الطبيعة وعالم الانسان ، وقضى على التداخل بين المجالين . . لأن التعارض أصبح واضحاً وقاطعاً بين الشعور الانساني بالحرية، وبين الضرورة الكونية » .

٤ – ألف « جاسترو » البولندي كتاباً في جزأين رد فيه على فرويد ، واسمى الكتاب الأحلام والجنس ، وترجمه فوزي الشتوي ، ومما جاء فيه : « ان العلماء درسوا بضعة آلاف من الاحلام لبضع مئات من الناس ، فوجدوا لا أقل من ٥٠ بالمئة منها لا يمكن تفسيرها بنظرية فرويد ، وان هذه النظرية تترك كثيراً من الأسئلة بلا أجوبة .

وبعد فان الدعوة إلى الله سبحانه والإيمان به يعتمد على الحجة القاطعة الماثلة في الكون وعجائبه ، ولا شيء في حقائق العلم ، أي علم ، ينافر هذه الحجة

الإلهية ويعاندها ، بل قال كثير من أهل الاختصاص : كلما تقدم العلم تزداد الدعوة إلى الله قوة ووضوحاً حتى أصبح العلم الحديث مصدراً جديداً من مصادر الايمان به ووجوبه . . ومن زعم أن العلم يناقض الدين وينابذه فهو غافل او مضلل يلبس الحق بالباطل عن علم وقصد .

الشباب والدعاة إلى دين الله :

للشباب ثورات وانتفاضات مباركة تنبع من ضمير حي لا من انفعال عابر ؛ ومن الشعور بالحق والعدل لا من مصالح ضيقة . . . وما أكثر الشواهد على هذه الحقيقة ، فمنـــذ أمد قريب انفجرت ثورة الشباب في امريكا . وارتفعت موجتها إلى اوروبا . وهدفها الأول النظام القائم على حكم المؤسسات العسكرية . وارباح الشركات الاحتكارية . . وحاولت اجهزة التضليل والدعاية الزائفة أن تفسر هذه النقمة والثورة بأنها ضد الاشخاص القائمين على النظام . وليست ضد النظام ، كيف وهو يوفر للشباب المطالب المادية التي تحسدهم عليها الشعوب النامية والاشتراكية ؟

ولكن الثائرين فندوا هذا الزعم . وأعلنوا على الملأ انهم لا يستهدفون الأشخاص ، بل اسلوب الحياة ، وتحطيم النظام الراهن ، والتحالف الشرير بين الدولة والصناعة العسكرية ليحل مكانه العدل والأمن لجميع الشعوب المسالمة . . وكتب الدكتور فؤاد زكريا كلمة حول ثورة الشباب. نشرتها مجلة الفكر المعاصر المصرية في عدد كانون الأول سنة ١٩٦٩ . جاء فيها :

« ان الشباب الامريكي في أيامنا هذه لا يهدف إلى اقل من انقاذ العالم بأكمله » .

وما من أحد يعمل لتحقيق هذا الهدف الا ويلتقي مع رسالة محمد (ص) كائناً من كان ، قال سبحانه محدداً هذه الرسالة الكريمة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ١٠٧ الانبياء .

وايضاً يلتقي مع رسالة السيد المسيح (ع) الذي قال في انجيل يوحنا الاصحاح ١٢ فقرة ٤٧ : « لم آت لأدين العالم بل لاخلص العالم » . وحماة الدين من مسلمين ومسيحيين اعلم الناس بهذه الحقيقة ومع هذا يتجاهلون ثورة الشباب على قوى البغي والشر ، ومنهم من يؤازر هذه القوى الطاغية الباغية ، ويدافع عن مفاهيمها واهدافها ، ويغدق على الشباب الثائر ضدها أقذر الأوصاف وأقبحها . . ومن هنا اتسعت الهوة بين الشباب وشيوخ الدين ، ورجم كل فريق صاحبه بالتهم والظنون .

ولو وقفنا نحن أهل الدين مع الشباب في كل عمل ونضال يهدف إلى الخير ، وباركناه باسم الدين وشريعته ، لو فعلنا ذلك لوثقوا بنا واستجابوا لطاعة الله . واقبلوا عليها مهتدين . . هذي هي الوسيلة . أو خير الوسائل في الوقت الحاضر لجذب الشباب إلى الدين ، واكثر نفعاً من الف كتاب وخطاب في الوعظ والإعلان عن عظمة الدين ومنافعه ، والتصدي لأعدائه بشرح البينات ، ودفع الشبهات . . ولكن – يا لله ولدين الله – من فئة تقف من الشباب موقفاً يُنفّر ولا يُبشّر ، ويُبعّد ولا يُقرّب . . ثم تدعو بالويل والثبور ، وتنادي واديناه . . كفر الجيل الجديد ، وتحول إلى الزندقة والهرتقة ، وهي أول المسؤولين عن هذا الخطر والخطل .

وربما قال قائل : كيف يساند حماة الدين من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ؟

ونجيب أولاً أن الغرض من هذه المؤازرة والمساندة أن نحتوي الشباب ، ونضمهم إلى رحاب الدين قبل أن تتجاذبهم تيارات الكفر والإلحاد . ثانياً ان مفهوم الشر والرذيلة لا يناط بالإلحاد وحده والا كان الكذب ممن آمن بالله خيراً وفضيلة ، والصدق ممن كفر به شراً ورذيلة ! . . ان الاعمال تقاس بما في طبيعتها من خير أو شر ورذيلة ! . ان الاعمال تقاس بما في طبيعتها من خير أو شر وما يترتب عليها من فساد او صلاح ، وعلينا ان نعترف بالخير والصلاح ونباركه ، ونشجب الشر والفساد ونتكره أياً كان فاعله . . وليس من العدل والانصاف أن ندين الشباب وغير الشباب إذا أساؤا ونتجاهلهم إذا احسنوا .

المادة والحياة

بين الحي والجامد :

في الطبيعة أجسام مادية بحت ، أي جامدة لا حياة فيها ، وهي على انواع كالصخر والتراب والمعادن . . وأيضاً في الطبيعة اجسام حية ومتنوعة كالنبات والحيوان والانسان ، ويفترق الجسم الحي عن الجامد من وجوه عديدة نشير إلى طرف منها فيما يلي :

١ — ان الجامد لا يتحرك — كما يبدو للعيان — إلا بدافع من الخارج حتى الطائرة بلا طيار تسير بموجه من الارض ، اما الجسم الحي نباتاً كان ام انساناً فانه يتحرك بدافع من داخله ومؤهلاته ، ويتجه تلقائياً إلى هدف مفروض عليه ، وهو القيام بوظيفته ، واتمام طبيعته .

٢ — ان جسم الحي يفتقر إلى التغذية والا فارقته الحياة .

٣ — ان الحي ينمو ويفرز ويموت ، وإذا اشترك النبات مع الحيوان بالتغذية والنمو فان الحيوان يفترق عن النبات بالسمع والبصر والذوق والشم والألم ، وفوق ذلك يملك الحيوان غريزة الجنس ، ويتقي الأخطار ، وكل هذه الصفات موجودة في الانسان ، ويزيد عليه بحب الاطلاع ، والسعي إلى حياة أفضل عن طريق العقل الذي يستدل ويستنبط ، ويحفظ ويدبر ، ويعلل ويبرر .

مراحل الانسان :

مر الانسان بالعديد من المراحل ، وتدرج من الأدنى إلى الأعلى . من شريف إلى اشرف فاشرف حتى بلغ القمة التي عبّر عنها سبحانه بالأشد ، تدرج الانسان من لا شيء إلى الوجود الترابي أي الجماد ، ومنه إلى الوجود المائي أي النطفة ؛ ثم إلى اول مراتب الحياة أي النمو بلا سمع وبصر ، ثم إلى الوجود الحيواني ، ثم الوجود الانساني . . وتومىء هذه المراحل إلى ان الانسان يسير ببطء وهوادة في تكوينه وقوته وصحته وعلمه وادراكه . بل وفي رصيده وشهرته تماماً كالصرح يقوم على اساس ؛ ويبني لبنة فلبنة حتى إذا ارتفع وكمل تعذر هدمه والنيل منه ، وان أي شيء يأتي دفعة وفجأة فهو على غير الأصول والقواعد لا يلبث حتى يزول كالتهريج والإعلان الكاذب.

وقد جمع سبحانه كل المراحل التي مر بها الانسان في الآية ٦٧ من غافر قال ؛ عظمت كلمته :

١ — « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ » من عالم الجماد .

٢ — « ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ » عالم الماء .

٣ — « ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ » تحولت إلى مضغة ، ومنها إلى اللحم والعظم . وفي هذا التحول نوع من النمو يشبه نمو النبات .

٤ — « ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً » يسمع ويبصر ويشم ويتذوق ويتألم، ولكنه لا يعقل تماماً كالحيوان .

٥ — « ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ » فتعقلوا وتدبروا ، وكل مرحلة لاحقة من هذه المراحل هي أعلى وأشرف من السابقة ، فالنبات يمتاز عن التراب بالنمو والحركة ؛ ويمتاز الحيوان عن النبات بالسمع والبصر ، والانسان عن الحيوان بالعقل والادراك المشار إليه في الآية بالاشد ؛ وهو قمة القمم .

واهب الحياة :

دعا سبحانه إلى الإيمان به ، ودلّ على طرق الهدى إلى هذا الايمان ، ومنها انه تبارك وتعالى هو الذي وهب الحياة ، قال جل وعز :

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الأرْضُ الْمَيْتَةُ أحْيَيْنَاهَا وَأخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأكُلُونَ ﴾ ٣٣ يس .

وقال :

﴿ أمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أفَلا تَتَّقُونَ ﴾ ٣١ يونس .

ووجه الاستدلال باختصار وايجاز — ان الأمر هنا لا يخلو من أحد فرضين : اما أن تكون الحياة من خواص المادة ، ومظهراً من مظاهرها الذاتية . واما ان تكون من صنع قادر مريد أودعها في المادة . . وعلى الأول يجب أن تكون المادة حية بشتّى انواعها من غير تفرقة بين مادة ومادة اينما كانت وتكون ، وهذا خلاف الواقع الملموس ، واذن يتعين الفرض الثاني ، وهو أن الله سبحانه هو خالق الحياة ومالكها .

الماديون والحياة :

منذ القديم والعلماء يدرسون ، وما زالوا يبحثون عن سر الحياة ومصدرها « ولكنهم لم يصلوا بعد إلى حل لهذا السر ، وربما لم يصلوا إليه إلى الأبد » على حد ما قال الدكتور علم الدين كمال الأستاذ بكلية العلوم جامعة القاهرة — في

مقال بعنوان تطور الكائنات الحية المنشور في مجلة عالم الغد الكويتية ج ٣ ع ٤ وفي كتاب فجر الحياة لجوزيف هارولد، ترجمة الدكتور عبدالحليم منتصر ورفيقيه: « من المؤكد ان الكائنات الحية تبدي من الظواهر ما لا يمكن تفسيره طبقاً لخواص المواد الطبيعية » . وفي كتاب مواقف حاسمة في تاريخ العام للعالم الأمركي المعاصر رئيس جامعة هارفارد الدكتور « جيمس . كونانت » ترجمة الدكتور احمد زكي ، قال المؤلف بعنوان أصل الاحياء ونشأتها : « ان الآراء التي تحاول تفسير اصل الحياة كثيرة ، ولكن كل عشرة منها بقرش » أي لا تساوي شيئاً . . وايضاً قال عن هذه الآراء : « لا أستطيع أن اسميها بأكثر من خواطر وعلينا ان نترك الحديث عن اصل الحياة » .

وهذا العجز عن ادراك أصل الحياة هو الذي يؤكد ايماننا بانها من امر الله الذي قال :

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

وعلى الرغم من ذلك قال الماديون او بعضهم : ان الحياة تنشأ وتتولد تلقائياً من المواد الجامدة ، اما لعفونتها كتولد الحشرات من القذارة ، واما لتركيب اجزاء الجسم الحي على شكل خاص كالأجهزة العلمية ، وبخاصة الآلة الحاسبة .

الجواب :

١ ـ ان هذا القول مجرد احتمال وخواطر بلا دليل ، كما سبقت الإشارة وفي كتاب الطبيعة وما بعد الطبيعة ليوسف كرم : « اثبت « باستور » بالتجربة القاطعة أن دودة العفونة وحشرة القذارة تتولد من جراثيم حية لا ينالها البصر

المجرد ، وان كل حي فهو من حي » . . وفي كتاب الله يتجلى في عصر العلم . . . ان « رسل تشارلز » قال : « جميع الجهود التي بُذلت للحصول على المادة الحية من غير الحي قد باءت بخذلان وفشل ذريعين » . وهذا يؤكد القول : ان المادة لا طاقة لها بتوليد القوة الحيوية ، ولكنها إذا بلغت مبلغاً معلوماً من الاستعداد صلحت لحلول الحياة فيها ، وتهيأت لخدمتها مثل الجهاز الذي يصلح بالتركيب لقبول الكهرباء ، او لتلقي الصوت والصورة .

٢ — ليست الحياة مظهراً لازماً لطبيعة المادة ؛ ولا هي نتيجة حتمية لتركيب الأجزاء على شكل خاص .. وإلا وجب ان لا يموت الحي نباتاً كان أم حيواناً ما دام هذا التركيب قائماً ، لأن علة الحدوث هي بالذات علة البقاء والاستمرار مع العلم بأن الحياة تفارق جسم الحي دون أي نقص او خلل في شيء من اعضائه وتركيبها . . وقد يحدث الخلل في التركيب والترتيب ، او النقص والشلل في الأعضاء ولا تزول الحياة على العكس تماماً من الجهاز العلمي الذي يتأثر ويحدث فيه التخريب لأدنى عارض يطرأ عليه .

بل شاهدنا وشاهد كثيرون كيف ينبض بعض الأعضاء بعد فصله وانتزاعه من الجسم الحي . . وفوق ذلك لا نعرف جهازاً علمياً واحداً كالانسان يحس المسموعات والمرئيات والملموسات والروائح والمذاقات ويميز بينها في آن واحد . . والاذن فقياس الانسان على الجهاز الآلي قياس مع الفارق ، وللتوضيح نشير إلى ما قاله الفيلسوف الشهير « راسل » حول هذا الموضوع ويتلخص بان الفارق الجوهري بين الاجسام الحية وغيرها من الاجهزة العلمية هو أن الأجسام الحية تقلد الغير ، وتفهم بالاشارة تلقائياً دون الآلة الصناعية . . وضرب مثلاً على ذلك بقوله : نضع القرش في الجهاز الآلي فيخرج لنا قطعة حلوى . ولكنه لا يفعل شيئاً برؤية القرش ، أو بسماع كلمة قرش [1] .

---

(١) الفلسفة بنظرة علمية ترجمة زكي نجيب محمود .

٣ — إذا سلمنا — جدلاً — ان التركيب او العفوية علة الحياة فمن الذي ركب وهندس ؟ وهل العفونة وحدها سبب لتولد الحياة ، أو حدث ذلك لمجرد الصدفة ؟

٤ — ان القول بآلية الحياة وانها من ثمرات الطبيعة — يستلزم القول بان العقل ايضاً من ثمرات الطبيعة ، وانه آلي لا شعوري ، : يخترع ويكتب ويؤلف ويستدل ويستنبط ويتنبأ بالمستقبل . كل ذلك وما إليه يصدر عن العقل قهراً وتلقائياً . . حتى هذا القول يجب ان يكون صادراً عن قائله بغير وعي وشعور ! . . وهل من شيء أتفه من هذا وأسخف ؟ . .

الخلاصة :

وبعد ، فان مملكة الحياة واسعة ومتنوعة . . ومنها الاعشاب والاشجار ، والطيور والأسماك ، والحشرات والجراثيم ، والحيوان والانسان ، ومنها ما لا نعرف كنهه واسمه ، ولكل نوع من هذه العوالم اصناف [1] ولكل صنف افراده . ولكل فرد ملامحه وبصماته ، وخصائصه وسماته التي لا يشابه بها احداً سواه فهل السبب الأول والأخير لهذا التنوع هو المادة الجامدة . او الصدفة ؟ وهل ماهية من حطم الذرة ، وقفز من الأرض إلى القمر عين ماهية الصخر والحجر ؟ واذن لا فرق — على هذا — بين الأسد والنملة الا في الحجم والشكل !

(١) في مجلة عالم الفكر الكويتية ج ٣ ع ٤ ص ١٦ : أحصي ما يقارب من مليون نوع من الحيوانات ، وحوالي ربع مليون نوع من النباتات . .وفي كتاب التطور « روبرت لمن » ترجمة مصطفى بدران : في الطيور ثمانية آلاف او تسعة آلاف صنف متمايز علاوة على عدد كبير من انواع قريبة الشبه بها .

ان الحياة ليست بجسم ولا من جسم ، وانما هي روح يسكبها الخالق المبدع في الجسم الجامد الميت فينقلب خلقاً جديداً يُبهر العيون ، ويذهل العقول تماماً كما بدأ سبحانه خلق الانسان من طين ، ولما نفخ فيه من روحه اصبح الطين انساناً سوياً . . وكذلك يسكب العبقري على اللفظ الجامد من ادبه وفنه فينقلب حياً يسحر ويبهر . . والخلاصة ان جوهر الحياة شيء ، وجوهر المادة شيء آخر ، ولكنهما يتفاعلان ، ويؤثر كلٌ بصاحبه .

أين الذي يخلق من لا شيء :

في وقت من الأوقات أرادت جريدة « النهار » البيروتية ان تملأ صفحات الملحق الذي تصدره في كل يوم من ايام الآحاد فرغبت إلى جماعة – وأنا منهم – ان يجيبوا عن هذا السؤال : « إذا توصل العلم يوماً إلى خلق خلية فماذا يكون مصير الله ؟ »

ولعل واضع السؤال اراد مصير الايمان بالله ، ومهما يكن فقد تطوع للاجابة كثيرون : منهم المتعلم الاصيل ، ومنهم المتطفل الدخيل . . وما وجدت من نفسي آنذاك أية رغبة في المشاركة ، والآن ، وأنا اشرح نهج البلاغة ، مررت بالاشارة إلى هذا الموضوع ، فكتبت حوله ما يلي :

تقدم العلم خطوات تدعونا إلى الايمان به ، ايماناً نعجز عن وصفه وتحديده ؟ لان ما من احد في وسعه – بالغاً ما بلغ من العلم – ان يضع معادلات يتنبأ بسببها عن كل ما يتوصل إليه العلم من مكتشفات ومخترعات ، كيف ؟ وكلما بلغ العلم افقاً بدت له آفاق لا حد لها ولا نهاية . . انه يرى المجهول ما في ذلك ريب . ولكنه على الدوام يرى أيضاً من خلال اكتشافاته ان ما غاب عنه أكثر بكثير مما ظهر له . . واذن فمن الجائز ان يكتشف العلماء

سر الحياة ، بل من الجائز ان يخترعوا في يوم من الأيام انساناً في احسن تقويم ؛ ولكن هذا لا يؤثر اطلاقاً في ايماننا بالله حتى ولو كان الانسان المخترع – بفتح الراء كأرسطو في فلسفاته ، واينشتين في نظرياته ، وشكسبير في شعره ومسرحياته . . ذلك لأن العلماء لا يخترعون شيئاً – ولو كان تافهاً – إلا بمعونة الاسباب التالية :

١ – ان يكون لهم عقول يخططون بها ، ويجهدونها في الرؤية والتفكير ؛ لان العقل أصل ، والعلم فرع وثمرة من ثمراته .

٢ – ان تتهيأ للعلماء المادة التي يحولونها إلى انسان . سواء أكانت جماداً أم نباتاً أم نطفة حيوان ، اذ يستحيل على العلم والعلماء ايجاد شيء من لا شيء وليس من شك ان المادة التي يكيفونها ويحوّلونها إلى آخر ليس من صنعهم .

٣ – ان تتوافر لديهم المختبرات والادوات الفنية ؛ لانها الوسيلة لايجاد أي شيء فضلاً عن ايجاد انسان بعقله وطاقاته .

هذه الاسباب أو الشروط الثلاثة لا بد منها ؛ ولا غنى عنها لكل من حاول ويحاول غزو الطبيعة وتسخيرها لحاجة من حاجاته وغاية من غاياته .

والله الذي نؤمن به ، ونعبده غني عن كل شيء . وكامل من كل وجه ولو احتاج إلى شيء لاستحال ان يستقل باحداث شيء ، بل لا بد ان يستعين بغيره ؛ ومعنى هذا انه ناقص ومحدود ، ومفتقر إلى شيء خارج عن ذاته يتم به ويكمل ، ومن البداهة ان الفقير الناقص والمحدود يستحيل ان يكون إلهاً . . ان ذات الاله الحق الذي نؤمن به – تمنح الوجود لغيرها بطبيعتها . وبما هي بلا واسطة شيء على الاطلاق .. انها تريد فيوجد المراد بالفعل . كما شاءت وأرادت .

ان الاله الذي نؤمن به يقول للشيء : كن فيكون . بلا جولة فكر ، ولا هندسة وتخطيط ، وعلاج آلات ، وأذرع وحركات . واذن فايمان العارفين بالله لا يزعزعه شيء . الا إذا استطاع العلماء ان يوجدوا شيئاً أي شيء من لا شيء . وبمجرد ان يريدوا ايجاده بلا روية وتفكير . وآلات ومختبرات . وأعين وأذرع ومتى تم لهم ذلك « فأنا اول العابدين » .

وبكلام آخر يجب قبل كل شيء ان ننظر إلى نفس الاله الذي آمن به من آمن ننظر إلى حقيقته وهويته : فان كان من جنس طبيعة المادة المنفعلة التي لا تستقل بايجاد شيء . او كان عبارة عن فكرة مجردة . ونظرية ذهنية كالشرف والكرامة – مثلاً – ان كان من هذا النوع ، او ذاك يكون مصير الايمان به إلى فناء وزوال لا محالة سواء اكتشف العلماء سر الحياة . أم عجزوا عن اكتشافه . اما إذا كان الاله المعبود هو قوة فعالة لها جميع صفات الكمال من كل جهة وتؤثر ولا تتأثر ، وإليها يفتقر كل شيء ولا تفتقر هي إلى شيء وليس كمثلها شيء . وهي المبدأ الأول للخلق والتدبير . أما الايمان بهذا الاله فهو ارسخ من الراسيات حتى ولو اكتشف العلم سر الحياة . واخترع الف انسان وانسان :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ . ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ ﴾ الحج ٧٤ .

حول الاسلام

طريق المعرفة إلى الإسلام :

قال لي شاب متعلم ومسلم بالأبوين : أحس من نفسي أنها تموج في الشك والحيرة من كل الأديان ، وأود لو اقتنع بالاسلام لانه دين آبائي وأجدادي .. فهل لك أن ترشدني إلى ما يطمئن إليه القلب ، ويرضى به العقل الذي يشهد شهادة علم وإيقان بقوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ٨٥ آل عمران .

قلت له : الأمر سهل يسير إذا كنت جاداً في قصدك وعزمك ، ولم تكن امنيتك هذه مجرد بارقة مرت بخاطرك وخيالك .. ان الاسلام لا يريد من أحد أن يؤمن به عن جبر واكراه ، ولا عن جهل وتقليد ، بل عن معرفة وقناعة ، وتعقل وروية ، وحذّر من الانسياق وراء الظن ، وانكر أشد الإنكار على من يؤمن او يقول او يفعل بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، كما في الآية ٨ من الحج . والمراد بالعلم هنا الحس والعيان ، وبالهدى العقل والبرهان ، وبالكتاب المنير الوحي الثابت نقلاً وعقلاً .. والعقل هبة الله لعباده لينتفعوا به في كل شأن من شئونهم ، وحجته على من تصرف بالهوى وانحرف عن الهدى ، والعلم ثمرة العقل ، وادراك الحق والخير عمله ومهنته .

وإذا قال قائل : « رب حسن عند زيد هو قبيح عند بكر » قلنا في جوابه : ان جوهر العقل واحد في كل انسان شرقياً كان ام غربياً ، ومدلوله واحد حسناً كان ام قبيحاً . والفرق انما هو في اسلوب التفكير تبعاً للبيئة والتربية وأياً كان نوع الاختلاف فان العقلاء بكاملهم متفقون قولاً واحداً على كثير من الحقائق ، ويطلقون عليها اسم الاوليات المسلمات البديهيات كالبراهين الرياضية . وما هو بمنزلتها في الوضوح والبديهة ، ومنها هذه الحقيقة : كل من شك في شيء فلا يسوغ له الحكم عليه بسلب او ايجاب الا بعد البحث المؤدية إلى معرفته حقاً ويقيناً .

عقيدة الإسلام واضحة :

وعقيدة الاسلام ، اضحة باصولها واهدافها [1] وشريعته بينة بفرائضها وسننها . أبداً لا الغاز وتعميمات غامضة في شيء من تعاليمه ومبادئه . . اما الذي جاء به فهو بشر مثلنا « يأكل الطعام ويمشي في الاسواق » وتاريخ حياته معروف لكل جيل ، وسيرته من جميع جوانبها منتشرة في شرق الارض وغربها . وبين يدي كل طالب وراغب .

ومن أحب وأراد أن يعرف : هل الاسلام دين الحق ؟ وهل محمد جاء به من عند الله ؟ — فعليه قبل كل شيء أن يتجرد عن أية فكرة سابقة . ثم يدرس دراسة موضوعية حياة محمد (ص) منذ نشأته إلى أن لحق بالرفيق الأعلى . أن يدرس اسلوبه في الحياة . ومنهجه في التفكير ، وتصرفاته قبل البعثة كانسان أمي عاش في بيئة الشرك والجاهلية . ويدرس تصرفاته بعد البعثة كمنقذ للبشرية جمعاء من العماية والضلالة . والجمود والتخلف وأيضاً يدرس

(١) اشرت الى هذه الاهداف في كتاب « الاسلام بنظرة عصرية » .

رسالة محمد (ص) ككل اصولاً وفروعاً ، ومدى تأثيرها في حياة الافراد والجماعات . . وليس من شك انه سينتهي – بوحي من دراسته هذه – إلى الايمان بالاسلام ونبي الاسلام .

ومن البرهان على ذلك الذين اسلموا وآمنوا برسالة محمد قديماً وحديثاً عن هذ السبيل بالذات ، وفيهم مشاهير العلماء وكبار الفلاسفة والادباء ، وكتبوا ونشروا على الملأ : كيف آمنوا بمحمد ، واقتنعوا بأن رسالته من وحي السماء . وتُرجمت اقوالهم إلى العديد من اللغات : منها اللغة العربية ، ووضع بعض الباحثين العرب كتباً خاصة في اسلام العديد منهم مع اقوالهم في النبي والقرآن . ومن تلك الكتب كتاب لماذا اخترنا الدين الإسلامي للرضوي ، وكتاب محمد والقرآن لكاظم آل نوح . . وفي كتاب التكامل لأحمد أمين العراقي ، وكتاب ما يقال عن الإسلام للعقاد – عدد لا يستهان من هؤلاء العلماء والفلاسفة .

وإذا كان المجال هنا لا يتسع للحديث الوافي برسالة الرسول وسيرته العطرة – فلا أقل من اشارة خاطفة إلى شخصيته . ومراحل دعوته ، وعمومها للناس اجمعين . . عسى ان تضيء هذه الاشارة إلى بداية الطريق امام من أحب سلوكه .

شخصيته :

ان شخصية الفرد لا تُفرض عليه من الخارج . . انها نفسه وحقيقته . فإذا قيل : لا شخصية لفلان فهمنا من هذا القول أنه ليس بشيء يُذكر . والعكس بالعكس أي إذا قيل : له شخصية كان المعنى أن له ضرباً من الوجود ، وانه أخذ من الطبيعة البشرية شيئاً من صفاتها وخصائصها .

وقد أخذ محمد (ص) من الانسانية أنبل ما فيها . وأقصى ما يمكن أن يتصوره العقل من عظمة الانسان وكماله ، وقد أوجز سبحانه صفات نجيه بهذه الكلمة الجامعة الرائعة :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾
٤ القلم .

ومن هذا الخلق النبيل العظيم الصدق والامانة ، والشجاعة والإيثار ، والاعتدال في كل الامور . فالصادق الأمين لقبه بين قومه وعارفيه ، اما ايثاره فكان ينفق على المحاويج كل ما يملك ، ولا يبقى منه لنفسه واهله الا دون الكفاف من قوت من لايموت ، ومن أقواله : « ما احب ان يكون لي مثل أحد ذهباً انفقه في سبيل الله أموت واترك منه قيراطين » .

ومن البرهان على شجاعة الرسول الاعظم (ص) قول الإمام علي (ع) : كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله . فما يكون احد أقرب إلى العدو منه . وكان فحل من الابل قد جمح وتوحش واصبح من الكواسر الضارية حتى فر الشجعان من امامه ، فاقتحم عليه النبي وجذبه بقوة فأخضعه وكبح جماحه . ولم تكن قريش قد تعودت الاقدام على مثل هذا الخطر من أجل الآخرين . ولا عرفت احداً يمثل هذا الاستبسال .

اما القصد والاعتدال فيومىء إليه قوله : « خير الأمور أوساطها . . ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا . ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه . . المؤمن القوي خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف اني اصوم وأفطر . وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

وأشد ما تمتاز به شخصية محمد (ص) الوضوح والبساطة والانسجام . . وأعلن اكثر من مرة أنه لا سلطان له على أحد ، وأن حسابه وحساب الخلائق على الله ، وانه والناس سواء امامه تعالى ، وانه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً . ولا يدري ما يفعل به ، وانه لو علم الغيب لاستكثر من الخير ، وما مسه السوء . . وحين قال المسلمون : كُسفت الشمس لوفاة ولده ابراهيم — رد عليهم بقول حاسم : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت احد من البشر » . ونُقل عن الجندي ملك عمان أنه قال : « والله لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير الا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شيء الا كان اول تارك له ، وأنه يغلب فلا يبطر ويُغلب فلا يضجر ، ويفي بالعهد ، وينجز الوعد ، وأشهد أنه نبي » .

•

وبعد فان خير ما يحدد شخصية رسول الله (ص) هذا الأثر الكبير الضخم الذي تركه ، والتحول الخطير في حياة العالم كله .. قال « د.ل ديورانت » في قصته الحضارة : « أخذ محمد على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب عاش في دياجير الهمجية . . وقد نجح في هذا العرض نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله . وقد وصل إلى ما يبتغيه . . وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم — ديناً سهلاً واضحاً ، وصريحاً قوامه البسالة والعزة ، واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مئة معركة ، وفي قرن واحد أن ينشيء دولة عظيمة ، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في العالم ». وقال « مونتجمري وات » في كتاب محمد في المدينة: «كلما فكرنا في تاريخ محمد تملكنا الذهول امام عظمة مثل هذا العالم » . . ولا بدع ان لا يوازي محمداً في عظمته — احد من العالمين . . فانه سيد المرسلين وخاتم النبيين .

مراحل الدعوة :

لاقت دعوة محمد(ص)من قوى الشر والبغي — ما تلاقيه كل دعوة اصلاحية، ومرت مع اعدائها بالعديد من المراحل . ولكن محمداً تخطاها جميعاً بحكمته وتدبيره ، وصبره وتخطيطه . وهذا من اوضح الدلائل على عظمة شخصيته .

جهر بدعوة الإسلام . فقوبل أول الأمر بالسخرية والاستهزاء ، فصبر ومضى في دعوته ، وانتشر الإسلام في مكة بين جماعة من الرجال والنساء . فاشتد غضب الأشرار ، واجتمعت كلمتهم على إيذاء من اسلم بكل الوان التعذيب والتنكيل ، وحاولوا اغراء النبي بالملك والمال ، ولكنه رفض بحزم وصلابة . فلجأوا إلى الحصار والمضايقة ، وتعاقدوا فيما بينهم أن يقاطعوا النبي واهله والذين معه اقتصادياً واجتماعياً . . واستمر الحصار في الشعب ثلاثة اعوام حتى اشتد البلاء والجهد بالمحصورين ، وتعالت اصوات الصبيان بالبكاء، وكانوا يأكلون ورق الشجر المر.. وروى بعض من كان مع النبي في الحصار : أنه وجد قطعة جلد جافة فبللها بالماء، ووضعها على النار واكلها .

ورغم ذلك ازداد المؤمنون ايماناً بالله ورسوله ، وبان الحق لا بد أن ينتصر ، فعزم الطغاة على اغتيال محمد مجتمعين بضربة رجل واحد كي يتفرق دمه في القبائل . . ولكن الله سبحانه هدم بنيانهم من القواعد . . وهاجر النبي (ص) إلى المدينة ، فجمعوا الجيوش له ، وأعلنوا عليه حرباً منظمة ، وظلوا يقاتلونه زهاء عشر سنين . . ورد الله الذين كفروا بغيظهم . . وبعد العجز واليأس استسلموا صاغرين .. هكذا أراد الله ، وكان له ما أراد ..

وهكذا سارت دعوة الإسلام وحياة الداعي وصحابته : ينصرون الله . والله ينصرهم وفاء بوعده ، وعملاً بقوله :

﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ
وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾

٨ ـ ٩ محمد .

لماذا عفا محمد عن ألد أعدائه :

يبقى هذا السؤال : وماذا فعل النبي (ص) باعدائه حين تمكن من رقابهم ؟ . . وقد وجه النبي نفسه هذا السؤال إلى الذين استسلموا بعد أن قاوموا وقال لهم : يا معشر قريش ما تظنون اني فاعل بكم ؟ .

قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن كريم

قال : اذهبوا فانتم الطلقاء .

ما هذا ؟ هل هو رحمة ، أم اريحية ؟ . كلا ، انه سمو المبدأ ، وشرف المقصد ، وخلق المصلح الذي لا يفعل الفعل بوحي من منافعه ، أو دافع من اغراضه . . لقد أراد النبي (ص) بهذا العفو أن يُفهم الاعداء والعالم كله أنه لا يبتغي من وراء النصر على من يروم قتله وتدميره الا احقاق الحق وازهاق الباطل ، فإذا تم ذلك وتحقق فلا تشفي وشماتة ، ولا تقتيل وتنكيل . . وليس من شأنه وشيمته أن يستذل احداً حتى ولو كان ألد أعدائه . لأن هذا الخلق لا يجتمع بحال مع نزاهة الهدف ، والاخلاص للمبدأ ومن هنا تجاوب مع الدعوة والداعي كل من عرف محمداً على حقيقته ، ودرس سيرته بحثاً عن الحق لوجه الحق .

الرسالة والرسول قبل الإسلام :

اختلف القصاصون القدامى في عدد الانبياء ، فمن قائل : ثلاثمئة وثلاثة عشر نبياً ، وقائل : مئة واربعة وعشرون الفاً ، وقال آخر : مليون واربعمئة واربعة وعشرون الفاً . . ولا ادري : كيف تم هذا الاحصاء . والله سبحانه يقول لنجيه :

﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾
٧٩ غافر .

ومهما يكن فنحن غير مكلفين بالبحث عن عدد الانبياء وعدتهم . ويكفينا الايمان على سبيل الاجمال بما جاء فيهم من آية قرآنية او سنة نبوية .

ومن تتبع آي الذكر الحكيم يجد أن رسالة كل نبي – غير محمد – تقف على قومه فحسب . أو على أهل زمانه ، ولا تتجاوزها إلى جميع العالمين من بعده ، بل ان رسالة بعض الانبياء كانت مقصورة في مضمونها على محاربة الاصنام ، وعبادة الله وحده لا شريك له . كما تومىء الآية ٨٦ من الاعراف :

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً
قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ
مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

ومثلها رسالة هود وصالح كما في الآية ٦٥ و ٧٣ من السورة نفسها .

عموم الرسالة المحمدية :

اما رسالة محمد (ص) فقد خاطبت كل انسان اينما كان ومتى يكون:
« قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ
اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً » ١٥٨ الاعراف.
« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً
لِلْعَالَمِينَ » ١٠٧ الانبياء .

اما مبادىء رسالة محمد (ص) فانها تتسع للحياة الانسانية من شتى جوانبها ، وفي جميع مراحلها لأنها تلغي كل ما هو خاص بزمان او مكان وعنصرية او طبقية .ولا تبقي الا النافع الصالح في كل عصر ومصر » :

﴿ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ ١٧ الرعد .

أية أرض في الشرق ام في الغرب . في القديم ام الحديث .

ومن البرهان على ذلك اولاً ايمان الاسلام بالعقل ، وثقته بقدرته على معرفة الحقيقة . ثانياً ايمانه بالعلم والحث على طلبه ، والتنديد بالتقليد والمتابعة العمياء . ثالثاً ايمانه بالجهد والعمل لحياة أرقى وأقوم . رابعاً ايمانه بالعدل والحرية والمساواة ، وبالثورة ضد الجهل والظلم والاستغلال ، وكل مبدأ من هذه المبادىء يُسقط ما هو خاص ، ويستبقي ما هو عام ومشاع بين كل الناس .

وايضاً من مظاهر الانسانية الشاملة في رسالة الاسلام ، الجمع بين الدنيا والدين . وجعل الدنيا مطية للآخرة . ووجوب الايمان بكل نبي ورسول دون فرق في ذلك بين احد منهم . . ويحمل هذا الايمان معنى عرفان الجميل لجهد كل كريم ، وايضاً من مظاهر شمول الرسالة وجوب التعاون مع كل فئة وجهة على خدمة الانسان ومصلحته . وقد حدد محمد (ص) رسالته وتكاملها دون سائر الرسالات ، وصورها بابلغ صورة واكملها حيث قال : « مثلي ومثل الانبياء من قبلي ، كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه واجمله الا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فانا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » .

هذه اللبنة المكملة :

وهذه اللبنة المكملة لصرح التعاليم الانسانية ، إن هي الا كناية عن شمول الرسالة المحمدية . وانها تتجاوب بمبادئها مع مطالب الحياة في كل العصور والامكنة ، وفي جميع الحالات تماماً كالذي يبني داراً تصلح للسكن في كل الفصول والعصور .

وإذا قال قائل : ان ما يصلح لعصر مضى لا يمكن تطبيقه على عصر أتي ويأتي . لأن كل شيء فينا وحولنا يتغير ويتحرك . شئنا ذلك أم أبينا ، وعليه فلا يمكن بحال أن تصلح شريعة واحدة لكل الناس في كل الازمنة والامكنة ، إذا قال هذا قائل قلنا في جوابه : اولاً ان التغيير والتبديل انما هو في الافراد لا في المفاهيم . ثانياً ان الاسلام قد حث على العمل من اجل التطور والتحول . ولكن إلى الاحسن والأقوم . كما نصت الآية ٩ من الاسراء :

﴿ إنَّ هَذا القُرْآنَ يَهْدي لِلَّتي هِيَ أقْوَمُ ﴾

ومعنى هذا أن الإسلام مع ما ينفع الناس في جميع الحالات ، ومهما تغيرت الظروف والبيئات .

وليس من شك ان الأنفع والأصلح لجميع الناس لا يتحقق ولن يتحقق الا مع التعاون الشامل الكامل . وهذا النوع من التعاون لا يتحقق الا إذا التغت جميع الحواجز والفوارق ، وامتزاج الماضي بالحاضر ، والحاضر بالمستقبل ، والشرق بالغرب والاسود بالابيض ، وعاش الكل تحت راية الواحد الأحد بلا شيوعية . . ولا رأسمالية . . ولا وجودية . . ولا برجماتية . . ولا صراع

ومنافسة . . ابداً لا شيء الا تعاون الكل باخلاص لمصلحة الكل . . وهذا هو الأساس الذي بنى عليه الإسلام جميع احكامه وتعاليمه :

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَقْوَى
وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَان »
٢ المائدة .

« مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ
أوْ فَسَادٍ في الأرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
النَاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا
أحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً » ٣٢ المائدة .

دعوة محمد بنفسها دليل :

وبعد ، فان خير حجة وركيزة للايمان بنبوة محمد (ص) هي دعواه بالذات ، ومجرد قوله : اني لكم رسول امين . . ألم تشهد الوثائق التاريخية القاطعة بأن محمداً كان كاملاً في عقله ، وصادقاً في قوله ، واميناً على عهده ونزيهاً في قصده ، وعظيماً في خلقه ؟.. واذن يستحيل أن يدعي النبوة الا إذا اقتنع . ولا ولن يقتنع الا بالحس والتجربة ، وكفى بتجربة محمد ضماناً وبرهاناً .

وكل الناس قديماً وحديثاً يطبقون هذا المبدأ على كل دعوة مخلصة ونزيهة يدعيها عالم مجرب ، وامين متثبت . . يبحث العالم وينقب حتى إذا ادرك الحقيقة أعلنها على الناس ، فيتقبلونها شاكرين أمانة منقولة ، ويدينون بها تماماً كما تقبلوا « الجاذبية » من نيوتن ، و « النسبية » من اينشتين . . ومن الفلكي والجغرافي ، وعالم الاجتماع والنفس . . ومن سيبويه ونفطوية وابن درستويه إلى غير ذلك من الآراء والمعتقدات التي نتلقاها بالتصديق عن العلماء الأمناء دون أن نجرب كما جربوا ، ونستنبط كما استنبطوا حتى ولو كان ذلك ممكناً لنا ومقدوراً .

وأختم هذا الفصل بكلمة للدكتور محمد سعاد جلال . نشرتها جريدة الجمهورية المصرية ١٠ – ٧ – ١٩٧٣ . وهذا نصها بالحرف الواحد :

« أمعن القرآن الكريم في الاستدلال بالمصنوعات الكونية ، وظواهر الوجود المتنوعة في الأرض والأنهار والنبات والسحب والأمطار ، واختلاف الألوان والألسنة والجبال والناس ، والانعام وغيرها ، وفي السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والمشارق والمغارب . مما حفل القرآن بذكره وغدا يكرره ويعيد تكراره دائماً .

فلفت نظري ذلك وتساءلت : ان الاستدلال على وجود الله و حكمته وعلمه بمظاهر الموجودات ودلالتها هو قمة القمم في الفلسفة الإلهية ، والثقافة الدينية العقلانية . وان تكرار هذا الاستدلال بصورة تمثل نهاية الإمعان والإغراق ، ان هذا ليدل على قصد مقصود ، وباعث عظيم الوعي لهذا الجانب من الاستدلال وايقاظ البصائر والابصار إليه . ولا يكون مصادفة واتفاقاً . وهو عمل لا يمكن أن يصدر الا عن ثقافة فلسفية ، ودراسات علمية متنوعة . وتربية ذهنية منطقية للمستدل به ، فأين كانت نشأة محمد (ص) وتربيته من هذا الحساب كله . وهو اليتيم الامي المنشأ في بيئة جاهلية . وامة امية ؟

لقد كان من المستحيل على محمد (ص) ان يلتفت ذهنه بحكم بيئته ومكوناته الطبيعية وانطباعاته الاجتماعية والثقافية . وأن يتجه وعيه إلى هذا الاسلوب النادر الخفي الدقيق في الاستدلال بصورة تدل على شدة القصد وقوة الوعي . كان من المستحيل أن يكون ذلك لو لم يكن نبياً يتلقى وحي ذلك المنهج من السماء . ومن لدن رب العالمين . فهذا المنهج من الاستدلال . وصدوره عمن لا يملك شروطه – دليل قاطع على صدق صاحبه حينما يدعي الوحي والبلاغ عن الله رب العالمين » .

كتاب الظاهرة القرآنية

مفيد ولكن معقد :

ألف الكاتب الجزائري الشهير مالك بن نبي كتاباً في اللغة الفرنسية ، اسماه الظاهرة القرآنية . وترجمه إلى العربية الاستاذ عبد الصبور شاهين؛ والهدف الأول من الكتاب اثبات نبوة محمد (ص) بمنطق الحس والعقل ، لا بالنصوص والمغيبات ، والأسرار والمعجزات . . وقد أنار الطريق لكل تائه وحائر . وأفحم كل معاند ومكابر .

ولا عيب فيه إلا الغموض والتعقيد . . انه اسلوب عتيق ، يرجع إلى عصر ما قبل المطابع والجرائد ؛ ولو كان في اسلوب هذا العصر لكانت فائدته أكمل وأعم . وعلى سبيل المثال أذكر منه هذه العبارة : « انا نفراد النبي بكونه الشاهد الوحيد على الظاهرة يخلع على هذه الحقيقة قيمة استثنائية خاصة » . والمعنى باختصار كامل وواضح أن النبي علم الوحي بطريق الحس والمشاهدة وهذا الطريق يتعذر على غير الانبياء، وعليهم ان يبحثوا عن طريق آخر لمعرفة الوحي .

ومن أجل هذا رأيت من المفيد أن اعرض بعض افكار الكتاب بايجاز وبكثير من التصرف في الشكل دون المحتوى .

أزمة خطيرة :

يمر الاسلام والمسلمون الآن بأزمة خطيرة جداً .. أحدثها وأثارها عدد من شبابنا المسلم بالأبوين الذين تخرجوا من جامعات أجنبية ، وأصروا على ترديد الأفكار التي زكاها أساتذتهم من غير تمحيص وروية . . وما كان في هذا من بأس لو وقف عند الحقائق العلمية ، أو التقاليد العرفية « الأتيكيت » ولكن تعداه إلى الهوى والتعصب الصاخب والمتستر بستار العلم وحرية الفكر ، وعن هذا الطريق توغل الالحاد والتشكيك في كل تراث إسلامي وعربي إلى درجة كبيرة .

ومن المؤلم أن يوجد إلى جانب هؤلاء جمهور ينتمي إلى الدين ، وهو يحمل افكاراً خرافية . وعقلاً مشلولاً عن كل تقدم ! مما ساعد على زعزعة الثقة في الدين وأهله .

الظاهرة الدينية :

أظهر علم الآثار أن الإيمان بالله قديم بقدم الأزمان ، فمن الكعبة إلى كهوف العبادة في العصر الحجري ، ومنها إلى معبد سليمان ، وعهد المعابد الضخمة . ومن هذه المعابد أشرقت الحضارات ، وازدهرت الجامعات ، ودارت المناقشات السياسية والعلمية والفلسفية ، وأيضاً كل القوانين لاهوتية في أصلها واساسها ، أما ما يطلقون عليه اسم القانون المدني فانه ديني في جوهره ولا سيما في فرنسا حيث تعرف الفرنسيون على الشريعة الإسلامية اثناء حملة نابليون على مصر ، واشتقوا منها قوانينهم .

ما وراء الطبيعة :

المادة قاصرة قصوراً ذاتياً عن خلق نفسها ، وعن ايجاد نظامها وتركيبها ، لأنها عبارة عن مجرد حوادث متتابعة ، كما قال علماء الطبيعة ، وبالتالي فان المادة تعجز عن تزويدنا بنظرة علمية ، أو فلسفية عن الخلق وما فيه من تطور ونظام . واذن فمن الضروري أن نفرض وجود قوة وراء المادة ، ومتميزة عنها .. وهذه القوة وحدها هي التي تمدنا بالتفسير الصحيح لوجود الكون ونظامه ، ولكل ما تعجز العلوم الطبيعية عن تفسيره .

هذا ما يقره العقل الذي يربط المسببات باسبابها ، والنتائج بمقدماتها .. اما الماديون فأنهم يلجأون إلى الصدفة حين يعجز العلم عن التفسير ، ومعنى هذا أن الصدفة هي الإله المعبود للماديين ، وان الله سبحانه هو إله المؤمنين .

وكلما تقدم العلماء اكتشف العلماء أن وراء ملايين السنين الضوئية اشياء وحقائق يستحيل الوصول إلى معرفتها بأي طريق . وحسب المؤمن بالله ان لا يصطدم إيمانه مع مكتشفات العلم الحديث .. هذا إذا لم يُدل ببراهين جديدة على وجود الله ، ويزد الأدلة القديمة قوة ووضوحاً .. والإختلال الروحي هو الذي يخلق الصراع بين العلم والدين .

مبدأ النبوة :

منذ ابراهيم الخليل إلى محمد (ص) جاء انبياء كُثُر وخاطبوا الناس باسم الله الواحد الأحد ، وقالوا : انهم مرسلون من عند الله ليبلغوا كلمته إلى خلقه ، كما أشارت الآية ٩ من الأحقاف :

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ ﴾

وكل ظاهرة طبيعية كانت او اجتماعية إذا تكررت واستمرت بانتظام – تعتبر شاهداً علمياً على انها حقيقة ثابتة بالضرورة ، وان لها خصائصها ومميزاتها .

وإذا درسنا حياة الانبياء نجد ان من أخص خصائصهم الكمال الجسمي والعقلي والخلقي ، وان رسالة اللاحق منهم امتداد لرسالة السابق في جوهرها وهدفها ، وانهم من اجلها كانوا في صراع دائم ومرير مع قوى البغي والشر حتى قُتل منهم العديد ، وشُرد آخرون بعد التعذيب والتنكيل . . لا لشيء الا في سبيل دعوة الخير والحق والعدل والمساواة :

﴿ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا
لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا
وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ﴾ ٧٠ المائدة .

وهذا يؤدي بنا حتماً إلى الايمان بصدقهم وامانتهم، كما هو الشأن من شهداء المبدأ والعقيدة ، لا شأن المتهوسين وارباب الأمراض النفسية .

القرآن الكريم :

يمتاز الاسلام من بين الاديان في العالم كله – بأنه الدين الوحيد الذي ثبت كتابه السماوي منذ اللحظة الأولى لوجوده . . وتنقل طوال اربعة عشر قرناً دون أن يتعرض لأدنى تحريف او ريب ، اما التوراة فقد وضعت بعد موسى ، والانجيل بعد عيسى بعهد طويل ، ونالتهما يد التقليم والتطعيم باعتراف الشراح والناقدين من اهل الكتابين . (انظر كتاب اظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي) . . واذن فليست هناك أية مشكلة بالنسبة إلى القرآن ، كما هو الأمر بالقياس إلى التوراة والانجيل . وبهذا نجد تفسير الآية ٩ من الحجر :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا
لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

قبل البعثة :

ان الخطوة الأولى إلى الحكم بان نبوة محمد (ص) حق وصدق هي أن ندرس نفسيته من حيث عقله واخلاصه ، لأنهما الأساس الجوهري لكل دليل يمكن الاعتماد عليه في هذا الموضوع ، ولكي نخرج بنتيجة صحيحة فعلينا أن ننظر إلى حياة محمد (ص) في عصر ما قبل البعثة . ويمتد اربعين سنة وعصر الوحي والبعثة ، وهو عبارة عن ثلاثة وعشرين عاماً .

قضى محمد (ص) حوالي خمس سنوات في الصحراء عند مرضعته « حليمة » وكان لها مصدر خوف وسرور ، خوف عليه ، وسرور به ، وبعد قليل ماتت أمه آمنة ، فضمه جده عبد المطلب ، وما بلغ الثامنة من عمره حتى مات جده ، فكفله عمه ابو طالب ، وقضى محمد مرحلة الشباب دون أن ينزلق في اثم او شهوة مع ان فرص الفساد كانت وافرة في مكة ، وكان في اعين قومه الصادق الامين ، وهذه شهادة تاريخية تعطينا صورة مفصلة وثمينة عن نفسيته .

وفي سن الخامسة والعشرين تزوج خديجة ، وترك هذا الزواج وثائق قيمة في سيرة محمد (ص) منها الخطبة التي ألقاها عمه أبو طالب في زواج ابن أخيه حيث قال :

« اما بعد . فان محمداً ممن لا يوزن به فتى من قريش الا رجح به شرفاً ونبلاً ، وفضلاً وعقلاً . وان كان قلاً فان المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك » .

وهذه الكلمات تصلنا تماماً بصورة الصادق الأمين . وتتفق من كل وجه مع الصورة التاريخية لبطل أعظم ملحمة في العالم كله .

وكان محمد أمياً ، وعاش في بيئة جاهلة مشركة . . ولكنه كان حنيفاً يؤمن بإله واحد ، وقد أتاه هذا الايمان من إلهام الفطرة . وصفاء العقل .

ومن الوراثة عن جده البعيد اسماعيل ، ولم يكن في مقدوره أن يحصل على أية معلومات من مصدر خارج . وكان يميل إلى العزلة بخاصة بعد زواجه .

ولا شيء على الإطلاق يشير ، ولو من بعيد ، إلى انه كان يحلم ويفكر في أن يكون نبي المستقبل ، بل لدينا شاهد تاريخي غير قابل للطعن والتجريح على أنه لم يكن لديه أدنى أمل في أن يقوم بدور النبي ، وهو قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ ٨٦ القصص .

وهذه الآية صورة صحيحة وصادقة لحالة النفس عند محمد أيام غار حراء ، واذن فليس هناك من سبب لأن ينسب إلى الصادق نية مبيتة لدعوة النبوة ، كما زعم بعض المستشرقين والمبشرين ضد الاسلام

والخلاصة ان جميع صفات محمد (ص) واحواله قبل البعثة كانت ترشحه للرسالة الإلهية ، ولكل ما حدث بعد البعثة دون أن يشعر هو بذلك .

وقد علم الله والناس هذه الصفات الجلى من الصادق الامين وسجل سبحانه في كتابه العزيز بقوله :

﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ ١٢٤ الانعام .

وقوله :

﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ١٦ يونس .

بعد البعثة :

وجاءت سيرة محمد (ص) بعد البعثة امتداداً لسيرته قبلها كمالاً في العقل والإدراك ، وعظمة في الصفات والأخلاق ، ذلك هو الأساس والخط العريض

لأقواله وافعاله في شتى مراحل حياته . وكل ما في الأمر أنه اختفى من مسرح التاريخ قبل البعثة . وظهر بعدها كالشمس في وضح النهار .

ومرّ محمد (ص) بفترة عصبية . وشمله الهم والألم بعد أن أتم الأربعين من عمره الشريف . ذلك أنه سمع صوتاً يناديه ويقول له : « يا محمد انت رسول الله حقاً . . اقرأ » . فوقف حائراً لهذ المفاجأة . وهب كأنما مسته الحمى . وفكر ملياً : من اين جاء هذا الصوت ؟ وهل مجرد سماعه كاف للتصديق ؟ .

ابداً . . لا يأخذ محمد بالشبهة . ولا يجزم باللمحة . ولا يثق الا بالحجة البالغة والبراهين القاطعة ، كما هو شأن كل عظيم يسيطر على ذاته . ويقدر كل خطوة من خطواته بخاصة إذا كان الأمين على التزيل . ولكن الصوت يعاوده ويتكرر . . ثم يظهر له جبريل على هيئة رجل ، ويستقين النبي . ويخشع قلبه . وتزول الريبة والحيرة . . قال أهل التفسير : حين نزلت هذه الآية :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا
أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُمْتَرِينَ ﴾ ٩٤ يونس .

فعقب النبي عليها وقال : لا أسأل ولا أشك .

ولا شك أن هذا الاقتناع واليقين برهان مباشر على نبوة محمد . لأنه لم يحدث عن حدس ووهم ، بل عن حس وعلم . . على أن هذا الدليل يصحبه دلائل كثيرة ، منها الدليل التالي :

اعجاز القرآن :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

٢٣ البقرة .

وما ذكر التاريخ أن احداً قد أجاب عن هذا التحدي ، ومعنى ذلك أن اعجاز القرآن الأدبي قد أفحم فعلاً عبقرية ذاك العصر . . هذا ملخص ما قاله علماء المسلمين .

ولكن لدينا دليل آخر. وهو أن النفس البدوية طروب في جوهرها ، وقد تجلى ذلك في تعبير موسيقي موزون هو بيت الشعر الذي استوحاه العرب من خطوة الجمل القصيرة او الطويلة ، والقرآن الكريم عبّر عن هذه النفس البدوية الطروب بصورة جديدة ، وهي النثر القرآني الذي أقصى الشعر وأبقى الوزن والموسيقى . . وهنا يكمن سر الإعجاز الأدبي (١) . وبه يفسر قول الوليد بن المغيرة : « والله لقد سمعت كلاماً لا هو من كلام الانس ولا الجن وانه يعلو ولا يُعلى عليه » . وهناك العديد من الشواهد على ان كثيراً من بلغاء العرب تحولوا من الشرك إلى الاسلام بفعل هذا التأثير .

هذا من حيث الشكل ، اما من حيث المضمون فإن رحابة الموضوعات القرآنية وتنوعها لشيء فريد فهو يبدأ حديثه من الذرة في الصخرة ، وفي الأرض

(١) ايضاً نحن لدينا وجه آخر اشرنا اليه في ج ٥ من التفسير الكاشف ص ٤٣٧ ، ويتلخص بان اسلوب الكلام فيه روح المتكلم ، والله سبحانه ليس كمثله شيء فكذلك كلامه .

وفي السماء . كما في الآية ١٦ من سورة لقمان . ثم يتحدث عن النجم الذي يسبح في فلكه نحو مستقره المعلوم . وعن الكون وما وراءه . وعن الانسان والأديان والعادات والاخلاق والتشريع ، والأمم الماضية . والقرون الخالية . . إلى كثير . . واامام هذا المشهد العظيم وقف الفيلسوف « توماس كارليل » وصرخ من اعماقه صرخة الإعجاب وقال : « هذا القرآن صدى متفجر من قلب الكون نفسه » .

فهل كان عند محمد علم الكون كل ما في القرآن من علم ، ثم جمعه في كتاب كما يفعل المؤلفون والمصنفون ؟ . . كلا ، ان عبقرية الانسان مهما بلغت من العظمةفانها تحمل بالضرورة طابع الأرض ، تخضع لقانون الزمان والمكان ، بينما يتخطى القرآن دائماً هذا القانون . . وفضلاً عن ذلك لو كان القرآن من عند محمد (ص) لتحدث فيه كثيراً عن نفسه . وعن النازلة التي أصابته في أوج دعوته بفقد عمه ابي طالب ، وزوجته خديجة . وقد كان حتى آخر لحظة من حياته يبكيهما بخاصة إذا ذكر اسم احدهما امامه ، ورغم هذا لا نجد أي صدى لموتهما في القرآن .

هل اخذ محمد من التوراة والانجيل ؟

وقال قائل : ان محمداً تلقى تعليماً شخصياً ومباشراً عن التوراة والانجيل ! .
ونقول في جوابه : « اولاً ان الدكتور بشر فارس تساءل في احدى الدراسات : هل الاسلام من صنع اليهود والنصارى ؟ ثم أجاب بان الأب لامانس المعروف بعدائه للاسلام قد نفى ذلك .

ثانياً : لم يكن في عهد الرسول (ص) أية ترجمة عربية للتوراة او الانجيل . ولا كان محمد (ص) او غيره من أهل مكة يتقن اللغة العبرية [1] .

....

(١) وإلى هذا تشير الآية ١٠٣ من النحل : « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين » .

ثالثاً : ان القرآن تحدى اليهود فيما دار بينهم وبين محمد (ص) وقال لهم :

« فأتُوا بِالتَوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » ٩٣ آل عمران .

وأيضاً تحدى أهل الكتاب بوجه عام في الآية ١٥٧ من الصافات :

« فَأتُوا بِكِتَابِكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »

فأين مكان الدلالة على السرقات والفلتات .. أجل . أخذ القرآن من التوراة هذه الآية التي رسمت لليهود هذه الصورة :

« مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَاغُوتَ أولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَبِيلِ »

٦١ المائدة .

وأيضاً أخذ القرآن من الانجيل هذه الآية :

« لَقَدْ كَفَرَ الَذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ » ٧٣ المائدة .

« يَا أهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأنْتُمْ تَشْهَدُونَ ، يَا أهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وَأنْتُمْ تَعْلَمُونَ » ٧١ ــ ٧٢ آل عمران .

باقة من حديقة الرسول الاعظم

ربما كان الداء دواء :

شعرت منذ ايام بالملل والعزوف عن القراءة والكتابة . . ولكني حرت في أمري وتساءلت : بماذا ألهو وأسد الفراغ ؟ . . وأين هو المحدث اللبق او المستمع الفهيم . . والمشكلة أن الكتاب والقلم هما متعتي الوحيدة ، ومهنتي الأولى والأخيرة ، فإذا تعذرا فما عسى أن يبقى ؟ وأجاب الامام علي (ع) عن هذا السؤال بقوله : « ربما كن الدواء داء ، والداء دواء » . ونظم أبو نواس هذه الحكمة فقال : « وداوني بالتي كانت هي الداء » . واذن لا طريق إلى الخلاص الا بالقلم او الكتاب ، واخترت القراءة لأنها ايسر مؤونة ، واكثر متعة .

ولكن ماذا أقرأ ، ولا جديد عليّ في مكتبتي ؟ وهل أعيد واكرر ما سبق ؟ كيف وانا هارب من السآمة والملامة . . وبلا شرح طويل أو قصير فقد دبرها سبحانه بلطفه ، وألهمني إلى السيرة النيرة العطرة ، سيرة المصطفى والرسول المجتبى . . وما ان قرأت اول سطر وقعت عيني عليه حتى عبقت رائحة النبوة ، وهبت أنسامها في قلبي فأحيته وأنعشته . . وأقف هنا عند الباقة التالية من حديقة الرسول الأعظم .

من خلاله الخلي :

كان النبي أول من يجوع وآخر من يشبع ، وكان في طعامه لا يرد موجوداً ولا يتكلف مفقوداً وما عاب طعاماً قط وإذا لم يجده صبر حتى انه ليربط حجر المجاعة على بطنه ، وصلي مرة وهو جالس من شدة الجوع ، وتوفي ودرعه مرهونة هذا ، وثروة جزيرة العرب طوع بنانه ، ولكن ما دام فيها جائع واحد فعلى ولي الأمر أن يساويه في البأساء والضراء والا كان مغتصباً لحقه ومعتدياً عليه .

وكان يحب النظافة وحسن المظهر ، وكان اكثر الناس ابتساماً ، ولا يتكلم الا فيما رجا ثوابه من الله ، وما ذم أحداً ، او عيّره بشيء او طلب له عثرة وعورة ، ولا سأله احد حاجة الا ورجع بها او بميسور من القول ، وكان يصبر على جفوة السائل ، ولا يقبل ثناء الا من لكافيء ، ولا يقطع على احد كلامه الا إذا تجاوز فينهاه او يقوم ، وإذا دخل على قوم قعد حيث ينتهي به المكان ، ويعطي كل جليس حقه ، بل ما جالس أحداً الا وحسب انه اكرم الناس عليه ، وإذا بلغه عن احد ما يكره فلا يسميه . ويكتفي بقوله : ما بال اقوام يفعلون كذا وكيت .

لا تغضبه الدنيا ، ولا ما كان فيها ، فإذا اعتدي على الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها ، يُحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهنه .

يضحك للنكتة :

كان نعيمان الأنصاري يمارس الدعابة ، وكان النبي يبتسم كلما رآه ، وفي ذات يوم جاء اعرابي إلى النبي ، فدخل المسجد وترك ناقته بالقرب منه . . فقال بعض الصحابة لنعيمان : لو نحرتها ، فقد مضى علينا أمد لم نذق فيه

اللحم . والنبي يدفع ثمنها للاعرابي ، فبادر نعيمان ونحرها ، ثم اطلق ساقيه مع الريح ، ولما خرج الاعرابي ذهل مما رأى بناقته ، وصاح : واعقراه يا محمد .

فخرج يسأل : ما الخبر ؟ قالوا : نعيمان فعل ما ترى يا رسول الله ، فأمر بالبحث عنه ، وكان قد اختبأ في خندق ، فأخرجوه ، وجيء به . فقال له النبي : ما حملك على هذا ؟ قال : الذين وشوا بي هم اغروني يا رسول الله فضحك النبي ، ودفع ثمن الناقة

كان نعيمان يشتري الأطعمة والفاكهة ، ويأتي بها إلى النبي ويقول له: كل يا رسول الله ، هي هدية مني إليك ، إذا طالب صاحب السلعة نعيمان أخذه إلى النبي وقال له : اعطه ثمن متاعه . فيقول له النبي : ألم تهده لنا ؟ فيقول له نعيمان : بلى . ولكن انت الذي أكلته ، وليس انا ، فيضحك النبي ، يدفع الثمن .

وقبّل رجل امرأة أجنبية كانت مارة في طريقها ، فشكته إلى النبي . ولما سأله اعترف وقال : مرها يا رسول الله أن تقتص مني . فتبسم النبي وقال : استغفر الله ، ولا تعد إلى مثلها فقال : لن اعود يا رسول الله ، فتجاوز عنه [1] .

وقال له اعرابي : بلغنا ان الدجال يأتي الناس بالثريد ، وقد هلكوا جوعاً ، أترى أن اكف تعففاً واموت جوعاً ؟ فضحك النبي وقال : يغنيك الله بما يغني المؤمنين . وجاءه رجل من الصحابة وقال له : هلكت يا رسول الله . فقال له : وما هلكك ؟ قال : وقعت على أهلي في رمضان . قال : هل تجد

(١) بحار الانوار ج ٦ بعنوان مزاحه وضحكه .

رقبة تعتقها ؟ قال : لا قال : هل تستطيع اطعام ستين مسكيناً ؟ قال : لا . فجاء النبي بوعاء من تمر وقال : تصدق به قال : والله ما على وجه الأرض من أهل بيت أحوج منا . فضحك النبي وقال : اطعمه اهلك . وهكذا فاز الرجل باللذتين .

أعداؤه :

كان الصدق والاخلاص عدة النبي ودرعه الواقية ، وكان يقاوم قوى العتو والبغي بالصبر والاحتمال ، والثقة بالله والحق . . وقالت له زوجته خديجة ، وهي اعرف الناس به : « والله لا يخزيك الله ابداً ، انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل . وتكسب المعدوم . وتعين على النوائب » .

وإذا رآه اعرابي قال : ما هذا الوجه وجه كذاب . . ولكن اعداءه قالوا : هو ساحر ، لأنه أتى بما عجزوا عن الاتيان بمثله ، وقالوا : مجنون . لانه سفه عقولهم ، وقالوا : كاهن . ولأنه أخبر بالغيب . . وسرعان ما افتضحوا باكاذيبهم واضاليلهم واستسلموا للحق صاغرين .

كان النبي يوماً في المسجد . والصحابة من حوله . يحدثهم ويستمعون إليه ، فقال لهم من جملة ما قال : سيدخل عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنة . وما أتم كلامه حتى دخل رجل من سائر الناس لا أحد يعرف له سابقة تذكر . فتعجب الصحابة وتساءلوا في انفسهم : ما الذي رفع هذا الشخص على سواه ؟ وبأي شيء استحق هذه المنزلة والشهادة من رسول الله ؟

فتقصى عبد الله بن عمر أخباره، وظل يراقبه اياماً عسى أن يهتدي الى طريقه فيسلكه . . . ولكن ما وجده اكثر عبادة وعلماً . ولا جهاداً وكرماً

من أي رجل من الصحابة . فذهل واستولت عليه الحيرة . وقال للرجل: ان رسول الله أخبرنا أنك من أهل الجنة . وما رأيت منك ما تمتاز به عمن سواك . فما هو السر ؟

قال الرجل: ابداً لا سر ولا شيء وراء ما رأيت.. أجل اني لا احقد على أحد. ولا أحسد احداً على خير اعطاه الله له . قال ابن عمر: هنا يكمن السر.

أجل . هذا هو ثمن الجنة في رسالة محمد (ص) : ان لا تحقد وتحسد. لا تُقلق وتنافق. لا تشمت بالمصيبة . وتحسد على النعمة . . اما العبادة فالحكمة منها التذكير بالله . والاستعداد التام لطاعته . والكف عن معصيته ، وما عُصي الله بشيء مثل الإساءة إلى عباد الله وعياله . وفي الحديث : ان النبي قال لابي ذر : كيف اذاك عن الناس فانه صدقة عن نفسك . وقال الامام امير المؤمنين (ع) : « بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد . . اسوأ الناس حالاً من لا يثق باحد لسوء ظنه . ولم يثق به أحد لسوء فعله » .

محو الأمية :

أول آية نزلت على رسول الله:

﴿ إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾
العلق ٢ .

وقضى النبي في أسرى بدر أي يطلق كل أسير يُعلّم عشراً من صبيان المسلمين . ومن الاسس الاسلامية واصولها وجوب التعليم والتعلم. ومن أهمل وقصر استحق اللوم والعقاب [1] .

(١) أهملت الدول الاسلامية هذا المبدأ وهو من صميم الاسلام على رغم ما تملك من ثروات وطاقات ، ولاهمال هذا الاصل بالخصوص ، وغيره على العموم تأخر المسلمون عن ركب الحياة . وتسلط عليهم شر أهل الأرض الصهيونية والاستعمار .

وكان في قبيلة الأشعريين فقهاء ، ولكنهم كانوا لا ينفرون إلى من حولهم من القبائل ليفقهوهم في الدين . . فخطب النبي (ص) الناس وقال غاضباً : ما بال اقوام لا يفقهون جيرانهم ويعلمونهم ؟ وما بال اقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون وعرف الأشعريون أن النبي يقصدهم بقوله : « لا يفقهون جيرانهم » فقالوا : يا رسول الله لقد ذكرتنا بشر : قال : ليعلمن قوم جيرانهم ، أو لأعجلنهم بالعقوبة في الدنيا . . وأياً كان راوي هذا الحديث فنحن لا نشك في صدقه ، لأنه قائم على اساس صلب ومتين في مكافحة الجهل والأمية .

القرآن يأسر القلب والعقل :

كان ثمامة بن اثال يعتز برياسته على قومه بني حنيفة ، وكان يشتط ويفرط في عدائه للاسلام ونبيه . . يؤلب عليه ، ويسعى لقتله بكل سبيل ، وكان النبي يدعو ربه بان يمكنه من ثمامة . . وقد استجاب سبحانه دعاء نجيه ، وجيء بثمامة اسيراً إلى رسول الله ، فأمر بحبسه في المسجد ، ووكل به بعض الصحابة ، وكان النبي إذا دخل المسجد يؤم المسلمين في الصلاة — يقترب من ثمامة ويقول له : مالك يا ثمامة ؟ فيجيب : قد كان ذلك يا محمد . . ان تقتل فان ورائي قوماً ، وان تعف ، تعف عن شاكر ، وان طلبت مالاً حملته إليك . وتكرر السؤال من النبي كل يوم ، والجواب واحد من ثمامة .

وكان النبي في كل مرة يوصي بثمامة ، وينصرف إلى الصلاة ، ويتلو من اي الذكر الحكيم ، والمسلمون خلفه يركعون ويسجدون ، يستوي بينهم الصغير والكبير ، والغني والفقير ، وبعد الصلاة يتحلقون حول النبي يستمعون إليه بقلوبهم وعقولهم راجين خاشعين ، كل ذلك وثمامة يسمع

ويرى ويعجب من هذه الوحدة والالفة . وهذه الروح القدسية التي تسيطر على الجميع . وكيف يساوي الدين الجديد بين الناس جميعاً لا سيد ومسود ولا نسب وحسب ، ولا جاه وثراء . . وأيضاً يدهش ثمامة من حفاوة الصحابة بالنبي . وحبهم له . يفتدونه بالمهج والارواح . والآباء والابناء ! . . وفوق ذلك كان ثمامة مأخوذاً بسحر القرآن واعجازه ناسياً قومه واهله . وذله واسره . ولم يعد يشعر بشيء الا بعظمة الاسلام ونبي الاسلام وصحابته .

فحاسب نفسه ، وندم على ما فات ، وتمنى لو كان قد سبق إلى الاسلام وجاهد اعداءه بالنفس والنفيس . اما الآن فلا يتبع محمداً من موقف الأسر والضعف خوفاً من العار . وأن يقال : ما اسلم بل استسلم حرصاً على حشاشته . وقرأ النبي ما في نفس ثمامة فقال له : مالك ؟ فأبى أن يلين وهو اسير وقال : ان تقتل فان ورائي قوماً . فقال النبي : بل عفوت عنك . فقال ثمامة : أما الآن فاشهد أن لا اله الا الله ، وانك رسول الله .

كيف تحول ثمامة ، وانتقل بما يشبه الطفرة من العداء إلى الولاء ، ومن الكفر إلى الايمان ؟ انها لظاهرة فريدة للوهلة الأولى ، ولكن إذا تأملنا قليلاً اتضح السبب وزال العجب . . انالحق بطبعه يأسر القلب والعقل الا ان يحول دونه حائل من الهوى والجهل . . والحائل العارض يزول لسبب أو لآخر . . وما تنكر ثمامة للاسلام ومحمد (ص) الا للجهل وتضليل الدعايات الكاذبة وبعد أن شاهد ورأى ظهر الحق ، وأثّر أثره واسر قلبه تلقائياً ومن غير قصد . وصدق عليه قول الامام امير المؤمنين (ع) : « وما جالس القرآن أحد الا قام عنه بزيادة في هدى ، او نقصان في عمى . . فانه شفاء من اكبر داء . وهو الكفر والنفاق . والعمى والضلال » . وقال من ينطق بلغة الوحي : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها

نقية قبلت الماء ، فانبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها اجادب امسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، واصاب منها طائفة أخرى ، انما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ » .

الرفق بالحيوان :

كان صلى الله عليه وآله يسقي الهرة بيده ، ويميل لها الإناء لتشرب ، ورأى جملاً هزيلاً فقال : اتقوا الله في هذه البهائم اطعموها واركبوها صالحة ورأى فرخ طائر في يد رجل وأمه تحوم حوله وترفرف فغضب وقال : اردد إليها ولدها .

ومرت به شاة . وهو يأكل الرطب فاشار إليها بالندى ، فدنت واطعمها بيده ورأى كلبة مع صغارها فأمر برعايتها . . وعلق الكاتب الانكليزي مونتجمري على هذه الحادثة في كتاب محمد ــ يقول : « هذا شيء رائع في ذلك العصر » .

ومن احاديثه : « الرفق يمن . والخرق شؤم . . ان الله رفيق يحب الرفيق . . لكم في كل كبد أجر . . المثلة حرام حتى بالكلب العقور . . ان للدابة على صاحبها ست خصال : يعلفها إذا نزل عنها ، ويعرض عليها الماء إذا مر به . ولا يضرب وجهها ، ولا يقف على ظهرها ، ولا يحملها فوق طاقتها ، ولا يكلفها من المشي ما لا تستطيع . . رب دابة مركوبة خير من راكبها » . وهكذا يحرم الاسلام أذى كل ذي نفس انساناً كان ام حيواناً .

وكان النبي (ص) يوصي زوجته خديجة أن تعامل جواريها كما لو كن حرائر ، وان تسمي من تملك الفتيان والفتيات بدلاً من كلمة الجواري والعبيد .

وكان يشعر بحنان خاص نحو الاطفال ؛ فإذا مرّ بصبية ابتسم لهم واقرأهم السلام . وتحدث إليهم وقال : خيركم خيركم لأهله . ولما أصيب زيد بن حارثة ذهب إلى بيته فبكت ابنته ؛ فبكى . وفي ذات يوم مرّ بصبي فرآه حزيناً ، ولما سأله عن السبب قال : ان بلبله قد مات ، فعزاه وخفف عنه . . ومن احاديثه : « من كان له صبي فليستصب له » . أي يعامله كمثيل ونظير .

الفراسة :

كان إذا سأل النبي سائل تفرس في وجهه ، ثم يجيبه بما يتناسب مع حاله . ومن امثلة ذلك ان رجلاً قال له : اوصني يا رسول الله . فقال له : لا تغضب فكرر السؤال . ولكن الجواب لم يختلف . . ثم تبين ان السائل يثور لأتفه الاسباب . وقال له آخر : أي الاسلام خير ؟ فقال له : المسلم من سلم الناس من يده ولسانه . وجاء آخر وقال : أي الاسلام خير ؟ فقال له : تطعم الطعام ؛ وتقري السلام على من تعرف . . واخيراً ظهر أن الأول كان بعيب الناس ، والثاني كان شحيحاً .

وبعد. أليست هذه الصفات آيات ودلائل على نبوة صاحبها ورسالته؟ .

حول البعث

لكل ناكث شبهة :

تعلق من انكر البعث بشبهتين : الأولى : انه غير ممكن ، لأن من مات فات ، وكيف تحيا العظام ، وهي رميم ؟

الشبهة الثانية : مع التسليم جدلاً بان البعث ممكن فانه غير واقع حيث لم نجد له أي أثر يدل عليه – مثلاً – تنظر العين إلى الكون وإتقانه فيحكم العقل بوجود المكون والمتقن كما هو شأنه دائماً في الانتقال من الشاهد إلى الغائب استناداً لمبدأ العلية . . وأيضاً نقرأ سيرة محمد (ص) ورسالته فنعتقد بصدقه وعظمته . . اما البعث فلا نحس له من أثر ، او نسمع له صوتاً فكيف يسوغ الايمان به ؟ .

ومن هنا اهتدى خلق كثير إلى الايمان بالله دون البعث ، بل ان اكثر المشركين او الكثير منهم رفضوا دعوة محمد وقاوموها لا لشيء الا لأنها جمعت بين الايمان بالله واليوم الآخر ، وكانوا على أتم الاستعداد للتصديق برسول الله لو أعفاهم من البعث ، ويومىء إلى ذلك عدد من الآيات ، منها :

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاما وَرُفَاتاً
إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾
٤٩ الاسراء .

وجاء احد المشركين إلى النبي ساخراً بعظمة بالية وفتها بيده ، ونثرها في الهواء ثم سأل النبي ساخراً : من يحيي العظام وهي رميم ؟ فنزلت الآية ٧٩ من يس :

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

ولم تك شيئاً من قبل .

الاجابة عن الشبهتين :

وعن الشبهة الأولى نجيب بأن العلماء والفلاسفة فرقوا بين القانون الطبيعي والقانون العقلي وقالوا : القانون العقلي يطرد حتماً ، ولا يمكن خرقه بحال مثل الواحد نصف الاثنين ، والمساويين لثالث متساويان ، اما القانون الطبيعي فلا ضرورة تحتم اطراده على كل حال في نظر العقل ، ويجوز حدوث الخوارق والمعجزات في نواميس الطبيعة ، ولايسوغ لأي عاقل أن يقول : هذا مستحيل عقلاً لمن حدث وقال : كانت النار برداً وسلاماً على فلان ، او قال : توقفت الأرض عن الدوران حول الشمس في حين من الاحيان .. أجل . له كل الحق ان يطالبه بالاثبات ودليل الوقوع ؛ اما دعوى الامتناع عقلاً فلا اساس لها على الاطلاق .

وإذا اجاز العقل خرق القوانين الطبيعية فبالأولى أن يجيز إعادة الحياة بعد الموت ، إذ هي أهون وأيسر ، غاية الأمر انها تخالف العرف والعادة . . وليس اكثر من الشواهد على تغيير المعتاد والمعروف ، ومنها الصعود على القمر . . وربما كان لا شيء بالقياس إلى الآتي .

ونجيب عن الشبهة الثانية بأن الإسلام لم يوجب البعث لمجرد البعث وكفى ؛ وإنما أوجبه لهدف الحساب والجزاء على فعل الخير والشر . ومعنى هذا ان البعث نتيجة حتمية للعدالة الإلهية لا لقانون الطبيعة ونظامها كما يرى ويخس . . وايضاً معنى هذا أن الايمان بالبعث يرتبط حتماً بالايمان بالله وعدله وحكمته وانه لا حجة بدليل البعث على من كفر بالله ، بل يحتج عليه بالدليل القاطع على وجوده تعالى . . فالى هناك .

ونسأل : وأية علاقة بين عدالته تعالى وبين البعث ؟

الجواب :

لا يستقيم ابداً مع العدل الإلهي ان يستوي مصير المجرمين والأبرياء ، فيذهب هؤلاء بلا ثواب . وأولئك بلا عقاب .

سؤال ثان : أجل . ولكن لماذا لا يكون الجزاء في الحياة الدنيا ؟

والجواب واضح ، لأنه تعالى لو عجل الجزاء لعباده ، او كشف لهم عنه – لكان ، جلت صفاته ، كالمعز الفاطمي حين دعا الكبراء وسل السيف بيد وقال : هذا نسبي ونقد الذهب بيد وقال : هذا حسبي . فقالوا جميعاً : سمعنا وأطعنا ! ان الله سبحانه يثيب ويعاقب ، ما في ذلك ريب ، ولكن بعد أن تظهر الأفعال بالارادة والاختيار . لا بالضغط او بالرشوة .

الدليل الأصيل :

ومما تقدم يتبين معنا أن الذين كذبوا بالبعث لا يعتمدون على اساس سوى الجهل او العناد تماماً كمن كذّب برحلات الفضاء في باديء الأمر . . اما الدليل الأصيل على وقوع البعث وحدوثه فيتلخص بأن البعث ممكن بحكم العقل ، وثابت بصحيح النقل عن المعصوم فيجب التصديق .

وهذا الدليل – كما ترى – يعتمد على العقل والنقل حيث لا شيء غيرهما من قبل ، اما الآن ، وقد تطور العلم ووسائله الحسية . فان الناس سوف يشاهدون لا محالة الروح بعد فراقها للجسد تماماً كما شاهدوا الانسان على القمر .. وكل من يؤمن بالعلم يتحتم عليه أن يثق بذلك من غير تردد .. ولو ان العلماء الذين انصرفوا بكل طاقاتهم لدراسة العالم المادي ، اهتموا بعض الاهتمام بعالم الروح – لوضعوا ايديهم منذ زمان على هذه الحقيقة . على ان التباشير بدأت الآن بالظهور ، ولله الحمد .

فقد نشرت جريدة الاخبار المصرية ٢٨ / ٦ / ١٩٦٣ مقالاً بعنوان عصر الفضاء ام عصر الروح ؟ للاستاذ عبد السلام داود ، جاء فيه : « لقد نجحت البحوث العلمية في تصوير خروج الروح من الجسد بأشعة غير منظورة ، واستخدام ألواح حساسة خاصة . . والذي تتبع تطور البحث العلمي في ميدان الروح ، لا بد أن يقتنع بأننا اوشكنا أن نضع ايدينا على الحقيقة . . ان كل ما ابدعه الخالق في هذا الكون ليس سوى وسيلة للتدليل على وجوده ، وحثنا على التفكير فيما وراءه ، لأن من طبيعة هذا الكون عدم الاستمرار . ان كل الماديات مصيرها إلى التحول .. ولا يعقل أن يكون الله قد خلق لنا هذا العقل لنرى جزءً مما ابدعه ، ولفترة قصيرة هي عمر الانسان . فيكون مثلنا في ذلك مثل النبات » .

ونشرت جريدة الجمهورية المصرية ١٩ / ٦٢ / ١٩٧٢ : « إن الطبيب السويدي يلنز ظهر له اخيراً في دسلدورف كتاب بعنوان الحياة بعد الموت أكد فيه ان هذه الحياة كانت تبدو وكأنها حلم ، ولكن التشابه كبير بين الحياة قبل الموت وبعده . . حتى ان الميت لا يحس ان الروح قد خرجت من جسده ، بل يعتقد انه ما زال يعيش » .

من كتاب يوم القيامة :

ألّف الأستاذ عبد الرزاق نوفل كتاباً اسماه يوم القيامة ، وفيه خمسة فصول : اربعة منها من التراث الذي قرأناه او سمعناه ، وفصل واحد وليد هذا العصر وابن العلم الحديث . وهو فصل « من الموت حتّى يوم القيامة » حيث ذُكر فيه آخر ما وصل إليه العلم عن الحياة بعد الموت . وأنه لأخطر من الصعود إلى المريخ والقمر ، فقد أثبت حقيقة كان يراها اكثر الناس من الخرافات والأساطير ، ونوجزها فيما يلي بشيء من التصرف في الشكل دون المحتوى ــ أهم ما جاء في كتاب يوم القيامة :

لقد اكتشف علماء الطبيعة والتشريح ان لكل عضو وجهاز في جسم الانسان خلاياه الحية الخاصة به ، وان جميع الخلايا بشتّى انواعها تموت بموت الانسان ما عدا خلايا الجهاز العصبي فانها تبقى حية بعد موته مهما طرأ على الجسم ، وأنه عن طريقها يحس الميت ويشعر بما حوله ، ولكنه لا يستطيع الحركة والحديث ، لان الخلايا التّي كان يتحرك ويتكلم بواسطتها ماتت بكاملها . وبكلمة تموت كل الخلايا الا الخلايا خلايا الشعور .

وهذا يفسر عذاب القبر . . وايضاً يفسر ما تواتر على لسان أهل التاريخ والسير : ان الرسول الاعظم (ص) خاطب القتلى من كفار قريش يوم بدر ، وناداهم بأسمائهم قائلاً : « قد وجدت ما وعدني ربي حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ . فقيل له : أتناديهم يا رسول الله وهم اموات ؟ فقال : والذي نفسي بيده انهم لأسمع لهذا الكلام منكم الا انهم لا يقدرون على الجواب » . وقرأت في قصة الفلسفة تأليف ول . ديورانت « ان النملة الاسترالية إذا انقسمت إلى قسمين تبدأ المعركة بين الرأس والذنب وقد تدوم نصف ساعة ، ثم يموتان معاً او تسحبهما بقية النمل » .

تاريخ فكرة الخلود :

تدل الاخبار وبقايا الآثار أن فكرة الخلود قديمة بقدم الانسان ، فقد كانت معروفة في الديانة الفرعونية والفارسية . اما الفلسفة اليونانية فيقول استاذها الشهير افلاطون : لو لم يكن لنا معاد نرجو فيه الخيرات لكانت الدنيا فرصة الأشرار . وكان القرد أفضل من الانسان .

ومن قبله قال الفيلسوف اليوناني فيثاغورس : ان النفس الطاهرة تسكن بعد الموت في المكان اللائق بها . وتصحب معها جانباً من الجسد الذي كانت تحتله في الحياة الدنيا . وهو لطيف مهذب من كل ثقل وكدر .

ويلتقي هذا مع ما رواه الشيخ البهائي في كتاب الاربعين حديثاً ص ١٩٠ عن الامام جعفر الصادق (ع) وهذا نص الرواية بالحرف : « إذا قبض الله ارواح المؤمنين صيرها في قالب كقالبها في الدنيا ، فيأكلون ويشربون ويتعارفون .

طريق الجنة :

حدد القرآن طريق الجنة بالايمان والعمل الصالح في العديد من آياته . وجاء التحديد في بعض الآيات بكلمة واحدة :

﴿ وَأُزْلِفَتْ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

٩٠ الشعراء .

والمراد بالمتقين الذين عناهم سبحانه في هذه الآية :

﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ ١١١ التوبة .

والآية ١٤٢ من آل عمران :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾

وقال الرسول الأعظم (ص) : « أقرب الناس إليّ مجلساً يوم القيامة احاسنكم اخلاقاً » . وقال : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة » . ولا خُلق اكرم واحسن من الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله . . اما العلم فليس المراد ما يترك شيئاً جديداً ومفيداً لبني الانسان . . وعليه فأي معبد لا يتجه بالعابد إلى العلم والعمل النافع – فما هو بالطريق المؤدي إلى الجنة . وأي مصنع او مختبر ينفع الناس بجهة من الجهات فهو طريق الفوز بالجنة ، والنجاة من النار .

وختاماً نسجل هذه الحكمة البالغة « من اكله الحق فالى الجنة ؛ ومن اكله الباطل فالى النار » . و « اكله » الاولى تعني التضحية بالنفس والمال في سبيل الله ، و « اكله » الثانية تعني الخسران في طاعة الشيطان كمن أتلف ماله في الفسوق والفجور ، او قتل نفسه مع قائد ضلّ وضلّ به . . وهذه الحكمة القيمة الغالية للامام امير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه ، ورضي عنه ، وكرم وجهه الذي ادركته بركة سيد الكونين صلى الله عليه وآله حين دعا له بقوله : « اللهم اهد قلبه ، وثبت لسانه » .

بدعة التعصب والاجتهاد في مورد النص

الاجتهاد :

يتلخص الاجتهاد في الفقه بأنه استخراج الفرع الشرعي من أصله . والاستدلال عليه بدليله . وأوضح مثال على ذلك – لمجرد التوضيح – قصة عمر بن الخطاب والمرأة حين اراد أن يجعل للمهر حداً أعلى ، فعارضته وقالت : ليس ذلك لك يا عمر ، لأن الله يقول :

﴿ وآتيتُمْ إحْداهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تأخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ﴾ ٢٠ النساء .

فكان قولها بدليل ، وقوله بلا دليل . بل اجتهاد في مورد النص باعترافه حيث قال : أصابت امرأة ، واخطأ عمر .

البدعة :

البدعة في الدين إحداث ما ليس له أصل في الشريعة . وهي بهذا المعنى من كبائر المحرمات اجماعاً وعقلاً وشرعاً ، قال الرسول الاعظم (ص) : كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة سبيلها إلى النار . . إذا رأيتم أهل البدع من بعدي فاظهروا البراءة منهم . . من تبسم في وجه مبتدع فقد أعان على هدم دينه .

التعصب :

التعصب من العصبية ، وهي الميل إلى الجانب الذي تحب وان كان على خطأ وضلال ، والجور على الجانب الذي تكره ، وان كان على حق وصواب .

وبعد هذا التمهيد نشير فيما يأتي إلى قول من اتهم الدين بالتعصب . وإلى اول من ابتدع القتل والقتال بين الصحابة . ومهد السبيل لما حدث من الفتن بين المسلمين . وكان السبب الموجب لفتح باب الاجتهاد في مورد النص . والتحايل على دين الله . وما إلى ذلك مما يجري به القلم .

الدين وماركس وراسل :

قال الفيلسوف الانكليزي الشهير راسل : أباح الدين التعصب والبغضاء وكرسهما . (كتاب راسل يتحدث من مشاكل العصر) . وهذا القول يشبه إلى حد كبير قول ماركس : الدين افيون الشعوب [1] .

وفي ظني ان راسل وماركس أراد بكلمة الدين هنا اليهودية والمسيحية فقط دون الاسلام ، لأن نصوص القرآن والسنة النبوية تنكر التعصب وتعده من كبائر السيئات ، وتأمر بالاعتماد على العلم ، والاحتكام إلى العقل . وتعتبر إهماله وعدم الركون إليه جريمة تستحق العقاب والتوبيخ . . ومعنى هذا أن أي مسلم لا ينظر بعقله وبصيرته ، او يتعصب لهواه وعشيرته فهو منابذ لدينه والحجة قائمة عليه من كتاب الله وسنة نبيه .

اليهود والمسيحية والتعصب :

التعصب عند اليهود دين وعقيدة ، لأنهم — كما يزعمون — شعب الله المختار بنص التوراة . فهو سبحانه لهم وحدهم . ولا يعنيه من شيء في السماء

(١) القى الفيلسوف الفرنسي « روجيه جارودي » محاضرة في القاهرة بدار الأهرام ، نشرتها مجلة الطليعة المصرية بتاريخ آذار ١٩٧٠ ، وجاء فيها . ان هذه الكلمة قالها ماركس في أول كتاب له ، وكان عمره آنذاك ٢٥ سنة ، وأنه لم يرددها بعد ذلك .

والأرض سوى مشكلاتهم (انظر سفر التثنية الاصلاح ٦ فقرة ٦) . وكفى دليلاً على تعصب المسيحية ما سجله التاريخ من فجائع الكنيسة في القرون الوسطى .

وتسأل : لماذا نسبت عصبية من تعصب من المسلمين إلى ذاته ومعاندته لدينه . لا إلى الاسلام ، ونسبت عصبية من تعصب من المسيحيين إلى المسيحية لا إلى ذات المتعصب ومعاندته لدينه ، مع العلم بأن انجيل متى يقول في الاصحاح ٥ فقرة ٤٣ : « احبوا اعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، احسنوا إلى مبغضيكم » ؟. أليس هذا تحيز منك وتعصب ؟.

الجواب :

لقد نص القرآن الكريم صراحة على حرمة التعصب – كما سيأتي – وأيضاً نص على ان الحرام ما حرم الله . والحلال ما أحل الله . وما لأحد من خلقه أن يُشرع من عنده . ويحكم بغير ما انزل الله . قال سبحانه :

« ومَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أنْزَلَ اللهُ فَأولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ »
٤٥ المائدة .

وقال :

« فَإنْ تَنَازَعْتُمْ في شيْءٍ فَرُدّوهُ إلى اللهِ والرَّسُولِ » ٥٩ النساء .

اما انجيل متى الذي يقول : احبوا اعداءكم الخ فانه قال ايضاً لرجال الكنيسة : « كل ما تربطونه في الأرض يكون مربوطاً في السماء ، وكل ما تحلونه في الأرض يكون محلولاً في السماء – الاصحاح ١٨ فقرة ١٨ » . ومعنى هذا أن الديانة المسيحية تؤخذ من رجال الكنيسة لا من الاناجيل فقط وكذلك الديانة اليهودية تؤخذ من رجال البيع لا من التوراة وحدها ، فقد جاء في

سفر اشعيا الاصحاح ٢ فقرة ٣ « من صهيون تخرج الشريعة ، ومن اورشليم كلمة الرب » . على العكس تماماً مما جاء في القرآن الكريم الذي قال لمحمد (ص) :

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ »
١٢٨ آل عمران .
« قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ »
١٥٤ آل عمران .
« وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ »
٣٩ الانفعال .

فيتو الكنيسة ضد الانجيل :

كان المسيحيون يلعنون اليهود في كل صلواتهم . لأنهم السبب الأول لصلب السيد المسيح . كما يزعمون . وفي سنة ١٩٦٥ حصل اليهود على وثيقة بابا روما بتبرئة اليهود من دم المسيح . . وهذه الوثيقة تعارض نصاً صريحاً في انجيل متى الاصحاح ١٦ فقرة ٢٦ ، وهي « ان دم المسيح على اليهود واولادهم ومع ذلك وافق الكاثوليك والبروتستانت على وثيقة البابا وباركوها وتركوا لعن اليهود في صلواتهم ! . . ومعنى هذا أن للكنيسة كل الحق في استعمال الفيتو ضد الانجيل ، فتنسخ منه ما تشاء حين تريد .

ومن طريف ما قرأت حول هذه التبرئة ما نشرته جريدة الاخبار المصرية تاريخ ٩ / ٧ / ١٩٧٢ : ان محامياً يهودياً أصر على بقاء لعن اليهود ، واستأنف الحكم بتبرئتهم من دم المسيح بزعم ان لعن النصاري شرف كبير لمن يلعنوه ، ولكن المحكمة التي استؤنف إليها الحكم رفضت دعوى المحامي اليهودي ، لانها قضية تاريخية ، وليس لها اطراف متخاصمة .

وعلى اية حال فقد اتضح مع الايام أن الهدف من هذه التبرئة هو دعم الصهيونية واسرائيل لكي تحقق أطماعها على حساب العرب والمسلمين . . ولا ضير اطلاقاً في اعتداء اسرائيل على المقدسات المسيحية في فلسطين ما دامت الصهيونية في طريقها لايجاد الدولة التي نصت عليها التوراة ، وحددتها من النيل إلى الفرات في سفر التكوين الاصحاح ١٥ فقرة ١٨ .

كل هذا وغيره كثير يدل على ان الانجيل الموجود الآن يجيز لرجال الكنيسة أن يتجاوزوا أي نص من نصوصه . اما القرآن الكريم فقد أعلن بوضوح بقوله تعالى :

﴿ إنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنّا لَهُ لحَافِظُونَ ﴾ ٩ الحجر .
﴿ لا يأتيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ ٤٢ فصلت .

الاسلام والتعصب :

سبق ان اشرنا إلى ان نصوص القرآن والسنة النبوية تنهى عن التعصب وتأمر بالاحتكام إلى العقل ، ونذكر الآن امثلة من هذه النصوص . . قال سبحانه في الآية ١٥٢ من الانعام :

﴿ وإذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ولَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾

والمراد بالقول هنا ما يشمل كل قول حتى الحكم بالاعدام والشهادة المؤدية إليه . وفي الآية ٨ من الممتحنة :

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ولَمْ

يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

أي الذين ينصفون الناس من انفسهم ، ويثق المحق باخلاصهم ، ويخشى المبطل من عدلهم .

وقال الرسول الأعظم (ص) : ايها الناس ربكم واحد ، وابوكم واحد ، كلكم من آدم ، وآدم من تراب » وما دام مصدر الكل ومعدنهم واحد فما هو المبرر للعصبية ؟ واين الفوارق التي تفصل وتميز بين القرشي والحبشي ، والعدناني والقحطاني ، والآري والسامي ؟ . وايضاً قال : « من تعصب فقد خلع ربقة الايمان من عنقه » . ومعنى هذا في ظاهره ان التعصب كفر وارتداد .

من البادىء بتفريق المسلمين ؟

كان الصحابة بعد رسول الله (ص) يبذلون المهج والارواح من أجل مصلحة الاسلام ومقدساته ، ولا يشهر واحد منهم السيف على اخيه أياً كانت الاسباب حتى ولو تنافسوا على الرياسة والخلافة . . ابداً لا يلقون بأسهم الا على اعداء التوحيد وعصابة الشرك والالحاد .

وأول من خرج على هذا المبدأ القرآني ، وفتح الباب باب القتل والقتال بين الصحابة انفسهم هما طلحة والزبير في وقعة الجمل . . وقد دفع العالم الاسلامي الثمن فادحاً لهذه الوقعة الميشومة .

وإليك بعض آثارها واسواءها :

١ ـ جرأت معاوية أن ينازع الامام الخلافة ، ويحشد الجيوش لحربه في صفين ، وتمخضت هذه الحرب عن وقعة النهروان .

٢ — فرقت المسلمين إلى شيع وطوائف : طائفة تقول : كلا الفريقين كافر ، وثانية : كلاهما فاسق ، وثالثة : كلاهما تأوّل فأخطأ ، ورابعة : احدهما فاسق والآخر مؤمن ، وخامسة أرجأت وأمسكت عن القول .

٣ — فتحت وقعة الجمل الباب لبدعة الاجتهاد في مورد النص . والتحايل على حلال الله وحرامه . . قال رسول الله (ص) : عمار تقتله الفئة الباغية [1] والزبير يقاتل علياً . وهو له ظالم [2] . وقال المبتدعون : كلا ، ما بغى من قتل عماراً ، ولا ظلم من قاتل علياً ، بل اجتهد فأخطأ . والمجتهد المخطىء مغفور له ومأجور ! .

وهذا الاجتهاد الماكر الخادع هو الذي اغرى شيخاً من مشاهير المذهب الحنفي ، يدعى الكرخي . وجرأه ان يقول : كل آية في القرآن ، او رواية عن رسول الله (ص) تخالف ما قرره مذهب ابي حنيفة فهي مؤوّلة او منسوخة . (أنظر تفسير المنار للآية ١٦٧ من البقرة . وكتاب ما لا يجوز فيه الخلاف لوزير الازهر الشيخ عبد العزيز عيسى الفصل الثامن) وعلق المؤلف على هذه البدعة بقوله : « يا لله للمسلمين ! . . أليس معنى هذا أن قول علماء الاحناف هو المتحكم والمهيمن على كتاب الله وسنة نبيه . فإن امكن تأويلها وموافقتهما لمذهب ابي حنيفة فذاك والا حكم عليهما بالاعدام » أي النسخ .

وهذا الاشكال وارد على كل من اجتهد في مورد النص. ولكنه يرد ايضاً على جميع المذاهب الأربعة. لأنها تعتمد بكاملها على القياس، وان اختلفت في استعماله سعة وضيقاً ، وهو كما حددوه يؤول إلى اثبات النص في مورد عدم النص ونسبته إلى النبي مع علمهم بأنه سكت عنه. وهذا اعظم من الاجتهاد في مورد النص.. واختصاراً أن السنة سدوا باب الاجتهاد في استخراج الحكم من النص الثابت . وفتحوا باب الاجتهاد في اثبات النص حيث لا نص .

(١) صحيح البخاري كتاب الصلاة .
(٢) الاصابة لابن حجر .

الخلفاء وبعض الفقهاء :

٤ ـ ان الخلفاء وبعض الفقهاء رأوا في تلك البدع سابقة من سنة الأولين يقتدون بها في التحايل على الدين . وتكييفه طبقاً لأهوائهم واغراضهم . . وعلى سبيل المثال نذكر الحادثة التالية :

قال ابن خلكان في « وفيات الاعيان » وهو يترجم للقاضي ابي يوسف صاحب ابي حنيفة : ان هارون الرشيد أحب جارية عيسى بن جعفر . فسأله هبتها او بيعها فأبى وقال : حلفت بالطلاق والعتاق وصدقة جميع ما أملك إن بعتها أو وهبتها ، فطلب الرشيد من ابي يوسف أن يوجد له حلاً شرعياً لهذه المعضلة . فقال ابو يوسف لعيسى هبه نصفها وبعه نصفها ، ولا حنث في ذلك ، لأنك ما بعتها كلها ، ولا وهبتها كلها ! .

ففعل عيسى . وحملت الجارية إلى الرشيد ، وهو في مجلسه . فقال الرشيد لابي يوسف بقيت واحدة . قال ابو يوسف ما هي ؟ قال : انها جارية ولا بد أن تستبريء بحيضة ، وإذا لم ابت معها ليلي هذا خرجت نفسي . فقال ابو يوسف : اعتقها فتصبح حرة ، واعقد عليها بعد العتق فان الحرة لا تستبريء . فأعتقها الرشيد . وعقد له عليها ابو يوسف . وقبض مئتي الف .

كل هذا العبث في الدين . واكثر من هذا كان يحدث في المجتمع الاسلامي بعد تلك السابقة التي ابتدعها المجتهدون في مورد النص لتبرير الخروج على الامام ، وحشد الجيوش لحربه في البصرة وصفين .

أمثلة من التعصب المذهبي :

والآن وبعد ان عرضنا بعض الأمثلة من بدعة الاجتهاد في مورد النص ـ نعرض امثلة من التعصب المذهبي « قال احمد تيمور في كتاب المذاهب الاربعة ص ٤٩ طبعة ١٩٦٥ : جاء في معجم ياقوت أن أهل الري . كانوا

ثلاثة طوائف : شيعة وحنفية وشافعية . فتضافرت الطائفتان الاخيرتان على الشيعة فأفنوهم . ثم قامت الحرب بين الشافعية والحنفية فكان الظفر لأولئك على هؤلاء ، وخربت محال الشيعة والحنفية ، وبقيت محلة الشافعية .

وقال الشيخ عبد العزيز عيسى في كتاب ما لا يجوز فيه الخلاف . الفصل الثامن : سئل بعض فقهاء الشافعية عن حكم الطعام الذي وقعت فيه قطرة نبيذ ؟ فقال : يرمى لكلب او حنفي ! لأن الحنفية يقولون بطهارة النبيذ والشافعية بنجاسته .

وسئل بعض فقهاء الحنفية عن زواج حنفي بشافعية ؟ . فقال يجوز الزواج بها ، لا على انها مؤمنة . بل قياساً على الزواج باليهودية والنصارية .

وأيضاً نقل الشيخ عبد العزيز عيسى في كتابه المذكور أن حنفياً وشافعياً كانا يصليان جماعة . فقرأ الشافعي الفاتحة . ولما سمعه الحنفي ضربه ضربة قوية على صدره وقع منها على ظهره حتى كاد يموت . لا لشيء الا لأن الحنفية لا يتابعون الامام في قراءة الفاتحة .

المتعة وشيخ أزهري

وحدثني أخ كريم أنه اجتمع بشيخ من كبار علماء الأزهر ومشاهيرها . وعندما عرف أني شيعي قال . بحدة كادت تخرجه عن رشده : الشيعة يجيزون زواج المتعة . والزنا خير منها وافضل ! .

ولا أدري لماذا نسي هذا الشيخ او تناسى مشكلة الالحاد وإعراض الناس عن الدين والقيم . ومشكلة قوى الشر واسلحتها المدمرة . ومشكلة التفرقة العنصرية والصهيونية ووجود اسرائيل على الخريطة . وغيرها من المشكلات والويلات . نسي كل ذلك . وما تذكر وذكر الا المتعة حتى كأنها مركز الثقل من التوتر الذي يسود العالم في شرقه وغربه ! . . وأيضاً لا أدري كيف

اطلق الحكم بالزنا على المتعة من غير تحفظ وتردد مع العلم بأن كل من ابطل المتعة من فقهاء السنة ادخلها في باب الشبهة والجهل بالتحريم ؟ .

وإذا كان غضب الشيخ لدين الله ، وحافزه الغيرة على الشريعة فكان عليه أن ينسجم مع دينه وضميره، وينكر ما جاء في فقه مذاهب السنة من احكام تمجها الاسماع والافئدة ، وتسيء إلى الاسلام وشريعته ، وفيما يلي نعرض طرفاً منها على سبيل التمثيل .

استاجر امرأة للزنا :

جاء في ميزان الشعراني ، باب الزنا ، ما نصه بالحرف الواحد: « اتفق الأئمة على ان من استأجر امرأة ليزني بها ففعل فعليه الحد الا ما يحكى عن ابي حنيفة من قوله : لا حد عليه » ونقل الغزالي هذا القول عن ابي حنيفة في كتاب المنخول ص . ٥٠٢ طبعة أولى ، وعلق عليه بقوله : « ومن يبغي البغاء – أي الزنا بمومسة – كيف يعجز عن استئجارها ؟ ومن عذيرنا ممن يفعل ذلك ؟ .

ونعلق عليه نحن بأن كل ما يحرم فعله يحرم بيعه وشراؤه وايجاره كتاباً وسنة واجماعاً وعقلاً .

الزنا وشهادة الزور :

وأيضاً نقل الغزالي في كتاب المنخول ص ٥٠٣ والقرافي في كتاب الفروق ج ٤ ص ٣١ طبعة ١٣٤٦ هـ وابن همام الحنفي في فتح القدير ج ٢ ص ٣٨٩ وابن قدامة في كتاب المغنى ج ٩ ص ٥٩ طبعة سنة ١٣٦٧ هـ

نقلوا عن ابي حنيفة : انه قال : لو أن رجلين تعمدا شهادة الزور على رجل انه طلق امرأته ، وفرق القاضي بينهما اعتماداً على الشهادة الكاذبة — لجاز لأحد الشاهدين الكاذبين العالم بتعمده الكذب ان يتزوجها .

وايضاً نقل صاحب المغني عن ابي حنيفة : لو ان رجلاً ادعى كاذباً ان فلانة زوجته ، واقام شاهدي زور فحكم القاضي بالزواج فحلت له وصارت زوجته ، وكذا لو ان امرأة استأجرت شاهدي زور بأن زوجها طلقها ، وحكم القاضي بالطلاق — لحل لها ان تتزوج بمن تشاء ! .

وأصاغر الطلبة يعرفون أن ما بني على الفاسد فهو فاسد . . وإذا سقط الأصل سقط الفرع .

إلحاق الولد بغير أبيه :

قال ابو يوسف تلميذ ابي حنيفة في كتاب اختلاف ابي حنيفة وابن ابي ليلى ص ١٨٣ طبعة اولى : إذا غاب الزوج عن زوجته ، ثم نُعي إليها فاعتدت وتزوجت برجل آخر ، ورزق منها اولاد ، ثم جاء زوجها الأول — فالأولاد كلهم للأول الذي كان غائباً وبحكم الميت .

وفي كتاب الاحوال الشخصية لمحمد محيي الدين عبد الحميد ص ٤٧١ طبعة سنة ١٤٩٢ — أن ابا حنيفة قال : لو وكّل رجل في مصر رجلاً في الاندلس بأن يزوجه فلانة . فعقد له عليها . ولم يلتقيا أصلاً ، ثم تجيء بولد بعد العقد ينسب الولد لزوجها المقيم في مصر ! .

يا سبحان الله ! إلحاق الولد بغير أبيه شرع ودين وحكم القاضي اعتماداً على الزور حق وعدل ، ومجرد الاستئجار على الزنا يحلل الحرام ، اما العقد على المرأة الخلية بمهر وأجل فأشد من الزنا ! . . ومرة ثانية يا سبحان الله! .

زواج المتعة والزواج الموقت :

وبهذه المناسبة نشير إلى ان جماعة من فقهاء السنة يفرقون بين زواج المتعة والزواج الموقت من أوجه ثلاثة : الاول ان المتعة لا تكون إلا بلفظ متعت ، والموقت يكون بلفظ الزواج ، الثاني ان المتعة لا تحتاج إلى شهود ، وهم شرط في الموقت . الثالث ان تعيين الوقت شرط في المتعة وليس بشرط في الموقت بل يجوز بمجرد كلمة « وقت او زمن او اجل » من غير تعيين . وقال بعض فقهاء الحنفيه : في الزواج الموقت يبطل الأجل ويصح العقد . وقال جمهور السنه : لا فرق من حيث فساد العقد وبطلانه بين المتعه والموقت [1] .

وقال الشيعه : المتعه كالزواج الدائم في خلو المرأة من الزواج والعدة ، وفي إلحاق الولد بأمه وابيه ، ووجوب اصل العدة بعد انتهاء المدة ، والعقد المشتمل على الايجاب والقبول . والفرق أن المتعة تقع بلفظ متعت او زوجت او انكحت فقط لا غير ، اما الزواج الدائم فلا يقع الا بزوجت او انكحت ولا يصح بمتعت وحدها ولا بد من تعيين الاجل وتحديده في المتعة دون الزواج الدائم ، وأيضاً ذكر المهر ركن فيها دونه . . وليس للمتمتع بها نفقة ولا ارث الا مع الشرط ، وللدائم النفقة والارث حتى مع شرط عدمهما . والتفصيل في كتب الفقه ، ومنها كتاب فقه الامام جعفر الصادق (ع).

صلاة الشيطان :

سؤال آخر نوجهه إلى الشيخ الازهري الذي قال : الزنا خير من المتعة ، ونطلب منه الجواب . فقد اشتهر عن ابي حنيفة ان من أدى الصلاة الواجبة على الصورة التالية فقد اطاع الله ، وسقط عنه الوجوب . وهي :

---

(١) الاحوال الشخصية لمحمد محيي الدين ، والاحوال الشخصية لأبي زهرة .

ان يغمس الانسان جسمه في برميل من نبيذ ، ويلبس جلد كلب مدبوغ [1] ويدخل في الصلاة بلانية ، ويكبر تكبيرة الاحرام بالهندية او بأية لغة غير عربية ، ويقرأ في الصلاة مدهامتان بلا فاتحة [2] ثم يترك الركوع المطمئن المستقر [3] ثم يحدث عمداً – أي يخرج الريح من بطنه – بلا تسليم في آخر الصلاة .

وسئلت اكثر من مرة عن هذه الصلاة وصحة نسبتها إلى ابي حنيفة ؟ ومن الذي ذكرها ؟ وفي أي كتاب ؟ وكنت أجيب بأن أجزاء هذه الصلاة واركانها موجودة في فقه السنة ، ولكنها ذكرت اشتاتاً وفي مسائل متفرقة . . ثم رأيتها ملمومة ومجموعة في كتاب المنخول للغزالي ص ٥٠١ طبعة أولى – على الشكل التالي :

« إذا عرض اقل صلاته – اي صلاة ابي حنيفة – على عامي جلف امتنع عن تقليده واتباعه ، فان من انغمس في مستنقع نبيذ ، فخرج في جلد كلب مدبوغ ولم ينو ، ويحرم في الصلاة مبدلا صيغة التكبير بترجمته تركياً او هندياً ،

(١) في بداية المجتهد لابن رشد أن أبا حنيفة أجاز الوضوء بنبيذ التمر ، وقال بطهارة جلد الكلب المدبوغ .

(٢) قال ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٢ ص ٣٨٤ طبعة سنة ١٩٥٩ باب وجوب القراءة للامام والمأموم : ان الفاتحة واجبة في الصلاة عند الحنفية ، ولكن من تركها عمداً تصح صلاته ، ولا تجب الإعادة عليه ، وإنما يأثم فقط . . ثم قال ابن حجر : ان بعض الأحناف يترك الفاتحة في صلاته عمداً ويتقصد الإثم لا لشيء إلا مبالغة في مخالفة مذهب الامام الشافعي .

(٣) في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة : أن الركوع عند الحنفية يحصل بطأطأة الرأس بأن ينحني انحناء يكون إلى الركوع اقرب ! وليس من شك أن القريب او الشبيه بالركوع ليس بركوع .

ويقتصر في قراءة القرآن على «مدهامتان» ، ثم يترك الركوع ، وينقر نقرتين لا قعود بينهما ، ولا يقرأ التشهد ، ثم يحدث عمداً في آخر صلاته بدل التسليم ، ولو انفلتت منه بأن سبقه الحدث يعيد الوضوء في اثناء صلاته ، ويحدث بعده عمداً ، فانه لم يكن قاصداً في حدثه الأول ــ تحلل من صلاته على الصحة » .

وعلق الغزالي على ذلك بقوله : « والذي ينبغي ان يقطع به كل ذي لب أن مثل هذه الصلاة لا يبعث الله لها نبياً ، وما بعث الله محمداً (ص) ليدعو الناس إلى مثل هذه الصّلاة ، وهي قطب الاسلام وعماد الدين » .

واكرر ثانية وثالثة لماذا يتناسى المتعصبون هذه العورات في مذهبهم ، ويقيمون الكون على رؤوس الشيعة من أجل المتعة ، وهي لا تخلو من احد فرضين : اما زواج شرعي كما يقول الشيعة ، واما شبهة بلا إثم كما يقول السنة ، أو تقول مبادئهم وقواعدهم .

لكل رأيه وعذره :

من المتفق عليه والمقطوع به عند السنّة والشيعة أن النبي (ص) أجاز المتعة وأباحها ، ثم اختلفوا في النسخ فقال السنة : ثبت عندنا برواية الثقات أن النبي (ص) نسخها وحرمها بعد أن حلها وأذن بها . . فقال لهم الشيعة : لكم رأيكم وعذركم في ذلك ما دام راوي النسخ مقبولاً ومعتمداً عندكم . . والفقيه المحقق المثبت هو الذي يفحص ويبحث جاهداً عن النص ، ويعمل به بعد أن تثبت أمانة الراوي عنده لا عند غيره .

ونحن الشيعة قد فحصنا وبحثنا جاهدين عن النسخ فلم نعثر له على عين ولا أثر في النقل الموثوق الامين عندنا . . ومن البداهة بمكان أنه لا يجوز القول

بنسخ الحكم الثابت عندنا قطعاً وباتفاق المسلمين جميعاً الا إذا تجلى ذلك بوضوح كامل ، لأن ما ثبت باليقين لا يرتفع ويزول الا بيقين مثله عند من أيقن بالثبوت لا عند غيره كما اشرنا ، ولو قلنا بالنسخ ، والحال هذه ، لكنا ممن يحلل حرام الله من غير دليل — ما زال الكلام للشيعة — واذن فتكليفنا الشرعي هو ابقاء ما كان على ما كان ما دام لم يثبت العكس ، ولا عذر لنا عند الله اطلاقاً لو قلنا بالنسخ . . فلماذا لا يعذرنا اخواننا السنة كما عذرناهم ؟ وهل يرتاب أحد أن النسخ لو لم يثبت عند السنة لقالوا بقول الشيعة ، وانه لو ثبت عند الشيعة لقالوا بقول السنة ؟ .

وبعد ، فقد كنت في غنى عن هذا النقض والجدل لولا ذاك الازهري العجوز ومن على شاكلته الذين يُلجئون الآخرين للرد عليهم خوفاً من وباء التقليد الاعمى ، وانتشار المحاكاة للجهل والتعصب الذي يبدد الشمل ويُشل العزم في وقت نحن احوج إلى العمل يداً واحدة وقلباً واحداً لتحقيق ما نصبوا جميعاً إليه .

مشكلات نهج البلاغة

مسحة إلهية وعبقة نبوية :

قرأت أكثر من كتاب في مشكل القرآن ، وغريب الحديث وعلومهما ومجازاتهما ، وما رأيت كتاباً واحداً أفرد بتأويل المشكلات في نهج البلاغة مع ان فيه العديد من المتشابهات التي يدور حولها التساؤل ، ويكثر الجدال والنقاش .

وإذا لم يكن « النهج » وحياً فان صاحبه ربيب الوحي وكاتبه ، واخو الرسول وبقية النبوة ، وأدركته دعوة النبي الاعظم (ص) حين قال : « اللهم اهد قلب علي ، وثبت لسانه » . وقال الشريف الرضي : « ان كلام الامام عليه مسحة العلم الإلهي ، وفيه عبقة من كلام النبوة » . وقال الشيخ الدكتور احمد الشرباصي في مجلة الهلال ، شهر ايلول سنة ١٩٧٣ : « إذا كان الامام قد نثر المئات من كلماته ، وجعل كل حكمة منها تسير بين المشرق والمغرب مسير المثل الشرود ، فانه في بعض الاحيان يجمع المجموعة من كلماته الحكيمة في عقد واحد ينتظمها كلمة بجوار كلمة » .

ونعرض في هذا الفصل طرفاً من مشكلات النهج ، عسى أن يكون حافزاً لعالم بياني قدير ، على أن يؤلف كتاباً خاصاً بهذا الموضوع الذي ينطوي على أدق الحقائق وأعمقها .

وحدة الذات والصفات :

قال الإمام (ع) في أول خطبة من خطب النهج : « وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه » سبحانه وتعالى . . وهنا سؤال يفرض نفسه ، ويخطر في بال أي قاريء ، وهو كيف يكون الايمان بالله كاملاً وخالصاً لوجهه الكريم بنفي الصفات عنه ، وهو جلت كلمته قد نعت نفسه بالعديد من الصفات ، كالرحمن الرحيم ، والقدير العليم ، والغفور الودود . . وايضاً وصفه الراسخون في العلم بكل كمال وجلال حتى كلام الامام متخم بالنعوت الإلهية والصفات القدسية ؟ .

الجواب :

الصفات بما هي على نوعين : الأول وصف الشيء بحقيقته وطبيعته بحيث الوصف تكراراً وبياناً لذات الموصوف بلا زيادة عليها ، كوصف الانسان بالانسانية ، فان هذا الوصف غير منفصل عن طبيعة الموصوف ، ولا يضيف إليها شيئاً لا نعرفه من قبل .

النوع الثاني وصف الشيء بما هو خارج عن ذاته وحقيقته وزائد عليها ، كوصف الانسان بالعلم ، فان حقيقة العلم الكشف عن الواقع ، وحقيقة الانسان الحيوان الناطق ، كما هو شائع ، فإذا وصفنا الانسان بالعلم فقد أضفنا إليه جديداً وزائداً على ذاته وهويته .

والامام اراد بنفي الصفات عن الله النوع الثاني أي الخارجة عن الذات والزائدة عليها . . وان الصفات الايجابية الثبوتية التي وصف الله بها ذاته القدسية كالعلم والقدر هي من النوع الأول ، لأنه تبارك وتعالى واجب الوجود ، وواحد أحد ، ومنزه عن الأعراض والحوادث . ولا بد من مراعاة هذه

الأصول والحرص عليها في كل ما ينسب إليه سبحانه ؛ فإذا نسب إليه ما يتنافى مع الوجوب او التوحيد او التنزيه بوجه من الوجوه - كانت النسبة كذباً وافتراء عليه تعالى . . مثلاً إذا وصفت الله بالعلم على انه عين ذاته لا غيرها ولا زائد عليها فهذا الوصف حق وصدق . لأنه ينسجم تماماً مع الوجوب والتوحيد والتنزيه . اما إذا وصفته بالعلم على انه غير الذات الواجبة الواحدة المنزهة وزائد عليها - فالوصف زور وبهتان لأن المغاير الزائد على الذات ان كان واجب الوجود لزم تعدد الواجب وهو عين الشرك . وان كان ممكناً لا واجباً لزم ان يكون علمه تعالى بالاكتساب لا بالذات تماماً كعلم المخلوقين ، وان تكون ذاته القدسية محلا للاعراض والاحداث ؛ وكلا الفرضين باطل من الاساس ، لأن الأول ضد التوحيد ؛ والثاني ضد الوجوب والتنزيه .

التجارة بالصدقة :

قال الامام في الحكمة رقم ١٣٦ من حكم النهج: « واستنزلوا الرزق بالصدقة » . وفي معناها الحكمة ٢٥٧ : « أملقتم فتاجروا الله بالصدقة » . وقال الشيخ محمد عبده في تعليقه على هذه الحكمة : « وها هنا سر لا يعلم » .

وذلك ان ظاهر الكلام يدل على ان الصدقة تدّر الرزق تماماً كالكدح والسعي الدائب ، أو أنفع وأعود ! . وهذا بعيد عن قضايا الحياة والخبرة الحسية ، ولو كان من واقع الحياة الدنيا وحقيقة ملموسة - لما وجد بخيل وفقير .

الجواب :

١ ــ أجل ، ان التجربة لا تثبت ذلك ، واذن ليس من قصد الامام (ع) أن الصدقة وسيلة للرزق على سبيل الحتم والضرورة ، بل القصد ان للصدقة بعض التأثير في ذلك كعناية الله تعالى وهدايته إلى السعي الناجح ، والعمل الذي يثمر الرزق .

٢ ــ ان الخطاب في « استنزلوا وتاجروا » غير موجه للفقراء كيف وفاقد الشيء لا يعطيه ؟ . وانما المراد به الاغنياء الذين يبخلون بأموالهم ، ولا ينفقونها في سبيل الله خوفاً من الفقر ؛ وعليه يكون المعنى المراد من تاجروا الله بالصدقة ونحوه هو عين المراد من الآية ٢٦٨ من البقرة ، أو يومىء إليه ، وهي :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ﴾

والمراد بالفضل هنا الغنى في مقابل الفقر الذي وعدهم به الشيطان .

الثقة بالله :

قال الإمام (ع) في الرسالة ٢٦ من رسائل النهج : « فإن العبد إنما يكون حسن ظنه بربه على قدر خوفه من ربه ، وإن أحسن الناس ظناً بالله أشدهم خوفاً من الله » .

وتسأل : ان حسن الظن معناه الثقة ، وهي تستدعي الامان . والخوف ضد الامان ، فكيف يكون أحسن الناس ظناً بالله أشدهم خوفاً منه ؟ . وما هو القاسم المشترك والقدر الجامع بين الماء والنار ؟ . وأوضح مثال لحسن الظن بالله رواية تقول : « ان أعرابياً سأل النبي (ص) : من يلي حساب الخلق يوم القيامة ؟ . فقال النبي : الله عزّ وجلّ . فقال الأعرابي : هو نفسه ؟

قال النبي : نعم . فتبسم الاعرابي . ولما سأله النبي عن ذلك قال : إن الكريم إذا قدر عفا ، وإذا حاسب سمح . قال النبي : لا كريم أكرم من الله . . . فقه الاعرابي » . وليس من شك ان قول النبي وعلي واحد فما هو وجه الجمع ؟

الجواب :

إن الإمام (ع) يشير بقوله هذا إلى معنى جليل وعميق ، وهو أن الثقة بالله شرط أساسي لصدق الإيمان به والإخلاص له . ومن أقواله في ذلك : « لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله أوثق بما في يده ؟ » . ولكن الإمام (ع) يحدد هذه الثقة بأن تكون تصرفات العبد بكاملها لله وحده ؛ فلا يرجو ثواباً على فعل أو ترك إلا ثواب الله ، ولا يخاف عقاباً على شيء إلا عقاب الله على أن يكون رجاء الثواب على الحسنة تماماً على قدر الخوف من العقاب على السيئة لو وزنا معاً لم ترجح كفة أحدهما على كفة الآخر . . . وبتعبير ثانٍ ان الثقة تجمع بين الرجاء والرغبة في رحمة الله الواسعة ، وبين الخوف والرهبة من عدله الصارم . ومعنى هذا أن موضوع الخوف غير موضوع الرجاء . وأن هذين الضدين لم يجتمعا في موضوع واحد كي يُسأل ويقال : كيف جمع الإمام بينهما ؟ .

وما قرأت كلمة دفعت بي إلى العمل لوجه الله والإخلاص له ، وملأت قلبي ثقة به وبرحمته — مثل هذه العظة البالغة للإمام زين العابدين (ع) حين يقول : « لو قدر الله انه معذبي لا محالة ما ازددت إلا اجتهاداً لئلا أرجع على نفسي بالملامة » . ومعنى هذا ان الله سبحانه لو قال للإمام : وعزتي وجلالي لاعذبنك عذاباً لا اعذبه أحداً من العالمين — لكان هذا أقوى

البواعث في نفس الإمام على الإخلاص لله والتعبد له خوفا من الإهمال والتقصير إذا هو ترك العمل والاجتهاد لمجرد التهديد والوعيد بالعذاب .

وبعد ، فهل حُدِّثت أو مر بخيالك مثل هذا العلم بالله ، والثقة برحمته ، واليقين بعظمته ؟ . وهل في القديم والجديد أسلوب في الدعاية وا علام يضارع هذا الأسلوب في جذبه وتأثيره ؟ . وأنصح كل من يؤمن بالله أن يلح عليه ويُلحف بالسؤال من فضله ، فإنه تعالى ليس كأحدنا يضيق بالسائلين والملحفين . . . وفي أصول الكافي عن الإمام الصادق (ع) : ان الله عز وجل كره الحاح الناس بعضهم على بعض في المسألة ، وأحب ذلك لنفسه .

قصة الشامي مع الامام :

حارب رجل شامي مع الإمام (ع) في صفين ، وبعد منصرفه منها سأل الشامي الإمام : هل كان مسيرنا إلى حرب صفين بقضاء الله وقدره ؟ . فقال له الإمام : ما وطأنا موطئاً ، ولا هبطنا وادياً إلا بقضاء الله وقدره فقال الشامي : عند الله احتسب عناي ... ما أرى لي أجراً . فقال له الإمام: مه ، لقد عظم الله أجركم في مسيركم ومنصرفكم . فقال الشامي : كيف وقد ساقنا القضاء والقدر ؟ فأجابه الإمام بما معناه : ما أردت القضاء اللازم ، والقدر الحتم الذي يكون الإنسان معه مسيراً لا مخيراً ، ويستحيل أن أقصد ذلك وأريده ، لأن الإنسان مخير غير مسير وإلا امتنع التكليف ، وسقط الحساب والعقاب .

وفي هذا الجواب حلقة مفقودة ، وهي سكوت الإمام عما أراد من القضاء والقدر في جوابه الأول للشامي ، وهو يقول له : « ما وطئنا موطئاً

إلا بقضاء الله وقدره » . وقد تركت هذه الحلقة المفقودة الكثير من قراء النهج في حيرة . والبعض منهم خلط بين مسألة القضاء والقدر ، ومسألة الجبر والاختيار ، وظن ان الإمام يتكلم عن معنى القضاء والقدر في قوله للشامي : « لعلك ظننت قضاء لازماً ، وقدراً حاتماً ، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد . ان الله سبحانه أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً » مع أن هذا الكلام خاص بالجبر والاختيار لا في القضاء والقدر . . . وفيما يلي البيان :

القضاء والقدر :

لكلمة القضاء معانٍ عديدة، منها اللزوم والحتم الذي هو تعبير ثانٍ عن الجبر وعدم الاختيار . . . ومنها علم الله سبحانه بالطريق الذي سوف يسلكه العبد في جميع أفعاله الاختيارية خيراً كانت أم شراً .

وأيضاً لكلمة القدر معان عديدة ، منها اللزوم والحتم كالمعنى الأول للقضاء ، ومنها إيجاده سبحانه وتعالى للمسببات عند وجود أسبابها إرادية كانت أم قهرية .

وحين قال الإمام : « ما وطئنا موطئاً ، ولا هبطنا وادياً إلا بقضاء الله وقدره » فهم الشامي من كلمة القضاء وكلمة القدر معنى واحداً ، وهو اللزوم والحتم ، ولذا قال : ما أرى لي اجراً ، فزجره الإمام ونفى أن يكون أراد هذا المعنى ، وقال : « ويحك لعلك ظننت قضاء لازماً ، وقدراً حاتماً » . واكتفى الإمام بهذا النفي دون أن يبين المعنى الذي أراده من القضاء والقدر ، وانتقل إلى مسألة ثانية ، وهي مسألة الجبر والاختيار .

ومهما يكن فان الإمام (ع) أراد من القضاء والقدر المعنى الذي ينسجم مع اختيار العبد في أفعاله ، ولا يناقض صحة التكليف . وجواز الثواب والعقاب كما يدل عليه ظاهر كلامه . والمعنى الذي يتفق وينسجم مع حرية العبد ، ويريده الإمام هو أن نفسر القضاء هنا بعلم الله أن العبد سيفعل كيت وكيت بارادته واختياره . ونفسر القدر بأن الله يوجد الأفعال عند وجود أسبابها ، ومن جملة أسبابها إرادة العبد وقدرته . والله عليم بذلك وغيره .

مشكلة الجبر والاختيار :

تكلمنا عن هذه المشكلة في التفسير الكاشف ، وفي ظلال نهج البلاغة ، ومعالم الفلسفة وغير ذلك مما كتبنا ونشرنا ، واطلنا الشرح والكلام عنها وعن مسألة القضاء والقدر ، والخير والشر ، والهدى والضلال في كتاب فلسفة التوحيد والولاية ونشير هنا إلى مذهب أهل البيت في حرية الإنسان ، وخلاصته بإيجاز شديد أن الله سبحانه وهب الإنسان القدرة على معرفته والإيمان بوجوده ، وعلى التمييز بين الخير والشر ، وهذه القدرة موجودة في عقل الإنسان . . . وأيضاً وهب سبحانه الإنسان القدرة في بدنه على الكدح والعمل مخيراً لا مسيراً .

وقال السنة أو جلهم : ان القدرة موجودة في الإنسان ، ما في ذلك ريب ، ولكنها معطلة ومشلولة لا يستند إليها فعل ولا ترك ، ووجودها فيه تماماً كوجود الشعر على بدنه ، والفاعل لكل ما يصدر عن الإنسان هو الله وحده ، وليس الإنسان إلا مجرد ظرف ووعاء للفعل الذي يخيل إلينا أنه صادر عنه . . . ويسمى أهل هذا المذهب الجبرية .

وقال آخرون : إن الله سبحانه وهب الإنسان هذه القدرة على أن تكون ملكاً مطلقاً له لا يعارضه فيها أحد حتى الله تبارك وتعالى ، لأنه نقلها من سلطانه القاهر إلى سلطان الإنسان تماماً كما تنتقل ملكية المتاع من البائع إلى المشتري ، ومن المورث إلى الوارث ، غاية الأمر أنه عز وجل أمر العبد أن يستعمل قدرته في الخير لا في الشر ، وترك له الخيار ، إن شاء أطاع ، وإن شاء عصى . . . ويسمى أهل هذا المذهب المفوضية ، أي أن الله فوض أمر القدرة لعباده ، وقطع كل علاقة بينه وبينها ، كما يزعمون .

وقال أهل البيت : كلا « لا جبر ولا تفويض ، بل أمر بين أمرين » . والمراد بلا جبر هنا أن افعال الإنسان تستند إلى قدرته مباشرة . والمراد بلا تفويض أن سلطان الله على قدرة الإنسان قائم بالفعل وانها تماماً كالعارية ينتفع بها المستعير ، وهي على ملك صاحبها المعير ، لأن العبد وما ملكت يداه في قبضة مولاه . هذا هو الأمر بين الأمرين ، أي أن الإنسان يؤمن ويعلم بطاقته القلبية والعقلية ، ويكدح ويعمل بقدرته الجسمية ، ويترك ويفعل بإرادته الشخصية ، وفي الوقت نفسه كل من الله ، ولكنه تعالى أذن لعبده أن يتصرف بها في حدود حلاله وحرامه ؛ فان أطاع فله جزاء من أحسن عملاً ؛ وإن شق العصا فإن الله شديد العقاب .

أخطر من القنبلة الذرية

في سنة ١٩٦٨ أشرت في كتاب « من هنا وهناك » إلى أن الصهاينة طبعوا مئات الألوف من نسخ القرآن ، ووزعوها على مسلمي آسيا وافريقيا بعد أن حرفوا العديد من آياته . . . وفي ٦ / ١ / ١٩٧٠ قرأت في جريدة الجمهورية المصرية ما نصه بالحرف الواحد : « قال أحد زعماء الصهيونية : يجب أن نتخذ من القرآن سلاحاً مشهوراً ضد الإسلام لنقضي عليه، فيرى المسلمون أن الصحيح في القرآن ليس جديداً ، وإن الجديد فيه ليس صحيحاً » . وأشرت إلى ذلك في مقدمة كتاب « الإسلام بنظرة عصرية » .

والآن وبعد أن انتهت المطبعة من كتابي هذا : « شبهات الملحدين والإجابة عنها » قرأت في الصفحة السابعة من هذه الجريدة بالذات ٦ / ٦ / ١٩٧٤ — مقالاً شجاعاً ومخلصاً يفضح صراصير الصهيونية من أساتذة الجامعات في بعض البلاد العربية . والمقال بقلم الأستاذ محمد دياب . وعنوانه « أخطر من القنبلة الذرية » . وفيما يلي أذكر الركيزة والحجر الأساس لهذا المقال ، عسى أن ينتبه الغافلون . قال الأستاذ دياب :

« منذ أيام استمع الناس في البرنامج الثاني للإذاعة المصرية إلى ندوة عن التفسير العلمي للقرآن . ارتكب فيها بعض أساتذة الجامعة « الدكاترة » انحرافات بالغة الخطورة ضد القرآن . . . فقد زعموا أن القرآن لا يتفق مع العلم ، ولا العلم يتفق مع القرآن . . . والهدف من هذا الزعم هو عزل

القرآن عن الحياة ، والتشكيك في علم التفسير ، والواضح من ترتيب هذه الندوة واختيار المشتركين فيها أنها تعمدت النيل من كتاب الله بدليل أن المشتركين ليسوا من أهل العلم بالتفسير القرآني ، وان أحداً من العلماء المتخصصين لم يُدع للاشتراك فيها ، على الأقل ليرد على هذه الإفتراءات الجريئة » .

ونتساءل : كيف التقى هؤلاء « الأساتذة الجامعيون الدكاترة » مع ذاك الزعيم الصهيوني في عداوة الإسلام والتشكيك فيه عن طريق الطعن بالقرآن ؟. ولماذا سمحت إذاعة القاهرة بالإفتراء على كتاب الله ودين محمد رسول الله (ص) ؟ وأين شيوخ الأزهر حماة الدين والمرجعون له عن هذا الغزو الصهيوني الداخلي ؟ وهل هذه الظاهرة من إذاعة القاهرة هي من ذيول الانفتاح الجديد ، وعطور الصداقة المصرية الأمركية ؟ .

نثير هذه التساؤلات ، ونحن نعلم كم يضحي الأزهر والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية من أجل الإيمان وحماية الإسلام . . . أجل ، نحن ندرك ذلك من الأعمال والآثار ونقدره شاكرين ؛ ولكن نطالب المسئولين من شيوخ الأزهر وغيرهم أن يتنبهوا لهذا الغزو الداخلي الذي ينفث سموم الصهيونية باسم العلم مرة ، والدين ثانية ، والتجدد والانفتاح تارة أخرى .

ان الشعب المصري قاتل وضحى بالكثير لا من أجل الأرض فقط ، بل ومن أجل الدين والوعي واللغة والتراث والبناء في كل ميدان . . . والعدو يدرك ذلك جيداً ، ويحاول ما استطاع أن يحاربنا بكل سلاح من الداخل والخارج . . . وأمضى الأسلحة وأخطرها على الإطلاق حملة الشهادات المرتزقة وأرباب الهوى والتعصب ، وأشرنا إليهم في فصل الظاهرة القرآنية فقرة « أزمة خطيرة » .

النبوة والعقل

تمهيد

إن مسألة النبوة التي نتكلم عنها في هذه الصفحات ليست من الموضوعات الحديثة ، ولا من المسائل المعقدة الغامضة ، فقد عرفها الناس منذ عشرات القرون ، وتحدثت عنها كتب الدين والكلام والفلسفة باسهاب وتعمق ، وآمن بها ألوف الملايين في العصر الحاضر والغابر .

ونحن لا نجد شيئاً جديداً نضيفه إلى أقوال العلماء الراسخين ، وإنما غرضنا الوحيد أن نوضح ونبسط آراءهم للشباب ، لعلهم يقرأونها فيما يقرأون من هذه الكتب الحديثة التي تزخر بها المكتبات ، والتي صرفتهم عن كل قديم ، حتى ولو كان دواء لا داء بعده ، وهدى لا ضلالة فيه .

ظنوا أن الدين حافل بالبدع والخرافات ، وانه لا عمل لرجال الدين إلا أن يسيروا في ركاب الجائرين ، ويزينوا لهم البغي والعدوان على المستضعفين . فتنكروا للدين وأهله ، ونفروا منه ومنهم .

ونحن لا نريد منهم إلا أن يقرأوا كتاب الله وسيرة النبي الكريم ، ثم يحكموا بما يشعرون ، كما يفعل المفكر الرشيد ، ومتى قرأوا وأنصفوا يتم الصلح بينهم وبين العلماء الذين ينزهون الإسلام عن الأساطير والأوهام .

وتشاء الصدف أن يقع في يدنا كتابان . ونحن نبحث ونتتبع المراجع القديمة والحديثة التي تتصل بهذا الموضوع . وقد وقفت عند الكتابين طويلاً لأن أحدهما موعظة وذكرى ، والآخر فيه مجن وهوى . واسم الأول « محمد الرسالة والرسول » ألفه دكتور مسيحي من أقباط مصر . درس الأديان وقارن بينها . ثم انتهى إلى الإيمان بنبوة محمد وتعاليمه . ويجد القارىء ملخصاً لهذا الكتاب . في الفصول الآتية بعنوان « الرسالة والرسول » واسم الكتاب الثاني « قشور ولباب » وصاحبه دكتور مصري وهو زكي نجيب محمود . وقد تعرض فيه لمفهوم الأدب والعلم والفلسفة . وحمل على الميتافيزيقيا ، ونسب كل ما يتصل بما وراء الطبيعة إلى الأوهام والأساطير ، وأطال الكلام في الأدلة على دعواه هذه . ثم انتهى إلى النتيجة التالية :

« وما دامت الميتافيزيقيا كلها كلاماً فارغاً على النحو الذي بينّا . فما نحن صانعون بهذه الاسفار الضخمة التي تراكمت لدينا على مر القرون مما كتبه الميتافيزيقيون ؟ انه لعزيز عليّ وعليك أن تلقي هذه الأسفار ؛ كما ينبغي لها طعاماً لألسنة النار . أو اثقالاً في قاع البحر ، وإلا فلنبق عليها ، ليقرأها القارىء . إذا أخذه الحنين إلى الماضي . كما يقرأ أساطير الأولين[1] » .

وليس بجديد علينا هذا القول . فقد ألفناه منذ القديم ، وناقشناه في ما نشرنا من مقالات ومؤلفات ، ولكن الجديد الذي لم نعرفه من قبل . ولم نسمعه من أحد هو قول المؤلف في ص ١٥٥ :

« إن فتح النوافذ والأبواب أمام المدنية الغربية لم يصادف هوى عند طائفة من الناس . فبين ظهرانينا فريق كبير جداً كان يتمنى بحكم تربيته

(١) ص ٢١٩ و ٢٢٠ طبعة ١٩٥٧ .

أن يكون نهوضنا كله نمواً من الداخل ورجوعاً إلى الماضي ، فلما رأوا أن تيار الحضارة الغربية العلمية جارف يمس اوضاع الحياة كلها ، لم يروا بداً من الحركة في اتجاههم ، وهو الجري إلى الوراء لاستخراج كنوز الماضي ، لعلهم يجابهون بها الغرب الدخيل ؛ ولكنهم لم يقتصروا على مجرد نشر القديم نشراً مزدوجاً بالشرح والتعليق ، بل أضافوا إلى ذلك « تعقيل » هذا التراث ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل » .

وهو يريد بقوله هذا رجال الدين وغيرهم من قادة الفكر ، لأنه ضرب مثلاً بمفكر وضع كتاباً في الشعر العربي القديم ، وبإمام فسّر القرآن تفسيراً راعى فيه أن تظهر أحكامه للناس متسقة مع العقل العلمي الحديث .

ولو أن الدكتور زكي درس الإسلام ، واطلع على أحكامه وتعاليمه لاستثنى قادة الدين من قوله : « أضافوا إلى ذلك (تعقيل) هذا التراث » ولعلم انهم لم يحاولوا إعطاء الإسلام أية قيمة أجنبية عنه ، وإنما كشفوا عن بعض قيمه وخصائصه ، وانهم لم يذكروا من كنوزه وأسراره إلا القليل .

إن ائمة المسلمين لم يرسموا لتفسير القرآن خططاً من عندهم تتلاءم مع العقل الحديث أو القديم ، بل ان القرآن هو الذي أرشدهم إلى منهج العلم والعقل ، وأمرهم بنبذ الخرافات والأوهام ، ولو أن رجال الدين اتبعوا منهج القرآن في التفسير والتشريع لما رأينا في أقوال بعضهم ما يلام عليه . لذا ترانا نحتج بالقرآن وباسم الدين على من ينحرف عن طريق الفطرة والعقل ، ولكن البعض يتجاهل هذه الحقيقة ، ويعكس الآية ، فيحتج على رجال الدين إذا تركوا البدع والضلالات ويزعم أنهم يتكلفون ويتمحلون ! كأن الدين « بصّارة براجة » أو تغسيل أموات ، وتلاوة آيات !

قال المستشرق الفرنسي جاستون : « إن القرآن هو منبع الدين العقلي ودستوره ، فقد احتوى على أسس تستند إليها حضارة العالم . » ويقول دكتور مسلم : « لقد أضاف القادة إلى تراثنا التعقيل » . أي أعطوا العقل لما لا يعقل !

إن العلماء الراسخين لم ينفوا عن الدين ما هو منه . ولم يضيفوا إليه ما خرج عنه . انهم لم يفعلوا شيئاً أكثر من الكشف عن الواقع . وإزاحة الستار عن جوهر الدين وحقيقته » رأوا من يخطىء فهم الدين . ويلقي عليه التبعات كما رأوا تحكّم القوي بالضعيف . وشيوع الفسق والفحش . والاضطراب في الأعمال والأخلاق . فشعروا بالمسؤولية أمام الله والضمير عن معاني الحق والفضيلة ، فبينوها للناس ، ودافعوا عنها ودعوا إليها . ورفعوا أصواتهم مع أصوات المعذبين في كل شعوب العالم . أو أثاروا في النفوس النزعة الإنسانية نحو الخير ، وربطوا مسائل الدين بصالح الجماعة . وبرأوه من كل ما يضير الإنسان ، كما جعلوه وسيلة للتعاطف والتفاهم ، وطريقاً للعدل والأمن والسلام .

وهذا هو ذنبهم عند البعض ! مساكين أهل العلم ، ان سكتوا قيل كسالى مهملون ، وإن تكلموا قيل متعصبون متمحلون ، ولكن يهون الخطب ان من يقول هذا القول هم شذاذ الأحزاب الذين لا يرضون عن أي إنسان وبخاصة عن رجل الدين إلا إذا طبّل لهم وزمّر ، وحرّف لهم كلام الله وسنن الأنبياء والصالحين ، ورمى من لا يشايعهم على الضلال بالزيغ والانحراف وصدق الله العظيم حيث خاطب نبيّه الكريم بقوله :

﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ
وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ،
قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى ﴾
البقرة ١٢٠ .

وقد علمتنا الأيام والتجارب أن أخوف من يخاف منه المجرم المأجور هو رجل الدين الذي لا يؤثر على عقيدته شيئاً .

وإذا فسر المتحذلقون أقوال رجال الدين بأنها تمحل وتعصب لدينهم وعقيدتهم ، فبماذا يفسرون قول الدكتور فيليب حتي المسيحي المعاصر ، والمؤرخ الكبير الذي وصف الإسلام بأنه حضارة عامة شاملة تنتظم كل من يعيش تحت سمائها في حرية وصفاء ، ويعيش غير المسلمين مع المسلمين على قدم المساواة وتربطهم بروابط المحبة والأخوة » !

وإذا عقل غير المسلم فضل الإسلام وعظمته ، ونطق بكلمة الحق لوجه الحق ، فهل يكتمها علماء المسلمين ، وقد أحيا الله قلوبهم بنور الإسلام منذ عرفوا الحياة ؟ ! كلا سيمضون في هذا الطريق غير مبالين ولا مكترثين يجهرون بالحق ، ويدفعون عنه بصراحة وشجاعة لا تأخذهم رغبة في منصب ومال ، ولا رهبة من قوة وسلطان ، ولا يبتغون إلا وجه الله ، وخدمة الإسلام .

الحسن والقبح

قال بعض الشعراء :

رُبَّ قبح عند زيد هو حسن عند عمرو
فهما ضدان فيه وهو وهم عند بكر
ليت شعري فمن الصادق فيما يدّعيه
ولماذا ليس للحسن قياس ؛ لست أدري

بل ، ان قياس الحسن موجود ، ولو كشف عنه الغطاء لم يختلف فيه اثنان ، والذي دعا الشاعر إلى نفيه ، وأوقعه في الحيرة والتشكك ما قرأه في بطون الكتب من الآراء والأقوال المتضاربة حول تحديد قياس الحسن وبيان مفهومه ومعناه .

لقد اتفقت الكلمة على أن للحسن واقعاً ، وان له قياساً دون ريب . ولكن وقع الاختلاف في حقيقة هذا القياس ، فذهب الأشاعرة [1] إلى أنه ليس للفعل صفة يكون باعتبارها حسناً أو قبحاً ، بل ما أمر به الشرع فهو حسن ، وما نهي عنه فهو قبيح ؛ ولو أمر بالقبح لصار حسناً ، أو نهى عن الحسن لأصبح قبيحاً .

(١) الأشاعرة هم أتباع أبي الحسن الأشعري المتوفى حوالي ٣٣٠ هـ .

فالصدق والكذب، والأمانة والخيانة ، سيان في الواقع قبل أن ينص الشرع على التحليل أو التحريم . ومما احتج به هؤلاء - الآية ٢٣ من سورة الأنبياء :

﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾

والنتيجة المنطقية لهذا القول أن لا فضائل ولا رذائل في الأفعال قبل أمر الشرع ونهيه .

ويكفي للرد على القائلين به ان عقولنا تدرك حسن الصدق النافع ورد الوديعة ووفاء الدين ، وقبح الكذب الضار والخيانة والتعاون على الإثم كما ندرك ضوء الشمس ، وكما نعلم ان ضم واحد إلى مثله يصبحان اثنين ، أجل إن الله سبحانه لا يأمر إلاّ بالحسن ولا ينهى إلاّ عن القبيح ، كما قال الإمام علي، ولذا لا نقول: هذا حسن لأن الله أمر به، وذاك قبيح لأنه نهى عنه، وإنما نقول: إن الله أمرنا بهذا لأنه حسن ونهانا عن ذاك لأنه قبيح .

أما معنى قوله تعالى :

﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾

فهو أن العبد لا يحق له أن يقول لله لِمَ فعلت ؟ لأنه سبحانه قادر على كل مقدور، وعالم بقبح القبائح وهو غني عنها . ومن كان كذلك استحال أن يفعل القبيح بخلاف العبد ، حيث يجوز عليه ذلك ، ولذا كان مسؤولاً .

وقال المعتزلة والإمامية : إن الأفعال منها ما هو حسن بحكم العقل لا باعتبار حكم الشرع ، كالصدق النافع وما إليه ، ومنها ما هو قبيح كذلك ، كالكذب الضار ، ومنها ما لا يستقل العقل بالحكم عليه سلباً أو إيجاباً ، فنحتاج حينئذ إلى الشرع ، كوجوب الوفاء بعقد البيع ، وتحريم

أكل لحم الميتة ، وما كان من النوع الأول يعبّرون عنه بالحسن أو القبح العقلي ، والنوع الثاني ينعتونه بالشرعي .

وبالجملة « إن العقل يستقل بحسن شيء وقبح آخر ، ولو في بعض الأشياء وعلى سبيل الموجبة الجزئية ، ولو عزلناه كلية لتهدم أساس اثبات الصانع ، ولزم إفحام الأنبياء ، حيث يجيز العقل ، والحالة هذه ، أن تظهر المعجزة على يد من يدّعي النبوة كذباً وافتراء »[1] . ومؤدى هذا القول أن العقل يدرك شيئاً من الحسن والقبح ، ولا يدرك شيئاً منهما ، والذي يدرك كل شيء هو الله وحده جل وعلا .

وقال آخرون : كل ما يحقق رغبات الفرد وميوله فهو حسن ، وكل ما يتنافى معها فهو قبيح ، وهؤلاء هم الفوضويون الذين لا يدينون بشيء ولا يعترفون بكائن غير أنفسهم .

ولو أخذنا بنظريتهم هذه لبقي الإنسان كما كان يعيش في الكهوف والغابات يقتات النبات والحشرات ، ولم يتقدم خطوة واحدة في مضمار الحياة ، وكيف يستطيع الفرد أن يحقق غاياته إذا لم تتفق مع غايات الآخرين . انه جزء من كل يرتبط وجوده بوجود غيره ، فلو عمل على أساس تجاهل الحقائق وعدم المسؤولية لتحطمت حرية الجماعة وكرامتها ، ولتعذر على أي إنسان أن يحقق شيئاً مما أراد . وماذا يبقى لك أو لي أو لغيرنا إذا أنكرنا الشرائع والأخلاق ؟ !

وفئة ثالثة ذهبت إلى الحسن ما يستحسنه الناس ، ويألفه المجتمع . وهذا القول لا يصح في المجتمع الفاسد ، فقد وأد أهل الجاهلية الاناث ، واعتبروهن سلعاً تشترى وتباع ، وكان المصريون يزفون بناتهم إلى النيل ويغرقونهن أحياء ، وإلى اليوم نسمع بوجود أكلة لحوم البشر ، وان الانسان يقدم قرباناً للآلهة

---

(١) تقريرات الميرزا النائيني للخراساني ج ١ ص ٢٢ طبعة ١٣٤٥ هـ .

ففي « اوينتشا » يقدم أهلها كل سنة شخصين قرباناً لآلهتهم ! وكذا تدفن الزوجة في بعض بلاد الهند حية مع زوجها ؛ وكلنا يعلم كيف يعامل الملونون في اميركا وجنوب افريقيا !

والحقيقة ان كل ما ينهض بالحياة ، ويرفع من شأنها بجهة من الجهات الروحية أو المادية فهو حسن . وكل ما يؤخرها عن التقدم ، ويقف في طريق نموها وازدهارها فهو شر وقبيح ، فنهضة الصناعة والزراعة والثقافة ، والتحرر من العبودية والصدق والامانة وضبط النفس عن الحرام والرذيلة والجهاد والتضحية ، وما إلى ذلك مما يحل مشكلات المجتمع كله خير وحسن في ذاته وعند العقل والناس أجمعين .

أما الركود والجمود ، أما الكذب والدس ، والاعانة على الظلم والاستغلال فشر وقبيح : لأنه الموت والهلاك بعينه . اذن ، العقل يدرك الكثير مما ينفع الانسانية ويضرها كالأمثلة المتقدمة ، ويخفى عليه الكثير كأكل لحم الميتة وما إليه فنحتاج والحال هذه إلى حكم الشرع ليكشف لنا الحقيقة .

وقد يتساءل : إذا كان العقل يدرك الكثير من حسن الاشياء وقبحها ، وكان القياس الذي يميز بينهما بهذا الوضوح وهذه البديهة ، فلماذا وقع الخلاف في تحديده بين أهل الرأي والنظر ! ؟

والجواب ان اختلاف هؤلاء في معنى الحسن وقياسه لا يدل على عدم وجوده ؛ أو خفائه وغموضه ، وانما يدل دلالة واضحة على انهم لم يدركوا حقيقة العالم الذي عاشوا فيه ، ولم يعرفوا شيئاً عن حياة المجتمع وفئاته ؛ فلقد كانوا يعيشون في برج عاجي ، ويرتفعون إلى السماء ، ويتكلمون عن أهل الأرض دون ان يعرفوا عنهم شيئاً ، ومن نأى باحساسه ووجدانه عن حياة الناس ؛ لا يحق له أن يتكلم عنهم وعن مقاييس حياتهم .

ومهما يكن فان الحسن حقيقة واقعة وقياسه جلي وواضح ، وان كثرت الأقوال وتضاربت الآراء في شرحه وتفسيره . ومن النتائج المترتبة على ادراك العقل للحسن والقبح أن كل شيء يحكم العقل بحسنه فهو محبوب شرعاً ، وما يحكم بقبحه فهو مكروه كذلك ، وهذا معنى قول طائفة من فقهاء المسلمين : « كل ما حكم به العقل حكم به الشرع ... والعقل رسول في الباطن ، والشرع عقل في الظاهر – مثلاً – إذا أدرك العقل ان العدل حسن والظلم قبيح نحكم بأن العدل محبوب لله ، والثاني مكروه له ، لأن المفروض ان أوامر الله ونواهيه تتبع المصالح والمفاسد في نفس الأفعال التي تعلقت بها .

وقد ندرك الجهة الداعية لأمر الله ، والجهة الباعثة على نهيه ، وقد تخفى علينا تلك الجهات غير اننا نعلم علم اليقين بأن ما خفي علينا لو اطلعت عليه عقولنا لكان حكمها موافقاً لحكم الشرع تماماً، لأننا نثق بعدل الله وحكمته أكثر مما نثق بمقدرة الطبيب واخلاصه الذي نستسلم له ولتعاليمه من دون قيد وشرط .

ومرة أخرى نقول : إذا عزلنا العقل عن ادراك الحسن والقبح للزم أن تكون الأشياء كلها في نظرة على نسق واحد ، فلا حق ولا باطل ، ولا خير ولا شر ، ولا صواب ولا خطأ ، وللزم أيضاً أن يجيز العقل على الله سبحانه اللغو والعبث ، والترجيح بلا مرجح ، وانه لا مانع أبداً أن يأمر بقتل الأطفال والنساء والطيبين الأبرياء ، وان يعذب بناره الشهداء والأنبياء ، ويدخل جنته السفاكين وقتلة الشعوب ، وان يصدق الكاذب ، ويكذب الصادق .

إذ المفروض ان العقل لا يقر ولا ينكر ، لا يستحسن ولا يستقبح ، وانما توجد جهة الحسن في الشيء بعد أن أمر الله به ، وتتحقق جهة القبح فيه بعد ان ينهى عنه ، مع ان لعكس هو الصحيح ، أي أن الله أمر بهذا لأنه حسن ، ونهى عن ذاك لأنه قبيح ، بدليل قوله عزّ من قائل :

﴿ إنَّ اللهَ يَأمُرُ بِالعَدْلِ والإحْسَانِ وإيتَاءِ ذِي القُرْبَى، ويَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ والبَغْي ﴾
النحل ٩١ .

﴿ ويُحِلّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ ويُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ ﴾
الاعراف ١٥٨ .

﴿ وإذا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا، واللهُ أمَرَنَا بِهَا، قُلْ إنَّ اللهَ لا يَأمُرُ بِالفَحْشَاءِ، أتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾
الاعراف ٢٩ .

أجل ، ان حكم العقل بحسن هذا وقبح ذاك يتفق تماماً مع الارادة الالهية ، ويستلزمها بالضرورة ، فإن عدل الله الشامل ، وقدرته على كل مقدور ، وتنزيهه عن اللغو والعبث ، وعلمه بالخفايا والاسرار ، وحكمته التي تستوجب ان تكون أفعاله وأوامره ونواهيه كلها على أتم ما ينبغي ، وأبلغ ما يتصور ، بحيث تترتب عليها المصالح والمنافع ، وتندفع بها المضار والمفاسد ، ان هذه وما إليها تستدعي ان يفعل الله الحسن دون القبيح .

وعلى هذا الأساس ، أساس ادراك العقل للحسن والقبح ، وعدالة الباري وقدرته وحكمته سنتكلم في الفصل التالي بعنوان : النبوات ، نتكلم فيه عن هذه الحقيقة : « هل يحكم العقل بأن ارسال الرسل مبشرين ومنذرين حسن أولاً ؟ » ومتى اثبتنا هذا بحكم العقل ثبت بالضرورة والبديهة ان الله قد بعث انبياءه هداة للناس .

النبوات

نبدأ هذا الفصل بذكر الصفات التي يجب توافرها بالنبي ، ليصبح أهلاً لتلقي الوحي ، وبيان الغاية من ارساله وبعثته، ومنهما يتضح حكم العقل بثبوت النبوات وارسال الرسل .

النبي انسان مبعوث من الله إلى الناس ، من الحق إلى الخلق ، ولا يبعث الله رسولاً حتى تجتمع فيه الصفات التالية .

صفات الرسول :

١ — ان يكون كامل العقل والذكاء بحيث يدرك ما يسمع ويقال له على حقيقته . ويفطن الشيء بسرعة وان كان خفياً ، ولا يتحير ويتردد في الأمور .

٢ — ان يكون كبير النفس يسمو بطبعه إلى الأرفع والأفضل .

٣ — ان يكون سليم الجسم من الأمراض المنفرة كالجذام والبرص وما إليهما .

٤ — أن يكون أميناً ومنزهاً عن الفظاظة والغلظة . وعن دناءة الآباء وعهر الأمهات . وكل ما يشوه السمعة والسيرة ، لئلا تنفر منه الأذواق السليمة فلا يحصل من بعثته الغرض المطلوب . وهو حمل الناس على الحق والابتعاد بهم عن الباطل .

٥ ـ أن يكون شجاعاً غير هياب لا يجبن ولا يتخاذل في سبيل الحق والعدل ، مهما تحرجت الأمور وأنذرت بالشدائد والمحن . لأن الرضوخ والتخاذل لا يتفق مع الوفاء للعقيدة والمبدأ . وان يكون كريماً يؤثر على نفسه ، ولو كان به خصاصة .

٦ ـ ان يكون زاهداً غير شره على الشهوات ، لأنها تحول بين المرء وعقله ودينه .

٧ ـ أن يكون بليغاً يعبر عما يريد بأكمل وأوضح بيان ، لأن ذلك أدعى في التأثير ، وأجدى في التبشير .

٨ ـ أن يكون معصوماً عن الزلل والخطأ والسهو في تبليغ الأحكام، لأن الغرض من بعثه ارشاد الناس إلى الحق وردعهم عن الباطل ، فلو جاز عليه الخطأ والمعصية لذهب الغرض المطلوب . وقديماً قيل : « فاقد الشيء لا يعطيه ».

ومن هذه الصفات يتبين معنا ان النبي بشر كسائر الناس لا يختلف عنهم في شيء الا أنه انسان كامل خصه الله بوحيه ورسالته :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
يُوحَى إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ
فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾
فصلت ٦ .

الغاية من البعثة :

أما الغاية المتوخاة من وجود الأنبياء فهي أن يسمعوا أهل الأرض نداء السماء ، ان يدعوا إلى الايمان بإله لا شريك له ولا مثيل ، وإلى الخشوع والخضوع للحق بنية خالصة مخلصة ، وان يرشدوا إلى ما فيه الخير والسعادة للجميع دنياً

وآخرة ، فيبثوا روح التعاطف والتراحم بين الناس ، وحث العدل والحق ، ويهيئوا كل فرد بوازع من عقيدته وايمانه إلى عمل الخير وترك الشر ، إلى التحرر من المنافع الشخصية ، والقيام بالواجبات الاجتماعية . وأبلغ كلمة تعبر عن مهمة النبي قول الرسول الأعظم : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ».

ومن الخير أن ننقل هنا كلمة صغيرة كبيرة لبعض المخلصين خاطب بها مرجعاً دينياً كبيراً . قال :

« تذكر ان الدين هو صاحب السيادة لا أنت ، وانما انت واحد من الناس ؛ وأخ بين أولئك الذين يجدون غبطة في الله : وشريك مع الذين يخافونه . وفيما عدا ذلك فاعتبر نفسك مجبراً أن تكون وجه العدالة . ومرآة القداسة . ونموذج التقى ، ومعيداً إلى الحقيقة حريتها ، ومدافعاً عن الإيمان ، ومعلماً للأمم ؛ وداعياً للشعب ، وسيداً للحق ، وملجأ للمظلومين ، ومحامياً عن الفقراء ؛ وأملاً للمتألمين ، وحامياً للأيتام ، وقاضياً للمترملين . وعيناً للمكفوفين . وعصا على الاقوياء ، ومطرقة على الطغاة ، وأبا للملوك . ومديراً للقوانين ؛ ومراقباً للأنظمة ، فأنت ملح الأرض ونور العالم ، وخادم الرب العظيم . تذكر ما أقول لك ، وليعطك الله فهماً » .

وبهذه الصفات يصبح صاحبها طريق الحق وصراط الله القويم ، والعقل الكامل للانسانية جمعاء . وعليه تكون بعثة الأنبياء حسنة بحكم العقل والضرورة وكل حسن فهو محبوب ومراد لله سبحانه . وإذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . اذن البعثة كائنة ومتحققة بالفعل .

وسئل الإمام جعفر الصادق عن الدليل على البعثة فقال :

« لما اثبتنا ان لنا خالقاً متعالياً عنا ، وعن جميع ما خلق ، وكان ذلك الصانع حكيماً لا يشاهده خلقه ، فلا يلامسهم ولا يلامسونه ، ولا يباشرهم ولا يباشرونه ثبت ان له سفراء في خلقه وعباده يدلونهم على مصالحهم ومنافعهم . . . وهم الانبياء والصفوة من الخلق » .

البراهمة :

وقال البراهمة [1] : لا حاجة لبعثة الأنبياء ، لأن النبي اما أن يأتي بما يوافق العقول ، واما بما يخالفها ، فان جاء بما يوافق لم تكن إليه حاجة ، ولا فيه فائدة ، لأن العقل يغني عنه . وان جاء بما يخالف وجب اهماله ورده .

والجواب : اننا لا نشك بأن العقل يدرك حسن بعض الأفعال كالصدق والعدل . وقبح بعضها كالكذب والظلم — كما أسلفنا — وهو يحكم أيضاً بأن فاعل الحسن يستحق المدح ، ومرتكب القبيح يستوجب الذم ، ولكن هناك أموراً كثيرة لا يدركها العقل ، ولا يحكم بها سلباً أو ايجاباً ، كشكل العبادات التي تقربنا من الله سبحانه ، وكالوفاء بعقد الزواج والبيع والهبة ، وكيفية تقسيم الميراث ، ونوع العقاب الذي يستحقه المجرم . وكحقوق الزوج والزوجة . والوالد والولد والربا والزنا واللواط . وأحكام الشركات والبلديات والنقابات ، وما إلى ذلك من حاجات المجتمع التي لا يبلغها الاحصاء .

ان الانسان يمتاز عن الجمادات والحيوانات بأنه لا يستطيع أن يحتفظ بكيانه ، ويحقق غاية من غاياته الاجتماعية ، كانسان اجتماعي الا بشريعة عادلة واعية يخضع لها في سلوكه وأفعاله . وهذه الظاهرة لازمت المدنيات والحياة الاجتماعية منذ وجودها حتى اليوم . وستلازمها إلى آخر ساعة ،

(١) قيل : ان البراهمة طائفة في الهند تنتسب إلى برهم أحد حكماء الهند القدامى .

من هو المشرّع ؟

وهنا سؤال يفرض نفسه : من أين تستمد قوتها هذه الشريعة ؟ ومن الذي يجب أن نأخذها عنه . ونرجع بها إليه ؟

وتقدم معنا اننا لا نستمدها من العقل وحده كما يدعي البراهمة . فالعقل لا يلزمك ان تتحمل مرارة العيش ومتاعب الحياة من أجل زوجتك وتربية أولادك ، وأن تعمل ليل نهار تغرس وتبني للاجيال المقبلة التي لا يربطك بها رابط بعد أن تفارق الحياة . وعقلك لا يلزمك أيضاً بأن تضحي بدمائك وأموالك وأولادك في سبيل وطن ولدت فيه . وأرض الله واسعة الفضاء . هذا ، إلى ان أكثر من يدّعون النظر والتفكير يشرحون بمنطق العقل — كما يزعمون — حوادث لا تمت إليه بصلة . وفي كل يوم نسمع ونرى العشرات من المتعلمين وغير المتعلمين يفعلون ويتركون بدافع من عاطفتهم ورغبتهم ، وهم يحسبون ان ما أقدموا عليه . وأحجموا عنه كان باملاء العقل وحده . وانهم لا يأتمرون الا بأمره . ولا ينتهون إلا بنهيه .

وقد يقال : نأخذ الشريعة من الفلسفة . ونجيب : ان للفلسفة مذاهب شتى فعلى أيها نعتمد . على الفلسفة المثالية أو المادية . ثم بأية مثالية نأخذ . بالمثالية القائلة بأنه لا وجود للطبيعة أبداً الا في خيالنا وأذهاننا . أو بالمثالية الزاعمة بأن الطبيعة موجودة . ولكن العقل يعجز عن ادراكها . وإذا تركنا هذه ورجعنا إلى الفلسفة المادية . فهل نعتمد المادية الميكانيكية أو الديالكتيكية [1]

(١) الفرق بينهما ان الميكانيكية تفسر الوجود تفسيراً آلياً محضاً ، وتخضع كل كائن لقوانين صارمة يستحيل تغييرها أو تبديلها تماماً كالاجرام السماوية التي تدور في أفلاكها برتابة ولا تحيد عنها قيد شعرة على العكس من المادية الديالكتيكية فانها تنمو وتتطور على الدوام ، ونتائجها تتفاعل وتتبادل التأثير . وتأتي بنتائج أخرى . وهكذا إلى ما لا نهاية .

أو يقال: نأخذ الشريعة من العلم. وكلنا يعرف ان العلم لا شأن له بالشريعة والتشريع ، وانما يكشف عن قوى الطبيعة ، وحقائق الأشياء وخواصها ، وما ينتج عنها ، على ان العلم في هذا العصر قدم لنا القنابل والمدمرات والناسفات واتخذ منه المحتكرون والمستغلون أداة اللصوصية والقرصنة .

أو يقال : نأخذ التشريع من الملوك والامراء ، كما كانوا يفعلون من قبل . أجل لقد بنى فرعون مصر الاهرام ، وانفق عليه ما يبني أكثر من سدّ عال ، بناه لا ليطعم الجائعين ، بل ليحفظ جثته وجثث ذويه وحاشيته بعد الموت . وكل الملوك والأمراء فراعنة وملاعنة .

أو يقال : نأخذ القوانين من البرلمانات والهيئات الدولية .

وجوابنا ان عصبة الأمم أقرت اعتداء موسوليني على الحبشة والبانيا. وأقر مجلس العموم البريطاني ، والبرلمان الفرنسي احتلال هتلر لتشيكوسلوفاكيا قبيل الحرب الثانية ، كما أقرت الأمم المتحدة الحرب في كوريا ، واعتداء اسرائيل على فلسطين ، واعترفت بفرموزا ، وأنكرت الصين الشعبية .

ان أكثر القوانين الحديثة التي أقرتها أمثال هذه الهيئات قد وضعت لصالح الفئات واستغلال الأقلية للأكثرية . أما ما نراه في بعض القوانين من حقوق العمال ، والضمان الاجتماعي بزعم واضعيها فلا تجتث المشكلة من الجذور لأنها وضعت على أساس النظام الاقتصادي الموجود . وأغرب ما في هذه القوانين انها تحتوي على مواد تبعث على التسول والتشرد ، ومواد أخرى تنص على عقوبة المتسولين والمتشردين ، فهي تخلق الاجرام وتعاقب عليه في آن واحد ، وصدق القرآن الكريم :

« وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ
اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً »
النساء ٨٣ .

اذن ، نحن في حاجة إلى نظام لا يستمد قوته من المذاهب الفلسفية ، ولا من أصحاب المصانع والشركات الاحتكارية ، ولا من المجالس والهيئات السياسية . وكيف تؤخذ القوانين والأحكام من المصالح والمنافع الشخصية ؟ ! ومن الذي يقبل شهادة من يجر النار إلى قرصه ويبتغي النفع من شهادته ؟ ! وأية هيئة مهما بلغت مقدرتها وفطنتها تستطيع أن تأتي بنظام يتناسب بأسسه ومبادئه مع جميع العصور والشعوب والفئات وفي كافة الأحوال ؟ ! كما هي الحال في الشريعة الاسلامية .

والنتيجة المنطقية لذلك ان لا غنى للنظام السليم والشريعة الصحيحة من الاعتماد على قوة مدركة عالمة بما ينفع الانسان ويضره ، ويصلحه ويفسده وغنية منزهة عن الغايات وعن كل نوع من أنواع النفع ، ولا يتوفر هذان العنصران إلا بالوحي من الله الغني العليم :

﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾

النساء ٦٠ .

ومن هنا يتبين الخطأ فيما ذهب إليه البراهمة من الاكتفاء بالعقل عن الشرع[1] أجل ، يجب ان لا يكون في الشرع شيء يخالف العقل ويناقضه .

دلائل النبوة :

تعرف نبوة النبي بأمور ثلاثة :

(١) تعرضنا في كتاب « الإسلام مع الحياة » لقول البراهمة عندما تكلمنا عن الوحي ، واجبنا عنه بأسلوب آخر .

١ — ان لا يقرر ما يخالف العقل والواقع ، كتعدد الآلهة ، وان الأرض ليست كروية ، وان تتفق تعاليمه مع الفطرة ، ولا تتنافى مع الغرائز البشرية وطبائعها . كتحريم الزواج وذم العلم ، وما إلى ذلك .

٢ — ان تكون دعوته طاعة لله ، وخيراً للانسانية .

٣ — ان يظهر على يده معجزة تظهر صدق دعواه .

وقال المتكلمون في تعريف المعجزة : انها ثبوت ما ليس بمعتاد مع خرق العادة ، كانقلاب العصا حية . أو نفي ما هو معتاد ، كمنع القول عن رفع أخف الأشياء. كالريشة [١] وسنرى فيما يأتي معجزة محمد وانها الحق والصدق في كل ما أتى به . وأنزل إليه من ربه .

(١) قال علماء الإسلام : ان المعجزة تنفرد عن الكرامة بأن الأولى لا تظهر إلا على يد الأنبياء ، ولذا يشترط فيها التحدي بأن يقول النبي لمن بعث إليهم : ان لم تقبلوا قولي فافعلوا مثل هذا الفعل ، أما الكرامة فتظهر على يد الصالحين والأولياء من غير تحد . كقصة مريم وحملها بالسيد المسيح .

معجزة محمد

روى المجلسي في كتاب البحار عن كتاب المناقب انه كان لمحمد من المعجزات ما لم يكن لأحد من الأنبياء ، وقد بلغت أربعة آلاف وأربعمئة وأربعين معجزة ، وانها تنقسم إلى اربعة أنواع : النوع الأول كان قبل ميلاده . والثاني بعد ميلاده . والثالث بعد بعثته . والرابع بعد وفاته .

وسواء أكان له كل هذه المعجزات أو بعضها ، فلسنا بحاجة إليها ما دام القرآن الكريم . وشريعة الاسلام وشخصية محمد أقواها وأبقاها . ولله در من قال :

« وما الشهادة للنبوة إلا أن تكون نفس النبي أبلغ نفوس قومه ، حتى لهو في طباعه وشمائله طبيعية قائمة وحدها . كأنها الوضع النفساني الدقيق الذي ينصب ليُصحح الوضع المغلوط للبشرية » .

وهذه هي بالضبط نفس محمد وأخلاقه ، انها آية كبرى تثبت صدقه لدى العارفين المنصفين ، وتصحح الوضع المغلوط ، أما أهل الغباوة والبلاء أما المكابرون الذين لا يؤمنون حتى يشاهدوا بأعينهم انشقاق القمر ، وتكلم الحصى والشجر ، أما هؤلاء ومن إليهم فلا خير فيهم ولا في ايمانهم ، انهم تماماً كبني اسرائيل ، آمنوا بموسى ، وعندما رأوا قوماً :

﴿ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ
قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً

كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ. قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
تَجْهَلُونَ ، إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ
فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .
قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً ، وَهُوَ
فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾
الاعراف ١٣٩ – ١٤٠ – ١٤١ .

وقد يتساءل : كيف فضّل الله اليهود على عالمي زمانهم ، وهذا شأنهم ! وأجيب عن هذا السؤال بأن التفضيل لم يكن لصفة حسنة فيهم ، وانما فضلوا بأن موسى منهم ، وبنجاتهم من أذى فرعون وقومه ، كما يدل عليه قول الله سبحانه في الآية اللاحقة :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ
فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَاءَكُمْ ﴾ الاعراف ١٤٣

وعلى الرغم من نجاتهم من سوء العذاب ، وتحررهم من العبودية فما ان انتقل موسى إلى ربه حتى اتخذوا من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار .

وقد ابتلي محمد بأمثال هؤلاء ، وبأشد منهم توحشاً . قال صاحب كتاب البحار : ان جماعة جاءوا إلى الرسول . فقال له أحدهم : لن نؤمن لك حتى يشهد لك هذا البساط الذي نجلس عليه . وقال آخر : لا أصدقك حتى يعترف لك هذا السوط الذي في يدي . وقال ثالث : وأنا لا أقر لك النبوة حتى ينطق حماري هذا الذي أركبه بأنك على حق . ثم قال صاحب البحار : بالرغم من

ان محمداً قال لهم : ليس لنا أن نقترح على الله ، وانما علينا التسليم والانقياد لأمره . فقد ألقى كل من البساط والسوط كلمة طويلة : وهدد السوط صاحبه بالضرب حتى الموت ، والحمار راكبه بالرفس حتى الهلاك .

ومهما يكن ، فان الذي جاء بالهدى ودين الحق لا يحتاج إلى شهادة الحمير والسياط والبساط . وان دلت هذه الرواية على شيء فانها تدل على ما كان يلاقيه الرسول من المكابرين والمتعنتين. وقد جاء في الآية ٩١ –٩٤ . من سورة الاسراء :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعاً ، أوْ تَكُوْنَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيْلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيْراً ، أوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً، أوْ تَأتِيَ بِاللهِ وَالملائِكَةِ قَبِيلاً ، أوْ يَكُوْنَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ، أوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتَ إلاَّ بَشَراً رَسُولاً ﴾

وجاء في الآية ١١١ – ١١٣ الانعام :

﴿ وَلَوْ أنَّنَا أنزَلْنَا إلَيْهِمُ المَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ المَوْتَى

وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ
قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ
يَشَاءَ اللهُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
يَجْهَلُونَ . وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا
لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الأِنْسِ
وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ
زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾

أرأيت إلى هذه القلوب ؟ ! إلى هذا الداء الأصيل الذي لا دواء له الا الموت ؟ ! وهل سمعت بصلافة وغواية أشد من هذه ؟ ! وبأي لفظ نعبر عن هؤلاء ؟ ! انهم لئام وكفى . فهم لا يؤمنون ، وان كلمهم الموتى أو أتاهم الله والملائكة والناس أجمعين .

وهؤلاء الشياطين موجودون في كل طائفة وكل بلد وكل زمان . ابتلي بهم محمد بالأمس ، والمخلصون اليوم ، وسيبتلى بهم كل طيب غداً . تأتيهم بالحقيقة فيقولون لك : ولكن لماذا كان كذا ، ولم يكن كيت ؟ ! وتجابههم بالمنطق الذي لا سبيل إلى رده وانكاره فيأبون الا التعنت والمكابرة. وتكافح الاستعمار والاقطاع والعملاء فيقولون تجاوزت الحدود . وتدعو إلى الدين فيقولون طائفي متعصب ، وتسكت فيقولون سلبي انعزالي . وما داموا كذلك فما عليك اذن الا ان تشد من عزمك وتمضي في طريقك .

ونحن لا نعجب ولا نستغرب من موقف هؤلاء ، لأننا على يقين بأنهم ليسوا من ذوي العقائد والمبادىء . ان صاحب المبدأ لا يفتري ولا يختلق الأكاذيب ، فثقته بعقيدته تغنيه عن التزييف والتلفيق . وصاحب المبدأ لا يستنكر من غيره ما يرتضيه لنفسه ، ولا يستعمل العنف ، ولا ينهش لحوم الغائبين ، بل ينصح ويصفح ، ويتهم نفسه ، ويسأل الله الهداية له وللناس كافة . وبكلمة ان أصحاب المبادىء يتجنبون الأقذار والأوزار .

ونعود إلى رسالة محمد . وما يدعمها من أدلة العقل وهي تفوق الحصر ولا يبلغها الاحصاء . كانت في عهده وما زالت حتى الآن يستطيع النظر إليها من شاء . فهذا القرآن الكريم . وشريعة الاسلام . وسيرة الرسول في متناول كل يد . فعلى طالب الحقيقة أن يقرأ ويتدبر . أما القول تعصباً وبغير علم فهو جور وفتنة وتضليل .

وسيروي في الفصل التالي قصة دكتور مسيحي من أقباط مصر . أطلع على الأديان وقارن بينها . وانتهى إلى الإيمان بمحمد . ووضع كتاباً للدفاع عن رسالته . وأراهن أن من قرأ هذا الكتاب لا بد أن يؤمن بكل ما جاء فيه . من حيث يريد أو لا يريد . لأن الواقع يفرض نفسه . وقبل ان ننتقل إلى قصة الكتاب وصاحبه وإلى الكلام عن القرآن وبعض خصائص الرسول الأعظم نشير إلى حقيقتين تتصلان بنبوة محمد وصدق رسالته :

١ — من الآراء السائدة اليوم ان الهدف الذي يؤلف بين المجتمع . أي مجتمع . لا بد ان يتصل من قرب أو بعد العلاقات الاقتصادية . والضرورات المادية . وإن أي إصلاح أو حركة لا يكتب لها النجاح والدوام إلا إذا قامت على عنصر مادي . سواء أكان القائم بها سياسيون أو دينيون أو فلاسفة .

وعلى هذا المنطلق يحق لنا القول بأن نجاح محمد في دعوته ينبغي ان يعد من أهم المعجزات وخوارق العادات ، لأن رسالته قامت في بدئها على نبذ الأصنام وعبادة مبدأ أعلى ، وعلى الإيمان بالجنة والنار . والثواب والعقاب بعد الموت . فدعوته والحال هذه . كانت دعوة غيبية بدافع من حاجات العقل والروح أي انها دعوة ميتافيزيقية . وعليه لا مناص من أحد أمرين : اما الايمان والتصديق بنبوة محمد لظهور هذه المعجزة على يده . واما الاعتراف بأن الضرورة الاقتصادية ليست كل شيء . وانه لا بد أن ندخل في حسابنا عناصر أخرى . ومن أهمها دعوة الانبياء إلى الإيمان بالله واليوم الآخر .

٢ - ان كل من اعترف بمبدأ النبوة من حيث هو . وآمن بنبوة نبي واحد كائناً من كان يلزمه قهراً ان يعترف ويؤمن بنبوة محمد . ومن أنكر نبوة محمد يلزمه أن ينكر نبوة جميع الأنبياء ورسالة جميع الرسل . لأن ما من صفة أو آية كانت لنبي إلا كان لمحمد مثلها أو أعظم منها . وقد قيل : « ما حصل به الاتفاق لا يكون سبباً للافتراق » فاذا قلت : كل انسان فان . فلا يحق لك أن تفرق في هذا الحكم بين زيد وعمرو . فتقول : هذا فان . وذاك باق . لأن القانون العام يصدق على الجميع . وصدق الله حيث قال :

﴿ إنَّ الَّذينَ يَكفُرُونَ باللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ، أولَئِكَ هُمُ الكافِرُونَ حَقّاً، وَأعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ النساء ١٥١ – ١٥٢ .

إن من يؤمن ببعض الرسل دون بعض فهو كافر بالله بحكم القرآن . إذ لو كان صادقاً في ايمانه بالله سبحانه لصدق جميع رسله . لأن الدليل الذي دل على نبوة البعض قد دل في نفس الوقت على أصل النبوة من حيث المبدأ . فإذا صدقنا البعض لزمتنا الحجة بألاّ نكذب البعض الآخر . وإلا كان انكاراً بلا سبب . وتفاضلاً بلا موجب .

ومن هنا آمن المسلمون بالانبياء جميعاً دون استثناء . وفي طليعتهم موسى وعيسى عليهما السلام .

وفي الصفحات التالية نتكلم عن « الرسالة والرسول » و « القرآن » و « محمد » في بعض خصائصه ، وكفى بها حجة واعجازاً .

الرسالة والرسول

الدكتور نظمي لوقا من الأقباط المصريين تولد من أبوين مسيحيين . كانا يقرآن له فصولاً من الانجيل كل يوم ، ويرسلانه إلى الكنيسة . ولوالده أجداد كثر من القسيسين وذوي الطيالس السود . والدكتور نظمي عالم وأديب وله ما يقرب من أربعين كتاباً في مواضيع شتى ، وقد قرأ القرآن وحفظه وقارن بين الأديان وتعمق في دراسة السيرة النبوية. وأخلاق الرسول الأعظم . واطلع على الكثير من أسرار الاسلام وشريعته وتعاليمه فآمن بمحمد وما أنزل إليه من ربه. آمن به عن علم وبصيرة. وبدافع من الاخلاص للحق وأهله ، ووضع في هذه السنة ١٩٥٩ كتاباً خاصاً تحدث فيه عن شخص الرسول ورسالته وأثبت صدقها بالأرقام ومنطق العقل والوجدان. وان جميع تعاليمها تقوم على أساس الصدق والعدل والمساواة . وتهدف إلى تقديس الانسانية وسعادتها وهذه هي مهمة الدين الصحيح . أما محمد فقد اجتمعت له صفات الأنبياء والرسل بكاملها .

وأسمى المؤلف كتابه « محمد . الرسالة والرسول ». وصدره بهذه الآية:

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً. أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾

آل عمران ٢٠٠ .

مشيراً بهذه الآية إلى انه أحد المعنيين بها. ونحن نلخص للقراء بعض فصول هذا السفر الخالد ، وهدفنا ان نبين ان الحق لا يلتمس بما ألف الانسان من عادات وما ورث من تقاليد فحسب ، ونجمل أقواله فيما يلي :

ان آفة العقول البشرية هو التعصب الذميم . لأنه العمى والصمم . أما الصدق والانصاف . اما الاعتراف بالحقيقة وانصافك لخصمك فيشهد لك بالفضل وحسن الرأي وأي شريعة ادعى للانصاف من رسالة محمد التي تقول:

﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا ، إعْدِلُوا هُوَ أقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ المائدة ٩ .

﴿ وَإذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ الانعام ١٥٣ .

وأي انسان لا ينصف ديناً تنادي شريعته بالحق والعدل فهو جاهل أو متعصب لا يستأهل التكريم والاحترام . وكيف يستكثر غير المسلم الانصاف على رسول كمحمد لا لشيء الا لأنه أتى بغير ما كان يؤمن به آباؤه ويدينون . ومن فعل ذلك فقد ظلم نفسه وحملها على الجحود والجور . ان من يحتكم إلى العقل يرى ان محمداً قد اجتمعت له آلاء الرسل ومفاخر البشرية بكاملها ، ومن أراد الخير للانسانية فلا يحق له ان يثلب أبطالها وهداتها ، ويهدم عزها ومجدها .

ثم ما من نبي حمل إلى الناس صكاً مذيلاً بتوقيع الله بأنه رسول من عنده ينطق بلسانه ، وانما الدليل الوحيد الذي يشهد بصدق النبي ، ولا يغني عنه ألف دليل ودليل هو ان يطمئن العقل إلى ما جاء به بحيث يبدو ان كل ما يباينه هزيل واضح البطلان .

وإذا نظرنا من هذه الكوة إلى رسالة محمد لمسنا فيها آيات الصدق والحق . ولم نجد أي شيء يدمغها بالزيف والبطلان . أو يبرر الشك والريب . ومن أنكر هذه الحقيقة فلا حجة له الا قوله : « هذا رأي وكفى » . ومثله لا يعول له على رأي لأنه مكابر بغير حجة . وإليك أدلة العقل على نبوة الصادق الأمين :

١ ان الانسان بطبيعته في حاجة إلى عقيدة سليمة . ولا تكون كذلك الا إذا صححت ما تردت فيه الانسانية من الأخطاء في الافكار والتقاليد . والا ان تتجه إلى الناس كافة . لا فرق بين شعب وشعب ولابين جيل وجيل . ولا بين فئة وفئة . ومن أهم هذه الأخطاء التي وقعت فيها البشرية الاعتقاد بتجسيم الخالق وتعدده . والتفاضل بين الناس على أساس عنصري أو جغرافي أو نسب أو مال . وقد صحح القرآن الكريم الانحراف الأول بسورة الاخلاص :

« قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ
لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ
لَهُ كُفُواً أحَدٌ »

ولا شيء أقرب إلى طمأنينة العقل والقلب. وأدعى إلى كرامة الانسان من الايمان بإله واحد منزه عن كل مثيل وشبيه. وصحح الخطأ الثاني بالآية الكريمة :

﴿ يَا أيُّها النَّاسُ إنّا خَلَقْنَاكُمْ
مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً
وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إنَّ أكْرَمَكُمْ
عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ ﴾ الحجرات ١٤ .

وقال الرسول : « كلكم من آدم وآدم من تراب » .

٢ – ليس في عقيدة المسلمين تأليه ولا شبه تأليه لمعنى النبوة . فقد صرح القرآن على لسان محمد :

« قُلْ إنَّمَا أنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ »
الكهف ١١٠ .

وفي اختيار لفظة مثلكم معنى مقصود به التسوية والحيلولة دون الارتفاع بفكرة النبوة فوق مستوى البشر بحال من الأحوال . بل نجد في القرآن ما هو أصرح من هذا :

« فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ » الشورى ٤٨ .

« إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ » الغاشية ٢٢ – ٢٣ .

« قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ »

« وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ » الاعراف ١٨٨ – ١٨٩ .

ومثل هذا كثير في القرآن والحديث . أراد محمد أن يشعر الناس بأنه مثلهم حقاً وصدقاً ، يمسه السوء والثكل ، ولم يستعمل الاحتيال مع أحد ، كما نستعمله نحن مع الأطفال ، ليقبلوا على ما نريد، ويعزفوا عما نكره .

٣ — جاء الاسلام بشريعة تجمع في مملكة الحق والعدل بين الدنيا والآخرة :

« وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » القصص ٧٨ .

« واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

وتستوحي هذه الشريعة تحسين حال الجماعة تحسيناً ينعكس على كل فرد، وتربط حسن الأخلاق بالمصلحة الاجتماعية ، فالخير ان تبتغي الرزق بالعمل ، وتتعاون مع الناس على البر والتقوى . والشر ان تعيش على حسابهم، وتتخذ من الرياء والنفاق أداة للكسب . وهذه هي شريعة الحياة بعينها ، تتفق مع

الفطرة . وتساير التطور الطبيعي ، وتسمح للانسانية بالتسامي إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه .

٤ — ان الرسالة التي تسير بصاحبها على الورد ، ويكون هدفها الغنم له ولذويه فهي افتراء وزور . أما الرسالة التي يلاقي صاحبها في سبيل انتشارها وبقائها العنت والجهد فهي صدق وعدل . وقد امتحنت الخطوب محمداً بما لم تمتحن به أحداً . وحين كتب لدعوته النصر . وتم له الفتح لم يظفر من الدنيا الا بما كان لعامة جنده وفقراء رعيته . وكان في وسعه ومقدوره أن يكون أغنى الأغنياء .

جاء المشركون إلى عمه أبي طالب . وقالوا له : ان ابن أخيك شتم آباءنا . وسفه أحلامنا . وعيّب آلهتنا . فقل له ان يترك هذا الأمر ، ونحن نقيمه علينا ملكاً . ونقاسمه جميع أموالنا . والا نازلناه ونازلناك حتى يهلك أحد الفريقين وتقدم إليه عمه وقال له : يا ابن أخي ابق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني ما لا أطيق . فأجابه الرسول : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري لم أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

لقد آثر محمد الفقر والعناء على السلطان والثراء . لأنه صاحب رسالة لا طالب مال أو جاه . وأصحاب الرسالة لا يرون الحياة الا في مبادئهم : والتضحية في سبيلها بالنفس والنفيس . ومن هنا كتب لدعوة محمد الخلود والصمود . وآمن بها مئات الملايين .

ثم ختم الدكتور لوقا كتابه بجملة من صفات الرسول قال : كان محمد رسول السماء ليس فوقه إلا الله . ومع ذلك اطراه أصحابه مرة بالحق الذي يعلمون فقال لهم : لا تطروني كما اطرت النصارى ابن مريم انما أنا عبد الله . وأتاه اعرابي يوم الفتح ليبايعه ، وحين وقف بين يديه أخذته الرهبة وارتعد من هيبة الحق فقال له : هون عليك ، أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة . وفي ذات يوم خرج على جماعة فنهضوا تعظيماً له فنهاهم قائلاً : لا تقوموا لي كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً . وكان إذا مرض المريض من أدنى

الناس يعوده ويقبل دعوة المساكين إلى الطعام ، ويداعب الأطفال . ويجلسهم في حجره . ويمازح أصحابه . ويتبسط معهم في الحديث ، ويقوم بحاجة الفقير والضعيف . ويحلب الشاة ويقطع اللحم . ويعقل البعير .

وحين شعر بدنو أجله تحامل على نفسه ، وخرج إلى المسجد ، وخطب في الناس خطبته الأخيرة قائلاً :

أيها الناس مَن جلدتُ له ظهراً فهذا ظهري . ومَن أخذتُ له مالاً فهذا مالي ، ليأخذه منه ، ولا يخشى الشحناء من قبلي . فانها ليست من شأني . ألا وان أحبكم اليّ من أخذ مني حقاً ان كان له ، أو حللني منه ، فلقيتُ ربي طيب النفس . فقال سواد بن غزية : يا رسول الله أوجعت بطني بالقضيب يوم بدر وأنت تسوي الناس صفاً صفاً . فمكني من نفسك لاقتصّ منك . فوقف النبي ودعاهُ للاقتصاص منه بالقضيب . فقال الرجل : ان عليك قميصاً . ولم يكن على بطني يومذاك قميص . فرفع الرسول قميصه عن بطنه متأهباً للقصاص من نفسه ، فما كان من سواد إلا أن عانقه وقبّل بطنه العاري ، ليمس جسده الشريف قبل أن يفارق الدنيا .

أبعد كل ما قدمت يا أبا القاسم لقومك من البر والخير والفضل وبعد ما أخرجتهم من الظلمات إلى النور . أبعد ما نصحت لهم وجاهدت وتحملت من أجلهم ما تحملت تقف لهم موقف « المذنب » ليقتصوا منك ، ويستوفوا حقوقهم من شخصك .

أي رحمة أوسع ؟ ! وأي خلق أكرم ؟ وأي عدل أبلغ ؛ ؟ ! وأية معجزة أعظم من هذه ؟ ! وهل نحتاج بعدها إلى دليل على صدق محمد ؟ إذن « ليس يصح في الافهام شيء » . هذا مع العلم ان سيرته وتعاليمه كلها معجزات وآيات لا تترك للجاحد إلا التعنت والمكابرة .

وبعد ، فقد قدم المؤلف في كتابه هذا خدمة عظمى للحق والعدل . وأتمنى أن يقرأه كل انسان . ثم يرجع القارىء إلى نفسه ليرى وقع الكتاب وسيكون على يقين من ايمانه بكل ما جاء فيه من حيث يريد أو لا يريد . لأن الواقع يفرض نفسه ، شئنا أم أبينا . وجزى الله الدكتور لوقا جزاء المجاهدين في سبيل الحق والعدالة .

القرآن

كان الإمام زين العابدين إذا ختم القرآن يناجي ربه بدعاء طويل ، يفتتحه بقوله :

« اللهم انك أعنتني على ختم كتابك الذي أنزلته نوراً . وجعلته مهيمناً على كل كتاب أنزلته . وفضلته على كل حديث قصصته . وفرقاناً فرقت به بين حلالك وحرامك . وقرآناً أعربت به عن شرائع أحكامك . وكتاباً فصّلته لعبادك تفصيلاً . ووحياً أنزلته على نبيك محمد صلواتك عليه وعلى آله تنزيلاً . وجعلته نوراً نهتدي به من ظلم الضلالة والجهالة باتباعه ، وشفاء لمن أنصت بفهم التصديق إلى استماعه . وميزان قسط لا يحيد عن الحق . ونور هدى لا يطفأ عن الشاهدين برهانه . وعلم نجاة لا يضل من أمّ قصد سنته . ولا تنال أيدي الهلكات من تعلق بعروة عصمته » .

تحدث القرآن الكريم عن الله وصفاته . وعن الآخرة والحساب والجزاء ، وجادل أهل التوراة بتوراتهم . وأهل الانجيل بانجيلهم . وأهل الشرك بأصنامهم .

وبين من أنواع العبادات ما يذكر الناس بالله . ويبعثهم على الاخلاص له في القول والعمل . فهي ركوع وسجود في صورها . وخلق كريم في جوهرها .

وشرع نظاماً إنسانياً شاملاً لأحكام العقود والموجبات . والزواج والطلاق والوصايا والمواريث ، والحدود والعقوبات ، وما إلى ذلك مما

يحتاج إليه الفرد الجماعة ، أو قل أن القرآن حدد مسؤولية الإنسان تجاه نفسه وخالقه وغيره ، وبين له كيف يواجه هذه المسؤوليات ويمارسها .

وسجل أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية .

وأرشد إلى حقائق علمية تكشف عن أسرار الكون ، كما أمر بالتأمل والتفكير واتباع العلم .

وتضمن أخباراً عن الغيب ، وتنبأ بحوادث تحققت على النحو الذي أخبر به .

وقد عاش محمد بن عبد الله بين قومه كما عاشوا ، وسعى كما سعوا ، وكانوا خلواً من العلوم والفنون لا يملكون معملاً ولا جهازاً ، ولا مختبراً بل ولا وعياً يستنبطون به القوانين كفلاسفة الإغريق ، وكان هو أمياً ، لا يقرأ ولا يكتب ، كأكثر أبناء قومه وبيئته . إذن كيف امتاز عنهم ؟ ومن أين جاءته هذه العلوم إذا لم يكن نبياً يوحى إليه ؟ !

قال المعاندون فيما مضى : أن القرآن سحر ، بعد أن انقطعت جميع أعذارهم ، وانسدت عليهم المسالك والمذاهب . . . فبماذا يتعللون اليوم ، والسحر في أذهان الناس حديث خرافة ؟ !

أجل ، لقد تعللوا وقالوا : إن محمداً عظيم في أخلاقه . وعظيم في بلاغته ، وعظيم في مواهبه وجميع أعماله التي لا يسع أحداً إلا إكبارها وتقديرها . فهو عظيم ، وهذا القرآن مظهر من مظاهر تلك العظمة ، وبالتالي فهو من وحيه لا من وحي الله .

والجواب : ليس من شك في أن الإنسان قد يكون عظيماً ولا يكون نبياً ولكن هل يمكن أن يكون عالماً دون أن يتعلم أو دون أن توجد علوم

بالمرة ؟ وإذا افترضنا أن محمداً قرأ قصة آدم وحواء . وأخبار الماضين في كتاب قديم . أو نقلها إليه ناقل ، فأين درس التشريع والعلوم الطبيعية والرياضية والإجتماعية وغيرها مما أشار إليه القرآن ؟ ! وإذا افترضنا أن محمداً أدرك بصفاء فطرته أن في القصاص حياة الناس فهل أدرك بفطرته هذه الشريعة الإنسانية الكاملة الشاملة للأحوال الشخصية والصناعية والتجارية والزراعية والجنائية والعسكرية والسياسية . وكل ما يحتاج إليه الفرد والمجتمع والدولة؟ ! هل أدرك ربيب الصحراء هذه الشريعة التي تصلح بمبادئها وأسسها لكل زمان ومكان والتي وضعت مئات المجلدات لأحكامها وأصولها وقواعدها وتأسست لدراستها ومعرفة أسرارها الكليات والجامعات ؟ ! وهل في التاريخ رجل واحد له هذه المكانة في عالم التشريع ؟

إن الذي نعهده أن الشرائع الوضعية تضعها الهيئات لا الأفراد ، وأنه يعرض عليها التقليم والتطعيم بمرور الزمن . لأخطاء تظهر بعد التطبيق والاختبار ، وما عهدنا رجلاً واحداً استقل بوضع نظام كامل شامل ، مهما بلغت مواهبه ، واتسعت معارفه . . . إذن فالشريعة الإسلامية ليست من الإنسان . بل من خالق الإنسان ومبدعه ، فهي أشبه بالتعاليم التي نجدها مع زجاجة الدواء وبعض الآلات ترشدنا إلى كيفية الإستعمال . ووضع الشيء في مكانه خوفاً من الفساد والإفساد . إنها من مخترع الآلة لا من غيره .

ثم هذه الحقائق الكونية والأسرار العلمية التي تضمنها القرآن . كيف وصل إليها محمد ــ والمفروض أنها لا تعرف إلا بمعونة المختبرات والأدوات الفنية التي لم يكن لها من قبل عين ولا أثر ؟ ! هل تلقاها من أستاذ ، ومن يكون هذا الأستاذ؟! أو هي هاجسة من هواجس فكره وظنٌ من ظنونه؟! والظن لا يغني عن الحقائق شيئاً . إذن هي من وحي الخالق الذي أوجدها وأوجد كل شيء .

كنا قد ذكرنا في القسم الأول « الله والعقل » نماذج من تلك الأسرار التي أشارت إليها الآيات القرآنية ، ولم يكتشفها العلم إلا بعد ثلاثة عشر قرناً ونصف القرن ، ونذكر هنا طرفاً آخر منها ، مع الإعتراف بأننا لم نبلغ من العلم بها إلا النقل عن علماء الغرب !

لقد عني المسلمون بالقرآن عناية كبرى شملت العديد من نواحيه ، أفاد منها الدين والعلم بشتى فروعه ، فلقد وضعوا خدمة لكتاب الله مئات المؤلفات في النحو والصرف والبلاغة والتجويد ومفردات اللغة ، والتفسير والفقه والأصول وعلم الكلام والأخلاق وغيرها . وذخرت المكتبة العربية، ومكتبات أخرى أجنبية بهذه الكتب ، وما زال المسلمون حتى يومنا هذا يواصلون هذا النشاط .

ولا نغالي إذا قلنا : أنه لم يلاق كتاب من الكتب السماوية والأرضية من العناية ما لاقاه القرآن على أيدي المسلمين . ولو أنهم اهتموا بالناحية العلمية في القرآن ، كما اهتموا بغيرها لكنا الآن أمام طائفة من النظريات الرائعة التي تسرع بالحياة نحو الحضارة والمدنية ، ولكانت الحقائق التي نسميها اليوم بالنظريات الحديثة من مخلفات الماضي البعيد .

لقد اهتم المسلمون كثيراً بالكشف عن كنوز الدين والشريعة والأخلاق والفلسفات ، وعن خصائص اللغة مما صرفهم أو كاد عن الحقائق الكونية ، ولعل لهم العذر ، لأن العلم يومذاك كان في دور التكوين أو الانتقال ، على أنهم أخرجوا للناس من ثمرات العلوم ما كان له أطيب الأثر في حياة الجماعة الإنسانية وتطورها .

وعلى أي حال ، فلو تسنى للمسلمين أن يهتموا بالعلوم العملية ، كما اهتموا بالعلوم النظرية لكنا في غنى عن البحث والتنقيب عن أقوال الغربيين لنسوق الأدلة المحسوسة على عظمة الكون وحكمة خالقه . ونتعرض هنا لآيتين احداهما في علم الفلك ، والأخرى في علم الحيوان .

في علم الفلك :

لاحظ الفلكيون خلال السنوات الأخيرة أن المريخ كوكب حي . فيه مخلوقات تحس وتدرك . وإذا وجدت الحياة في المريخ فمن الممكن أن توجد في كواكب أخرى . وفي القرآن آيات تشير إلى هذه الحقيقة . منها الآية ٤٤ الاسراء :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾

والآية ٤ النور :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

ولفظة « مَنْ » يعبّر بها عن العاقل المدرك .

في علم الحيوان :

أثبت العلم أن الفيلة تعقد المحاكم للمخالفات التي تقطع من بعضها ، وتصدر المحكمة حكمها على الفيل المذنب بالنفي عن الجماعة ، ليعيش وحيداً في عزلته [1] .

وفي كتاب « الله والعلم الحديث » لعبد الرزاق نوفل ص ١٢٨ : « إن العالم « رويال ديكنسون » ، وهو عالم في التاريخ الطبيعي ، قال في كتابه « شخصية الحشرات » :

لقد درست مدينة النمل عشرين عاماً في بقاع مختلفة من العالم فوجدت ان كل شيء يحدث في هذه المدينة بدقة بالغة ، وتعاون عجيب ، ونظام

(١) كتاب التعايش الديني في الإسلام لمحمود العزب ص ٤٩ .

لا يمكن أن نراه في مدن البشر . لقد راقبت النمل وهو يرعى أبقاره ، وهي خنافس صغيرة رباها في جوف الأرض زماناً طويلاً حتى فقدت في الظلام بصرها .

ولا أحد يدري في أي عصر بدأ النمل حرفة الرعي ، وتسخير الأبقار ، وكل ما نعلمه أن الإنسان إن كان قد سخر نحواً من عشرين حيواناً لمنافعه ، فإن النمل قد سخر مئات الأجناس من حيوانات أدنى منه جنساً فان بق النبات حشرة من الحشرات يعسر استئصالها ، وان أجناساً كثيرة من النمل ترعى تلك الحشرات ، ففي الباكر يرسل النمل الرسل لتجمع له بيض هذا البق ، فإذا جيء به وضعه في المستعمرة موضع البيض ، ويعنى به حتى يفقس وتخرج صغاره ، ومتى كبرت تدر سائلاً حلواً يقوم على حلبه جماعة من النمل ، لا عمل لها إلا حلب هذه الحشرات بمسها بقرونها ، وتنتج هذه الحشرة ٤٨ قطرة من العسل كل يوم ، أو بمقدار يزيد مئة ضعف عما تنتجه البقرة .

ولاحظ العالم المذكور ان النمل قد زرع مساحة بلغت خمسة عشر متراً مربعاً من الأرض ، وان جماعة من النمل تقوم بحرثها على أحسن ما يقضي به علم الزراعة ، وحين ينبت الزرع تخرج معه أعشاب مضرة . وتتجمع عليه الديدان . فتختص جماعة من النمل لازالة هذه الأعشاب والطفيليات وأخرى لحراسة الزرع من الديدان . وهكذا رأى هذا العالم قرى النمل مزدحمة بالعمل والعمال ، والتدبير والنظام ، والتعاون على الصالح العام » .

وإلى هذا الاحكام والابداع العجيب أشار القرآن الكريم في الآية ٣٨ الانعام :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ
وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجِنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ
أَمْثَالُكُمْ ﴾

فسبحان من أعطى كل نفس هداها وجعل من الذرة آيات لأولي الألباب!

لقد أمضى العلماء سنوات في الجامعات والمختبرات يدرسون ويتعلمون، ثم قضوا أمداً طويلاً يبحثون ويلاحظون بمعونة أدواتهم الحديثة حتى اهتدوا إلى شيء مما أشارت إليه الآية الكريمة وما خفي عنهم من أسرار الكون التي أشار إليها القرآن يعدل أضعاف ما اكتشفوا حتى اليوم [1]. وعلى هذا نكرر ما قدمناه من التساؤل: من أين أتت هذه المعلومات إلى محمد؟!

ولنفترض أن علوم هذا العصر بجامعاتها وكتبها ومختبراتها وآلاتها كانت موجودة في عهد محمد فهل استطاع أن يحيط بكل العلوم ويتقنها جميعاً لا يعزب عن علمه منها كبيرة ولا صغيرة؟! ان محمداً عظيم ما في ذلك ريب، ولكن عظمته لا ترتفع به ما فوق الانسانية. اذن فالنتيجة الحتمية لهذا الذي قدمناه أن القرآن من وحي خالق الكون ومبدعه:

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾

الاسراء ٨٩.

وسيقول المعاندون إلى ان هذا إثبات للقرآن بإلزام العقل لا بطريق التجربة والمشاهدة إذ جعلتم إستحالة صدور القرآن عن محمد دليلاً على أنه من عند الله وهذه طريقة عقلية لا توصل إلى يقين ما دمنا لم نر الوحي بأعيننا ونسمعه بآذاننا.

(١) لا بد من يوم تتكشف فيه هذه الاسرار بعد ان انطلقت العلوم والاقمار الاصطناعية من عقالها، وفي ذلك اليوم الذي لا ريب فيه يقف كل إنسان وجهاً لوجه أمام عظمة المحرك الأول. ولا يبقى على وجه الأرض منكر ولا مشكك. ومن يعش ير.

ونجيب بأن إلزام العقل يؤدي إلى اليقين ، تماماً كالمشاهدة والتجربة ، فان علماء الفلك قد رأوا كوكباً « اورانوس » يتحرك حركات لم يستطيعوا تعليلها إلا بفرض وجود جرم سماوي آخر لم يكونوا قد رأوه بعد ، وأطلقوا على هذا الجرم السماوي المفروض اسم « نيبتون » [1] . وإذا دل هذا على شيء فانما يدل على أن للحواس حداً لا تستطيع أن تتجاوزه بحال ، كما فصلنا ذلك في بحثنا « الله والعقل » .

وإذا أجزتم للعلماء أن يستدلوا بعقولهم على وجود كوكب ربما كان أكبر من الأرض بآلاف المرات ، وأن يضعوا له أسماً فلماذا لا تجيزون ان نستدل نحن بعقولنا ؟ !

* * *

وقد أفرد علماء الاسلام القدامى والمحدثون لاعجاز القرآن كتباً [2] لا يحيط بها الحساب ، ولا يتسع المقام لنقل أقوالهم . ومن مضامينها :

ان العرب كانوا في عهد محمد أكثر الناس فصاحة وكلاماً ، فدعاهم القرآن إلى أن يؤمنوا به أو يعارضوه ببضاعتهم التي يفاخرون بها ، ويأتوا بسورة من مثله إن كان كاذباً . فحاولوا وتكلفوا ، ولكن على غير جدوى . فهجاهم القرآن وقرعهم بالعجز والنقصان ، وازداد لهم تحدياً . فلم يجدوا حيلة ولا وسيلة . وأما سر عجزهم عن المعارضة فهو فصاحة اللفظ ، وصدق المعنى

(١) كتاب « قشور ولباب » للدكتور نجيب زكي محمود ص ٢٤٨ .

(٢) آخر كتاب قرأته عن القرآن كتاب « نظرات في القرآن » للشيخ محمد الغزالي . وفيه آيات بينات لقوم يسمعون ويعقلون .

وسمو الهدف ، وإيجاز دون إخلال ، ومعارف إلهية ، وشريعة إنسانية ، وسلامة من التناقض . ومن الخرافات والأباطيل ؛ كما له من الموسيقى وطراوة الأسلوب ما تجعله جديداً في كل زمن .

وفي كتاب الله وجوه أخرى للاعجاز لا تقل في عظمتها عن الاعجاز العلمي ، ولا نحتاج في تفهمها إلى العلوم والأدوات الفنية . فيكفي أن نتجه إليها بأفكارنا لنشعر بروعتها . ونؤمن بأنها من لدن حكيم عليم . من تلك الوجوه هذه الصور المتنوعة لحياة الناس وفئاتهم التي جلاها القرآن وأظهرها أمثالاً وأضداداً من حياة الفقراء الكادحين إلى الأغنياء المرابين. ومن الزهاد والعباد إلى الملحدين والمستهترين . ومن المبذرين المسرفين إلى الأشحاء والمقترين ومن العملاء الخائنين إلى المخلصين المجاهدين . . الخ ولو أردنا تعداد هذه الصور وشرحها لطال بنا المقام وحسبنا أن نتدبر الآيات التالية :

فقد جاء في الآية ١ من سورة الممتحنة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾

اقرأ هذه الآية لترى فيها صورة أولئك العملاء الذين اتخذوا من أعداء الله والوطن أولياء وأصدقاء يلقون إليهم بالمودة والاخلاص ؛ ويمهدون لهم سبيل البغي والعدوان على أمتهم ووطنهم . وهم يعلمون أنهم لا يدينون دين الحق ، ولا يحرمون ما حرم الله .

وجاء في الآية ٨ من سورة الحج :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾

وأي عالم لم يمر بهذه التجربة ويخاصمه المكابرون بغير دليل من البديهة والتجربة ، ولا من منطق العقل ، ولا من وحي منزل . وقد ارشدتنا الآية ٦٨ من سورة الحج نفسها انه لا علاج لهذا المرض إلا السكوت والاعراض:

« وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ »

لأنه لا دواء للمرء والاستمساك بالجهل الا التجاهل واللامبالاة . وهل يقهر الجاهل بالحجة والعلم ؟ ! وصدق من قال : « ما حاججت جاهلاً الا حجني » ان الجاهل يدافع عما قال لا لأنه صواب ، بل لأنه قاله وكفى .

أما العلماء فيدركون ان آراءهم ليست هي الواقع بعينه ، بل صورة عنه تخطىء وتصيب . لذا قال بعض العلماء : « لقد حرمت على نفسي أن استعمل قولاً يدل على رأي قاطع مثل : قطعاً . وبلا شك . وعلى التحقيق . وصرت أستعمل بدلاً من ذاك : أحسب . وأظن . ويبدو لي . وقد أكون مخطئاً ، وما إلى ذاك »(١) .

وهذه سبيل من يشعر من نفسه انه عرضة للخطأ والسهو . ومن الناس من لا حجة له الا السيف والنطع . كالذي خطب بين يدي معاوية حين طلب

(١) من الخير أن ننقل قاعدة في علم الأصول وهي: إذا تعارض دليلان في موضوع واحد ينظر فان تساويا في القوة من جميع الجهات أسقط كل واحد منهما الآخر ، وتكون النتيجة وكأنه لا دليل يصلح لاثبات أو نفي ، وإذا كان أحدهما أقوى من الآخر أسقط القوي الضعيف ، وبقي وحده حجة بلا معارض . وهذا المبدأ يعمل به كل من طلب الحق لوجه الحق ، وأنصف من نفسه كما انتصف لها . أما من يجادل ليرى الناس أن مرجع القول إليه وحده دون سواه فلا بد أن يجر القصد إلى الضعف والتعنت والقول بغير علم ، وان درس العلوم وألف المجلدات .

من الناس أن يبايعوا ولده يزيد . قال الخطيب : « ان مات هذا فهذا . ومن أبى فهذا » . وأراد فرعون مصر أن يقتل نبي الله موسى ، لا لشيء الا لأنه قال له : « الله ربي لا أنت » .

ونقتطف من أقوال الغربيين في القرآن الكلمات التالية :

قال المستشرق سيل : « ان أسلوب القرآن جميل وفياض . ومن العجب انه يأسر بأسلوبه أذهان المسيحيين ، فيجذبهم إلى تلاوته . سواء في ذلك الذين آمنوا به أم لم يؤمنوا به وعارضوه » .

وقال هرشفلد : « ليس للقرآن مثيل في قوة اقناعه وبلاغته وتركيبه . وإليه يرجع الفضل في ازدهار العلوم بكافة نواحيها في العالم الاسلامي » .

وقال استنجاس هوز : « يمكننا أن نقول بكل قوة ان القرآن أعظم ما كتب في تاريخ البشر . . . ومن هنا لا يصح أن نقيس القرآن بأي كتاب آخر . . . لقد نفذ إلى قلوب سامعيه بكل قوة واقناع . واجتث من ثناياها كل ما كان متأصلاً فيها من وحشية وانتزاع كل همجية مما أوجد ببلاغته وبساطته أمة متمدنة من أمة متوحشة متبربرة » .

وقال غوته الشاعر الألماني الكبير : « ان القرآن سيحافظ على تأثيره إلى الأبد . لأن تعاليمه عملية » .

وقال جاستون : « احتوى القرآن على أسس تستند إليها حضارة العالم » .
وجاء في دائرة المعارف البريطانية : « ان محمداً اجتهد في الله وفي نجاة أمته . وبالأصح اجتهد في سبيل الانسانية جمعاء »[1] .

(١) عن كتاب « التعايش الديني في الإسلام » لمحمود العزب .

محمد في بعض خصائصه

جاء في كتب السير : ان الله خصص محمداً (ص) بفضائل لم تكن لنبي قبله ؛ ولن تكون لانسان بعده . وسرد بعض الرواة هذه الخصائص فبلغت مئة وخمسين ، وسواء أصح هذا القول أم كان مبالغاً فيه فان محمداً عاش كما عاش سائر النبيين وعامة الناس في عهده ، لم يدخل مدرسة ، أو يجلس إلى فيلسوف ، وأدى الرسالة كما أداها الأنبياء من قبل ، واحتمل في سبيلها ألواناً من الجهد والمشقة كما احتملوا وصبر كما صبروا .

ولكن إذا رجعنا إلى آثار النبيين الموجودة بين أيدينا وجدنا الفرق كبيراً بين محمد وغيره من الأنبياء :

١ – لمحمد شريعة ثابتة الأصول كاملة الأركان تشمل أحكامها شؤون الحياة بشتى فروعها ونواحيها. وقد اعترف البعيد قبل القريب بأنها تستجيب لتطور الحياة ، وتسمو بالفرد والجماعة إلى الأفضل والأكمل .

٢ – نزل على محمد كتاب من الله سبحانه تحدى كل جيل مضى منذ نزوله ، ويتحدى كل جيل يأتي بأسلوبه وبيانه . وبما يحويه من المعاني والحقائق فهو كتاب الدهر الذي يعرّف الناس بحقيقتهم ومصيرهم ، وبأسرار الكون وعظمته .

٣ . دين محمد للناس كافة . وليس لشعب دون شعب . كدين بني إسرائيل الذين يعبدون رباً يمنحهم القوة والغلبة على الناس أجمعين . ويشرع لهم من الأحكام ما يستحلون بها الدماء والأموال . كما أنه لم يزهّد الناس في هذه الحياة . ويبين لهم قصوراً في الجنة . ويوزع الثواب على أهل القبور فقط . لم يجعل من الشيطان وقيصر شريكين لله . فيعطيه الآخرة . لأنها طهر . ويعطيهما الدنيا لأنها رجس .

« بَلْ لِلهِ الأمْرُ جَمِيعاً »
الرعد ٣١ .

« لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ »
التوبة ١١٧ .

ولا شيء للشيطان وقيصر . ولا للشركات والحكام . وما كان لله فهو للناس . ولذا خاطبهم بقوله :

« يَا أيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا في الأرْضِ حَلالاً طَيِّباً » البقرة ١٦٩ .

« لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ ما أحَلَّ اللهُ » المائدة ٨٨ .

« هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا في مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ » الملك ١٥ .

٤ — لا نعرف أحداً من الأنبياء وغيرهم . دعا إلى العلم ورغّب فيه ورفع من شأنه وحث أتباعه عليه كما دعا إليه محمد . فمن أقواله :

« ليس مني إلا عالم أو متعلم » . لأن المتدين بدون علم لا حصانة له ، فقد يستجيب إلى غرور الشيطان . وباطله المموه . وقال : « من ظن أن للعلم

غاية فقد بحسد » . أي أن العلم لا نهاية له ، ويدل هذا القول على بعد في النظر لا يدرك مداه . وقال : « ليس الحسد من خُلق المؤمن إلا في طلب العلم . . مجالسة العلماء عبادة . . عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد وقوله : الحسد في طلب العلم من خلق المؤمن ، دعوة صريحة للتنافس والمباراة على صعيد الحاجات الثقافية . ويشير بقوله : ينتفع بعلمه ، إلى العلوم العملية التي تثمر ثمراً محسوساً ملموساً . أما « العلوم » التي لا تتجاوز الكلام فهي نافلة وفضول . روي ان النبي دخل المسجد . فإذا جماعة قد أحاطوا برجل فقال ما هذا ؟ قيل علاّمة . قال وما العلامة ؟ قيل اعلم الناس بأنساب العرب . قال : ذا علم لا ينفع من علمه ، ولا يضر من جهله .

أما قوله: « اطلب العلم ولو في الصين... الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها » وفي رواية ثانية : خذ الحكمة ، ولا يضرك من أي وعاء خرجت وفي ثالثة: خذ الحكمة، ولو من مشرك — أما قوله هذا فدليل واضح على إن العلم لا يجنس بدين ولا بلغة أو وطن ، وان على طالبه ان يسعى وراءه أنى يكون . بصرف النظر عن دين صاحبه وبلده وأخلاقه . وبعد فهل يدرك هذه الحقائق ، ويدعو إليها رجل أمي عاش في الجاهلية الجهلاء إذا لم يكن نبياً ؟ ! لقد طار العلم إلى القمر وتجاوزه إلى ما لا نهاية ، وما زال جمهرة من الناس يتنكرون لهذه الحقائق ، وينصبون العداوة والبغضاء لمن يجهر بها .

لقد فتح محمد النوافذ للعرب والمسلمين على علوم العالم كلها والأفكار كلها بغير قيد ولا شرط لأنه يعلم علم اليقين ان العلوم هي الأساس الأول للنجاح ، والأداة الفعالة للتطور ، وقد وجدت دعوته إلى العلم صداها بين أتباعه ، وبفضلها انتهت إليهم « زعامة العالم كله » كما قال « دربير » المدرس بإحدى جامعات الولايات المتحدة .

ولو أخلص المسلمون لتعاليم نبيهم . واستمروا على الخطة التي رسمها لدامت لهم الزعامة العلمية إلى الأبد . ولوزعوا الفنيين والخبراء على أهل الشرق والغرب ، ولما استجدوا المساعدات والمعونات من هنا وهناك . لو جاهد المسلمون في الله . وابتعدوا عن أعدائه وأعدائهم ولم يتخذوا منهم بطانة وأولياء. لو تناهوا عن المنكر والشقاق كما أمرهم الله ورسوله لما كان للاستعمار والصهيونية في بلادهم عين ولا أثر . ولو عملوا بقول الرسول الأعظم : « لا تجمعوا ما لا تأكلون . ولا تبنوا ما لا تسكنون » لما سمع العالم بلفظ الاشتراكية وأحزابها وأقطابها .

ان النصوص والقوانين تظل جامدة وأموراً شكلية حتى تطبق عملياً وتتحول إلى وقائع . ولولا ان تجد الاشتراكية أمة تناصرها وتمارسها لكانت مجرد كلمات نقرأها كما نقرأ جمهورية افلاطون . ومدينة الفارابي . إن النصوص أشبه بمخطط لعمارة لا يظهر أثره إلا بعد البناء والانتهاء من العمل . قال الرسول الأعظم :

« الاسلام أحوج إلى الجماعة من الجماعة إلى الإسلام » . يشير بهذا إلى أن أية فكرة لا تعتمد على جماعة من الناس تؤمن بها وتدافع عنها محكوم عليها بالفشل . وهذه النظرية من احدث النظريات التي اكتشفت في عصرنا هذا . وكم في تعاليم محمد من أفكار لو كشف عنها الغطاء . وقورنت بالأفكار يومذاك . لتبين أنها سبقت عصرها بآلاف السنين .

يقول علماء التربية : إن الانسان نتيجة لعوامل كثيرة ، منها الزمان والمكان . وتقاليد من يعاشر . بل منها غذاؤه وكساؤه . والهواء الذي يستنشق . والصوت الذي يسمع . والضوء الذي يرى . وما إلى ذاك . ولذا إذا أرادوا معرفة شخص على حقيقته درسوا مهنته وبيئته والظروف المحيطة به .

ومحمد كان غريباً عن قومه في أخلاقه وأفكاره . كانوا يعبدون الأوثان ، وكان أبغض الناس لها [1] وكانوا يظلمون ويكذبون . ولا يتورعون عن المنكرات والفواحش . وكان أشد الناس نفرة من الظلم والكذب والمنكر والفحشاء . ومن كل ما يشين حتى أسموه الصادق الامين. وكانوا يعيشون في عزلة عن الأمم وأفكارها وعلومها ، حتى تغلبت عليهم البداوة بأجمع معانيها ، وكان هو معدن العلوم ومصدرها . وإذا كان فكر الانسان لا يتجاوز حدود المعارف في عصره مهما سمت مواهبه وعبقريته ، فمن أين هذه العلوم في القرآن والحديث ؟ !

ربما يوجد فرد أو أفراد يمتازون عن بيئتهم بالوعي والادراك ، فينفرون – مثلاً – من الرق والعبودية ، ويحبون لغيرهم ما يحبون لأنفسهم ، وربما يوجد من العباد والزهاد من يخالف قومه في التقاليد والعادات ، فيعتزل عنهم في صومعة لا يبرحها مدى الحياة ، يصلي فيها ويصوم ، ولا يعرف عن شؤون الناس كثيراً ولا قليلاً ، أما ان يعيش رجل في بيئة أبعد ما تكون عن الحضارة والمدنية ، ثم يدرك أسس العلوم ، وأصول التشريع ، واسرار الحكمة ، ولا يشتبه عليه الحق مهما خفي . ويجمع بين القلوب المتنافرة ، ويوجد أمة من العدم تقود الأمم ، وتحدث في العالم العجب العجاب ، اما هذا فلا يبلغ هذه المنزلة إلا إذا نطق بكلمات الله وعلمه وحكمته .

(١) قبل أن يبلغ محمد سن الرجال ، قال له البعض : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى الا أخبرتني عما أسألك . فقال له محمد : لا تسألني باللات والعزى : فوالله ما بغضت شيئاً بغضهما . وكان بينه وبين رجل اختلاف في شيء . فقال له الرجل : احلف باللات والعزى فقال له : ما حلفت بهما قط . واني أعرض عنهما .

محمد خاتم النبيين

جاء في الآية ٤٠ من سورة الأحزاب :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾

ونتساءل : لماذا ختمت النبوة بمحمد ؟ ! وما هو السبب لهذا الاحتكار والاستئثار ؟ ! وإذا حكم العقل بضرورة البعثة للناس كافة . وحاجتهم الماسة إليها . كما سبق . فان حكمه هذا لا يختص بزمان دون زمان وجيل دون جيل .

والجواب : ان مهمة النبي هداية الناس إلى التي هي أقوم . وارشادهم بأن لهم خالقاً عظيماً . من حقه أن يُعبد ويُطاع . وانهم مبعوثون ومسؤولون . وان يبلغهم ما يحتاجون إليه من القوانين في معاشهم ومعاملتهم وسائر أفعالهم . وأن يلقي الحجة عليهم بالتبليغ :

﴿ وَرُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ النساء ١٦٦ .

وهذا القرآن فيه بلاغ من الله ونصائح للناس . وتبيان كل شيء :

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ النحل ٨٩ .

وما دام القرآن قائماً وخالداً ولم تنله يد التحريف والتقليم والتطعيم فبأي شيء يأتي النبي الجديد ؟ ! فان جاء بما يوافق لم يكن إليه حاجة . أو بما

يخالف وجب رده وتكذيبه . لأن القرآن تام كامل . وكل ما فيه من العقائد والمعارف والأخلاق والأحكام حق وصدق . فدين محمد وشريعته وتعاليمه قد بلغت الغاية والكمال . والزيادة على التمام نقصان . كالاصبع السادسة في الكف وكل ضوء مع نور الشمس عدم .

ثم نسأل من يستكثر على محمد أن تختم به النبوة . وعلى الاسلام ان تنتهي به الأديان : هل من أمة اتخذت الاسلام ديناً . وطبّقت تعاليمه كما يجب فعاقها عن التقدم والنهوض في سبيل الحياة ؟ !

وعلى الرغم من أن أطفال المدارس يعلمون ان الدنيا بكاملها والأجيال القديمة والحديثة قد استفادت من الاسلام حتّى الذين لم يعتنقوه ويؤمنوا به . لأنه نور . والنور يضيء طريق السالكين مهما كان لونهم . والشمس تشرق على المؤمنين والجاحدين سواء بسواء . على الرغم من ذلك فاننا ندع الجواب لغيرنا . لغير المسلمين من كبار الأدباء والفلاسفة والعلماء . قال غوته الألماني الذي اعترفت اوروبا بزعامته الأدبية : « ان محمداً رجل خارق للعادة . وانه نبي ليس بشاعر[1] » . وقال هـ . ج . ويلز الانكليزي الشهير في كتابه « موجز تاريخ العالم » عند كلامه عن العرب « كان العلم يثب على قدميه وثباً في كل موضع حل فيه الفاتح العربي » .

وقال نهرو رئيس وزراء الهند في كتابه « لمحات من تاريخ العالم » : « كان محمد واثقاً بنفسه ورسالته . وقد هيأ بهذه الثقة . وهذا الايمان لأمته أسباب القوة والعزة والمنعة . وحولها من سكان صحراء إلى سادة يفتتحون نصف

(١) كتاب « التعصب الديني في الإسلام » لمحمود نعرب ص ١١٣ .

العالم المعروف في زمانهم : كانت ثقة العرب عظيمين . وقد أضاف الاسلام إليهما رسالة الأخوة والمساواة والعدل . . . وثب الشعب العربي بنشاط فائق أدهش العالم وقلبه رأساً على عقب . وان قصة انتشار العرب في آسيا واوروبا وافريقيا والحضارة الراقية والمدنية الزاهرة التي قدموها للعالم هي اعجوبة من اعجوبات التاريخ . . . لقد امتازوا بالروح العلمية الاستطلاعية مما يجعلهم يدعون بجدارة آباء العلم الحديث » .

وكل كلام بعد هذا نافلة وفضول سوى هذه الجملة . وهي ان اهتمام العرب بالعلم منبثق من أصل العقيدة الاسلامية التي رفعت العلم إلى أسمى المراتب.

وقال كاتب من كتاب هذا العصر : « ان الانبياء كانوا مجددين حقاً ، لأنهم ثاروا على القديم . غير ان اتباعهم المتمرسين على فهم الدين ونشر تعاليمه رجعيون . لأنهم حافظوا على ذلك القديم مع مرور الزمن . بهذا استحال الدين من انبيائه التقدميين إلى رجاله الرجعيين . لأن الفكرة التي تكون جديدة بالقياس إلى عهدها تصبح قديمة بالنسبة إلى ما بعدها .

والجواب ان رجال الدين تقدميون أيضاً إذا ساروا بسيرة انبيائهم وقاموا على سنتهم ، ولم يتخذوا من دينهم اداة للكسب ، ويستغلوا عواطف الناس الدينية لصالح الحكام والشركات والاقطاعيين . لقد جاء الأنبياء بالحق وأقروا من حيث المبدأ كل جديد مفيد كان ويكون والحق لا يقاس بمقاييس العصور والأجيال ، فهو كالنور والماء والهواء جديد أبداً ودائماً ، فمن آمن به وعمل له فهو مجدد وتقدمي دينياً كان أو زمنياً ، ومن عانده فهو رجعي خرافي كائناً من كان . ان الرجعية ليست وقفاً على رجال الدين ، ولا التقدمية منحصرة بغيرهم ، وإذا كان لبعض رجال الدين من ذنب فهو الجهل بروحه وحقيقته . أو التضليل والتلبيس على الابرياء لمآرب يأباها الدين والانسانية .

ومرة ثانية إلى النبي الجديد .

لقد أقر الاسلام مبدأ التوحيد والعدل في العقيدة . ونزه الخالق عن كل ما يشين . وأثبت له جميع المعاني التي تعبر عنها الأسماء الحسنى من القدرة والحكمة والعلم والغنى والحب والرحمة والجود والمغفرة والعزة والكرامة . وما إلى ذاك من صفات التقديس والتعظيم التي يجيز العقل ان نصف بها الذات الإلهية . كما نزه الانبياء عن الجهل والخطأ والشهوات . وأثبت لهم جميع صفات الجلال والكمال التي يمكن لبشر منقذ ان يتحلى بها .

وركز الاسلام شريعته وحلاله وحرامه على قانون الطبيعة ومبدأ العدالة فكل ما فيه الخير والصلاح للناس بجهة من الجهات فهو حلال ومحبوب . وكل ما فيه الشر والفساد بجهة من الجهات فهو حرام ومكروه . وأقر الاسلام مبدأ الاخوة والمساواة في المجتمع . وحث على التعايش السلمي [1] وحل المنازعات والخصومات بالحكمة والموعظة الحسنة :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا
إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾
آل عمران ٦٥ .

أي تعالوا إلى العدل والمودة لا إلى المؤامرات والدسائس والضغائن وإلى الثقة والتبادل الثقافي والاقتصادي لا إلى السلب والنهب . وإلى الأمن والأمان لا إلى الأحلاف العسكرية والاستعدادات الحربية .

وأقر الاسلام مبدأ الفضيلة في الأخلاق . فنهى عن الكذب والرياء والقسوة

(١) اقرأ كتاب « التعايش الديني في الإسلام » لمحمود العزب .

والجفاء والزنى والخيانة وجميع المظالم والفواحش ما ظهر منها وما بطن . وسلام على من قال : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وإذا كان دين محمد هو دين الفطرة والانسانية . فماذا يبقى للنبي أو المتنبي الجديد ؟! اللهم الا ان يغير فطرة الله التي فطر الناس عليها . فيأمر بالحروب والاستغلال والسرقة والخيانة والكذب والزنى والقمار والخلاعة . وينهى عن السلام والحرية والأمانة والصدق والعفة ! !

تنبيه :

قلنا في بحثنا « الله والعقل » ستتعرض لكتاب « الدين والضمير » مفصلاً في بحثنا « النبوة والعقل » . وحيث لم تتسع هذه الصفحات لملاحظاتنا على الكتاب المذكور لأنها بلغت ما يقرب من عشرين صفحة فقد أرجأناها إلى فرصة ثانية . ولعلها تسنح في البحث الثالث أو الرابع . ومن الله سبحانه نستمد الهداية والتوفيق .

الآخرة والعقل

تمهيد

قبل أن ابدأ في وضع هذا الفصل قال لي أحد الأخوان : ان موضوع الآخرة أصعب الموضوعات التي تعالجها . لأنك تتوخى التوضيح واقناع الناشئة وهذا الموضوع معقد شديد الغموض .

وفي الحق اني اقتنعت بقوله . وأخذني الوهم في بداية الأمر . لأني من الذين يؤمنون بأن السهولة والتوضيح حق للقارىء على الكاتب . ولكنني ما شرعت بالكتابة حتى وجدت الأمر أيسر وأسهل مما توهمت . ولم أر أي فرق بين موضوع الآخرة وموضوع المبحثين السابقين « الله والعقل » أي فرق و « النبوة والعقل » .

وأخال ان البعض إذا قرأ الاسم عن قرب أوبعد سيقول : و أي شأن للعقل في هذا الموضوع !

ولا جواب لدي الا الدعوة إلى قراءة هذه الصفحات . وسيجدها القارىء سهلة ومقنعة بحول الله تعالى . فان تردد في شيء مما فيها فليتهم فهمه . أو يتهمني بالتقصير في البحث والتنقيب . أو الخطأ في طريقة العرض . أما أصل الفكرة والمبدأ نفسه فحق لا ريب فيه . والله سبحانه المسؤول ان يجعلها من الأعمال التي تنفعنا يوم نلقاه . انه سميع مجيب .

أوهام الجاحدين

الناس في أمر الآخرة والبعث على طوائف :

منهم طائفة : تجمع بين انكار الخالق ، وانكار البعث .

وثانية : تعترف بالخالق ، وتنكر البعث .

وثالثة : تعترف بهما معاً ، وهي أرسخ علماً وأكثر عدداً .

ورابعة : تشكك لا تنفي ولا تثبت .

ولمنكري البعث ألوان من التفكير :

منها ، ان الانسان ليس إلا هذا الهيكل المحسوس الذي تلمسه اليد ، ونراه العين ، ولا شيء وراء ذلك . أما الحياة وسائر القوى التي نسميها الروح والعقل فهي عرض زائل كالماء في النبات ، والنار في الحطب والزيت في الزيتون تنعدم وتتلاشى بالموت . ولايبقى إلا العناصر التي يتكون منها الجسم .

الجواب :

١ ـ ان هذا القول لا يستند إلى دليل من العقل ، ولا من التجربة ، ولا من المشاهدة ، وانما هو حدس في حدس .

٢ ـ ان العلماء يعرفون حقيقة هذه العناصر التي يتألف منها الجسم ، ويستطيعون تركيبها في صورة انسان ، ولكنهم يعجزون عن بعث الحياة في

خلية واحدة . ولو كانت النفس عرضاً وصفة تتولد قهراً من تركيب الجسم وضم الأجزاء بعضها إلى بعض لاستطاعوا أن يوجدوا انساناً ساعة يشاءون تماماً كما يوجدون الطائرة والسيارة . لأن الأسباب إذا تكررت أدت إلى نفس النتائج التي حدثت أولاً . مع ان العلماء حاولوا وجربوا وكرروا التجربة مرات ومرات . وبعد أن بذلوا جميع الجهود أتوا بكائن محنط ظنوه شبيهاً بالحي . وبعد الدرس والتمحيص اتضح لهم انه أبعد ما يكون عن الكائنات الحية بمعناها الحقيقي . وجل الذي قال:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾

الحج ٧٣ .

٣ ــ لو صح هذا القول لتساوت أفراد الانسان في جميع القوى والمواهب ولكان مخترع الأقمار الصناعية كأي انسان سواء بسواء . لأن المادة والهيئة واحدة في الجميع لا تختلف في فرد عن فرد . حيث أثبت العلم ان الانسان يتكون في أمه من خليه واحدة ، ينشأ الطويل والقصير والأسود والأبيض . « وما به الاجتماع لا يكون به الافتراق » .

٤ ــ أي عاقل يصدق بأن هذا الانسان الذي يتفجر عبقرية وذكاء لا يفترق في حقيقته عن النبات والحشرات . هذا المخلوق العجيب الذي غير وجه الأرض . وقلبها رأساً على عقب . ثم صعد إلى القمر . وتجاوزه إلى المريخ وأحال علم الفلك من علم مراقبة ومشاهدة إلى علم التجريب ، هذا

الرأي جعل المستحيل ممكناً . واجتمعت فيه قوى العالم بكاملها حتى قيل فيه :

وتحسب انك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

هذا الانسان الذي تجلى في محمد وعلي وسقراط وغاندي وآينشتاين والمعري [1] . وعبر عنه القرآن الكريم انه خليفة الله في أرضه . والإنجيل بأنه ابن الله . وخاطبه الجليل بقوله :

﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾

هذا الانسان يتألف من بضع مواد كيماوية فقط لا غير ! . .

قال بعض العلماء : في الانسان من الدهن ما يكفي لصنع سبع قطع صابون ، ومن الكربون ما يكفي سبعة أقلام رصاص ومن الفوسفور ما يكفي لرؤوس ١٢٠ عود ثقاب . ومن الملح ما يصلح جرعة للاسهال . ومن الحديد ما يصنع منه مسمار متوسط الحجم . ومن الجص ما يبيض بيت دجاج . ومن الكبريت ما يطهر جلد كلب من البراغيث .

أهذا هو الانسان . وهذي حقيقته ! ؟ استغفر الحق أو العلم .

(١) قرأت في جريدة وطني المصرية تاريخ ١٨ – ١٠ – ٥٩ ان ريتشارد بوجين كان يحفظ مؤلفات الشعراء والفلاسفة ويحدد مكان أية كلمة من أية صفحة . وان يوسف مزوفاني يتحدث بسبعين لغة بلهجاتها المعقدة ، وان شاباً من كورسيكا تلي عليه ستة وثلاثون ألف كلمة فحفظها بمجرد سماعها ؛ وفي العرب القدامى عديد من هذا النوع ، كابن عباس والمعري والاصمعي وغيرهم ، ومن أحب الاطلاع فعليه بالجزء الأول من تاريخ آداب العرب للرافعي .

ومن تفكيرهم أيضاً ان الانسان يولد نتيجة التزاوج بين الذكر والأنثى . ويموت نتيجة لمرض أو قتل أو لانهيار جسمه بعد أن يصل إلى الشيخوخة .

وهذا القول لا يختلف عن سابقه الا في التعبير غير انه أكثر شبهاً بقول القائل :

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

ومن يشك في ان الانسان يولد ثم يموت ؟ ! ولكن أي دليل في هذا على ان الانسان إذا مات فات ؟ ! ان الدعوى لا تصلح أساساً للاستدلال . فإذا قلت : بلغ فلان من العمر عشرين سنة ، لأن عمره عشرون سنة كان قولك هذا نوعاً من الهراء والهذيان . وقد رد القرآن على هؤلاء وأحزابهم بالآية ٢٣ من سورة الجاثية :

﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ الجاثية ٢٥ .

ومن تفكيرهم ايضاً ان الجسم بعد ان تأكله الديدان ، ولا يبقى منه الا عظام نخرة يعود ثانية ! ان هذا لشيء عجاب ! ومن شاهد أو سمع ان ميتاً عاد إلى الحياة بعد أن أصابه البلى ، وذهب في التراب ؟ !

ونحن لا نجد سبباً لهذا الاستبعاد سوى قياس فعل الله على فعل البشر فإذا عجزنا نحن عن احياء الموتى يجب أن يعجز الله عنه أيضاً ! تعالت قدرته :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ يس ٨٢ .

لقد استبعد هؤلاء البعث ، لأنه مخالف للمعتاد والمألوف ، وبديهة ان الاستبعاد لا يصلح دليلاً للنفي ولا للاثبات . فبالأمس القريب كنا نرى أشياء مستحيلة الوقوع ، ثم أصبحت حقيقة واقعة كالتلفون والتلفزيون وما أشبه.

وقد أشار الله سبحانه إلى استعباد المنكرين في مواضع عدة ، منها الآية ٤٨ من سورة الاسراء :

« أإذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أئِنَّا المَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً »

ورد عليهم في آيات . منها الآية ٥ من سورة الحج :

« يَا أيُّهَا النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فإنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ »

خاطب الله سبحانه المرتابين بهذا الأسوب البعيد عن الاستعلاء القريب إلى كل قلب . فبعد ان سألهم : هل داخلهم الشك ؟ لفت نظرهم إلى آيات الله التي يشاهدونها في غيرهم وفي أنفسهم ، وإلى انشائهم وابتداء خلقهم . وكيف أوجدهم من العدم . وانتهى بهم إلى نتيجة لا يسعهم الا التسليم بها ، والاذعان لها . وهي ان من يقدر على ايجاد المعدوم فهو على اعادة الموجود اقدر . ان صح التعبير [1] . ابتدأ معهم من الشك والتساؤل . وانتهى بهم إلى اليقين والاطمئنان .

قال الكندي فيلسوف العرب : ان خلق الانسان أو احياءه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر بعد ان لم يكن . وهذا هو مضمون آية :

« أوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ »

يس ٨٢ .

......

(١) لا يوجد بالنسبة إلى الله شيء أسهل أو أصعب من شيء ، فخلق الذرة وخلق الكون سواء لديه تعالى .

وهكذا لا تجد في أقوال منكري البعث أية حجة مثبتة لدعواهم سوى عجزهم عن الفهم والادراك. وكثيراً ما يكون هذا العجز لنقص في الأفهام وعدم ملاءمة الظروف فنحن نشاهد الشمس والقمر وآلاف النجوم، ولها تأثير بالغ في حياتنا . ومع ذلك نعجز عن ادراك حقائقها ومعرفة أسرارها .

وقد يقال : ان الذين يؤمنون بالبعث جهال مقلدون .

ونسأل بدورنا : من هو الجاهل المقلد ؟ سقراط أو افلاطون أو الفارابي أو ابن سينا أو ابن رشد وغير هؤلاء الكبار الذين آمنوا بالله واليوم الآخر . ووضعوا في اثبات المعاد المؤلفات الطوال ؟ ! أو من قلد سقراط وافلاطون وابن سينا ؟ ! وإذا كانوا مقلدين فمن هم الفلاسفة المتنورون الذين تكشفت لهم اسرار الكون وحقائق الحياة ، وما قبلها وما بعدها ؟ !

وفي الحق اننا لم نر أحداً يحسن التقليد ويتقنه كهذه « الحزمة » من الشباب الذين استخفوا بدين آبائهم : واتهموا كل من يؤمن بالله واليوم الآخر بالتقليد لا لشيء الا لكلمة سمعوها من اباحي متحذلق ، أو قرأوها في كتاب أو صحيفة تبث السموم ، وتنشر الفوضى والفساد .

والخلاصة ان الفرق كبير جداً بين ممتنع الوقوع . وممكن الوقوع . فالأول لا يتحقق بحال ، فان ادعاه شخص يكذّب بمجرد الدعوى . ودون ان يطالب بالدليل . فإذا قال قائل : رميت حجراً من علو فارتفع نحو السماء ، أو قال : ان الشمس كوكب بارد ، عليه أحياء من أنواع شتى جاز للسامع أن يقول له بدون توقف هذا محال . لأن الأرض تجذب الأجسام إليها . وحرارة الشمس تمنع من وجود الحياة عليها . أما الثاني أي الممكن فلا يصح تكذيب مدعيه بمجرد الدعوى . وانما يطالب بالدليل ، فإذا قال القائل : ان رجلاً صعد إلى القمر . ثم عاد سالماً إلى الأرض فلا يقال له : هذا كذب « ضربة واحدة » . وانما يسأل عن الدليل لأنه يدعي وجود شيء ممكن أن يتحقق متى تهيأت له الأسباب. والحياة بعد الموت من النوع الثاني أي ممكنة غير ممتنعة .

فكرة الآخرة وتأثيرها في السلوك

ان العوامل التي تتحكم في سلوك الانسان . ويخضع لها في حركاته وسكناته تنقسم إلى نوعين: الأول العوامل الخارجية ، كالبيئة والحوادث العامة والخاصة ، وليس لهذه من ضابط معين ، لأنها تختلف باختلاف المحيط والمجتمع الذي يعيش فيه ، وتتنوع حسب الظروف والأحوال التي لا تدخل في حساب . النوع الثاني العوامل الداخلية ، كالمشاعر والنزعات النفسية ، وهي كثيرة منها :

١ ــ منطق الحياة الذي يفرض حكمه بعيداً عن تأثير الارادة والاختيار ، كالتنفس ، ونمو الجسم ، وتطور الأعضاء وقدرتها على القيام بوظائفها الخاصة .

٢ ــ منطق العاطفة ، وهو مصدر لأكثر ما نقوم به من أعمال في حياتنا اليومية ، كالمحافظة على الأبناء وتربيتهم ، والثناء على من نحب ، والطعن فيمن نكره . ولا يسلم من سلطان هذا المنطق أحد حتى أهل الفضائل والذكاء .

٣ ــ منطق العقل . وهو مصدر الادراك والتفكير . وأصل العلوم والصناعات . وبه يتغلب الانسان على الطبيعة . ويميز بين الحق والباطل والضار والنافع .

٤ ــ منطق العدوى والتقليد . كالأفكار المتولدة من الكتب والجرائد والخطب ، وكالنظر بدون شعور إلى جهة ينظر إليها الغير . وما إلى ذلك .

٥ ـ منطق العادة ، كشرب الدخان ، والنوم في وقت معين ، وما إلى ذلك .

٦ ـ منطق الدين ، ويتضمن الكثير من التعقل والتأمل وقد مثل دوراً عظيماً في تاريخ الأمم والأفراد حيث كان وما يزال المقياس الوحيد لأفعال المتدينين وأقوالهم ، كما أن له تأثيراً بارزاً في الفنون والآداب والسياسة والأخلاق . وهذه النزعات تتفاعل مع العوامل الخارجية ، فتتأثر بها وتؤثر فيها .

وغرضنا من هذا البحث يتصل بمنطق التدين ، وبنوع أخص الاعتقاد بالبعث . وكيف يؤثر في أخلاقنا وسلوكنا . وكلنا نعلم أن شعور الانسان بأن عليه رقيباً يعلم السر وأخفى ، وأنه مسؤول عن كل كبيرة وصغيرة ، وانه يحاسب ويعاقب ان أساء، ويثاب ان أحسن. ان هذا الشعور يبعثه ـ في الغالب ـ على فعل الخير وترك الشر ، وعلى أن يكبح الانسان جماح نفسه ، ويمنعها من أن تحقق أهواءها وشهواتها .

ورب قائل يقول : لقد رأينا أفراداً يعتقدون بالجنة والنار مع انهم يرتكبون أكبر الخطايا وأحط الأعمال . ورأينا آخرين أفضل منهم أخلاقاً . وعلى حظ من الخير مع انهم لا يدينون شيء .

الجواب :

ان الذين يدعون أنهم من الدين وأهله ، ثم يخالفون عن أمره ، و يستخفون بتعاليمه على نوعين : النوع الأول منهم لا يعرفون من الدين أصلاً ولا فرعاً ولا يعنيهم من أمره كثير أو قليل ، وانما يصرخون باسم الدين ، ويتشبثون

بأذياله كلما خرج « آدمي » عن طاعتهم . وكلما فشلت لهم مؤامرة . وكلما هزم لهم لص مدرب على الاجرام . انهم يرددون لحن الدين بأنغام شتى لا يعرفها نبي ولا وصي نبي . وأننا موضع التساؤل . بل موضع الشك والريب ! لماذا هذا التهويش . وهذه المناداة بالويل والثبور وعظائم الأمور واظهار الغيرة على الدين أكثر من الأنبياء والأولياء ؟ ! مع انهم لا يؤدون فرضاً من فرائضه . ولا يتورعون عن مخالفة أمره ونهيه [1] .

وهذا دليل واضح فاضح على انهم سماسرة أديان يتسترون باسمها اتقاناً للخديعة . وخوفاً من الفضيحة . وما قرأت كلمة تعبر عن حقيقة هؤلاء أجمع من قول سيد الشهداء الحسين بن علي : « الناس عبيد الدنيا . والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معائشهم . فإذا محصوا البلاء قلّ الديانون » .

النوع الثاني من الناس يؤمنون بالله وحسابه وعقابه . ولكنهم يتنازلون عن بعض ما يدينون رغبة في منصب ، ورهبة من قوي ، أو خوفاً من عوز أو لضعف في الارادة والتفكير ، وما إلى ذاك من الأسباب التي لا يملكون معها المناعة الكافية إذا تصادمت مع عقيدتهم . ان هؤلاء مؤمنون بلا ريب ولكنهم ضعفاء لا يحتملون الهم والمتاعب . والانسان ، أي انسان في صراع مستمر مع الخوف من العواقب. والقوي من ثبت على عقيدته حتى وان زالت الأرض من تحته ، وأطبقت السماء على رأسه .

(١) خاطب الله نبيه محمداً بقوله : « .. عليك من حسابهم من شيء .. وقل الحق من ربك فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ... لكم دينكم ولي دين » وما إلى ذلك من الآيات . وقد اتفق علماء الإسلام على هذه القاعدة : « من كفر واعتزل تركناه » . ولكن الخائن دائماً يكون ملكياً أكثر من ملك .

ومهما يكن فان الفرق بعيد جداً بين من يضمر الجحود . ويظهر الإيمان كذباً وافتراءً . وبين من يؤمن بالحق . ولكن لا يثبت عند الصدمات . ان الفرق بين الاثنين كالفرق بين من سار إلى المعركة مع الجند ليتجسس ويدبر المكائد والمصائد . وبين من هرب من الجندية حرصاً على حياته وحياة أولاده . فالأول تعمد الاجرام والعدوان . وتاجر بالدماء والأرواح . لغاية الكسب والربح . أما الثاني فكل ما يبتغيه « سلامات يا راس » ولا يضمر لأحد شراً وقد يشعر بالخطيئة والخجل من نفسه . ويطلب السماح والغفران . بل قد يحس بالراحة عندما يعاتب أو يعاقب . وقد رأينا من يعترف بالذنب علناً ، ويطلب ايقاع العقوبة به . ليخلص من توتر الأعصاب . وتأنيب الضمير الذي لازمه في ليله ونهاره . وإليك — مثلاً واحداً من آلاف الأمثلة :

كان بعض القدامى يرفض ما يصطدم مع دينه ووجدانه . وهو في مقتبل العمر . وعندما تقدمت به السن . وأصبح ذا عيال وأطفال تقبل بعض ما كان يرفض من قبل . وفي ذات يوم رجع إلى نفسه . وقارن بين يومه وأمسه . فذاب قلبه حسرات أرسلها مع أنفاسه الملتهبة في هذين البيتين :

عصيت هوى نفسي صغيراً وعندما ... رماني زماني بالمشيب وبالكبر
اطعت الهوى عكس القضية ليتني ... ولدت كبيراً ثم عدت إلى الصغر

وليس من شك أن الكريم سبحانه قد غفر لهذا الشاعر الذي تحرق ألماً من ذنبه . ونكس رأسه حياء من ربه .

قدمنا أن الإيمان باليوم الآخر يخلق في الانسان حافزاً إلى عمل الفضائل والخيرات . وتجنب الشرور والموبقات . وللتدليل على هذه الحقيقة نذكر طرفاً من معاملة الانسان في العالم الثاني : عن أي شيء يسأل ؟ وبماذا يكافأ ؟ .

جاء في الحديث : « كلكم راع ، وكل راعٍ مسؤول عن رعيته » . وليس من شك ان مسؤولية كل انسان تكون على قدر وسعه ومقدرته . فمسؤولية الحاكم غير مسؤولية المحكوم ، وما يُطلب من الغني لا يطلب من الفقير ، وتكليف العالم غير تكليف الجاهل . ومن هنا قيل : ان الطرق التي توصل إلى الله بعدد أنفاس الخلائق . أي ان السبيل إليه سبحانه سهلة يسيرة ، وآمنة لا هول فيها ولا خوف . يستطيع ان يسلكها كل فرد ، ما دام الله لا يكلف نفساً إلا وسعها .

وفي يوم القيامة يسأل المرء عن أفعاله وأقواله ، وما أبداه وأخفاه من خير أو شر ، ثم يلقى الجزاء وفاقاً على ما كان يصنع « كل نفس بما كسبت رهينة » فالعمل وحده مقياس الثواب والعقاب ، فمن احسن فله الحسنى وزيادة ومن أساء فجزاء سيئة بمثلها . ولا سيئة مع السهو والخطأ ولا مع الاضطرار والالجاء ومن تعمد فباب التوبة مفتوح من دخله كان آمناً .

ومما جاء في الحديث ان الانسان يسأل غداً عن عمره فيما أفناه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله مما اكتسبه وفيما أنفقه . وفي حديث آخر يقال له : هل علمت ؟ فان قال نعم . قيل له هلا عملت؟ وان قال لا قيل له هلا تعلمت حتى تعمل ؟ فمقياس الفضيلة والرذيلة ، والقرب من الله والبعد عنه هو الاعمال وحدها ، لا الصور والاشكال ، ولا الاحساب والأنساب ، ولا الجاه والمال ، ومن اعتمد على شيء منها فقد غفل عما يراد منه :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾
المؤمنون ١١٦ .

ومن طريف ما قرأت عن ديانة زرادشت ان عمل الانسان ان كان حسناً أتاه غداً في صورة فتاة جميلة يسر بحسنها ، ويتمتع بجمالها متى يشاء وكيف

شاء . وان كان عمله سيئاً أتاه في صورة عجوز شمطاء مفزعة لا تفارقه لحظة . ولا يستطيع التهرب منها بحال . أجارنا الله وإياكم .

وإذا اعتقد الانسان انه لا يترك مهملاً من غير تكليف يسأل عنه ، ويؤخذ به ، تورع عن محارم الله، وتردد طويلاً قبل أن يقدم . وتحفظ ما استطاع .

ومن أغرب ما قرأت أن كاتباً فرنسياً يدعى « بيار جوابو » زعم أن الناس خلقوا للخداع والسرقة ، والقتل والاغتصاب . وانه وضع كتاب شرح فيه فلسفته هذه وأصدره سنة ١٩٥٣ . وأسماه « لم يكن شيء وهذا كل شيء » !.

وماذا يبقى من الخير إذا انتشرت هذه الفلسفة ، أو الفلسفات الأخرى التي لا تعترف بالبعث والنشر ؟ !

أجل ، ان هناك أناساً لا يعترفون بعالم الغيب . ومع ذلك تراهم على كثير من الخير ، وربما أكثر من الذين يؤمنون — كما قدمنا — وكثيراً ما تغرس التربية الشعور بالمسؤولية في نفوس الكبار والصغار ، وتحملهم على احترام القانون حتى ولو لم يكن من رقيب وحسيب .

أجل ، نحن لا ننكر هذا ، ولكن الاحساس بوجود قوة عالمة عادلة دونها كل قوة لا بد أن يترك أثراً ملموساً لا يتركه الضمير والأخلاق . ان الضمير يؤنب ولا يعذب ، ويعاتب ولا يعاقب ، وليس كل الناس علي بن أبي طالب عبد الحق لذات الحق : ولا ينكر له مهما تكن النتائج ، بل أكثرهم يبكون ذنوبهم ولا يكترثون لها ، ومنهم من يستمرىء الجرائم ، ويكررها بنشوة وقسوة ، ويتبجح قائلاً دون خجل: « الدنيا فريسة الشاطر » ، ومنهم من يفعل الخطيئة ثم يقذف بها الأبرياء ، ويتهمهم زوراً وبهتاناً ، ومنهم من تبلغ به الحال ان يعاقب الطيبين الأخيار على ذنب هو صاحبه وفاعله .

وبالتالي . فان الدين وحده العاصم ، ولا سلطان فوق سلطانه . أما الضمير فهو أشبه بالناصح الذي لا يملك نفعاً ولا ضراً ; وكثيراً ما يغلب على أمره ، فيكف ويعتزل .

ثم إذا كان الضمير وازعاً من الداخل . والسجن أو المشنقة وازعاً من الخارج فان الايمان بالله واليوم الآخر يجمع بين الاثنين بحيث لا يستطيع المؤمن التهرب منها بحال . ويبقى شاعراً بالمسؤولية . خائفاً من عقاب الله وعذابه ، حتى ولو اختفى بجريمة عن أعين الناس . وأمن ملامتهم ، وعقوبة الحكام . إذ لا مفر له من حكم الله وسلطانه . وإليك هذا الشاهد :

روي أن رجلاً تكررت منه المعاصي وكلما حاول التوبة والاقلاع عنها غلبته نفسه . فأتى الحسين وقال له :

يا ابن رسول الله اني مسرف على نفسي . فاعرض عليّ ما يكون لها زاجراً أو مستنقذاً .

قال الحسين : ان قبلت مني خمس خصال فقدرت عليها لم تضرك المعصية .

فابتهج الرجل وقال : جاء الفرج .

قال الحسين : إذا أردت أن تعصي الله عز وجل فلا تأكل رزقه .

قال الرجل : كيف ؟ إذن من أين آكل ، وكل ما في الأرض من رزقه

قال الحسين : أفيحسن بك أن تأكل رزقه ، وتعصيه ؟

قال الرجل : لا بأس . هات الثانية . فربما كانت فرجاً ومخرجاً .

قال الحسين : إذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئاً من بلاده .

قال الرجل : يا سبحان الله . هذه أعظم من تلك ، فأين أسكن ، وله المشرق والمغرب وما بينهما .

قال : يا هذا ، أيليق بك أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه ؟ !

قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، هات الثالثة . فربما كانت أهون الثلاث.

قال : إذا أردت أن تعصيه فانظر موضعاً لا يراك فيه ، وهناك افعل ما شئت .

قال : ماذا تقول ؟ ! ولا تخفى على الله خافية .

قال : أتأكل رزقه ، وتسكن بلاده . ثم تعصيه . وهو بمرأى منك ومسمع ؟ !

قال : هات الرابعة ، وإلى الله المشتكى .

قال : إذا جاءك ملك الموت . ليقبض روحك . فقل له أخرني حتى أتوب.

قال : لا يقبل مني . فقال له : أكرهه على القبول .

قال الرجل : كيف ولا أملك لنفسي معه شيئاً ؟

قال : إذا كنت لا تقدر أن تدفعه عنك فتب قبل أن يفوت الأوان .

قال الرجل : على أي حال بقيت الخامسة . فهاتها .

قال : إذا جاء الزبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى الجحيم فلا تذهب معهم .

فقال الرجل : حسبي حسبي . أستغفر الله وأتوب إليه . ولن يراني بعد اليوم فيما يكره .

وهكذا تزجر المواعظ عن الرذائل من أحيا الله قلبه بهيبته وجلاله . والخوف من غضبه وسطوته .

وقبل أن نترك هذا الفصل لا بد من الإشارة إلى أن الدين لم يفرض علينا الإيمان باليوم الآخر كوسيلة ولا ترغيباً في عمل الخيرات . وإنما أوجبه كفاية في نفسه . لأنه حقيقة ثابتة لها وجود واقعي . فالإيمان به إيمان وتسليم بالأمر الواقع . أما الوقوف عند الحدود فهو فرع لهذا الأصل . وثمرة من ثمراته :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ سبأ ٣ .

دليل الآخر

تنقسم أفكارنا من حيث أصلها إلى نوعين :
أفكار فطرية لا يحتاج إثباتها إلى الأدلة والبراهين . كالشعور بأن الاثنين أكثر من الواحد . والبصر خير من العمى . وما إلى ذاك من البديهات التي تثبت نفسها بنفسها .

وأخرى مكتسبة لا نتوصل إلى معرفتها مباشرة . بل لا بد من النظر . وعملية الاستدلال . واستخراج المجهول من المعلوم – مثلاً – إذا جهلنا مقدار حرارة المريض أو تبدلاتها . فلا نعرفها بالفطرة . بل بواسطة ميزان الحرارة ، ومشاهدة ارتفاع الزئبق .

وقد اتفقت كلمة العلماء على العمل بالأفكار الفطرية التي لا يحتمل فيها الكذب والخطأ . لأن مصدرها أما الرؤية الواضحة . واما الغريزة التي جبلت فينا . وأصبحت جزء من عقولنا ، والعلماء لا يتكلمون عن هذه الأفكار . كغاية مستقلة بنفسها . بل كوسيلة ومقدمة يتألف منها الدليل والقياس ، أما الأفكار المكتسبة فتدخل في صلب العلوم . وقد أولاها العلماء اهتماماً بالغاً . واعتبروها الغاية القصوى والمثل الأعلى لبحوثهم وجهودهم .

ولكنهم اختلفوا في نوع الدليل الذي يعصم الأفكار المكتسبة منه عن الخطأ . ويجعلها مطابقة للواقع : هل هو الحواس كالسمع والبصر أو العقل

أو التجربة والمشاهدة [١] أو الدين. أو الاتصال المباشر كما يزعم المتصوفة [٢]، أو لا يمكن الحصول على المعرفة بحال . كما يقول السفسطائيون الشاكون في كل شيء حتى في أنهم شاكون . وقد ذكرنا هذه الأقوال في البحث الأول « الله والعقل » بعنوان « سبب المعرفة » وأشرنا إلى ما هو الحق . القصد من هذه الإشارة معرفة الطريق الذي ينتهي بنا إلى الإيمان بالمعاد هل هو العقل أو الوحي ؟ هل هو البراهين العقلية . أو الكتب السماوية ؟ هذا مع العلم بأن المعاد لا يمكن فيه التجربة والمشاهدة .

وقد ذهب كثير من الفلاسفة . وعلماء الأديان والملل إلى أن العقل وحده هو السبيل إلى معرفة المعاد . وأنه يحكم بوجوده مستقلاً عن كل شيء كما يحكم بوجود الله . وقال آخرون : إن مسألة المعاد لا تمت إلى العقل بصلة مباشرة . لا يحكم به سلباً ولا إيجاباً . أجل . إنه يرى إمكان الإعادة بعد الموت . وعدم استحالتها . وعليه يكون الأمر بيد الله . فإن شاء أعاد وإن شاء أبقى ما كان على ما كان . وحيث أخبر القرآن الكريم وسائر الكتب السماوية أن المعاد كائن لا محالة . وقد حكم العقل بإمكانه . فيكون والحال هذه . حقيقة ثابتة يجب التصديق بها على وفق الشرع .

(١) كانوا يفرقون بين التجربة والمشاهدة بأن المشاهدة تقتصر على الملاحظة فقط كمراقبة النجوم والنظر إلى الاجرام السماوية . أما التجربة فلا بد فيها من التحليل والتركيب والعملية الدقيقة . وبعد الاقمار الصناعية تحول علم الفلك من علم المشاهدة إلى العلم التجريبي .

(٢) قال المتصوفة : إذا تجردت النفس من عوارض الشهوات حصل لها الكشف الروحاني . والقي العلم فيها القاء دون أية واسطة من الحواس أو التجربة والعقل . وبديهة ان هذه الطريقة ليست من العلم في شيء . والا بطل النظر والتفكير . وكانت الكليات والجامعات والمصانع والمختبرات كلها عبثاً في عبث .

ونحن نعتمد هذا الطريق ، لإثبات المعاد . لأنه أيسر الطرق وأقربها إلى الإفهام ، ولأنه يجمع بين حكم العقل بالإمكان وعدم الامتناع . وبين حكم الوحي بالوقوع والثبوت .

أما حكم العقل بالإمكان فلأن إعادة الإنسان بعد الموت تماثل خلقه وإيجاده في هذه الدنيا بعد أن كان عدماً . والعقل لا يفرقه بين المتساويين . ويجعل وجود أحدهما دليلاً على إمكان وجود المساوي الآخر – مثلاً – إذا استطاع نجار أن يصنع باباً لهذا البيت فبإمكانه أيضاً أن يصنع مثله أو دونه لبيت آخر .

والإنسان لم يكن شيئاً مذكوراً . فأوجده الله من تراب [1] ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم جعلها عظاماً ثم كسا العظام لحماً . وأقرها في الأرحام محاطة بثلاثة أغشية[2] لا ينفذ إليها الماء والنور ولا الهواء . ثم أخرجها طفلاً ليبلغ أشده ، وجعل له أعضاء مختلفة الصور والقوام حتى أصبح في أحسن تقويم . ثم وهبه النطق والعقل قاهر الطبيعة ، وصانع المعجزات ورائد المسافرين إلى الكواكب . ومن أخرج هذا الإنسان من العدم إلى الوجود فهو قادر بلا ريب على أن يعيده ثانية قياساً للاستئناف على الابتداء لأنهما متساويان

(١) أثبت العلم الحديث ان الإنسان يحتوي من العناصر ما تحتويه الأرض .

(٢) جاء في الآية ٦ من سورة الزمر « يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث » وفسر القدامى الظلمات الثلاث بظلمة البطن والرحم والمشيمة . وأثبت العلم الحديث ان الجنين في بطن أمه يحاط بثلاثة أغشية تقيه الماء والضوء والهواء وتعرف هذه الأغشية باسم المثارية والامنيونية . والخرنوبية .

بل البدء أعظم وأخطر ومن استطاع أن يبني قصراً فأولى به وأجدر أن يبني كوخاً :

﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾

يس ٧٩ – ٨٠ .

أما الوحي فقد اتفقت الشرائع والأديان حتى الصابئة على وجود الحياة بعد الموت . وان اختلفوا في صفة الوجود . فذهب جمهور المتكلمين . وعامة الفقهاء وأهل الحديث إلى انه جسماني فقط ، وقال الفلاسفة : انه روحاني فقط . وذهب الغزالي والكعبي والراغب الأصفهاني ، وكثير من علماء الأمامية منهم الشيخ المفيد والمرتضى والشيخ الطوسي وغيرهم – ذهبوا إلى القول بالمعاد الجسماني والروحاني معاً . ثم اختلف القائلون بالمعاد الجسماني فمنهم من قال يعاد هذا البدن بعينه ، ومنهم من قال يعاد بمثله لا بعينه[1].

وليس من غرضنا تحقيق هذه الأقوال . وبيان المختار وانما المهم لدينا أصل الفكرة . وعودة الإنسان كيف اتفق إلى حياة ثانية يحاسب فيها . ويجزىء بأعماله. ان خيراً فخيراً . وان شراً فشراً . وهي أي العودة – محل وفاق عند الجميع . لأنها ممكنة عقلاً . وواقعة حتماً بنص القرآن وسائر الكتب السماوية .

---

(١) كتاب المبدأ والمعاد لصدر الدين الشيرازي . المعروف بملا صدرا المقالة الثالثة من الفن الثاني .

أما وجوب الأخذ بالقرآن، والتصديق بخبر النبوة فقد أثبتناه في مبحثنا الثاني « النبوة والعقل » ، فمن اعترف بالوحي يجب عليه التصديق بالآخرة بعد أن أخبر الصادق الأمين بوقوعها ، كما يجب تصديق الطبيب العارف إذا أخبر بوجود الداء ونوع الدواء ومن أنكر الآخرة بعد اعترافه بالوحي والنبوة كان كمن يعترف بأن في البيت رجلين وامرأتين، وينكر أن المجموع ٤. وبكلمة ثانية أنه لا يمكن بحال الجمع بين الاعتراف بالوحي والنبوة وإنكار الآخرة ، لأن إنكارها إنكار للوحي بالذات . أما من ينكر وجود الخالق فليس من الحكمة أن نحاول إقناعه بالآخرة ، وإنما نحيله على البحث الأول « الله والعقل » .

قدمنا فيما سبق أننا نعتمد لإثبات الآخرة على حكم العقل بالإمكان وإخبار الوحي بالوقوع ، وأثبتنا كلا الأمرين ، وزيادة في الإطمئنان نورد في ما يلي بعض الشواهد التي تعزز وتؤكد أخبار السماء ، وتنفي عنها كل شك وريب .

١ — إن الله سبحانه أمر الإنسان بالفضائل ، ونهاه عن الرذائل ، ووعد الطائع بالثواب ، وتوعد العاصي بالعقاب . وقد رأينا كثيرين يطغون ويبغون على الضعفاء ، ويفسدون في الأرض ويسفكون الدماء . ثم يموتون دون أن يصيبهم أي أذى ، فلو لم يكن حساب وعقاب ولا يوم يقتص فيه للمظلوم من الظالم لذهب كل حق هدراً ، وكان التكليف عبثاً ، ولم يكن أي فرق بين الأنبياء والصلحاء وبين الأشرار والفجار ، بل كان الطيبون أسوأ حالاً ، وأشقى مآلاً ، لأن أولئك سعدوا وتنعموا في هذه الحياة ، وتحمل هؤلاء من أرزائها الكوارث والمحن . وعليه يكون النعيم والثواب للخبيثين الأشرار ، والعقاب للطيبين الأبرار ، وهذا أفحش الظلم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قال أفلاطون لو لم يكن لنا معاد نرجو فيه الخيرات لكانت الدنيا فرصة الأشرار وكان القرد أفضل من الإنسان .

٢ – لقد أودع الله في نفس الإنسان من القوى والمشاعر ما تسير به في طريق التقدم والتطور حتى يبلغ درجة ليس فوقها إلا الخالق . أما الحيوانات والحشرات فإنها تسير به في سبيل واحدة لا تحيد عنها قيد شعرة ، ولو ذهبت مشاعر الإنسان ومداركه بذهاب الجسم ، ولم ينتقل إلى حياة أخرى لكان مصيره كمصير النبات والحشرات وكان ما أودع في طبيعته من العقل والإدراك نافلة لا طائل تحتها ، تعالت حكمة الله وعظمته . ولا نشك أن من نفى وجود العالم الثاني قد رضي لنفسه أن يكون في حكم الحشرات .

٣ – إن الإنسان لم يكن إنساناً ببدنه وهيكله . بل بنفسه وعقله . فإذا قال : « أنا . وأنت . وهو » فإنه لا يشير بهذه الألفاظ إلى البدن المركب من الرأس واليدين والرجلين . وإنما يشير إلى معنى عظيم الشأن ، يحرك الجسم ويدبره ، ويختلف عنه بحقيقته وصفاته أشد الاختلاف . وهو المعنى الشريف الجليل الذي نعبر عنه بلفظ النفس أو الفكر .

العالم حادث

هذا الكون العجيب بأرضه وسمائه يقال له العالم . وقد اختلف الناس هل هو حادث، أي لم يكن فكان؛ أو قديم لا أول له ولا آخر؟

ذهب المسلمون والنصارى واليهود والمجوس إلى أنه حادث . وقال آخرون بأنه قديم . وهذه المسألة من أجلّ المسائل وأهمها ، وعليها ترتكز قواعد الأديان كلها ، حيث اتفقت كلمتها على أن القديم واحد لا غير ؛ وهو الله سبحانه ، وأنه وجد في الأزل . ولم يوجد معه شيء ، وأنه خلق الكون من العدم. وأبدعه حسب مشيئته وإرادته . وإذا قلنا بقدم العالم يلزم اللوازم الباطلة الآتية :

١ — أن لا يحتاج العالم إلى موجد لأنه لا بداية له ولا نهاية [1] .

٢ — أن يكون القديم أكثر من واحد ، وأنه كان الله وكان معه قديم آخر .

(١) حاول بعض الفلاسفة أن يوفق بين القول بقدم العالم ، وإيجاد الله له ، فقال : ان للقديم معنيين الأول القديم بالذات ، وهو ما كانت ذاته علة لوجوده . وهذا يصدق على الله وحده ، والثاني القديم بالزمان ، وهو الذي لا أول له ، غير أنه مقارن لقوة توجده ، وهو العالم ، وعليه يكون العالم قديماً زماناً ؛ ممكناً ذاتاً . لأن الله أوجده . وإذا دفع هذا القول أشكال عدم الخلق فانه لا يدفع بقية اللوازم الباطلة ، كتعدد القديم وكون الله مغلوباً على أمره .

٣ ـ أن يكون الله مغلوباً على أمره . لأن الكون وجد في الأزل قهراً بحيث لا يستطيع أن يحدثه في زمان متأخر .

٤ ـ أن يكون الله غير قادر على افناء هذا العالم ، والإتيان بعالم آخر يحشر الناس فيه للحساب . لأن هذا العالم لم ينتقل من العدم إلى الوجود فكذلك لا ينتقل من الوجود إلى العدم ، ولأنه ثابت لا يتبدل . كما هو شأن القديم.

ومن أجل ذلك قال العقلاء وأهل الأديان : إن العالم حادث ، وان الله كان وحده ولم يشاركه شيء في القديم والأزل .

وقد استدل متكلمو المسلمين على حدوث العالم بأدلة أشهرها الدليل التالي:

وهو أن الجسم لا يخلو من الحوادث ، وكل ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث . وإليك شرح هذا الدليل :

إن من جملة الحوادث التي لا ينفك عنها الجسم السكون والحركة . لأن كل جسم لا محالة إما أن يكون ساكناً ، وإما أن يكون متحركاً . ومعنى سكون الجسم مكوثه في مكان واحد أكثر من زمان واحد ومعنى حركته انتقاله من مكان إلى مكان . والسكون والحركة من الأمور الحادثة ، لأن كلا منهما يزول ويتبدل . فالمتحرك قد يسكن ، والساكن قد يتحرك . والقديم هو الثابت بطبعه على طريقة واحدة لا يتغير ولا يتبدل ، ثم ان الحركة مسبوقة بحركة قبلها . وكذلك المكوث في المكان الواحد مسبوق بمكوث قبله . أي ان المكوث في اللحظة الثانية مسبوق بالمكوث في اللحظة الأولى ، وكل ما سبق بالغير فهو حادث .

وإذا كان السكون والحركة حادثين ، والجسم لا يخلو عنهما لزم أن يكون الجسم محلاً للحوادث فلا بد أن يكون حادثاً ، ولو افترضنا أنه غير

حادث لكان معنى هذا أنه وجد في الأزل قبل الحركة والسكون ، وأن الجسم قد مضى عليه أمد لم يكن ساكناً فيه ولا متحركاً ، وهو محال ، وعليه تكون الأجسام حادثة .

وسلك فيلسوف العرب الكندي طريقاً آخر لإثبات حدوث العالم : قال : كل جسم موجود بالفعل أو سيوجد فهو متناه ، ويستحيل أن يكون سرمدياً وباقياً إلى الأبد . واستدل بالدليل المعروف عند الفلاسفة ببرهان التطبيق الذي اعتمدوا عليه لبطلان التسلسل وعدم التناهي في الزمان الماضي . فاتخذ الكندي منه دليلاً على التناهي في المستقبل أيضاً ، ويتلخص :

في أننا لو فصلنا جزء محدوداً من الجسم المفروض أنه لا نهاية له ، فالباقي من هذا الجسم ان كان متناهياً فهو المطلوب ، وان فرض انه غير متناه ، وانه بقي كذلك غير متناه أيضاً بعد أن زدنا عليه ما أخذنا منه أولاً ، ولكن هذا الجسم بعد الزيادة أكبر منه قبلها ، فإذا كان في كلا الحالين غير متناه تكون النتيجة الحتمية ان اللامتناهي أكبر من اللامتناهي ، وان الكل بمقدار الجزء . وهو محال . إذن فلا بد أن يكون الجسم متناهياً في المستقبل ، ويكون أيضاً متناهياً في الماضي ، وهو معنى الحدوث .

وإذا اثبت أن العالم حادث ، وانه وجد بقدرة الله المبدعة المطلقة فيكون بقاؤه متوقفاً على إرادته أيضاً ، إن شاء أبقى ، وإن شاء أفنى .

وقد يتساءل : كيف توجد أشياء من لا شيء .

ونجيب بالتساؤل : من أين جاء ذلك الشيء الذي هو مصدر الأشياء فان وجد من شيء آخر أعدنا التساؤل إلى ما لا نهاية . ولا حل أبداً إلا أمر الله إذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون .

فالإرادة الإلهية هي التي تبدع الكون ، وتوجده بعد ان لم يكن شيئاً . وهي التي تفنيه فيصبح لا شيء ، والعلم الحديث لا يتصادم مع هذا بخاصة بعد أن اثبت أن المادة تتحول إلى طاقة . والطاقة إلى مادة ، وأنه لا حلول نهائية ، ولا حقائق مطلقة في « علم الطبيعة الذي تكوّن على يد كبار علماء النسبية في القرن العشرين ، وهم الذين تتسع فلسفتهم ونظرتهم إلى هذا العالم المادي للقول بالخلق والفناء ، كما تتسع للقول بنوع من المعرفة بهذا العالم غير المعرفة المأخوذة من العلم الطبيعي »[1] .

وبالتالي فنحن نتحدى الفلاسفة والعلماء في هذا القرن وفي كل قرن أن يحلوا معضلة الكون حلاً سليماً دون أن يرجعوا إلى قدرة الله وإرادته ، فإن فعلوا ، ولن يفعلوا ، فنحن أول من يسلم ويستسلم . وبالتالي ، فإن كل ما نحسه ونشاهده من أنفسنا ومن عوارض الكون فهو حادث ومتجدد ، فمن الكبر إلى الصغر ، ومن الشروق إلى الغروب ، ومن الجذب إلى الإقبال ، ومن الصحو إلى غيره ، وهكذا حتى الحجر الأصم في تغير دائم ، كما تقتضيه النظرية الحديثة ، والفلسفة الدياليكتيكية ، وتغير هذه الأشياء معناه حدوثها وتجددها ، وإذا كانت حادثة فالنتيجة المنطقية ان الكون الذي يتألف منها حادث أيضاً ، لأن وجود الكلي عين وجود أفراده ، وليس له وجود مستقل عنها .

والحمد لله الأول بلا أول يكون قبله . والآخر بلا آخر يكون بعده .

(١) أبو ريده « رسائل الكندي الفلسفية » ص ٧٥ طبعة ١٩٥٠ .

الآخرة والعلم الحديث

من مظاهر الرقي والحضارة عند نفر من الشباب ان يطلقوا في سخرية كلمة «ميتافيزيقي» على كل من يتدين، ويتكلم باسم الدين، فهو بزعمهم مثالي بعيد عن الواقع، وهم واقعيون لأنهم ينكرون الأديان.

وإذا كان أصحاب الدين غيبيين ميتافيزيقيين. لأنهم آمنوا بالله دون ان يجربوا ويشاهدوا فالذين جحدوا أيضاً غيبيون ميتافيزيقيون. لأنهم أنكروا من غير علم ولا مشاهدة. فما سمعنا أن أحداً منهم أو من قام برحلة إلى ما وراء الطبيعة، ثم عاد وأخبر انه لم يجد شيئاً هناك... إذن المؤمن والجاحد سواء في عدم التجربة والمشاهدة. فكيف يقال عن أحدهما واقعي، والآخر مثالي.!

وبتعبير ثاني ان كان الإيمان بالله لا يصدق إلا إذا اكتشفنا وجود الخالق بالآلات كما نكتشف درجة الحرارة بميزان الحرارة، فان كلاً من الجاحد والمؤمن لم يستعمل الآلات والمختبرات، فكيف نُسب ذاك إلى الوعي، وهذا إلى الجهل؟!

ثم إذا كان كل من يعتمد العقل والاستنتاج ميتافيزيقياً فجميع الناس، إذن، ميتافيزيقيون دون استثناء!، فمن قال: كل شيء في الوجود مادة فقط أو روح فقط، أو هما معاً فقد قال قولاً ميتافيزيقياً. وكذا من قال:

المعرفة لا تحصل إلا من الحواس وحدها ، أو من العقل وحده ، أو منهما متعاونان ، أو قال : الأمور كلها نسبية ولا حقائق مطلقة ، أو قال : الكون قديم أو حديث ، وان أصله ذرات أو غازات ، وأصل الإنسان قرد أو طحلب ، وان الأرض قطعة من الشمس ، والمادة في حركة دائمة ، وان هذا خير أو شر ، وذاك جميل أو قبيح . وما إلى ذلك من الأحكام العامة فهو غيبي ميتافيزيقي ، لأنه لم يجرب ويشاهد . بل العلماء الذين جربوا وشاهدوا ميتافيزيقيون أيضاً ، إذ لا غنى لهم عن العقل والإدراك الذي لا ينفك عن الذات بحال ، فالمعرفة أياً كان سببها فانها ترد صاحبها إلى ذاته ، ولذا قيل : لا يوجد أشياء ذاتية خالصة مئة بالمئة ، ولا موضوعية مطلقة مئة بالمئة. وإنما تتكيف الذات بحسب الموضوع ، ويتكيف الحكم على الموضوع بحسب الذات . وعلى هذا تكون الميتافيزيقا على أنواع لا نوع واحد ، فمن الخطأ ان تحصرها بما وراء الطبيعة فقط ، لأن كل فكرة لا تقوم على التجربة والمشاهدة فهي غيبية ميتافيزيقية ، سواء أكان مصدرها العقل أو الوحي أو أي سبب آخر .

ان سبيل الحقيقة لا ينحصر بالتجربة والمشاهدة ، ولا سبيل الخرافة بالغيب والميتافيزيقا ، وإنما معيار الحقيقة ومدارها ان تكون ثابتة في نفسها ومطابقة للواقع ، وللحقائق الغيبية واقع خارجي ، تماماً كالحقائق الطبيعية .

وقال قائل : كيف يكون الغيب حقيقة مع بعده عن عالم المشاهدة الذي نعيش فيه ؟ ! ان لفظة غيب بنفسها تشعر بالعدم المحض الذي لا يصح وصفه بالكذب ولا بالصدق ، لأن ما يوصف بالكذب ينبغي أن يكون قابلاً للاتصاف بالصدق — مثلاً — إذا قال لك قائل : في الصندوق أربع برتقالات ، فبإمكانك أن تتحقق من هذا الزعم بالنظر في داخل الصندوق ، فإن وجدت فيه البرتقالات الأربع فهو صادق وإلا فهو كاذب ، أما الذي لا تمكن فيه

عملية التجربة والمشاهدة فهو أسوأ حالاً من الكذب ، لأنه كلام فارغ لا مدلول [1] .

ونحن نسأل هذا « القائل » على أي شيء استندت في قولك هذا ؟ هل جربت رأيك وحللته في المعامل والمختبرات قبل ان تنطق به ؟ ! وأيضاً لقد اعترفت في صفحة ١٩٠ ان للانسان جسماً وروحاً ، فمن أين جاءك العلم بهذا ؟ ! هل لمست الروح بيديك ، أو شاهدتها بعينيك ؟ !

قال « دارون » صاحب نظرية النشوء والارتقاء : « يستحيل على العقل الرشيد ان تمر به ذرة من شك في ان العالم الفسيح بما فيه من الآيات البالغة ، والأنفس الناطقة المفكرة قد صدر عن مصادفة عمياء ؛ لأن المصادفة لا تخلق نظاماً ، ولا تبدع حكماً ، وذلك عندي أكبر دليل على وجود الله » .

ولكنه عند الكاتب أكبر دليل على عدم والوجود ، لأنه لا يمكن ان يتحقق منه بالتجربة كما يتحقق من وجود البرتقالات في الصندوق !

ومرة ثانية نقول : ليست التجربة هي السبيل الوحيد لمعرفة الحقيقة فان في الغيب حقائق لا تدخل في حساب ؛ وليس بينها وبين الحقائق الطبيعية أي تناقض أو تضاد ، بل هما متآزرتان تدعم احداهما الأخرى . فقد جاء في في الحديث ان الدين والحياء يتبعان العقل حيث كان ، كما قدمت العلوم الجديدة كثيراً من الشواهد على ان ما جاء في الاسلام عن الألوهية والوحي والبعث هي حقائق لا ريب فيها ، وقد قدمنا طرفاً منها في الكتاب الأول الذي خصصناه للألوهية ، وفي الكتاب الثاني الموضوع للوحي . وننقل فيما يلي بعض الشواهد والأرقام العلمية التي تتصل بالآخرة .

---

(١) قشور ولباب لزكي نجيب محمود ص ٢٠٧ طبعة ١٩٥٧ .

بقاء الروح :

أثبتت التجارب العلمية التي جرت في أمريكا وانكلترا وفرنسا ان الانسان مركب من جسم وروح . وانشيء في الجامعات فرع للبحوث الروحية تخصص بها العلماء حتى أصبحت علماً مستقلاً معترفاً به كسائر العلوم ، وابتدأت الدراسة الروحية في أمريكا سنة ١٩٣٧ ، وفي اكسفورد وانكلترا سنة ١٩٤٣ ، ثم تتابعت هذه الدراسات في بون وميونيخ وبرلين وقدم الدكتور هتنجر دراسة روحية عميقة لنيل الدكتوراه في جامعة كمبردج عنوانها « القوة فوق المدركة » وأثبت العلم الحديث في معامل الجامعات ان الروح بعد ان تغادر الجسد لها كيانها الأثيري . أما المؤلفات التي وضعت لهذه الغاية فكثيرة ، وكلها تجمع على ان الروح باقية . وأن الحياة متواصلة بعد الموت وصدق الله العظيم :

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ
ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴾
الفجر ٢٧ — ٢٨ .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ
عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾
آل عمران ١٦٩ .

يوم الآخرة كألف سنة :

جاء في الآية ٥ من سورة السجدة:

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى
الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ
مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾

وفي الآية ٤ من سورة المعارج :

﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾

والآيتان متنافيتان بحسب الظاهر ، لأن الأولى قدرت يوم الآخرة بألف ، والثانية بخمسين الفاً ولكن هناك سر علمي يدفع هذا التنافي . اذ قرر التاريخ الجيولوجي والفلكي ان الأرض بعد انفصالها عن الشمس كانت تدور حول نفسها بسرعة أكبر مما هي عليه الآن ، فكانت دورتها تتم مرة كل أربع ساعات ، أي ان مجموع الليل والنهار كان أربع ساعات فقط . وبتوالي النقص في سرعة دورانها حول نفسها ، زادت المدة التي تتم فيها دورانها هذا ، فزادت مدة الليل والنهار إلى خمس ساعات ثم ست حتى وصلت إلى اربع وعشرين ساعة التي هي عليها الآن . وهكذا يتوالى النقص ويطرد طول الليل والنهار ، ويأتي يوم مقداره ألف ، وآخر خمسون ألفاً إلى ان يصبح الوجه المقابل للشمس نهاراً دائماً والوجه الخلفي ليلاً دائماً .

هذا ، وان الحياة الثانية لا تقوم على هذا الكوكب الذي نعيش فيه . بل تبدل السماء غير السماء ، والأرض غير الأرض ؛ وبديهة ان اليوم يختلف طولاً وقصراً باختلاف الكواكب ، فيوم القمر وليلته ٢٧ يوماً من ايامنا (١) والله أعلم بأيام الكواكب الأخرى .

انشقاق القمر :

قال الله تعالى في سورة القمر :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾

---

(١) جريدة الاهرام تاريخ ٣١ – ١٠ – ١٩٥٩ .

ويقول العالم الفلكي سير جيمس جيمس في كتاب «النجوم في مسالكها»:
« سوف يقترب القمر من الأرض شيئاً فشيئاً حتى يصير في النهاية قريباً منها قرباً يحول بين القمر والسلامة. وحينئذ ينفذ فيه القضاء. ويتفتت ويتمزق».

وليس من شك ان انشقاق القمر وسقوطه يكون ايذاناً باختلال الجاذبية بين الكواكب، فتسوى الشمس إلى الأرض: أو إلى ما لا نعرفه ونتصوره. ويكون ذلك من أدلة قيام الساعة.

وفي جريدة «الأهرام» تاريخ ٣١ – ١٠ – ١٩٥٩ انه بعد ان التقطت صورة الوجه الخلفي من القمر تكهن - بعض العلماء بسقوطه إلى الأرض في المستقبل. وأذاعت الجهات العلمية في آخر عام ١٩٥٥ ان لجنة الطاقة الذرية قد أعلنت ان الدكتور ايرنست لورنس توصل إلى اكتشاف خطير؛ وهو وجود كهارب من جنس البروتون، ولكنها سالبة، وانها تكون طبقة حول الأرض في طبقات الجو العليا. وان وجود هذه الكهارب المغايرة للطبيعة أخطر ما يمكن أن يتصوره العقل البشري.

وعلى ذلك فلو تحطمت ذرة من ذرات عنصر هام يدخل في تركيب كثير من المواد بدلاً من اليورانيوم خطأ أو قصداً فسينتج عن ذلك غاز مشتعل ملتهب. وتصبح مياه البحار والمحيطات والأنهار ناراً متأججة بأقل من لمح البصر. وقد نطق القرآن الكريم بذلك:

﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ الطور ٧ – ٨.

وفي آية ثانية:

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾
التكوير ٦.

وفي ثالثة:

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾
الانفطار ٤.

وفي رابعة :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ . وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ . وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ . وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾
الانشقاق ١ – ٥ .

وقد أثبت العلم كل هذه الصور . وان التدمير سيكون في داخل الذرات في الأرض والسماوات [١] .

هذه بعض الشواهد العلمية التي تلقي ضوء على وجود الآخرة . وتثبت انها نفس الحقيقة التي نطق بها الوحي قبل مئات السنين . وليس من شك اننا سنظفر بالمزيد من هذه الأرقام كلما تقدم العلم .

لقد اهتم القرآن الكريم بقضية الدار الآخرة ، ليفهم كل انسان انه لن يترك سدى . وانه مسؤول ومحاسب على كل كبيرة وصغيرة . وان كل شيء يفنى إلا وجهه الكريم اهتم القرآن بهذا كي يتجه كل واحد منا اتجاهاً مستقيماً في سعيه وسلوكه في هذه الحياة . أما علامات الساعة فقد ذكرها القرآن الكريم للتنبيه والتذكير . كما هو شأن الوعاظ والمنذرين فمن خطبة للامام علي في هذا الباب قوله :

« حتى إذا بلغ الكتاب أجله . والأمر مقاديره ، والحق آخر الخلق بأوله . وجاء من أمر الله ما يريده من تجديد خلقه ، اماد السماء وفطرها : وأرج الأرض وأرجفها . وقلع الجبال ونسفها . ودك بعضها بعضاً من هيبة جلالته ومخوف سطوته » .

أجارنا الله من غضبه وسطوته . وشملنا بعفوه ورحمته .

(١) نقلنا أقوال العلماء الغربيين في هذا الباب عن كتاب الله والعلم الحديث . والقرآن والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل . ومن قرأ هذين الكتابين يحمد الله والمؤلف على ما فتحا له من أبواب العلم بنفسه ومعبره .

التناسخ

اختلف الناس في حقيقة النفس. وتعددت الأقوال حتى بلغت أربعة عشر قولاً [1].
أسخفها القول بأن نفس الانسان هي الله بالذات.
وأضعفها أنها الماء والهواء أو النار أو هذه العناصر مجتمعة. لأنه لا حياة مع فقد أحدها. وأشهر الأقوال قولان: الأول أنها جوهر مجرد عن المادة وعوارضها. أي ليست جسماً. ولا حالة في جسم، وانما تتصل به اتصال تدبير وتصرف. وبالموت ينقطع الاتصال. وعلى هذا الرأي جمهور الفلاسفة. والشيعة الامامية. والغزالي من الأشاعرة.

القول الثاني انها جوهر مادي. ذهب إليه جماعة المعتزلة وكثير من المتكلمين [2] وقال الحنبلية والكرامية وكثير من أهل الحديث: كل ما ليس جسماً. ولا يدرك باحدى الحواس فهو لا شيء [3].

واستدل القائلون بنفي المادة عن النفس بأنها تدرك وتفكر. والمادة لا تدرك ولا تفكر، فتكون مغايرة لها.

وأجابهم القائلون بثبوت المادة للنفس. بأن الجسم يحس ويدرك حرارة النار، وبرودة الثلج. وحلاوة العسل، وألم الضرب. وكذلك إذا قال القائل: أكلت ونمت وتزوجت وسافرت. فان هذه وما إليها من خواص الجسم وعليه يكون الجسم مدركاً مثل النفس.

(١) المجلد الرابع عشر من بحار الانوار المعروف بالسماء والعالم.
(٢) رسالة الباب المفتوح للشيخ علي بن يونس نقلها صاحب البحار في مجلد السماء والعالم.
(٣) المبدأ والمعاد لصدر المتألهين الشيرازي.

الجواب :

ان ادراك الحرارة والبرودة والألم من خواص النفس ، والجسم واسطة وآلة ، تماماً كأدوات البناء بالقياس إلى الباني ، والا لو كان الادراك والاحساس للجسم وحده لكان كل جسم يحس ويدرك حتى الحجر .

أما عدم فناء النفس وبقاؤها بعد الموت فقد أطال الفلاسفة في اقامة البراهين العقلية عليه . والحقيقة ان فناء الجسم لا يستدعي فناء النفس ولا بقاءها ، وان العقل لا يحكم بذلك سلباً ولا ايجاباً ، بل يتركه إلى الشرع . وقد أجمعت الأمة ، وتواترت السنة ، ونص القرآن الكريم على ان النفس باقية بعد فناء الجسم :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

آل عمران ١٦٩ .

وقد دانت طوائف من شعوب شتى ببقاء النفس بعد فناء الجسم ، وبتناسخها متنقلة من بدن إلى بدن ، بحيث يكون بينها وبين الثاني من العلاقة ما كان بينها وبين الأول . ومن عقيدة أهل التناسخ ان النفس إذا كانت مطيعة لله تعالى ، ومن ذوات الأعمال الطيبة والأخلاق الطاهرة انتقلت بعد موتها إلى ابدان السعداء وأهل الجاه والثراء ، وإذا كانت عاصية شقية انتقلت إلى أبدان الحيوانات ، وكلما كانت أكثر شقاوة اختير لها بدن أخس وأكثر تعباً .

وقال صدر المتألهين الشيرازي في كتاب « المبدأ والمعاد » إذا انتقلت النفس الانسانية إلى بدن انسان سمي ذلك نسخاً ، وإذا انتقلت إلى بدن حيوان كان مسخاً ، وإذا انتقلت إلى النبات فهو الفسخ ، أو إلى الجماد فهو الرسخ . ولا

حساب عند أهل التناسخ ، بل تنتقل النفس في هذه الحياة من كائن إلى كائن . وهكذا إلى ما لا نهاية . وغير بعيد ان مخترع هذه الفكرة كان رحالاً من عشاق الأسفار . ومهما يكن فقد استدلوا على التناسخ بما يلي :

١ — ان النفس لو لم تنتقل بعد فساد الجسم الأول إلى غيره لبقيت معطلة بلا عمل . لأن البدن بمنزلة الآلات والأدوات للنفس . وبدونه لا تستطيع القيام بأي عمل .

واجيبوا بأنه ثم ماذا ؟ ! وأي باطل يترتب على تركها للعمل ؟ ! وعلى افتراض انه لا بد لها من تدبير عمل فليس من الضروري أن يكون عملها بعد مفارقة البدن تماماً كعملها حين اتصالها به ، فربما كان من نوع آخر كالاشراق والابتهاج وما إلى ذلك مما لا يستدعي وجود البدن .

٢ — ان النفوس هي عبارة عن كمية محدودة العدد . لأنها موجودة بكاملها فعلاً وخارجاً لا تزيد ولا تنقص . أما الأجسام فلا نهاية لها . بل تتجدد وتتبدل على التوالي والتعاقب . وبذلك تكون الأبدان أكثر عدداً من النفوس : فإذا لم تنتقل النفس الواحدة بين أبدان عديدة لزم ان تبقى أبدان بلا نفوس : لأن توزيع الأقل على الأكثر بالتساوي محال .

والجواب ان هذه دعوى بلا دليل . وافتراض بدون أساس . ومن الذي قام بعملية الاحصاء : وثبت له بالتتبع والاستقراء أن النفوس أقل من الأجسام ؟ !

وعلى الرغم من أن أقوال أهل التناسخ كلها من هذا القبيل فقد استدل العقلاء على بطلان التناسخ بأمور :

١ — لو انتقلت النفس من البدن الأول إلى الثاني للزم أن يتذكر الانسان شيئاً من أحوال البدن الأول . لأن العلم والحفظ والتذكر من الصفات التي

لا تختلف باختلاف الأبدان والأحوال ، مع اننا لا نعرف شيئاً عما كان قبل وجودنا الحالي .

٢ ـ لو تعلقت النفس بعد مفارقة هذا البدن ببدن آخر للزم أن يكون عدد الوفيات بمقدار عدد المواليد دون زيادة أو نقصان ، لأنه إذا زادت المواليد بقيت أبدان بلا نفوس ، وهو باطل عند أهل التناسخ ، لأنه يستلزم تعطيل النفوس ، واما تعطيل الأبدان ، فانهم يمنعون من وجود المعطل في الطبيعة ؛ هذا بالاضافة إلى أن المواليد لا تتساوى أبداً مع الوفيات ، فأيام الحرب والجوع والأمراض والطوفان والزلازل تزيد الوفيات . وأيام السلم والرخاء تزيد المواليد .

٣ ـ ان النفس لا تتصل بالبدن إلا بعد أن يكون له الصلاحية والاستعداد التام لقبولها. فالجماد والنبات والحيوانات غير صالحة لتقبل النفس الانسانية وكذا بدن عمرو لا يصلح بحال لأن يتقبل نفس زيد ، لانه منذ تكوينه في بطن أمه تتصل به نفسه المختصة به، ولا تنفك عنه بحال ، وإلا لزم تخلف المعلول عن علته . وبعد ان تتصل به نفسه الخاصة لا يمكن أن تنتقل إليه نفس أخرى . إذا لا تجتمع نفسان في بدن واحد ، كما لا يشترك بدنان في نفس واحدة .

وبالتالي . فلا أحد منا يشعر بأن له نفسين مختلفين تتصرفان بشؤونه وبدنه . وانما الذي يحسه ويشعر به أن له ذاتاً وحدة لا غير ، وأنه لا يعلم شيئاً عما كان قبل حياته هذه ، كما أنه لا يجد ولن يجد شخصاً يماثله في جميع صفاته النفسية . ومن هذا يتبين ان التناسخ وهم وهراء .

الله كريم

إن مبدأ النقص في الانسان – أي انسان غير معصوم – وعلى الأصح مبدأ أهلية الانسان وقابليته للنقص، ان هذا المبدأ لا ينقض بحال ، فالانسان أبداً ودائماً عرضة للخطأ في القول والعمل ما دام لا يعلم الغيب ، وما دامت أفكاره وبواعثه تتجمع من هنا وهناك، وهو دائماً وأبداً عرضة للوقوع في الخطيئة ما دامت فيه غريزة الرضى والغضب ، وعاطفة الحب والبغض ، وشهوة الطعام والجنس .

ومن هنا كان كمال الانسان نسبياً ، فمن يشعر بأن افكاره وآراءه تصورات يحسبها هو انعكاساً عن الواقع ، وانها تخطىء وتصيب فهو كامل بالقياس إلى من يراها عين الواقع .

ان العاقل اللبيب يبحث عن الحقيقة ، ويبذل قصارى جهده للوصول إليها . فان رأى انه قد بلغها مضى على رأيه ، وعمل به حتى يتبين له خير منه . ومن قال : هذا رأيي وكفى ، وهو الحق ولا شيء سواه فهو أبعد الناس عن المعرفة ، لأن أساس العلم أن يتهم الانسان نفسه ويحتمل الخطأ في أفكاره كما يحتمل فيها الصواب .

وكذلك المؤمنون بالدار الآخرة يفعلون ما يؤمرون . وهم يرجون رضى الله وثوابه ، لأنهم عملوا له باخلاص وفي نفس الوقت يخافون من غضبه وعقابه خشية التقصير والتفريط ، وهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون

وهم النار كمن قد رآها فهم فيها معذبون . كما وصفهم الإمام علي بن أبي طالب .

وترى هذا الوصف مجسماً في أقوالهم وشعورهم . وهم يناجون خالق الكائنات . ويتضرعون إليه طلباً للعفو والمغفرة . وانك لتحس . وانت تقرأ تلك المناجاة انهم قد تجردوا عن الشهوات . ومحوا من أنفسهم جميع الأهواء والغايات . وقد تراني أيها القارىء مغالياً في قولي هذا . لأنك ترى مع من يرى ان الانسان مهما سمي بأخلاقه فانه لا يرتقي إلى ما فوق الظروف والبيئات ولكن بماذا تفسر هذه الذروة في كلام الإمام زين العابدين . وهو يناجي ربه الكريم بقوله :

« إلهي لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيتك جاحد . ولا بأمرك مستخف ولا لعقوبتك متعرض . ولا بوعيدك متهاون . ولكن خطيئة عرضت . وسولت لي نفسي . وغلبني هواي . وأعانني عليها شقوتي . . فالآن من عذابك من يستنقذني ؟ ! وبحبل من أتصل . ان انت قطعت حبلك عني ؟ ! ولولا ما أرجو من كرمك وسعة رحمتك اياي عن القنوط لقنطت . . فهب لي من لدنك رحمة . انك انت الوهاب . فبعزتك لو انتهرتني ما برحت من بابك . ولا كففت عن تملقك . . إلى من يذهب العبد الا إلى مولاه ؟! وإلى من يلتجيء المخلوق الا الى خالقه ؟ ! » .

ونتساءل : هل انتقل هذا الشعور إلى الإمام بالعدوى ؟ أو اكتسبه من البيئة . وقد عاش في عصر الأمويين . عصر الظلم والفساد . وقديماً قيل : الناس على دين ملوكهم ؟ كلا . لا سبب لهذا اليقين إلا المعرفة بقدر الله وعظمته . وإلا النظر العميق يخترق الحجب والظواهر . ويدرك الحقائق التي تطمئن إليها النفس . ويقرها العقل .

لقد تاقت نفس الإمام إلى الخير . لأنها جبلت من الخير . وأتاه اليقين ؛ لأنه جرى مع فطرة الله التي فطر الناس عليها . وتمرد على كل ما اعترضه من عوامل البيئة والظروف التي تعمي البصائر ، وتفسد الضمائر .

وقال :

« اللهم اني أستوهبك ما لا ينقصك بذله . واستحملك ما لا يبهظك حمله . استوهبك يا إلهي نفسي التي لم تخلقها لتمتنع بها من سوء ، أو لتتطرق بها إلى نفع . . . ان تفعل ذلك تفعله بمن خوفه منك أكثر من طمعه فيك . وبمن يأسه من النجاة أوكد من رجائه للخلاص . لا أن يكون يأسه قنوطاً . أو يكون طمعه اغتراراً . بل لقلة حسناته بين سيئاته . وضعف حجته في جميع تبعاته » .

وليس هذا اعترافاً بالذنب . وانما هو ضرب من عبادة العارفين ، ونوع من انكار الذات . ومظهر من مظاهر السيطرة على الأهواء والشهوات . وأسلوب فريد في الارشاد والرجوع إلى الله سبحانه . والخوف من حسابه وعقابه . وحجة بالغة على من يصر على الخطيئة والجهل والضلالة . فمن الناس من يسهل عليه كل شيء إلا الاعتراف بالخطيئة ، فشجعه الإمام على الإقرار بالذنب وطلب التوبة . وضرب له مثلاً من نفسه . ليفهمه بأن الاعتراف بالذنب والاقلاع عنه كفارة له ، والإصرار عليه جرم لا يغتفر .

أما قول الإمام استوهبك يا إلهي نفسي التي لم تخلقها لتدفع عنها ضرراً . أو تجلب لها نفعاً ، أما هذا النوع من المنطق فسنعلق عليه بعد ان ننقل الكلمات التالية :

« إلهي وسيدي ، وعزتك وجلالك لئن طالبتني بذنوبي طالبتك بعفوك ولئن طالبتني بلؤمي لأطالبنك بكرمك . ولئن أدخلتني النار لاخبرن أهلها بحبي لك . . . إلهي وسيدي ان كنت لا تغفر إلا لأوليائك وأهل طاعتك ، فالى من يفزع المذنبون ! وان كنت لا تكرم الا أهل الوفاء بك . فبمن يستغيث المسيئون . . . اللهم انك أنزلت في كتابك العفو ، وأمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا . وقد ظلمنا أنفسنا ، فاعف عنا ، فإنك أولى بذلك منا ، وأمرتنا أن لا نرد سائلاً عن أبوابنا ، وقد جئتك سائلاً فلا تردني إلا بقضاء حاجتي ، وأمرتنا بالإحسان إلى من ملكت ايماننا . ونحن ارقاؤك ، فاعتق رقابنا من النار » .

قد يرى البعض هذه الأقوال شكراً او استعطافاً . أو تنبيهاً للغافلين . أما أنا فأراها احتجاجاً بكل ما فيه من معنى . ودفاعاً « حسب الاصول المرعية » وليس في قولي هذا جرأة على الله سبحانه ، وتهجم على عظمته . فقد جاء في الذكر الحكيم:

﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ ﴾ النساء ١٦٦

وبديهة ان نفي الحجة يستلزم امكان ثبوتها ، فإذا قلت : لم أسافر فمعناه أن السفر مقدور لك . ولكنك لم تفعله .

هذا . وان الله عادل حكيم ، والعادل لا يعاقب حتى يحاكم ، ولا يحاكم حتى يؤمن المتهم . ويزيل عن نفسه الخوف على حقه في الدفاع ، ومهما كان يوم القيامة رهيباً وعجيباً . وكان الحساب دقيقاً وعسيراً فكل نفس تطمئن إلى حكم الله وعدله ، وتعلم علم اليقين انها لا تظلم شيئاً فإذا جزعت وخافت فانما تخاف من ذنوبها وسيئاتها .

ولكن هذه السيئات لا تسلب صاحبها حق الدفاع عن النفس . فان المذنب والبريء فيه سواء . وعلى الحاكم أن يفسح المجال للاثنين دون تفاضل . حتى ولو ظهرت قرائن الاقتناع ودلائل الادانة ؛ بل ان المذنب أولى من البريء في هذا الحق . فان له بعد ثبوت الجرم عليه أن يدلي بأسباب العفو عنه . أو التخفيف من العقوبة . بخاصة إذا وجد السبيل إلى ذاك . ولا شيء أكثر من السبل إلى مغفرة الله ورحمته . ومنها الاعتراف بالتقصير وطلب العفو والرضوان .

لقد كتب الله على نفسه الرحمة ، وخاطب عباده بقوله :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ الزمر ٥٤ .

إذن يحق لكل من يحاكم بين يديه أن يطلب العفو والرحمة ؛ ويحتج بتفضله واحسانه وعدم افتقاره إلى شيء . واستمع إلى منطق الإمام الصارم الحازم :

« اللهم اني امرؤ حقير ، وخطير يسير ؛ وليس عذابي مما يزيد في ملكك مثقال ذرة . ولو ان عذابي مما يزيد في ملكك اسألتك الصبر عليه . وأحببت أن يكون ذلك لك ؛ ولكن سلطانك أعظم . وملكك أدوم من ان تزيده طاعة المطيعين ؛ أو تنقص منه معصية المذنبين » .

وهذه حقيقة صافية نقية ، ودستور إلهي لا تحول دون تطبيقه القوى مجتمعة . وبواقع الحال لا يطبق هذا الدستور الا على من دان به وآمن بالله وثوابه وعقابه ، أما الجاحد فقد قطع الطريق على نفسه ؛ واختار لها سوء المصير

والتكذيب واعلان الحرب على الله . ولم يدع لها حجة تستند إليها ، وعذراً تعتذر به .

أجل ، ان الله كتب الرحمة على نفسه ، ولكن لمن آمن بها وأيقن ، وهو يغفر الذنوب ، ولكن للمؤمن ، لأن ذنبه لا يخرجه عن الإيمان ، فله أن يتذرع بايمانه ، وأن يسأل الله العفو ، ولا يقطع الرجاء حتى ولو رأى العذاب وجهاً لوجه . كما أسلفنا من قول الإمام : « لئن أدخلتني النار لأخبرن أهلها بحبي لك » . وبماذا يتذرع الجاحد بعد يأسه وقوله : لا رب ولا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار . ان هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ؟ !

قد يكون الذي يستمع إلى مناجاة الإمام عالماً أو فيلسوفاً أو أديباً أو مؤرخاً وقد يكون جاهلاً ، وقد لا يؤمن بشيء . ومهما يكن فانه يشعر في قرارة نفسه بالرهبة والجلال لهذا المنطق ، لأنه يعبر عن واقع لا ريب فيه ، ويفرض نفسه على كل انسان من حيث يشعر أو لا يشعر :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ﴾ النمل ١٤ .

وهذا ما أراده الإمام من مناجاته ، أراد أن يعود بالنفوس إلى فطرتها ، ويحييها بالأمل والشجاعة ، ويحملها على اليقين بأن سبيل الأمان والنجاة هو الإيمان بالله ، وان أبواب الرجاء والخلاص مفتوحة أمام المؤمن وان كثرت ذنوبه وتنوعت ، وانه لا نجاة ولا أمان لجاحد في كل حال ، لأن الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

قرر الإمام هذه الحقيقة بكل هدوء وبأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ، ويزيل منها الشكوك بمنطق تدهش العقول لبساطته ، ولكنه أقوى تأثيراً من جميع الوسائل والأقيسة التي يتذرع بها العلماء والفلاسفة . وهنا سر الاعجاز .

ومن الخير ان ننقل بهذه المناسبة الحديث التالي :

لما نزلت هذه الآية : من جاء بالحسنى فله خير منها . قال رسول الله : ربي زدني . فنزل من جاء بالحسنى فله عشرة أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها . فقال الرسول : زدني . فنزل يضاعف له أضعافاً كثيرة . والكثير عند الله لا يدخل في حساب .

ومن أحكام الفطرة انه إذا كان لديك دين على غيرك فأنت مخير بين أن تعفو عنه ، أو تأخذه دون زيادة . أما إذا كان الدين عليك فان شئت رددته كما هو عدلاً وانصافاً ، أو زدت تفضلاً واحساناً . جاء في الحديث ان اعرابياً سأل النبي : من يتولى حساب الخلق غداً ؟ قال : الله . فقال الأعرابي هو بنفسه . قال : نعم . فضحك الأعرابي فسأله النبي عن السبب . فقال : ان الكريم إذا قدر عفا ، وان حاسب سامح في الحساب ولا يناقش .

ولسائل أن يسأل : لو ان انساناً عمل للصالح العام ، فشق طريقاً ، أو بنى مدرسة ، أو مستشفى ، وهو لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، فهل يثاب على عمله هذا ، ويعد عند الله من الطيبين الأخيار ؟

والجواب : ان الفعل الحسن مطلوب لذاته لا يغيره القصد عن حقيقته ، ولا لون الفاعل عما هو عليه ، فانتشار العلم ، وتطبيب المرضى ، وتيسير المواصلات كل ذلك وما إليه محبوب عندالله سبحانه سواء أحصل من متدين أو جاحد . ولكن الذي لا يعترف بوجود الله ، ولا يعمل انقياداً لدعوته ليس له أن يطلب منه الأجر والجزاء ما دام لم يقصد وجهه الكريم ، كما انه لا يجب عليه سبحانه أن يثيب من لا يشعر بقوته وجلاله ، وهل تقدر أنت من لا يراك شيئاً كائناً من كان ؟ !

ان هذا الرجل الذي فعل الخير لوجه لا لشهرة ولا للدعاية إلى نفسه لا شك انه انساني يستأهل الحمد والثناء من الناس على مقاصده النبيلة ، وعمله من أجل الانسان . ولكن الفرق بعيد جداً بين من يعمل لخير الناس ، وهو مؤمن بأنه فرض أوجبه عليه مبدأ أسمى ، وانه مسؤول عن العمل لا يجوز له تركه بحال ، وبين من يفعله وهو لا يرى نفسه ملزماً بشيء أو مسؤولاً عن شيء .

ان الثواب من الله لا يجب إلا مع قصد الطاعة له المقارن للتعظيم والاجلال. هذا إلى ان الله سبحانه لا يقبل إلا من المتقين الذين يؤمنون به وبلقائه في يوم الدين وبهذا نطق القرآن الكريم :

﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الزمّر ٦٦ .

﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ البقرة ٢١٨ .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ الكهف ١٠٦ .

أي لا قيمة لهم عندنا ولا كرامة ، ولا نعتمد بهم ولا بأعمالهم ، لأنهم أوقعوها على غير الوجه الذي يستحقون عليه الأجر والثواب .

ومهما يكن ، فان كلاً من الايمان وعمل الخير جزء متمم للثاني لا يغني أحدهما عن الآخر . وبهذا صرحت الآية ٩٨ من سورة النحل :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى، وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

إذن الايمان بالله شرط أساسي لجزائه وثوابه .

إن من يؤمن بالله واليوم الآخر يقابل غداً بين حسناته وسيئاته وينظر أيتها أكثر . فان كانت الاساءة كان كمن لم يحسن . وان كان الاحسان كمن لم يسيء . إذ الأكثر ينفي الأقل . وان تساويا كان كمن لم يصدر عنه شيء ، هذا فيما يعود إلى حق الله فقط . أما حق الناس كالزنى والسرقة والعدوان فالعقاب مستحق على كل حال . ولا تقارن وتوازن بين ما قل وكثر . أما الجاحد . أما من لا يؤمن بالله ولقاء ربه فلا يعد مطيعاً وعاصياً في آن واحد ، بل هو عاص فحسب . لأن الجحود سيئة لا تقبل معها حسنة . وليس بعد الشرك الا العذاب .

قيل لأحد العلماء : هل يدخل النار أحد بدون حساب ؟ قال : نعم قيل وهل من العدل ان يعاقب الله دون ان يحاسب ؟ قال : من لم يعمل حسنة واحدة في حياته كلها ، وكانت جميع أعماله سيئات لا يحتاج إلى حساب .

من كان في هذه أعمى

من الأوهام ان فكرة الآخرة تعارض وتقاوم التطور والتقدم . لأن المؤمنين بها يهتمون بخلاصهم في العالم الثاني أكثر من اهتمامهم في هذه الحياة . لا فرق عندهم بين أن يظلوا في الوضع الذي هم عليه أو ينتقلوا منه إلى أسوأ أو أحسن . ولذا تراهم يسمحون للانتهازيين باستثمارهم واستغلال أوطانهم .

وليس من شك بأن هذا صحيح بالقياس إلى دين يعارض الاصلاح . ويأمر اتباعه بالبعد عن واقع الحياة وأشيائها : أما الدين الذي يثق بالانسان وعظمته ، ويحثه على العلم والعمل حتى لا يفوته شيء من مقدسات الحياة ، وحتى يستغل كل ما في هذا الكون لمنفعة العالم ، أما العقيدة التي يقول كتابها المقدس :

﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ الاسراء ٧٢ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ

اللهِ بِأمْوَالِكُمْ وَأنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ
خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »

الصف ١٠ — ١٢ .

ويقول قادتها : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً . . أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة . . الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه . خير الناس أنفع الناس للناس . أما فكرة الآخرة في هذا الدين وهذه العقيدة فهي غاية مثالية تدفع بصاحبها إلى التقدم والعمل في سبيل الحياة ، وحافز اجتماعي يحثه على الجهاد والتضحية من أجل أمته وبلاده .

ولا شيء أدل على هذه الحقيقة مما جاء في الكتاب والحديث عن أوصاف أهل الجنة والنار . فمن الكتاب :

﴿ يَوْمٌ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ
إلاَّ مَنْ أتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

الشعراء ٨٩ — ٩٠ .

﴿ الّذِينَ اتّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً
وَلَعِباً وَغَرّتْهُمُ الحَيَاةُ الدّنْيَا
فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ ﴾ الاعراف ٥٢ .

﴿ وَأدْخِلَ الّذِينَ آمَنوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الأنْهَارُ ﴾ ابراهيم ٢٤ .

﴿ إنَّ الأبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ، وَإنَّ
الفُجّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾

الانفطار ١٤ — ١٥ .

﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ الصف ٤ .

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إلاَّ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾
يونس ٥٧ .

﴿ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ المائدة ١٢٠ .

ومن الحديث :

« من سلك طريقاً إلى العلم سلك به طريقاً إلى الجنة »

« من كتم علماً جاء يوم القيامة بلجام من نار »

« من لقي الناس بوجهين ولسانين جاء يوم القيامة . وله لسان من قفاه ، وآخر من قدامه يلتهبان ناراً »

« يحشر المتكبر على هيئة الذر يطأه الناس بأقدامهم »

« من خاف الناس من لسانه فهو من أهل النار »

« ان في الجنة غرفاً يسكنها من أطاب الكلام وأنعم الطعام وآفشى السلام »

وما إلى ذلك مما لا يتسع له المجال . اذن فطريق الجنة هو العلم والعمل النافع ، واتباع الحق والصدق . وافشاء السلام والأمن والأمان . وطريق النار هو الظلم والفساد ، وكتمان العلم والكذب والنميمة وما إلى ذلك .

وأجمع كلمة وأبلغها قول الله عز وجل :

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ الاسراء .

وقد يتساءل : إذا كانت الجنة تدرك بالعمل للعمران والسعادة في هذه الحياة فماذا نفسر ما جاء في القرآن والحديث من ذم الدنيا وأهلها . والحث على الاعراض عنها . وزهد الأنبياء فيها ؟ !

الجواب :

لقد خلط الناس لزمن طويل بل حتى الآن بين حب المال وجمعه كغاية . وبين حب الحياة . وظنوا ان الاثنين شيء واحد . أو انهما متساويين لا يفترقان . ومنشأ هذا الخلط والوهم ما جاء في الكتاب العزيز :

﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ﴾ آل عمران ١٨٦ .

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ الاعلى ١٧ — ١٨ .

وفي الحديث : « الدنيا والآخرة ضرتان لا تجتمعان » . وما إلى ذلك مما أكد هذا المعنى تصريحاً أو تلويحاً .

ولكن مع النظر الفاحص يتبين لنا ان أحدهما غير الآخر . اذ المراد بالدنيا المذمومة تأليه المال والتكالب عليه . وبالآخرة الحق والعدل . ولا ريب

أن الحق والباطل ضدان لا يجتمعان ، أما طلب المال للعيش وسدّ الخلة فهو من أفضل الطاعات بحكم العقل والشرع . ويدل عليه قوله تعالى :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ القصص ٧٨ .

﴿ لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ﴾ المائدة ٨٨ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ ﴾ الحج ٦٦ .

وفي الحديث « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه . المؤمن القوي خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف » .

ان الانسان مهما تجرد وعف ، وسمى بروحانيته فلا يمكنه بحال ان يدع التفكير في عيشه وطعامه وشرابه ، فقد يهون عليه ان يكبح شهوته الجنسية ، ويهون عليه أن يترك الكثير مما اعتاد وألف ، ولكنه لا يستطيع ان لا يفكر في الغذاء ما دامت معدته تطلب ذلك . وعلى هذا لا يكون العمل في نطاق العيش وسد الحاجة ضرباً من الآنانية والمنافع الخاصة، وانما هو عمل انساني ونضال من أجل الحياة العامة والمصلحة الاجتماعية ، فمن عمل لصيانة نفسه وحفظ حياته فقد عمل لصالح الجماعة التي هو فرد منها ، وناضل في سبيل مثل إنساني نبيل . أما إذا عمل للتفاخر والتكاثر بالمال ، وايثاراً للراحة وحب الشهوات . فقد عمل لمآربه الشخصية .

قال الرسول الأعظم : « من طلب الدنيا مكاثراً مفاخراً لقي الله . وهو عليه غضبان . ومن طلبها استعفافاً وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر » لأن عمل الثاني اتخذ شكلاً انسانياً . بعكس الأول الذي تمثل في عمله الطمع والجشع .

قال بعض العلماء : كل ما تدعو إليه الحاجة [1] من المأكل والملبس والمسكن فهو لله ، وما زاد عنها ، وصرف للتنعم والترف فهو لغير الله . اذن معاش الانسان في حياته هذه حق من حقوق الله . ولذا أولاها الأنبياء العناية والاهتمام ، وأعلنوا حرباً شعواء على الذين يجمعون المال كغاية قصوى لجهودهم ، ولا يرون الخير والجمال والحق الا بجمعه واحتكاره . فمن آيات القرآن المنزل على محمد :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾
البقرة ٨٧ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ آل عمران ١١٧ .

(١) الحاجة وسط بين الضرورة والترف ، فالضرورة ما تبقي على الأنفاس ، كأكل الخبز بلا أدام ، والترف أن يكون لديك ما لذ وطاب ، وسد الحاجة أن يتوافر لك كل ما تستدعيه الحياة دون زيادة أو نقصان .

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ التوبة ٣٥ – ٣٦.

وفي الحديث : « رأس كل خطيئة حب الدنيا .. مثل الحريص على الدنيا كمثل دودة القز كلما ازدادت على نفسها لفاً كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غماً » وقال عيسى روح الله[1] : « الرب مسحني لأبشر المساكين وأرسلني لأشفي منكسري القلوب ، وأنادي للمأسورين بالانطلاق ، وللعمي بالبصر ، وللمستحقين بالحرية » .

ومن هذه الآيات والأحاديث يتبين لنا ان زهد الانبياء لم يكن من أجل الفقر والعوز ، ولا تحقيراً للملذات ، وتحريماً للطيبات ، ولا من أجل ترويض النفس وتمرينها على المشاق والأثقال ، ولا لأن الزهد عقيدة دينية ومن القيم الروحية ، كما يظن كثيرون ، وإنما هو احتجاج صارخ على المستغلين ، وثورة على من قسم الناس إلى مئات ، وعلى من ظن ان الفقر خساسة وانحطاط ،

(١) معنى روح الله رحمته تعالى أي أن عيسى أرسله الله رحمة للناس كالمطر ، فهو شبيه محمد الذي قال سبحانه عنه « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وقد استعمل القرآن الكريم لفظة الروح بهذا المعنى في الآية ١٢ من سورة المجادلة : « وأيدهم بروح منه » أي برحمة منه .

والثروة شرف وكرامات (١) . وهو دليل أيضاً على ان الانبياء يحيون ما يقولون ويقولون ما يحيون . وهو درس كذلك أعطاه الأنبياء للمستضعفين بأن لا ييأسوا ولا يقنطوا مهما تكن الظروف والأحوال . وبأن الفقر والجوع لا يعوق عن النضال والكفاح . وان السلاح الأكبر هو الحق . فما دمت تطلب بحقك فانك قوي ، وان كنت جائعاً معدماً . وإذا ناصرت الباطل فانك ضعيف . وان تمت لك العدة والعدد .

لقد قاوم الأنبياء المستغلين . وهم عزل من المال والسلاح . ليحركوا في نفوس المضطهدين ، إرادة التحدي لكل معتد أثيم . ولا يتنازلوا له عن شيء من حقهم . وان امتلأت بهم السجون ، وارتفعت أجسامهم على أعواد المشانق .

ان زهد الانبياء والصلحاء كان لحساب الانسان . ومن أجل حقوقه وكرامته . انهم يعلمون ان هذا الرغيف وهذا القميص عما عرق الكادحين ودماؤهم ، فكيف يشبعون من الطعام . ولعل الذي زرعه وحصده جائعاً ! وكيف يلبسون فاخر الثياب . وربما الذي حاكها عريان ! قال الإمام علي بن أبي طالب : « لو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل . ولباب هذا القمح ، ونسائج هذا القز ، ولكن هيهات ان يغلبني هواي ، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة ، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص

(١) قيل : ان ثرياً تاه وافتخر على فقير ، فقال له : ان افتخرت بفرسك فالحسن للفرس لا لك ، وان افتخرت بثيابك فالحسن لها دونك ، وان افتخرت بآبائك فالفضل فيهم لا فيك وان افتخرت بمنصبك فالشرف منه لا منك ، فكل المحاسن خارجة عنك ، وأنت منسلخ عنها ، وقد رددناها على أصحابها ، وبقيت صفر اليدين . .

ولا عهد له بالشبع ، أأبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى ، وأكباد حرى ؟ ! أو أكون كما قال الشاعر :

وحسبك داء ان تبيت ببطنة   وحولك أكباد تحن إلى القد

ان التكالب على المال يفقد الشخص انسانيته ، ويزيل من نفسه كل شعور بالواجب ، أي واجب ، فلقد رأينا كيف تعاون أرباب المصانع والمكاسب مع المستعمرين ضد أوطانهم ! وكيف استقبلوهم بأقواس النصر وأكاليل الزهر كأنهم محررون منقذون ! وكيف يتاجرون بالعواطف الدينية ولا يعبدون الله الا على حرف . ومن هنا كان موقف الأنبياء معهم تماماً كموقفهم مع الجاحدين والمشركين .

وبالتالي ، نعيد القول مرة ثانية ان طريق الجنة هو العلم النافع والعمل البنّاء ، ويكفي شاهداً على هذه الحقيقة قول الإمام علي لمن ذم الدنيا :

« الدنيا منزل صدق لمن صدقها ، ومسكن عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، فيها أنبياء الله ، ومهبط وحيه ، ومصلى ملائكته ، ومسكن أحبابه ، ومتجر أوليائه ، اكتسبوا فيها الرحمة ، وربحوا منها الجنة . فمن ذا يذم الدنيا ؟ ! » .

ان فكرة الآخرة تنهى عن الظلم والاحتكار ، واستغلال الانسان للانسان وتبعث على العمل والتضحية لخير الناس والصالح العام ، وهذا ما أراده الإمام بقوله : « متجر أوليائه ، اكتسبوا فيها الرحمة ، وربحوا منها الجنة » .

الدين والضمير [1] تسيطر على عقول أبنائنا فكرة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، وهي ان الدين صلاح الضمير وكفى ، أي لا تسرق لا تكذب ولا تعتد على أحد . أما الصوم والصلاة، اما تمجيد الحق والخضوع لله فمراسم وأشكال لا داعي إليها ! .

وقد وضع محمود الشرقاوي كتاباً أسماه « الدين والضمير » لهذه الغاية . نتقل منه بعض الفقرات ليتبين للقراء أنه لا هدف لأرباب هذه الدعوة الا انتشار الفوضى والفساد ، والقضاء على الدين والأخلاق .

قال في ص ٧٦ : « هذه الآية الكريمة »:

﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ البقرة ٢٢٣ .

تقرر ان الله يحب الذي يتكرر منه الذنب والخطيئة ، ثم تتكرر منه التوبة . وقال في ص ٧٧ : « ثم نجد ذلك الحديث الذي يحتوي دلالة ليس بعدها دلالة ، وهو حديث قدسي يتلخص في ان عبداً أذنب فاستغفر الله ، فغفر له ثم عاد . فاستغفر ، فغفر الله له ، تكرر ذلك منه مرة بعد مرة . فقال الله له : اعمل ما شئت لقد غفرت لك » .

(١) اقتطفنا هذه الفقرات مما كتبناه حول كتاب (الدين والضمير) لأن المقام لا يتسع لأكثر منها .

وقال أيضاً في ص ١٠٠ : « جاء في الحديث أن من مات على التوحيد لم يشرك بالله غيره دخل الجنة ، وان زنى وسرق » . وقال في ص ١٠٤ : « روى أبو هريرة عن رسول الله أنه قال: والذي نفس محمد بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم . . . ولعلنا نوشك أن نقول : ان هذا الحديث لا يهون الذنوب فقط . بل كأنه يحض ويحرض . وهو واضح في جعل الخطيئة والتوبة من مبررات الحياة الانسانية ، ومن أسباب ابقاء الله عليها » .

ثم تتلاحق أقوال المؤلف في هذا الباب حتى ينتهي إلى ص ١١٨ فيقول ما نصه بالحرف الواحد :

« ونحن عندما نجعل المقاييس هذه أساساً لفهم العقيدة وتقدير الخلق ، نقتحم ميداناً جديداً من ميادين الادراك السليم لتاريخنا العربي والاسلامي ، ونضع قواعد قد تكون صارمة قاسية ، ولكنها صحيحة ، مستنيرة ، واعية مجردة من التأثير والعواطف والانقياد ، وهي في نفس الوقت مفيدة إلى أبعد غاية في تربية نفوسنا ، كما هي مفيدة إلى أبعد غاية أيضاً في فهم تاريخنا فهماً سليماً » .

ولا نريد ان نطيل الكلام مع صاحب هذا القول ، بل نوجه إليه الأسئلة التالية :

أولاً — انك دعوت إلى تقويم الأخلاق والعمل الصالح ، وقلت : انه الغاية الأولى والأخيرة من وجود الأديان . فهل الزنى والسرقة ، وتكرار الذنب والخطيئة من الأخلاق الكريمة والأعمال الصالحات ؟ ! ثم إذا اتخذنا من حب الله للجريمة وتكرارها ، وتحريضه على دوامها والابقاء عليها أساساً لفهم العقيدة وتقدير الأخلاق فهل تكون عقيدتنا ، والحال هذه صحيحة

مستنيرة . واعية مجردة . وتكون أخلاقنا قوية كريمة ؟ وتاريخنا العربي والاسلامي سليماً مفيداً إلى ابعد الغايات ؟ !

ثانياً — إذا كانت الغاية من التوبة هي تكرار الذنوب ودوامها والابقاء عليها . لأنها من مبررات الحياة الانسانية فلماذا لم يأمر الله بها . ويحرض عليها بدون التوبة ما دامت الجريمة محبوبة ومطلوبة بذاتها عند الله ؟ ! لماذا التوبة والضحك على الذقون ؟ !

والحقيقة ان الله سبحانه قد قبل من التائب بقلب طاهر نقي . كي لا يقنط . فيستزيد من الذنب . ويقول أنا الغريق فلا أخشى من البلل . فالغاية اذن من التوبة استصلاح الفاسد لا المزيد من الفساد . والحد من الذنب لا تكراره والابقاء عليه .

ثالثاً — لماذا أخذت أيها المؤلف بالحديث الذي أباح الزنى والسرقة . وتجاهلت قول الله سبحانه :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ النور ٣ .

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ ﴾ المائدة ٣٩ .

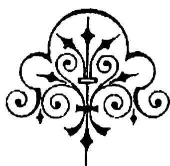
كيف تشبثت بهذا الحديث الضعيف الذي لا نشك بأن واضعه من كبار الزناة واللصوص ، وأعرضت عن قول الله تعالى ، مع ان المذاهب الاسلامية بكاملها لا تقبل حديثاً يخالف صريح القرآن (١) ؟ ! .

أما حديث أبي هريرة ، من ان الناس إذا لم يقطعوا ما أمر الله به ان يوصل ويفسدوا في الأرض يستبدل قوماً غيرهم يسفكون الدماء ويزنون ويسرقون ، أما هذا الحديث فانه يعطي مهمة الشيطان للانبياء ، ومهمة الأنبياء للشيطان ، فيحمل هو راية الهدى والحق ويبسط العدل ، ويقيم الحدود ، أما الانبياء فيفرقون بين المرء وزوجه ويلقون بين الناس العداوة والبغضاء ، ويصدونهم عن ذكر الله وعن الصلاة .

هذا هو كتاب الشرقاوي « الدين والضمير » . وهذي هي طهارة النفس وتزكية الضمير عنده ، وبهذا المنطق يحاول اقناعنا بأن الصلاة والصيام وهم ، وإذا دل هذا التهافت والتناقض على شيء فانما يدل على واحد من اثنين لا ثالث لهما : اما انه ليس للمؤلف هدف معين ، ولا خطة مرسومة . واما ان تكون غايته هدم الدين والأخلاق وانتشار الفساد والفوضى ، ولكنه لم يجرؤ على اعلانها والجهر بها ، فتستر باسم تربية الضمير ، وعمل على هدم في الخفاء .

(١) من أغرب ما قرأت ان مستشرقاً يدعى « لامانس » يرى أن كل ما يوافق القرآن فهو دس وافتراء على الرسول ! . . مع أن المسلمين كافة يعكسون القول ويرون الحديث شارحاً ومفسراً للقرآن الكريم .

إمامة علي «ع»
بين
القرآن والعقل





اكثرهم للحق كارهون

لا إمام سوى الحق :

كلنا يقول : « لا إمام سوى الحق » . ولكن الكثرة الغالبة تقول هذا ، وفي الوقت نفسه ترفض الحق ، ولا تعمل به ! . .

وإليك هذا المثال : ان الحق يقول أنت مسؤول عن خطئك قبل ان تكون مسؤولاً عن خطأ غيرك . وأيضاً يقول الحق : كل خطأ يجوز على غيرك فإنه يجوز عليك من غير تفاوت . . لأن الخطأ قد ينشأ عن هوى في النفس ، أو يكون أثراً من آثار البيئة والتربية ، أو نتيجة لبحث ناقص . . وكل هذا ، وما إليه جائز عليك ، تماماً كما هو جائز على غيرك . . ولست في عصمة من الخطأ دون سواك .

فإذا نظرت إلى نفسك على انك مصيب ومحق مئة بالمئة ، وغيرك مخطيء مبطل مئة بالمئة دون ان تنظر إلى ادلته ، وتبحثها بحثاً وافياً ، إذا كان كذلك فقد اتخذت اماماً سوى الحق ، وبالتالي فأنت كاذب في دعواك بان الحق وحده هو مثلك الأعلى ، ورائدك الأول .

أجل ، ان ما يعتقده غيرك قد يكون خطأ ، ولكن احتمال العكس قائم فمن الجائز ان يكون لاعتقاده أساس من الواقع ، فإذا جزمت بانه مخطيء

على كل حال صح الحكم عليك بانك أنت المخطيء لاستعجالك وتسرعك أما هو فلا يحكم عليه بشيء إلا بعد البحث والدرس .

ولكي تتجنب الخطأ . ولا توقع نفسك بالتهافت والتناقض . . عليك ان تتوقف عن الحكم . حتى على من خالف آبائك واجدادك في العقيدة ؛ ثم تبحث عن الطريق الصحيح الذي يؤدي بك إلى اليقين سلباً أو إيجاباً . . ويختلف هذا الطريق باختلاف طبيعة الشيء الذي تريد معرفته . فقد يكون الطريق النظر أو اللمس إذا كان الشيء المشكوك فيه مما يرى بالعين . أو يلمس باليد ، وقد يكون العقل إذا كان من القضايا العقلية ، وقد يكون السمع ، كما لو قرأت أو سمعت ان محمداً (ص) نص على علي بن ابي طالب بالخلافة فان أبسط قواعد العلم تفرض عليك ان تشك في قوله ، ولا تجزم بصدقه ولا بكذبه ، ثم تبحث عما يزيل شكك هذا في كتب الحديث المعتبرة عندك [1] .

وتسأل : ان الطريق إلى معرفة الحق والصواب موجود ، ما في ذلك ريب ، ولكن ليس كل من اخطأ يشعر بخطئه ، كي يرجع إلى مقاييس الحق . ولا كل من شعر بالخطأ رجع عنه . . إذن ، ما هو الطريق الذي يجب ان نتخذه تجاه من يصر على الخطأ عن قصد ، أوغير قصد ؟ .

الجواب : أما من أصر على الخطأ عن قصد فلا دواء له ، ولا أمل في شفائه ، لانه لا يريد الرجوع عن خطأه ، وان اتيته بالف دليل ودليل ، وما

(١) الف الشيعة العديد من الكتب في هذا الموضوع ، منها كتاب الشافي للمرتضى ، ودلائل الصدق باجزائه الثلاثة للمظفر ، والجزء الثالث من اعيان الشيعة للسيد محسن الامين ، والمراجعات لشرف الدين ، والغدير للاميني ، ومع احترامي الشديد لهذه الكتب فاني لم اذكرها كدليل على ثبوت النص ، بل على انها ترشد الشاك إلى المصادر السنية التي يثق باصحابها ، ويؤمن بصدق رواتها .

حاول اقناعه أحد الا اصطدم معه اصطداماً عنيفاً . . وأما من أصر على الخطأ عن غير قصد فعلينا ان نبين له ، ونكرر محاولين اقناعه على قدر الامكان .

لا إمام سوى العقل :

لا إمام سوى العقل . . هذه حقيقة نزل بها القرآن الكريم ، وصدع بها الرسول العظيم (ص) ، وخاطب بها النوع البشري بكامله ؛ وأمر كل انسان ان يتخذ العقل اماماً ؛ ورائداً له في كل شيء ، حتى الغيث ما هو بشيء إذا لم يأمر العقل باتباعه والإيمان به ، فقد جاء في الحديث : « أصل ديني العقل » .

وبديهة ليس العقل شيئاً نراه بالعين ، ونسمعه بالأذن ، وانما هو قوة خفية فينا نحسها ولا نلمسها . . ومعنى امامة العقل هو امامة الحق الذي يأمر العقل باتباعه وطاعته ، فكل من كان دائماً مع الحق ، والحق معه فهو امام بحكم العقل والدين .

وتسأل ؟ هل يوجد رجل بهذا الوصف ؟ .

أجل ؛ أن رسول الله (ص) على هذا الوصف ؟ .

سؤال ثان : وهل يوجد غير محمد بن عبد الله (ص) على هذا الوصف ؟

أجل ، من شهد محمد (ص) بأنه دائماً مع الحق ، والحق معه فهو على هذا الوصف .

والمعروف بين المسلمين جميعاً أن محمداً شهد بذلك لعلي بن أبي طالب [1] .

---

(١) جاء في الجزء الثاني من كتاب دلائل الصدق للشيخ المظفر ص ٣٠٢ طبعة ١٩٥٣ : ان هذا الحديث رواه الترمذي في صحيحه باب فضائل علي ، والحاكم في مستدركه أيضاً باب فضائله ، وابن حجر في صواعقه الفصل ٥ من الباب الأول .

ومعنى علي مع الحق . والحق معه يدور معه كيفما دار . أنه العالم الذي لا يخطيء أبداً . والعادل الذي لا يظلم أبداً . والمطيع الذي لا يعصي الله أبداً . وإذا لم يأمر الدين والعقل بطاعة من هذه صفاته لم يبق للإنسانية من معنى ولا وزن.

من الطريف :

ومن الطريف قول من قال : إن الخلفاء الذين تقدموا علياً هم على حق، لأن الحق مع علي بشهادة الرسول الأعظم (ص) ، وعلي مع الخلفاء . فالنتيجة أن الحق مع الخلفاء ، قالوا : هذا . وفي الوقت نفسه قالوا بتصويب عبد الرحمن بن عوف الذي قال لعلي : أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه، وطريقة الشيخين . مع العلم بأن علياً رفض السير على طريقهما .

أرأيت إلى هذا التهافت ؟ . . . حديث علي مع الحق كما يدل أنه على حق يدل على أن الشيخين على حق أيضاً ، لأن علياً معهما . . . ومع ذلك لا يكون على حق إلا إذا تابع الشيخين . . . وهل هذا المنطق إلا كقول القائل جميع ما عند خليل ورثه من أبيه إبراهيم . وكل ما كان عند إبراهيم ورثه من ابنه خليل . . .

ومن التهافت ما جاء في صحيح البخاري ، أول كتاب الفتن ما نصه بالحرف الواحد : « قال النبي (ص) أنا فرطكم على الحوض ، ليرفعن إلي رجال منكم ، حتى إذا أهويت لأناولهم اختلفوا دوني – أي أخذوا – فأقول : أي ربي أصحابي . . . يقول : لا تدري ما أحدثوا بعدك » .

وفي صحيح مسلم القسم الثاني من الجزء الثاني ص٦١ طبعة ١٣٤٨هـ . قال النبي (ص) : إني على الحوض أنتظر من يرد علي منكم ، فوالله ليقطعن

دوني رجال ، فأقول : أي ربي مني ومن أمتي . . . فيقول : لا تدري ما عملوا بعدك ؟ . ما زالوا يرجعون على أعقابهم .

وهذا يتفق تماماً مع الآية ١٤٤ من سورة آل عمران :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾

ومع ذلك قالوا : إن جميع الصحابة عدول لا تطلب تزكيتهم . . . وفي اعتقادنا أنه لا سبب لهذا الإصرار إلا انهم لا يريدون شكاً في صحة خلافة الخلفاء ، ولا إصغاء إلى الدليل الصحيح ، حتى ولو كان القرآن الكريم ، وصحيح مسلم والبخاري . . . كيف ؟ . وهل يجوز الشك في عقيدة الآباء والأجداد ، وهي الأساس والمقياس لصدق الآيات القرآنية ، وصحة الأحاديث النبوية ؟ ! . . .

صلة الامامة بالعقل

الداخل والخارج :

إذا سألت العقل : هل يوجد ابراهيم في الدار ، او في خارجه اجابك بأن هذا ، وما إليه ليس من اختصاصي في شيء : وإذا أردت أن تعرف أين هو ، أو تعرف ما في بطن الأرض من كنوز ومعادن ، وما أشبه فعليك أن تبحث وتجرب ، وأنا معك أضيء لك الطريق ، كي تهتدي إلى ما تريد .

إن هذا النوع من المعرفة لا يستمد من العقل ، بل من خارجه بمعونة منه ، حتى الأدلة السمعية لا بد لها من معونة العقل ، لأن الإنسان بلا عقل مجنون لا يهتدي إلى خير ، ولكن استقلال العقل بالدلالة شيء . والاستعانة به على معرفة الدليل شيء آخر .

وإذا سألت العقل : هل من الممكن أن يوجد إبراهيم في البيت يجيبك على الفور ، أجل لأن هذه المعرفة تستمد من العقل ، لا من خارجه . . . فالطريق إلى المعرفة لا ينحصر في العقل وحده ، ولا في التجربة وحدها ، بل ينظر : فإن كانت الحقيقة نظرية بحت كإمكان الشيء وامتناعه في ذاته فالطريق إلى معرفتها العقل ، وإن كانت مادية طبيعية كمعرفة المواد التي يحتوي عليها هذا الجسم فالطريق اليها التجربة .

وتسأل : هل الطريق إلى معرفة الألوهية ، والنبوة الإمامة العقل ،أو شيء خارج عنه ؟

ويستدعي الجواب التفصيل التالي :

الالوهية :

لا طريق إلى معرفة الخالق سوى العقل ، لأن التجربة فيما وراء الطبيعة محال . والاستدلال على وجود الله بوحي منه استدلال على ثبوت الشيء المدعى به بمجرد الدعوى ، وعلى أن هذا حق لا لشيء إلا لأنه حق ، فتعين أن يكون العقل هو الطريق إلى معرفته سبحانه . . . ومن هنا طالب القرآن الكريم أن يتثبت العاقل من وجود خالقه بالدليل العقلي . . .

وإذا سألنا العقل : ما الدليل على وجود الخالق أجاب انظروا إلى الكون وما فيه من حركة وتماسك ونظام ، ثم افترضوا لتفسير ذلك ما شئتم من فروض وتقادير فستجدونها جميعاً كاذبة يرفضها الوجدان والعلم إلا تفسيراً واحداً ، وهو وجود عليم قدير مختار ، وبتعبير أهل المنطق أن المحال ما يراه العقل محالاً ، كاجتماع النقيضين معاً ، أو ارتفاعهما معاً ، فإذا صدقت إحدى القضيتين مثل الماء في الكون موجود كذبت القضية المناقضة لها ، وهي الماء في الكون غير موجود ، بداهة أن الشيء الواحد لا يتصف بصفة وبنقيضها في آن واحد ، والأمر هنا كذلك فإذا كذب قول من قال : وجد النظام صدفة صدق قولنا وجد النظام عن إرادة وتصميم .

وإليك هذا المثال : إذا رأيت في الأفق اسمك مكتوباً بأحرف من نور ، ثم بحثت في كل جهة فلم تر أحداً فلا بد أن تفترض أن إنساناً عاقلاً يوجد

في مكان ما يملك آلة يمكنها أن ترسم أحرفاً في الفضاء من نور متماسكة منسجمة . . . وأي فرض غير هذا لا بد أن يجرك إلى الأخطاء . وعلى الأقل لا يركن إليه عقلك .

وتقول : من الجائز أن يقع اصطدام بين سيارتين . أو قطارين . أو يحدث بركان . وما أشبه . فيتولد منه أحرف من نور منسجمة صدفة واتفاقاً .

الجواب : أجل . إن هذا محتمل » ولكنه احتمال موهوم لا يضعه العاقل في اعتباره ، تماماً كالاحتمال بأن الإنسان السليم إذا مشى خطوات تعثر وسقط ميتاً ، وإذا أكل لقمة غص ، وجاءت منيته . . . إن هذا الإحتمال موجود ما في ذلك شك . . . ولكن وجوده وعدمه سواء عند العقل والعقلاء لا يدخله في حسابه إلا مجنون .

وتسأل : ولماذا هذا الإفتراض ؟ . وأية ضرورة تدعو إليه ما دمنا لا نرى بالعين ، ولا نلمس باليد الشيء الذي افترضنا وجوده ؟ .

الجواب : وأية ضرورة تستدعي أن نفرض لك عقلاً ما دمنا لا نراه بالعين ، ولا نلمسه باليد ؟ . . . حتى علماء الطبيعة يسلمون بمبدأ الافتراض كبديهة لا تحتاج إلى دليل ، فقد أيقنوا بوجود الذرة ، وتعاملوا بها على أنها شيء ثابت قطعاً ، بل حددوا شكلها وخصائصها ، وتكلموا عن الأحداث التي تجري حولها معتمدين في ذلك كله على عقولهم وبصيرتهم ، لا على عيونهم وأبصارهم ، ولو اعتمد العلماء على الحواس الظاهرة ، ورفضوا مبدأ الافتراض لانسدت أبواب العلوم . . . وصدق من قال : « إن أكثر

الأشياء دلالة على حقيقة هذه الدنيا هو جانبها المحجوب الخفي الغائب عن حواسنا ، الحاضر في عقولنا ووجداننا [1] .

النبوة :

النبوة سفارة بين الله وعباده تأمرهم بالخير ،و تنهاهم عن الشر ، وتبين لكل إنسان ما عليه من واجبات تجاه نفسه وغيره ، وما له من حقوق على سواه . . . وقال كثيرون من فلاسفة العقيدة الإسلامية : ان العقل يدرك أن لله أحكاماً يجب على المكلفين امتثالها والعمل بها ، ولا طريق إلى معرفتها إلا النبوة « فيكون وجود النبي واجباً لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ».

أما نحن فننظر إلى النبوة من خلال سيرة محمد بن عبد الله (ص) وصفاته وتعاليمه وشريعته ، وهذي النظرة تؤدي بنا حتماً إلى وجود النبوة فعلاً ويقيناً . . . وذلك أن أي فرض نفترضه لتفسير شريعته وتعاليمه بغير النبوة فهو تفسير غير معقول . . . أمي عاش في بيئة جاهلية لا شيء فيها من أسباب العلم والمعرفة يأتي بشريعة وتعاليم ونظريات في شتى العلوم والفنون لا عهد للإنسانية بمثلها منذ وجودها ، وتخرج العالم من الظلمات إلى النور ، وتخضع

(١) في سنة ٩٥٠ الف مصطفى محمود كتاب الله والإنسان . انكر فيه الخالق ، لأنه لا يؤمن إلا بالتجربة والمشاهدة ، والفت كتاب الله والعقل للرد عليه . وطبع أربع مرات ، ثم الف المذكور ١٢ كتاباً ، وتتبعه في جميع ما كتب ، وإذا به يعدل عن رأيه الأول في كتاب يوميات بعد نصف الليل ، ويقول فيه هذه العبارة التي نقلناها من فصل السر . وأيضاً قال في هذا الفصل : « ان التجربة لا تفي باغراض البحث انها مجرد خطوة . . انا أؤمن بالعلم ، ولكني لا اكتفي به ، واؤمن بالحواس ولكني لا اؤمن بها » . . وهذا إذا تقدم الانسان في مداركه يهتدي إلى الصواب ويؤمن به إذا تجرد وانصف .

العقول لسموها وعظمتها . . . إن هذه المعجزة لا تفسير لها سوى اللجوء إلى ما فوق الطبيعة . . .

لقد تحدى محمد (ص) الجاحدين لنبوته بالقرآن الكريم ، ونحن نتحدى أهل الاختصاص ان يفسروا لنا تفسيراً معقولاً - بغير النبوة - كيف استطاع رجل أمي أن يؤلف كتاباً في التشريع ، أو في الأخلاق ، أو في الطب ، أو في الهندسة ، دون أن يقرأ كتاباً ، أو يسمع شيئاً من العلوم وأهلها . . . أبداً لا تفسير لهذه الحادثة التي خرقت الطبيعة ، وتجاوزتها إلا الوحي والنبوة ، تماماً كما لا وجه لتفسير نظام الكون إلا بوجود منظم ومنهدس قادر مختار . . . وهكذا كل مشكلة تواجه العلم ، ويستعصي تفسيرها عليه بما هو علم ولا يمكن تفسيرها إلا بما فوق الطبيعة ، كالعلم من غير دراسة ، وكإحياء الموتى من غير علاج ، وما إلى ذلك من الحوادث التي يستحيل أن تعثر على سببها في العيان و التجربة .

الامامة :

المراد بالامامة هنا تولي السلطة التي كانت للنبي دون استثناء، وهي بهذا المعنى منصب إلهي ، تماماً كالنبوة . . . ولذا تُسمى بخلافة النبي ، وتجب طاعة الإمام على الأمة كافة كما تجب طاعة النبي كذلك .

وقال الإمام زين العابدين (ع) في الصحيفة السجادية يصف الإمام بأسلوب الدعاء له :

« اللهم . . . أقم به كتابك وحدودك وشرائعك وسنن رسولك صلواتك اللهم عليه ، وأحي به ما أماته الظالمون من معالم دينك، واجل به صدأ الجور

عن طريقك، وأبن به الصراط من سبيلك وأزل به الناكبين عن صراطك. وامحق به بغاة قصدك عوجاً ، وألن جانبه لأوليائك ، وابسط يده على أعدائك ، وهب لنا رأفته ، ورحمته، وتعطفه ، وتحننه، واجعلنا له سامعين مطيعين » .

وقال جده الإمام علي بن أبي طالب (ع) : « ليس على الإمام إلا ما حمّل من أمر ربه إلا بلاغ في الموعظة ، والاجتهاد في النصيحة ، والاحياء للسنة ، وإقامة الحدود على مستحقها ، وإصدار السهمان على أهلها » .

وبهذا يتبين معنا صلة العقل بالإمامة ؛ وانها نفس الصلة بين إقامة كتاب الله وحدوده وشرائعه ، وسنن نبيه ، وإحياء ما أماته الظالمون من معالم الدين ؛ وإنارة الطريق إلى الله سبحانه ، وإزالة الناكبين عن قصده ... وبكلمة ان صلة العقل بالإمامة ، وحكمه بها هو عين حكمه بحسن العلم والعدل والطاعة ، وقبح الجهل والظلم والمعصية .

من الطريف :

ومن الطريف ان السنة يعيبون ويستنكرون على الشيعة الذين قالوا : لا تجب طاعة الإمام ، بل لا يكون إماماً إلا إذا كان معصوماً عن الخطأ في علمه ، وعن الخطيئة في عمله ، يستنكر السنيون هذا على الشيعة ، لا لشيء إلا لأنهم أوجبوا طاعة الحاكم الجاهل الفاسق ، وحرموا مخالفته ... قال الشيخ أبو زهرة في كتاب المذاهب الإسلامية ، فصل « الحاكم إذا خرج عن الشروط » ما نصه بالحرف الواحد : « أما أهل السنة فقالوا : الاختيار ان يكون الإمام فاضلاً عادلاً محسناً ، فإن لم يكن فالصبر على طاعة الجائر أولى من الخروج عليه » .

وجاء في كتاب الاحكام السلطانية لأبي يعلي الفراء (ت ٤٥٨ ﻫ) ص ٤ طبعة ١٩٣٨ :

« ان الفسق لا يمنع استدامة الإمامة ، سواء أكان — أي الفسق — متعلقاً بأفعال الجوارح ، وهو ارتكاب المحظورات ، واقدامه على المنكرات اتباعاً للشهوات ، أو كان متعلقاً بالاعتقاد ، وهو المتأول لشبهة تعرض يذهب معها إلى خلاف الحق » .

ومعنى هذا ان الجاهل الفاجر يجوز أن يكون إماماً للمسلمين ، وان يحكم باسم الله والدين . . . ولا أدري كيف يرشد الناس إلى الحق ، ويحملهم عليه جاهل يرتكب المنكرات ، وينتهك الحرمات ؟ . . . ويا ليتهم أجازوا ذلك لمن يحكم باسم الذين اختاروه : وارتضوه إماماً ، لا لمن يحكم باسم القرآن ، وشريعة الإسلام .

شيء آخر ، قال تعالى :

﴿ فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ . ﴾ البقرة ١٩٣ .

وجاء في الجزء التاسع من صحيح البخاري ، كتاب الفتن : ان النبي (ص) قال : « من كره من أميره شيئاً فليصبر » . فاما ان يكون كلام النبي (ص) مناقضاً لكلام القرآن الذي نزل على قلب محمد (ص) ، وإما أن يكون هذا النقل عن الرسول الأعظم كذباً وافتراء . . . والأول محال ، فتعين الثاني عند الشيعة ، ومن أجل هذا لم يقولوا بعدالة الصحابة جميعاً ، والأمر عند السنة على العكس . . . فانهم آمنوا بعدالة الأصحاب جميعاً ، وأخذوا بما نقله البخاري قولاً وعملاً . . . والنتيجة الحتمية لذلك ان كلام النبي (ص) يناقض كلام القرآن . تعالى الله ورسوله علواً كبيراً .

من العدالة الالهية

الكون العجيب :

كل ما في الكون دلائل وشواهد على علم الله وقدرته، وقد كنا نعرف كل من شواهدها -- قبل العلوم والمكتشفات الحديثة -- ما يبدو للعيان من اختلاف الليل والنهار ، وما ينبت في الأرض مما نأكل ونلبس ، وقليل مما غاب عن البصر دون البصيرة . . . ولما تقدمت وسائل العلم وادواته عرفنا الطاقة التي في الذرة الصغيرة الصغيرة تهدم عدداً من المدن والجبال ، وتهلك الملايين من الاحياء في ثانية واحدة .

وأيضاً عرفنا أن في الكون من النجوم ما يفوق على حبات الرمل عدداً وان أصغر نجم أكبر حجماً من الأرض بأكثر من مليون مرة ، وان كل مجموعة من النجوم تؤلف مدينة عظمى ، اسمها المجرة ، تضم أكثر من مئة مليون نجمة : وأن عدد هذه المدن أكثر من مليوني مدينة ، تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة رسالة لاسلكية لا تصل إليها إلا بعد ثلاثة من السنين أي ان نسبة هذه المدن بمجموعها إلى الفضاء الخالي ، تماماً كنسبة ذبابة تاهة في الكرة الأرضية . . . وكل هذه النجوم والمجرات تسير بتوازن وانتظام . . . هذا مثال واحد من ملايين الملايين على قدرة الله وعظمته ، اكتشفها العلم الحديث . . وما زالت الآية الكريمة تخاطب عباقرة العلماء المكتشفين : وتقول لهم بلسان عربي فصيح :

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ الاسراء ٨٦ .

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ الحشر ٢ .

العقل أعجب :

ولا تنسى عقلك . . . انه فوق ما قرأت وسمعت عن الكون العجيب . . . ان الكون ملموس ، وله قطر يحد ويقاس بالمقاييس ، وقد حدده إنشتين بسبعين مليون سنة ضوئية . . . أما العقل فهو بئر لا قعر لها ، وسماء لا سقف لها ، واجواء لا نهاية لها . . انه يسع كل شي ولا يسعه شيء . . انه العالم الأكبر الذي أشار اليه الإمام علي (ع) بقوله :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

أجل ، إن العقل أعظم من الكون . . . ولا شيء أعظم من العقل إلا خالق العقل ، وما نسبة العقل إليه إلا كنسبة الكلمة إلى المتكلم أو دونها .

من العدالة الالهية :

العدالة الإلهية ، تماماً كالقدرة الإلهية لا يحيط بها سوى علمه جل وعلا . . . ولها مظاهر ودلائل في الكون ، وفي الإنسان ، وفي شريعة الله واحكامه ونرسم شيئاً من بعض جوانبها للتقريب فقط .

الحجة :

إذا كان لك دين على غيرك ، فمن العدل أن تطالبه بما تستحق ، ولك ان امتنع عن الوفاء أن تقتص من ماله قهراً عنه مثلاً بمثل دون زيادة أو نقصان . . . وإن سامحت وأحسنت فإن الله يحب المحسنين .

والله جلت عظمته عادل كريم ؛ وله بموجب كرمه ورحمته أن يعفو عن المذنب ، بل ويثيبه ؛ حتى ولو كانت ذنوبه مثل زبد البحر . . . قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ : أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

المائدة ١١٦ — ١١٨ .

وشاهدنا في قوله :

﴿ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

حيث دل على أن لله أن يغفر ، حتى لمن اتخذ غيره إلهاً . . . أما العقاب والعذاب منه سبحانه فمحال على عدله وسلطانه إلا بسبب موجب من العبد نفسه ، ولا يتم هذا السبب إلا بعد توافر الشروط التالية :

التبليغ :

الشرط الأول لإتمام الحجة التبليغ التام الصريح بواسطة الرسول الأمين تماماً كما يبلغك موظف الدولة بأن عليك أن تدفع مبلغ كذا من المال من ضريبة الدخل ، أو ديناً عليك لزيد ، مع الإمهال أمداً معيناً لتهيئة المال المطلوب مع الإنذار بأنك إذا تأخرت عنه تحبس ، وتحجز أموالك . . . وكما أن الدولة لا تحبس أو تحجز إلا بعد الإنذار والإمهال ، حتى ولو كانت على يقين بأن الإنذار لا يجدي نفعاً ، فإن الله لا يعاقب لمجرد علمه بتمرد العبد وعصيانه لو أمر . . . بل يأمره أولاً ، ويلقي الحجة عليه قبل كل شيء ، وبعد التمرد والعصيان يؤاخذه على مخالفة الأمر الذي سمعه ووعاه ، ولم يمتثل ، قال سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴾ . طه ١٣٤ .

وقال :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ الأسراء ١٥ .

وقال :

﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ النساء ١٦٥ .

الاسلوب والانسجام :

الشرط الثاني أن يكون التبليغ مقنعاً بطبعه ووضعه بحيث يقتنع الإنسان بالرسالة إذا تجرد عن الميول والتقاليد . . . ومن وسائل الإقناع أن يبسط الداعي الحقيقة إلى المدعو بأسلوب هين لين من شأنه أن يشوق المدعو ويجذبه وأن يضرب له الأمثال للشرح والتوضيح ، ويدعوه إلى التفكير والتأمل ، وأن يزن الأمور بروية وأناة . ثم يحكم بنفسه على الدعوى ، ولا يفرضها المدعو عليه فرضاً . ولا يشعر بالتفوق عليه علماً وقداسة ، ومنزلة ومكاناً . قال سبحانه :

﴿ إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . ﴾ البقرة ٢٧ .

أي فوقها في الصغر :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً ﴾ . البقرة ٢٨ .

وقال مخاطباً نبيه الأكرم محمداً (ص) :

﴿ أدْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ النحل ١٢٥ .

وقال مخاطباً موسى وهرون (ع):

﴿ إذْهَبَا إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ طه ٤٤ .

ولا شيء أحوج من الحق إلى سياق جميل ، وأسلوب متواضع يخفف من ثقله على النفس وأهوائها .

ومن أهم الشروط الأساسية للاقتناع الذي لا يبقى معه أثر من آثار الريب والشكوك أن ينسجم صاحب الرسالة والداعي الأول مع رسالته ، وليس معنى انسجامه معها أن يطبقها بالفعل وكفى ، بل معناه أن تفنى شخصيته فيها ، وتمتزج بروحه ولحمه ودمه ، حتى كأن الرسالة مجسمة فيه ؛ ولا شيء سواها ، فإذا تكلم كانت هي المتكلمة ، وإذا عمل كانت هي العاملة .

اما من يقول : « إن لي شيطاناً يعتريني أحياناً » (١) أما هذا فما هو

(١) جاء في كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ٦ طبعة سنة ١٩٥٧ : ان أبا بكر قال : « اعلموا ان لي شيطاناً يعتريني احياناً » . وابن قتيبة من أوثق المصادر عند السنة ، توفي ٢٧٦ هـ ؛ ومثله في الجزء الأول من تاريخ الطبري . ومن الطريف قول بعضهم ان هذا من وضع الشيعة فكل ما يرويه الطبري وغير الطبري في سب الشيعة والتشنيع عليهم فهو حق ، وكل ما يرويه الطبري وغيره في مثالب غيرهم فهو من وضع الشيعة . . وللشيعة ان يقولوا : كل ما يرويه الطبري وغير الطبري في سبهم والتشنيع عليهم فهو من وضع السنة . . والفرق تحكم .

بخليفة النبي الذي لا ينطق عن الهوى ؛ وإنما هو حاكم مني دنيوي ، تماماً كحكام اليوم وقبل اليوم ، يتكلم باسم من اختاره وارتضاه فقط ، وإذا ما انتحل لنفسه خلافة الرسول الأعظم (ص) ؛ وزعم أنه يحكم باسم الله والقرآن فإن زعمه هذا جاء بوحي « ما يعتريه أحياناً » .

وتسأل : وهل ينسجم مع رسالة الإسلام بالمعنى الذي ذكرت غير محمد بن عبد الله (ص) ؟

أجل ، من كان امتداداً لمحمد (ص) قولاً وعملاً فهو منسجم مع رسالة الإسلام .

سؤال ثان : وهل يوجد من هو امتداد لمحمد (ص) ؟

وادع الجواب عن هذا السؤال لمحدث لايذكر منقبة لعلي وبنيه إلا إذا فرضت نفسها عليه فرضاً ، ولم يجد منها مهرباً ، على أنه لا يذكرها إلا محرفة مشوهة . . . ادع الجواب لمحدث لا يثق السنة بأحد كثقتهم به إطلاقاً .

قال في الجزء الخامس من صحيحه ، باب مناقب علي بن أبي طالب :

« قال النبي (ص) لعلي : أنت مني وأنا منك » . وبديهة أن محمداً ليس أباً أو إبناً لعلي ، وإنما صح أن يقول له : أنت مني لأن محمداً غرس روحه بروح علي ، وقلبه بقلب علي ، وعقله بعقل علي ، وعلمه بعلم علي وإيمانه بإيمان علي ، وشمائله بشمائل علي ، وإلا لم يصح قوله : أنت مني وأنا منك ، لأن محمداً لم يكن أباً ولا إبناً لعلي ، أجل قد اختاره لإخوته من دون أصحابه أجمعين بعد أن صاغه كما يريد ، وهنا يكمن سر الإخاء ، جاء في مسند أحمد : ان علياً قال لرسول الله (ص) : آخيت بين أصحابك

وتركتني ! . . . فقال : إنما تركتك لنفسي ، أنت أخي ، وأنا أخوك ، لا يدعيها بعدك إلا كذاب .

وقال الامام : لقد كنت اتبعه اتباع الفصيل اثر امه ، يرفع لي في كل يوم من اخلاقه علما ويأمرني بالاقتداء به .

سؤال ثالث وأخير : كيف قلت : ان البخاري لا يروي في كتابه حديثاً في فضل علي واهل بيته إلا إذا لم يجد منه مهربا ، مع العلم بانه اعظم المحدثين واوثقهم جميعاً عند السنة ؟

واجيب : اجل ، وهذا هو بالذات سر عظمته ، او اعظميته عندهم . . واضرب لك مثلاً واحداً على تعصبه ضد علي وبنيه . قال الحافظ العسقلاني في كتابه : « فتح الباري بشرح صحيح البخاري » ج ٨ . طبعة سنة ١٩٥٩ . ص ٧١ نقلا عن جماعة من العلماء والمحدثين ، ومنهم النسائي ، نقل عنهم ما نصه بالحرف الواحد : « لم يرد في حق احد من الصحابة بالاسانيد الجياد اكثر مما جاء في علي » : وقال في ص ٧٦ من الجزء المذكور ما نصه بالحرف الواحد أيضاً : « قال الامام احمد : ما بلغنا عن احد من الصحابة ما بلغنا عن علي بن أبي طالب » .

ورغم هذا وغير هذا لم يذكر البخاري من مناقب علي التي لا يبلغها الاحصاء إلا القليل ، حتى هذا القليل — وان كان قليل علي اكثر من كثير غيره — حتى القليل القليل لم يدعه البخاري على طبيعته . . بل حرّف وشوّه وبدّل وغير . . فان جميع المحدثين ورواة المناقب ، ومنهم مسلم في صحيحه رووا حديث « الراية » بهذا اللفظ : « لا عطين الراية رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله . . ثم اعطاها علياً » .

كلهم رووا الحديث بلفظ « يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » إلا البخاري فانه حذف من الحديث : « يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » . ولا ادري لماذا حذف هذا البخاري ؟ . هل لأن البخاري لا يحب من يحبه الله ورسوله ، او لان البخاري يريد ان يشرف كتابه الصحيح النصيح بذكر معاوية وامه آكلة الاكباد ، فارغم كرهاً على ذكر من لا بد من ذكره بعد ان ملأت مناقبه الخافقين . . ولكنه لم يعدم الحيلة بحذف بيت القصيد ، ونسي المسكين انه مطبوع في اعناق القلوب والعقول ، تماماً كما هو مكتوب في اللوح المحفوظ . .

وفي تعصب البخاري ضد علي وابناء علي يمكن السر لثقة من يثق به ، والتعظيم له ولكتابه .

القدرة :

الشرط الثالث الذي لا بد منه لتبرير العذاب والعقاب ان يهب الله سبحانه العبد المقدرة الكافية على ما امره بفعله ، ونهي ما نهاه عنه ، وإلا كان تكليفاً بما لا يطاق . وهو محال عند الشيعة على عدله وحكمته . فإذا أمره وعصى مع القدرة استوجب العقاب بما جنته يداه .

وبالتالي ، فان حجة الله سبحانه على عباده لا تتم ولن تتم إلا إذا كان صاحب الرسالة الأول فانياً في رسالته . . وأيضاً لا يكون ، ولن يكون احد خليفة الرسول الأعظم (ص) إلا إذا كان تماماً كالرسول في جميع صفاته ما عدا نزول الوحي ، كما هو الشأن في كل خليفة وبديل حقاً ، اما من صح القول فيه بانه تأول فاخطأ ، واجتهد فلم يصب فلا يكون ، ولن يكون خليفة

للنبي ، حتى ولو قلنا بصحة قياس ما لا نص فيه على المنصوص عليه ، بداهة عدم وجود الجامع بين الخطأ والصواب : وبين الناقص والكامل [1] .

من الظريف :

ومن الظريف قول السنة : ان الله لا يتصف بعدل ولا جور ، لان العادل من اطاع الأمر والنهي ، والجائر من خالفهما ، والله سبحانه آمر غير مأمور ، وناه غير منهي . . وهذا القول نتيجة حتمية لقولهم . ان الله لا يجب عليه شيء ولا يقبح منه شيء ، وان الحسن ما أمر به الشرع ، والقبيح ما نهى عنه ، وأنه لو أمر بما نهى لصار حسناً ، ولو نهى عما أمر لصار قبيحاً .

(المواقف للايجي وشرحه للجرجاني ج ٨ ص ١٨١ و ١٩ . والكشف عن مناهج الادلة لابن رشد ص ١١٣ المسألة الرابعة في العدل والجور) .

وقد ذهلوا ان العدل بالقياس إلى الانسان مكمل لذاته الناقصة ، وانه بالقياس إلى الله سبحانه من آثار ذاته الكاملة ومقتضياتها بل هو هو ، إلى ان الآيات والروايات التي اثبتت العدل لله ، ونفت عنه الجور لا يبلغها الاحصاء . وقد تكلمنا عن ذلك مفصلاً في كتاب « معالم الفلسفة الإسلامية » .

(١) من المبادىء الاصولية المسلمة عند السنة القياس وهو اعطاء حكم الواقعة المنصوص عليها شرعاً لواقعة اخرى لم ينص الشارع عليها اطلاقاً لا بالخصوص ، ولا بالعموم لمشاركة الواقعتين في علة يستنبطها الفقيه من تلقائه وعندياته ، وابطل الشيعة هذا القياس إلا إذا نص الشارع على علة الحكم صراحة اي ان علة الحكم عندهم تحتاج إلى النص من الشارع ، تماماً كالحكم نفسه .

بين محمد وعيسى وعلي

الشخصية :

أصحيح ما يقال بان لكل انسان شخصية مستقلة تميزه عن غيره تماماً كبصمة ابهامه التي لا يشاركه فيها احد ؟

ان شخصية الانسان هي نفسه ومشاعره وآراؤه ، وليست هذه اشياء محسوسة ، ينظر إليها من المكبر ، كما ينظر إلى الاجرام والاحسام . . ان حقيقة الشخصية في عالم الغيب المحجوب عن العيان . . ولكن ليس معنى هذا ان الشخصية لا يمكن معرفتها بحال ، فان الكرم والشجاعة من صفات النفس ، ومع ذلك تعرف الكريم ببذله وعطائه ،والشجاع بتضحيته واقدامه . ان الطريق لمعرفة الشخصية ، وتمييز نوعها عن غيره هي الخصائص والآثار المرئية للعيان . وبها نميز بين الكريم والبخيل ، وبين الشجاع والجبان ، بل بها نميز بين بخيل وبخيل ، وكريم وكريم من حيث الشدة والضعف – إذن – غير بعيد ان يكون لكل فرد من أفراد الانسان شخصية مستقلة لا يشاركه فيها أحد، تماماً كما هو الشأن في بصمة الابهام ، وملامح الوجه ، ورنة الصوت ، بل لا حياة للانسان إلا بمشاعره واحاسيسه الشخصية الخاصة ، وهذا التفرد سر من اسرار الله سبحانه التي اقتضتها حكمته وعظمته .

أجل ، قد يحصل الشبه بين الشخصيتين في أكثر من وجه : بل قد تلتقي الشخصيتان على صعيد واحد في طريقة التفكير ، وفي أكثر الصفات الاساسية التي يقاس الانسان بحسبها كالتقاء الامام علي (ص) بالسيد المسيح (ع) وبالرسول الأعظم (ص) فيما عدا النبوة ونزول الوحي .

بين عيسى وعلي :

كلنا يعرف قصة الزانية التي أتوا بها إلى السيد المسيح (ع) وطلبوا منه ان يرجمها على خطيئتها . . وأيضاً كلنا يعرف ان روح الله قال لهم : من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » . وانه بعد ان خاطبهم بهذا القول تسللوا مع الحيطان خجلين الواحد تلو الآخر . حتى لم يبق إلا السيد المسيح (ع) وتلاميذه .

وجاء في كتاب الوسائل ، وكتاب الجواهر وغيرهما : باب الحدود امرأة أقرّت بالزنا عند الامام ، فأمر مناديه ان ينادي بالناس : ولما اجتمعوا حمد الله ، واثنى عليه ، ثم قال : ايها الناس اني خارج غداً بهذه المرأة . لاقيم عليها الحد . فأعزم عليكم الا خرجتم . . ومعكم احجاركم . . ولما أصبحوا خرج الامام بالمرأة ، وخرج الناس ، ومعهم احجارهم ، وحين جاء وقت الرجم ركب الامام بغلة ، ووضع اصبعيه في اذنيه ، ونادى بأعلى صوته : ايها الناس ان الله عهد إلى نبيه (ص) عهداً عهده إليّ بان لا يقيم الحد من كان لله عليه حد . . فمن كان عليه لله مثل ما على هذه المرأة فلا يقيمن عليها الحد . . فانصرف الناس كلهم إلا علي والحسن والحسين ، تماماً كما انصرف الناس إلا عيسى والحواريون من أصحابه .

عهد من الخالق لا من المخلوق ان الخطايا لا تغسل بالايدي الملطخة القذرة .. وان الايدي النظيفة النزيهة البارة هي وحدها الامينة على أحكام الله وحدوده . . عهد سجله الله في القرآن الكريم والتوراة والانجيل ان اليد الملوثة الباغية يجب ان تقطع ، أو تغل بالقيود والسلاسل . حتى لا تدنس الطاهرين ، وتنتحل أوصاف الخيرين . . عهد من العقل والعقلاء ان الأكفاء علماً وخلقاً هم الامناء على البلاد ومصالح العباد .

ومن أجلى هذا انصرف المخطئون ، وبقي المبرؤون عيسى والحواريون ، وعلي والحسن والحسين . . وابلغ ما في هذا العهد الذي أوحى الله به إلى نبيه ، وعهد به النبي إلى وصيه ، وبلغه الوصي إلى امة محمد (ص) ، ابلغ ما فيه انه يخلق في الآثم شعوراً يؤنبه ويوبخه على اثمه وجرمه ، ويجعل منه واعظاً لنفسه بنفسه ، وكارهاً منها ما يكرهه من غيره .

وقال السيد المسيح (ع) : انا الطريق إلى الخلاص ، واني بابه .

وقال الامام (ع) : انما مثلي مثل السراج في الظلمة ، يستضيء به من ولجها .

يشير الإمام بقوله هذا : الى حديث الثقلين الذي رواه مسلم في صحيحه ، القسم الثاني من الجزء الثاني ، طبعة ١٣٤٨ هـ ص ١٠٩ ، باب فضائل علي بن أبي طالب وهذا نصه بالحرف الواحد : « قال رسول الله : انما انا بشر ، يوشك ان يأتي رسول ربي فأجيب ، وانا تارك فيكم الثقلين : اولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، وأهل بيتي » .

وتسأل : ومن هم أهل بيته ؟ . أليسوا نساءه ؟ .

الجواب : قال مسلم في صحيحه ، ص ١١٦ من الجزء السالف الذكر ، « قالت عائشة : خرج النبي (ص) غداة ، وعليه مرط اسود – نوع من ثياب اليمن – فجاء الحسن بن علي فأدخله ؛ ثم جاء الحسين فدخل معه ، ثم جاءت فاطمة فأدخلها ، ثم جاء علي فأدخله ، ثم قال : انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » . فاهل البيت هم أهل الكساء دون غيرهم بدليل فعل الرسول (ص) .

سؤال ثان : ولكن في الناس من يقول : ان نساءه من أهل البيت . بل قال البعض : لا أهل لبيت الرسول الا نساء النبي .

الجواب : ان هؤلاء قالوا أيضاً : ان مسلماً ثقة . وكتابه صحيح معتبر ، اما التناقض الذي وقعوا فيه بسبب الجمع بين الثقة بمسلم ، وتفسير أهل البيت بالنساء . اما هذا التناقض وغيره كثير من تناقضاتهم ، فانه نتيجة حتمية لاهوائهم وعدم موالاتهم لاهل البيت (ع) .

وقال السيد المسيح (ع) : ما ينفع الانسان لو ربح العالم وخسر نفسه .

وقال الامام (ع) : ما ظفر من ظفر الإثم به .

وقال السيد المسيح (ع) : ليس بالخبز وحده يحيا الانسان .

وقال الامام (ع) : اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

وقال السيد المسيح (ع) : أحسنوا إلى مبغضكم .

وقال الامام(ع) : إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو شكراً للقدرة عليه.

وليس هذا القول من الامام دعوة إلى التسامح ، وكفى ، بل وترغيباً في اسمى الطاعات . واذكى العبادات . . ان التعبد والشكر لله سبحانه لاينحصر بالصوم والصلاة ، والحج والزكاة . . ان الصلاة شكر لله من العبد على نعمة الوجود والصوم شكر على نعمة العافية ؛ والزكاة شكر على نعمة الغنى ؛ فناسب ان يكون العفو شكراً لله على ما تفضل وتكرم من القدرة على الخصم . .
ولا يدرك هذه الخبايا في أسرار العبادة الا نبي او وصي نبي والا من عبد الله لذات الله .

ونكتفي بهذا القدر من الامثلة التي لو جمعت لاستوعبت مجلداً ضخماً .

محمد والشمس :

من الفضول ان يقول القائل : من اعتقد بان احداً يساوي محمداً في الشرف والمكانة عند الله فليس من الاسلام والمسلمين في شيء وكفى انه (ص) خاتم الانبياء ، وسيد الرسل ، وان الدستور الالهي قد اكتمل بالكتاب الذي نزل على قلبه ، حيث لا بلاغة وراء جوامع الكلم ، ولافضيلة وراء مكارم الاخلاق الا خالق البلاغة والفضائل ؛ تماماً كما لا شيء وراء الكون الا خالق الكون.

وإذا قال قائل : لماذا كان محمد (ص) خاتم الانبياء ؟ . اجبناه بان محمداً ودين محمد قد استوفيا جميع صفات الكمال ، وبلغا الغاية والنهاية ، تماماً كما بلغت الشمس الحد الاعلى من النور والضياء ، فلا كوكب ولا كهرباء يملىء الكون بنورهما بعد كوكب الشمس ، ولا نبي يأتي بجديد لخير الانسانية بعد محمد (ص) . . أجل ، إذا غابت الشمس استفاد الناس بنور القمر ، ولكن نوره هذا ، ونور غيره من الكواكب مستمد من الشمس ذاتها ، وإليها تنتهي أنوار الكواكب.. وكذلك ترشد الامامة إلى الخير بتعاليم النبوة إذا

غاب النبي ، وتوارى عن الانظار . .فمحمد (ص) كالشمس ؛ وعلي (ع) كالقمر يستمد من فيضه ، وهديه وكماله ، والهدف واحد : الارشاد للتي هي اقوم :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً ﴾ يونس ٥ – ٢.

الصياغة القرآنية المحمدية :

قال الحافظ العسقلاني في الجزء الثامن من كتابه « فتح الباري بشرح البخاري » ص ٧١ طبعة ١٥٩٩ : « علي بن أبي طالب بن عبد المطلب القرشي الهاشمي ابو الحسن ابن عم رسول الله (ص) شقيق ابيه ، ولد قبل البعثة بعشر سنين على الراجح ، وكان قد رباه النبي (ص) من صغره ، فلازمه ، ولم يفارقه إلى ان مات » .

وهذه الملازمة لنجي الله وصفيه هي وحدها بلغت بعلي إلى الدرجات العليا التي لم يبلغها أحد سواه من الصحابة ، حتى الذين ابلوا البلاء الحسن في نصرة الاسلام ، ونبي الاسلام . . لازم علي محمدا (ص) من المهد إلى الممات ؛ يشم انفاسه ، ويضعه النبي في حجره ، ويضمه إلى صدره ، ويكتنفه في فراشه ، ويمسه بجسده ، بل ويمضغ اللقمة ؛ ثم يلقمه إياها ؛ تماماً كما تفعل الام بوليدها .

ومن الثابت ان الله سبحانه قرن بمحمد من لدن ان كان فطيماً اعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ، ومحاسن الاخلاق ليله ونهاره . . وقد انعم الله جل وعز على علي بملازمة محمد (ص) منذ طفولته [1] فكان يتبعه

(١) قال عبد الرحمن الشرقاوي – اديب من ادباء مصر الكبار ، وله العديد من المؤلفات – : ان علياً، وهو في الثامنة من عمره يوم لا نبوة ولا وحي كان يتحدث عن ابن عمه وانسانيته بما يحبب القلوب به ويبعثها على تقديسه وتعظيمه. اي ان علياً يمهد بذلك لدعوة الاسلام ونجاحها قبل الاسلام . .

اتباع الفصيل أثر أمه يرفع النبي له في كل يوم من أخلاقه علماً ، ويأمره بالاقتداء به ، حتى صاغه في ندواته صياغة قرآنية إلهية محمدية .

وهنا نجد السر لقول الامام (ع) : ذاك القرآن الصامت وانا القرآن الناطق .. وقوله : سلوني قبل ان تفقدوني .. وقوله : ان رسول الله علمني ألف باب من العلم ، ويفتح كل باب ألف باب (١) .

.. وقوله : ما وجد رسول الله (ص) لي كذبة في قول ، ولا خطلة في فعل – أي خطأ في فعل – .. وقوله : لم يكن لاحد فيّ مهمز ، ولا لقائل فيّ مغمز . الذليل عندي عزيز ، حتى آخذ الحق له ، والقوي عندي ضعيف ، حتى آخذ الحق منه ، رضينا عن الله قضاءه ، وسلمنا لله أمره ، أتراني أكذب على رسول الله (ص) لأنا أول من صدقه فلا أكون أول من كذبه .

اما اقوال الرسول الاعظم (ص) بعلي ومناقبه فقد امتلأت بها الصفحات والمجلدات من كتب الحديث والمناقب (٢) . ولو كان لغير علي واحدة مثلها لكانت هي كل شيء وما عداها ليس بشيء عند المنحرفين .

محمد وعلي :

والآن تعال معي لنستعرض امثلة من سيرة الرسول الاعظم (ص) وتلميذه ووصيه علي بن أبي طالب (ع) .

(١) ذكرت في « كتاب علي والفلسفة » ان العلم الحديث قد اقر هذه النظرية بعد أن رأى العلماء ان العلم الواحد يفتح الباب لعلوم شتى واستشهدت باكثر من عالم من علماء هذا العصر ، فراجع .

(٢) منها كتاب الخصائص للنسائي احد اصحاب الصحاح الستة ، وكتاب لأبي نعيم الاصفهاني ، وكتاب لأبي عبد الكريم السكري (اعيان الشيعة للسيد الأمين ج ٣) .

قال رسول الله (ص) ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على ان اترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، او اهلك فيه ما تركته .

وقال تلميذه الامام (ع) : والله لو اعطيت الاقاليم السبعة بما تحت افلاكها على ان اعصي الله في نملة اسلبها جلب شعيرة ــ أي قشر شعيرة ــ ما فعلت ، وان دنياكم عندي لاهون من ورقة في فم جرادة تقضمها .

قال خاتم الانبياء : والله لو سرقت فاطمة لقطعت يدها .

وقال سيد الاوصياء لعامل من عماله اختلس من مال المسلمين : والله لو ان الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كان لهما عندي هوادة ، ولا ظفرا مني بارادة ، حتى آخذ الحق منهما ، وازيح الباطل من مظلمتهما .

وآذت قريش سيد المرسلين ، واخرجته من دياره ، وجيشت الجيوش لحربه ، وحين ظفر بالذين آذوا وشردوا وحاربوا ، ونصره الله عليهم قال لهم : اذهبوا .. انتم الطلقاء .. قد عفوت عنكم .

وفعل اصحاب الجمل مع علي ما فعلت قريش مع النبي (ص) . . وحين ظفر بهم ونصره الله عليهم عفا وصفح تماماً كما عفا النبي وصفح وأيضاً عفا وصفح عن ابن العاص وابن ارطاة . وسقى اهل الشام الماء بعد ما منعوه منه .

وكفى علي عظمة وفخراً ان يكون الرجل الأول الذي أئتم برسول الله (ص) في جماعة اسلامية محمدية ، تقيم الصلاة لله يوم لا بيت للاسلام على وجه الأرض الا بيت محمد ، ولا ناطق بلا اله الا الله ، محمد رسول الله الا محمد وعلي وخديجة .

جاء في كتاب الخصائص للنسائي احد اصحاب الصحاح الستة . « ان عفيف الكندي رأى الثلاثة للمرة الاولى يصلون ، فقال للعباس بن عبد المطلب : هذا امر عظيم . قال العباس : امر عظيم . . لا والله ما على الأرض كلها احد على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة .

وقال الدكتور علي سامي النشار في مقدمة الجزء الثاني من كتابه نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام : « كان الفتى الصغير أول اصحاب الرسول الاعظم ، وأول حواريه ، لقد مد يده الصغيرة الجميلة في موالاة حرة ابيه معاهداً محمد بن عبد الله على تفديته بالنفس ، وبيعته بالموت ، وتتابعت الاحداث ، والحواري الصغير يخطو للشباب ، وحين هاجر الرسول (ص) ، وصاحبه كان الحواري الصغير صامتاً في فراش الرسول (ص) وهو يعلم ان سيوف شياطين قريش ستنوشه بعد قليل ، ولكنه لم يعبأ ، ولم يكن يرتاع ، بل كانت روحه في مسرى الرسول وصاحبه » .

أجل لم يفكر الإمام بالموت ، ولا بالسيوف تتلامع فوق رأسه ، وانما فكر مهتماً بحياة الرسول ، وانجاح رسالته ، وانتصار دعوته ولذا حين طلب منه النبي المبيت على فراشه قال له الامام : اتسلم انت يا رسول الله ؟ . قال أجل ، قال الامام : مرحباً بالموت دونك ، اما صلاته مع النبي فقد كانت الأولى في تاريخ الانسانية كلها التي عبد بها الله بهذا الشكل من العبادة . . لا رابع لهم . . الامام المتبوع محمد ، والمأموم التابع امرأة لا ثانية لها في النساء ، ورجل لا ثاني له في الرجال . . سبق لم يكتب إلا لعلي وخديجة فقط لا غير .

وقال المنحرفون : أجل ، ولكن علياً كان غلاماً ، واسلم غيره ، وهو رجل كبير .

الجواب : وهنا يكمن السر لعظمة علي وفضله على الجميع . لقد صادفت الظروف ان ينشأ غير علي في حجر الشرك والرجس وعبادة الاصنام ، وان يتغمس في الجاهلية وأوزارها إلى الآذان ، وان لا ينطق بالشهادة إلا بعد ان عصي عوده ، وبعد ان شبعت الاصنام منه ومن سجوده لها . . وشاء الله لعلي ان ينشأ في حجر النبوة والطهر والايمان ، وان يؤمن بمحمد ، وهو ندي طري ينزل الاصنام من على عرشها ، ويضعها تحت أقدام الرسول الاعظم (ص) شاء الله سبحانه انيؤمن علي بمحمد منذ طفولته ، ليكفيه وفقاً لارادة الله وإرادته ، ويهيئه لخلافته ، وقديماً قيل : « من شب على شيء شاب عليه » . . وعلى الأقل ان لا تتذبذب شخصيته وايمانه بين ماضيه وحاضره .

هذا ، إلى ان عيسى (ع) حين تكلم كان في المهد صبياً ، ومحمد (ص) لمع نور النبوة في جبينه ساعة ولادته ، وكره الكذب والزيف والخيانة وعبادة الاصنام في طفولته ، وكانت هذه من مكارم صفاته ، واقوى الدلائل — عند جميع المسلمين — على ان ذاته القدسية تنطوي على سر النبوة من يومه الأول . . وهكذا هو الشأن في علي وطفولة علي فانها تحمل منذ وجودها وتكوينها بذرة الامامة ، وسر الخلافة من الرسول الاعظم (ص) .

ومن اثبت هذهالكرامة لمحمد ، ونفاها عن علي فقد أوقع نفسه في التهافت والتناقض من حيث يشعر ، أو لا يشعر . . واشرنا فيما سبق ان السبب الأول لمثل هذا التناقض هو الاهواء ، والانحراف عن الطريق القويم .

وبالتالي ، فان الحياة المضيئة الطاهرة منذ الطفولة إلى الممات هي وحدها تؤهل للقيام بعبء الرسالة والامامة ، اما من سجد لغير الله ، ولو مرة واحدة في حياته فما هو للامامة والخلافة عن الرسول بأهل ، حتى ولو تاب واناب . .

وليس من شك ان الاسلام يُجب ما قبله ، ولكن قبول الاسلام شيء ، والمؤهلات للخلافة شيء آخر . . وإلا كان كل من قال : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله أهلا لها . .

وبعد ، فمن بحث وفحص ودرس سيرة علي وسيرة غيره من الاصحاب ، وتحاكم الى العقل والفطرة فلا بد ان يخرج بهذه النتيجة ، اما ان يكون علي هو الحري وحده بخلافة الرسول واما لا أحد جدير بهذا المنصب على الاطلاق.. ولازم ذلك نفي الخلافة من الاساس . .

وإذا كان هذا هو حكم الفطرة فعلامَ الهجوم القاسي على من آمن بفطرة الله التي فطر الناس عليها ؟ . .

بقي سؤال واحد :

سؤال نلقيه على كل انسان ، ليجيب عنه بوحي من عقله ووجدانه : مال لقاصر ورثه عن أبيه ، ولا بد من ولي يحرص على مال القاصر ومصلحته ، دار الامر بين رجلين : الأول لم يعص الله قط مدى حياته لا صغيراً ولا كبيراً ، والثاني عصاه امداً طويلاً ، وهو بالغ عاقل ، ثم تاب وناب ، فايهما نختار الأول أو الثاني ؟ .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ وَلا الظِّلُّ وَلا الحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي القُبُورِ ﴾ فاطر ٢٠ — ٢٣ .

صدق الله العظيم وصدق نبيه الكريم .

الخليفة

الحاجة إلى قائد :

في اعتقادي ان حاجة الناس إلى قائد يسوسهم ، ويدير دفة الامور لا تحتاج إلى دليل ، لان طبيعة الاجتماع من حيث هي تستدعي ذلك . حتى في الحيوانات والطيور والنحل ، بل حتى في الحشرات كالنمل . . وهذه الحقيقة يحسها ويدركها كل انسان تلقائياً من غير قياس وبرهان ، تماماً كما يحس ويشعر بحاجته إلى الطعام والشراب ، ومن أجل هذا يكون الاستدلال عليها ضرباً من الفضول . . بصرف النظر عن شكل الحكم ، وانه ديني أو زمني جمهوري أو ملكي .

والحاكم الزمني بشتى أشكاله لا يدخل في موضوعنا ، وهدفنا الأول والأخير هو الحديث عن خليفة النبي . والصفة الاساسية التي تؤهله لمنصب الخلافة .

وظيفة النبي :

لو أردنا ان نرسم صورة لوظيفة النبي على أساس سيرة محمد بن عبد الله (ص) لجاءت كما يلي : الدعوة إلى الايمان بإله واحد ، واليوم الآخر ، وبيان احكام الله من الحلال والحرام ، وحمل الناس عن العمل بها بالترغيب

في ثواب الله ، والترهيب من عقابه ، وتأمين الحقوق الخاصة والعامة ، والدفاع عنها بالقوة ، ان لم تجد الحسنى ، وتأديب من يعتدي عليها بما يستحقه من العقوبة التي تردعه .

وهذه الوظيفة والسلطة يستمدها النبي من الله وحده ، وهو الذي فرضها على الناس فرضاً ، شاءوا ، أم أبوا ، ومن ردها ، أو اعترض عليها فقد رد واعترض على الله سبحانه ، لان رسالته هي رسالة الله بالذات بعد العلم بانه معصوم في كل ما يتصل بتبليغ هذه الرسالة الالهية .

قال تعالى :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ الاحزاب ٦ .

وقال :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ الاحزاب ٣٦ .

وقال :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ النساء ٦٦ .

إلى غير ذلك من الآيات والاحاديث التي تدل بصراحة ووضوح على انه لا مشيئة لاحد كائناً من كان مع مشيئة الرسول الأعظم، ولا سر لهذا إلا لان النبي نطق بوحي الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .

وتسأل : وماذا تصنع بقوله تعالى :

﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾
آل عمران ١٥٩ .

وقوله جلت كلمته :

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾
الشورى ٣٨ .

واجاب العلماء والمفسرون عن الآية الأولى بان النبي يشاور اصحابه في امور الدنيا ، كتنظيم الجيش وكيفية القتال ، واجابوا عن الآية الثانية بانها خطاب للمكلفين لا للنبي ، وظاهر الآية صريح في ذلك ، وانه يستحسن مشاورة أهل الرأي والتجاريب في المصالح الدنيوية . . وفي ذلك احاديث كثيرة عن الرسول الأعظم (ص) . منها : ما من رجل يشاور احداً إلا هدى إلى رشد . . وبديهة ان المسائل الدينية والاحكام الشرعية يرجع فيها إلى كتاب الله ، وسنة رسوله ، لا الى الناس وآرائهم ، والا كانوا في غنى عن الانبياء والكتب المنزلة .

الخليفة :

هل يوجب الاسلام ، ويحتم ان يكون للنبي خليفة ينوب عنه في الرئاسة الدينية والدنيوية ، او انه لا خلافة في الاسلام ، ولا يجوز لاحد كائناً من كان

أن يضفي على حكمه وسلطانه الصفة القدسية الالهية ، لان ذلك مختص بالنبي وحده .

وعلى افتراض ان الخلافة واجبة في الاسلام ، فهل وجبت بالعقل ، بحيث اذا ورد نص من الشرع بلزومها يحمل على الارشاد و التأكيد لحكم العقل لا على التأسيس ، لان وجود الخليفة ضروري ، تماماً كوجود النبي ، او ان الخلافة وجبت بالسمع والشرع لا بالعقل ؟ .

وايا كان سبب الوجوب ، فما هو الطريق لمعرفة الخليفة وتعيينه بانه فلان ابن فلان دون غيره ؟ . هل الطريق إلى ذلك النص عليه بالذات من النبي أو الانتخاب ، أو العقل ؟ . ثم ما هي الصفات التي تؤهل الانسان لهذا المنصب الخطير ؟ . .

وأيضاً إذا وجد في المسلمين اثنان كل منهما يتصف بصفة الكمال ، ولكن احدهما افضل واكمل ، فهل يجوز ان يهمل الافضل الاكمل ، ويقدم عليه من هو دونه فضلاً وكمالاً .

وقد شغلت هذه الاسئلة الصفحات الطوال في كتب العقائد وعلم الكلام ، وجرى حول اجوبتها الجدال والنقاش الحاد بين السنة والشيعة . . وفي الفقرات التالية اشير إلى الاجوبة بإيجاز مقتصراً على اللباب ومحل الفائدة تمشياً مع وضع الكتاب ، وارفاقاً بالقارىء ، وايماناً بأن الاختصار مع التوضيح هو الطريق الوحيد لجذب القارىء ، واغرائه بالمتابعة لما اكتب . . وهذا كل ما اتمناه . واصبوا إليه . لان الكلمات المكتوبة وغير المكتوبة ليست بشيء ، وانما هي حروف ميتة إذا لم تجد من يقرأها ، ويتجاوب معها وتترك اثراً في نفسه . . وبموتها ينتقل صاحبها إلى رحمة الله .

وجوب الخلافة :

اتفق السنة والشيعة على ان الخلافة واجبة في الاسلام . واختلفوا : هل نصيب الخليفة واجب على الله ، او على المسلمين ؟ .

قال الشيعة : يجب عليه سبحانه من باب اللطف . لان الامام يقرب الناس من الطاعة . ويبتعد بهم عن المعصية . فوجوده من الاسباب الداعية لفعل الخير . وترك الشر .

وقال السنة : لا يجب نصب الامام على الله . لانه لا يجب عليه شيء . ولا يقبح منه شيء وانما يجب نصبه على المسلمين شرعاً . لا عقلاً . فإذا تركوه أثموا اجمعين .

ومهما يكن . فان الاهم من هذا النزاع والاختلاف هو تعيين الصفات التي تؤهل الانسان لخلافة الرسول ، وتعيين الطريق إلى معرفته . وتمييزه بعد الاتفاق على اصل الفكرة . وان الخلافة واجبة على كل حال .

الصفات وطريق الخلاص :

لقد أطال الشيعة والسنة الجدال والنقاش في صفات الخليفة والامام. بخاصة العصمة . . وأيضاً أطالوا الجدال والنقاش حول الطريق إلى معرفته . وهل هو النص أو الانتخاب ؟ .

وفي اعتقادي ان الاختلاف في صفات الخليفة والامام . وفي الطريق إلى معرفته . وما إلى ذلك من الاختلافات التي تدور حول الخلافة كلها أو جلّها يتفرع عن الاختلاف في شيء واحد هو : هل يجب ان يكون خليفة النبي

معصوماً عن معصية الله ، والجهل بحلاله وحرامه ، بحيث لا تنفصل العصمة عن الخلافة أو يجوز ان يكون خليفة النبي الاقدس فاسقاً وجاهلا .

وعلى الأول تثبت الخلافة حتماً لمن تثبت له العصمة ، وتكون هي السبيل الوحيد لمعرفته وتعيينه ، وإذا ورد النص عليه من الشارع يكون ارشاداً وتأكيداً لحكم العقل وعلى الثاني وهو ان العصمة ليست شرطاً في الخليفة فيتأتى الكلام حينئذ في أن الخليفة . هل يجب ان يكون عالماً عادلاً ، أو يجوز ان يكون جاهلاً فاسقاً ؟ . وأيضاً يتأتى الكلام في ان الطريق إلى معرفته : هل هو النص او الانتخاب ؟ .

فينبغي قبل كل اختلاف ان يتجه البحث إلى هذه النقطة ، ثم ينطلق منها إلى غيرها . والذي نراه ان العصمة لا تنفصل بحال عن خليفة النبي ، كما لا تنفصل بحال عن النبي نفسه . . وذلك ان العصمة لم تجب لشخص النبي من حيث هو . وانما وجبت له من حيث ان المنصب الذي يشغله ، والوظيفة التي يؤديها تستدعي العصمة ، والمفروض ان الخليفة يتولى هذا المنصب بالذات – ما عدا تلقي الوحي – ويقوم بنفس المهمة التي قام بها النبي من الدعوة إلى الله . وقيام الحجة به على عباده ، وبيان أحكامه ، تماماً كما هي في علم الله وعلم النبي حقيقة وواقعاً ، لا ظناً ، واجتهاداً ، فإذا لم تجب العصمة للخليفة والحال هذي ، فان معنى ذلك لا تجب لمنصب النبوة ، وإذا وجبت للنبي وجبت للخليفة بحكم المنصب والوظيفة . والفرق تحكم .

وتسأل : ان السنة استدلوا على عدم وجوب العصمة للخليفة بخلافة ابي بكر ، مع العلم بانه غير معصوم باتفاق المسلمين .

(المواقف للايجي ج ٨ ص ٣٥٠) .

الجواب : ان هذا إثبات للمدعى به بمجرد الدعوى . . وبديهة ان هذه الدعوى ليست باولى من القول بنفي الخلافة عن ابي بكر ، لانه غير معصوم بالاتفاق .

وتقول : لقد احتاج النبي إلى العصمة دفعاً للخطأ في تبليغ الوحي ، وبديهة ان الخليفة لا ينزل عليه الوحي من الله ، كي يحتاج إلى العصمة ، وانما وظيفته ان يبين الشريعة التي نزلت على محمد (ص) ويستمد احكام هذه الشريعة من كتاب الله ، وسنة الرسول اللذين يرجع إليهما كل مجتهد ، ومعلوم ان الرجوع إليهما ، واستخراج الحكم منهما لا يستدعي العصمة . وإلا وجبت لكل مجتهد وعالم من علماء الدين .

والجواب : ان مجرد الرجوع إلى الكتاب والسنة لا يرفع الخطأ في تفهمهما واستخراج الحكم منهما ، كما هو ثابت بالبديهة ، وإلا لم يقع الاختلاف بين أئمة الفقه وعلمائه ، ولم تنقسم امة محمد إلى مذاهب يكفر أهلها بعضهم بعضاً . . وإذا كان وجود الكتاب والسنة لا يرفع الاختلاف من بين العلماء وقادة الدين فلا بد من وجود مرجع لا يخطىء ابداً يلجئون إليه ، ويتحاكمون لديه ، لبيان المخطىء من المصيب ، ولا أحد ينبغي الرجوع إليه في بيان الحق الذي لا ريب فيه إلا النبي ، أومن يقوم مقامه ، ويتولى منصبه إذا غاب . . ولو افترض ان خليفة النبي يخطىء كما هو الشأن في غيره من العلماء والمجتهدين ابقي الاختلاف قائماً بدون رافع ، ولاحتاج الخليفة إلى مرشد يرده إلى الصواب ، وإذا كان هذا المرشد يخطىء احتاج إلى مرشد ، وهكذا إلى ما لا نهاية . . وهو محال – إذن – لا مناص من الالتزام باحد أمرين : اما ان يكون خليفة النبي معصوماً في فهم الشريعة وبيانها ، واما لا خلافة في الاسلام من الاساس ، وعليه يبقى الخطأ والنزاع قائماً في أمة محمد (ص) إلى يوم يبعثون . . أما القول بوجود خليفة يجوز عليه الخطأ في

فهم الشريعة وبيان القرآن والسنة فانه تماماً كالقول بوجود نبي يجوز عليه الخطأ في تبليغ الوحي وبيانه ، والفرق تحكم .

وحيث ان وجود الخليفة واجب باجماع المسلمين فتعين ان يكون معصوماً وبما ان أبا بكر غير معصوم باجماع المسلمين أيضاً فيجب نفي الخلافة عنه ، وصرفها إلى من ثبتت له العصمة .

وسؤال أخير : وهل ثبتت العصمة لاحد من أصحاب النبي (ص) ؟

الجواب : أجل ؛ لقد شهد الرسول الأعظم (ص) بعصمة علي ، حيث قال : « علي مع الحق ، والحق مع علي يدور معه حيثما دار » . . ولكن أكثرهم للحق كارهون ، كما قال تعالى في سورة المؤمنون الآية . ٧ [١] بل شهد السنة لعلي بالعصمة — ولكن بدلالة الالتزام — فانهم قالوا : كل ما اتفقت الأمة عليه فهو الحق ، لانها معصومة عن الخطأ بحديث « لا تجتمع امتي على ضلالة » . وقالوا أيضاً : أجمعت الامة على الاعتراف بعلي ، واختلفت في أبي بكر وعمر ، وقالوا أيضاً : ثبت عن علي انه كان يرى نفسه أولى بالخلافة من أبي بكر — إذن — يكون علي معصوماً ، لاعتراف الامة المعصومة به ، وهو على حق في قوله : انه أولى بالخلافة من أبي بكر وعمر ، وهما على باطل في ادعاء الخلافة لهما [٢] .

الفاضل والمفضول :

قال السنة : إذا اتصف اثنان بالفضل ، وكان احدهما افضل واكمل من الآخر يجوز اهماله ، وتقديم من هو دونه كمالاً وفضلاً . . وقد استمد السنة

---

(١) أنظر فقرة لا امام سوى العقل ، فصل أكثرهم للحق كارهون من هذا الكتاب .

(٢) أنظر فقرة الإمام علي ، فصل مع النشار من هذا الكتاب .

هذا المبدأ من قول ابي بكر : « وليتكم ولست بخيركم » كما استدلوا على عدم وجوب العصمة للخليفة بخلافة ابي بكر . فهم لا يثبتون الخلافة لابي بكر بالحق ، بل يثبتون الحق بخلافة ابي بكر واقواله ، أي انهم يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجل بالحق . كما هو الشأن عند الشيعة الذين استدلوا على خلافة علي بن أبي طالب بالكتاب والسنة والعقل واجماع الامة المعصومة التي اعترفت بعلي. واختلفت في ابي بكر وعمر . . وليس من شك ان الطباع ترفض مبدأ تقديم المفضول على الفاضل حتى الحيوانات والحشرات تأبى ان يقودها الادنى والاضعف ، كما اثبت ذلك اهل الاختصاص . ولو صح هذا المبدأ لجاز ان يكون في عصر النبي من هو أفضل منه . . ولا احسب مسلماً يجرأ على التفوه بذلك .

المشابهة والمشاركة :

من تتبع سيرة الرسول الأعظم (ص) ودعوته منذ بدايتها إلى ان فارق هذه الحياة يجد ان علي بن أبي طالب كان شريكاً له في كل ما حققه من انتصار وفي كل ما لاقاه من خطوب ومحن في سبيل دعوته . بحيث لا ينفصل محمد النبي عن علي المناصر والموازر . حتى في غزوة تبوك . فقد استخلفه على المدينة بعد ان قال له : انت مني بمنزلة هارون من موسى . ولولا مشاركة علي لمحمد في جهاده لم يكن للاسلام عين ولا أثر .

هذا . إلى ان علياً اقرب الناس إلى محمد (ص) . واكثرهم تشابهاً به في كل ما خصه الله من خلال وصفات ــ ما عدا تلقي الوحي ــ . وهنا يكمن سر تآخي الرسول لعلي، فإذا كان الله سبحانه اعلم حيث يجعل رسالته فان محمداً اعلم حيث اختار علياً لاخوته من دون اصحابه اجمعين . . وإذا كانت هذه المشابهة في الفضائل ، وتلك المشاركة في الجهاد ، والتضحية في سبيل المبادىء

التي قامت دولة الاسلام على أساسها لا تجعلان علياً خليفة للنبي ، إذا كان كذلك فلا خلافة في الاسلام على الاطلاق ، وإذا كان لمحمد خليفة حقاً فعلي دون سواه هو الخليفة ؛ ومن ادعى خلافة محمد لنفسه ــ غير علي ــ أو لغيره فهو مصداق لقوله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى
عَلَى اللهِ كَذِباً أولَئِكَ يُعْرَضُونَ
عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأشْهَادُ
هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ
ألا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾
هود ١٨ .

تسأل : إذا كانت الخلافة حقاً لعلي بن أبي طالب فكيف اسرع عمر بن الخطاب إلى مبايعة ابي بكر قبل ان تبرد جثة الرسول الأعظم (ص) .

الجواب ان عمر ابن الخطاب كان على يقين من ان الاغلبية الساحقة من المسلمين تتجه إلى علي ، فبادر إلى بيعة ابي بكر ، ليقطع الطريق على الامام ، ويحكم المؤامرة على حقه . . وقد اظهر الزمن والابحاث العلمية هذه الحقيقة . فبعد مضي اكثر من ألف وثلاثمائة وسبعين سنة كتب الاستاذ احمد عباس صالح الاديب المصري المعروف ؛ ورئيس تحرير مجلة الكاتب المصرية في عددها ٤٦ . . يناير كانون الثاني سنة ١٩٦٥ ، كتب مقالاً بعنوان : « الوسط يستولي على الحكم » . جاء فيه :

« كان علي وصحبه إلى جوار النبي يبكون ، ويعدون العدة لدفنه ، وعلى حد تعبير بعض المؤرخين كانت جثة النبي لم تبرد حين اندفع عمر بابي بكر إلى السقيفة ؛ وليبتوا في امر الخلافة . وحين ابلغ علي بالنبأ ثار ورفض البيعة ،

ورفضها معه حزبه وانصاره ، واستمر علي وصحبه ممتنعين عن البيعة ستة شهور كاملة » .

وأيضاً في هذا المقال : « وقد اعتبر علي بن أبي طالب اجتماع السقيفة في غيبته تآمر من جانب عمر ، حتى ان الخصام استمر بينهما فترة غير قصيرة – ثم قال الاستاذ صالح – ان عمر بن الخطاب شخصية غريبة تستحق الدراسة والتأمل ، ومع ان لدينا ثروة من الفكر الحديث الذي تناول هذه الشخصية فانها ما زالت في حاجة إلى مزيد.. ان هذا الرجل قوي ، ويملك المبادرة دائماً ، ويتلازم التفكير والعمل عنده كأنهما يولدان في لحظة واحدة » .

ومهما شك الباحث العارف المنصف فانه لن يشك ابداً في التآمر على علي وطعنه بالظهر ، والا كيف يبت في امر هام كالخلافة في غيبته ودون مشورته؟ وقد اشار الامام إلى ذلك بقوله مخاطباً ابا بكر :

فان كنت بالشورى ملكت امورهم فكيف بهذا والمشيرون غيب

مع النشار
في
نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام

التاريخ :

دُوّن التاريخ اول ما دوّن على الأغراض والاهواء ، او من غير تحقيق وتمحيص . . ومن اراد ان يكون على بينة من هذه الحقيقة فما عليه الا ان يقرأ ما تنشره اليوم صحف الشرق والغرب ، فسينتهي به المطاف إلى الشك والريب في كثير مما يُكتب ويُنشر . . وهو شك في محله . . تقع حادثة في بلد من البلدان ، وبعد ساعات تصدر صحف هذا البلد ، وكل صحيفة تعرض الحادثة بشكل مباين لما تعرضه الصحيفة الاخرى . . ولا سر لهذا التناقض والتهافت الا الهوى والجهل ، وليس الهوى والجهل من الصفات المستحدثة في الانسان ، ولا من خصائص عصر دون عصر ، او مجتمع دون مجتمع . . فلقد ارتبط الهوى والجهل بوجود الانسان منذ اللحظة الاولى لوجوده على وجه هذه الأرض .

فالوقائع التاريخية التي سجلها الاوائل ، والعقائد الدينية التي نسبوها إلى غير طوائفهم ليست صادقة مئة بالمئة ، بل فيها الكثير من التكهن والرجم بالغيب ، والكذب والزيف ، وبديهة ان اولى قواعد العلم ان يشك العاقل

فيما يسمع ويقرأ . ثم يمحص ويدقق . ولا كتاب عند المسلمين يؤخذ بالتسليم كمصدر للحق الا كتاب الله وحده . اما من يتلقى بالقبول كل ما دونه وسجله المؤلفون من غير تحقيق وتمحيص — حتى ما ينسب إلى الرسول — اما هذا فانه يفقد — ولا ريب — غريزة التأمل والتعقل . تماماً كمن يشك لا لشيء إلا من أجل الشك . ويرتاب . حتى في وجود الشمس والارض .

أجل . ان كثيراً من القراء يصدقون الكاتب . ويؤمنون باقواله تلقائية . وبسرعة البرق ، بل يجدون فيها اللذة والمتعة إذا نسب الخرافة والسخافة إلى طائفة لا ينتمون إليها هم وآباؤهم الأولون .

المناهج والأهداف :

المنهج هو الطريق الذي يسلكه الانسان في بحثه عن الحقيقة ، وقد يكون هذا المنهج العاطفة ، ان صح ان تكون العاطفة منهجاً . وقد يكون العقل ، أو الشرح . او قول السلف . . وقد لا يكون شيئاً سوى الظرف الذي يتكيف الباحث بحسبه من غير تصميم سابق . تماماً كالماء يتلون بلون الاناء . . وقد تتبعت الذين كتبوا ونشروا عن الشيعة وعقيدتهم ، ورددت عليهم بعد ان تأملت ملياً في المناهج التي اعتمدوها لأقوالهم . فرأيتها تختلف بحسب الأهداف والدوافع . . فمنهم من اتخذ التشويه والتضليل مبدأ واساساً لكل ما يكتب عن الشيعة . حتى كأن البغض والعداء قد جعل منه افعى تنفث السموم والاحقاد . كمحب الدين الخطيب في خطوطه العريضة ، والحفناوي في كتابه « ابو سفيان » . . ومنهم من كتب ونشر بتأثير الوراثة . والتقليد الذي سيطر على عقله وقلبه ، ورفض كل شيء لا ينسجم مع عقيدة الآباء والاجداد وهذا النوع اكثر عدداً من غيره . . ومنهم لا يعتمد منهجاً خاصاً فتراه في مورد يأخذ بقول مؤلف من السلف او الخلف دون تحقيق وتمحيص .

وفي مقام ثان يعتمد على مجرد الحدس والتخمين . وفي ثالث يعبر عن الواقع كما هو . وفي مكان آخر يقرر اشياء جازماً بها من غير تردد . ثم يذهل عن نفسه واقواله ، ويقرر ما يناقضها باسلوب الجزم أيضاً ، حتى كأنه شخص آخر . . كل ذلك يبرز جلياً واضحاً في كتاب « نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام » بجزئيه الأول والثاني للدكتور علي سامي النشار استاذ الفلسفة الاسلامية بجامعة الاسكندرية . وفي الفقرات التالية نذكر امثلة من الكتاب للتدليل على ما فيه من تهافت . وتخرص ، واعتماد على القيل والقال .

خرافة ابن سبأ :

تعلم الدكتور النشار في مدرسته ، واخذ عن اساتذته ان فكرة القداسة التي نسبت إلى علي سببها الأول عبد الله بن سبأ . . ولما انهى النشار دراسته ، ونال شهادة الدكتوراه لقن تلاميذه ما لقنه اياه اساتذته. قال في ج ١ ص ٤٦ طبعة سنة ١٩٦٥ : « تكاد تجمع كتب العقائد الاسلامية على أن عبد الله بن سبأ هو اول من دعا إلى فكرة القداسة التي نسبت إلى علي كان يهودياً قبل الاسلام » .

ولا أدري : لماذا تذكر الفيلسوف النشار ما تلقاه صغيراً عن اساتذته في ابن سبأ ، ودونه كبيراً والقاه على تلامذته ، ونسي قوله تعالى :

﴿ إنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ الاحزاب ٣٣.

وقوله :

﴿ قُلْ لا أسْألُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلاَّ المَوَدَّةَ في القُرْبَى ﴾ الشورى ٢٣ .

نسي الدكتور الاستاذ ان تقديس علي وأهل بيت النبي سببه الاول والاخير هو الله ورسول الله . وان آية التطهير نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين بشهادة مسلم في صحيحه . وأنهم المقصودون بآية المودة ؟ . .

وهل يقدس السنة الامام علياً تبعاً لابن سبا . لا لامر الله ورسوله . قال الدكتور علي سامي النشار في الجزء الثاني من كتابه نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ص ٢٨ . طبعة ١٩٦٤ ما نصه بالحرف الواحد : « يعلن أهل السنة ان علياً عالم المسلمين وفقيههم مصداقاً لحديث : « انا مدينة العلم وعلي بابها » . فقه القرآن كما فقّه السنة - اي سنة الرسول - وغاص في اعماق كل منهما . . واحتل في عقائد السنة والجماعة المكان الاول في الحياة الروحية للمسلمين ، رفعه اهل السنة والجماعة على جميع الصحابة بلا استثناء روحياً على مقام كل من ابي بكر ، وعمر » .

إذا قدّس الشيعة علياً فإنما يقدسونه استجابة إلى ابن سبا . لا اطاعة لأمر الله ورسوله . وإذا قدّس السنة علياً ورفعوه على ابي بكر وعمر فإنما يقدسونه ، لانه غاص إلى اعماق كتاب الله وسنة نبيه ولانه باب مدينة العلم بشهادة الرسول الأعظم : . . ارأيت إلى هذا المنطق ؟ .

لقد أثبت أهل العلم والتحقيق ان ابن سبا وهم وخرافة لا أساس لها ولا وجود إلا في خيال من افتعلها للدس على الشيعة والتنكيل بهم ، كما قال الدكتور طه حسين في كتاب « علي وبنوه » [1] .

---

(١) الف العلامة السيد مرتضى العسكري خاصاً في عبد الله بن سبا ، واثبت بالأرقام ، والبرهان القاطع انه خرافة مفتعلة وكتبت حوله كلمة في كتاب « مع علماء النجف الاشرف » . حتى النشار بعد ان جزم في الجزء الأول بوجود ابن سبا ، وعاد وقال في الجزء الثاني ص ٢٣ : « من المحتمل ان تكون شخصية ابن سبا شخصية موضوعة » .

وقال الاستاذ أحمد عباس صالح في مجلة الكاتب المصرية عدد مارس آذار سنة ١٩٦٥ ، ص ٥٦ ما نصه بالحرف الواحد : « عبد الله بن سبا رجل خرافي بغير شك، فاين هو من هذه الاحداث جميعاً . . وساذج بغير شك الذي يتجه إلى خلق شخصية خرافية كهذا ، ليعطيها أثراً أي أثر فيما حدث من الأحداث . . انما كل ما حيك من قصص حول عبد الله بن سبا هو من وضع المتأخرين . فلا دليل على وجوده في المراجع القديمة فضلاً عن سخافة التفكير في احتمال وجوده أصلاً » .

فكرة الأئمة الأثني عشر :

قال النشار : ان فكرة الأئمة الـ ١٢ لا وجود لها في الاسلام (ج ١ ص ٤٤٨ . و ج ٢ ص ٢١٨) .

ولو قال هذا أمي جاهل لعذرناه ، وقلنا : يشفع به الجهل وحسن النية .

اما ان يقوله دكتور يحاضر في الفلسفة الاسلامية بالجامعة ، ويؤلف كتاباً في نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ، يتجاوز عدد صفحاته الفين ومئتين . . اما هذا فلا ندري : ماذا نقول عنه . . رغم ان نفيه للفكرة من الاساس يكشف عما يكنه نحو الامامية . . ان هذه الفكرة اسلامية بحتة والذي جاء بها هو نبي الاسلام الذي لا ينطق عن الهوى . . فلقد جاء في صحيح البخاري ج ٩ ، كتاب الاحكام ، وصحيح مسلم الأول من الجزء الثاني كتاب الامارة : ان الخلفاء اثنا عشر كلهم من قريش .

وتكلمت عن ذلك مفصلاً في الجزء السادس من دائرة المعارف اللبنانية بادارة الاستاذ رئيس الجامعة فؤاد افرام البستاني ونقلت عن كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ العسقلاني : ان السنة والشيعة اتفقوا على ان

عدد الأئمة الاطهار الأبرار ١٢ . وإنما اختلفوا في تشخيصهم وتعينهم ، وان جماعة من السنة يعدون منهم يزيد بن معاوية قاتل الحسين ، وهادم الكعبة ، ومبيح المدينة المنورة ، والوليد بن يزيد المرواني الذي مزق القرآن ، وقال له :

إذا ما جئت ربك يوم حشر   فقل يا رب مزقني الوليد

ميتة الجاهلية :

قال النشار ج٦ ص ٢١٧ : « إن حديث من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية » هو حديث شيعي ليصححوا به مذهبهم في الإمامة . . . وكرر ذلك في مواضع من كتابه ، وان دل قوله هذا على شيء فإنه يدل على أنه أبعد الناس عن علم الحديث . فلقد روى السنة هذا الحديث عن معاوية أعدى أعداء الشيعة ومن السنة الذين رووه الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ، وأبو داود الطيالسي في مسنده . « الغدير للأميني ج١ ص ١٥٨ » .

الاثنا عشرية :

جاء في مقدمة الجزء الثاني من كتاب النشار ما يلي :

كانت الفكرة السائدة أن أهل السنة والمعتزلة قاموا بالدفاع عن فلسفة الإسلام المعبرة عن أصالته تجاه أهل الفلسفات الأخرى من مسيحيين و يهود وثنوية وفلاسفة بينما كان عمل الشيعة أن تهاجم فقط المجموعة الإسلامية وأن تناقض آرائها . . . وهذا خطأ كبير كان علماء الشيعة في عصرهم الأول كما كانوا في عصرهم الأخير مشاعل مفسرة لروح الإسلام تجاه أعدائه ، فوقفوا بالمرصاد للثنوية والمسيحية واليهودية والفلاسفة ، وشاركوا علماء أهل السنة والمعتزلة في إقامة البناء العقائدي الإسلامي متكاملاً متناسقاً ، ومن الثابت

تاريخياً أن مدرسة جعفر الصادق وعالمها الكبير هشام بن الحكم قد قامت بالدور الأكبر في هذا السبيل ؟

وأيضاً جاء في هذه المقدمة : « لقد عاشت الشيعة حتى الآن في التاريخ وما زال في العالم الإسلامي الملايين من الشيعة : الإثنا عشرية ، والاسماعيلية، والزيدية . ثم فرق الغلاة ، وأكبر فرقها المعاصرة الأمامية الإثنا عشرية . وهي فرقة إسلامية بحتة ، وهي لا تمثل أبداً المجتمع المغلق الذي تمثله فرق الشيعة الأخرى ، ولا تكاد تختلف الامامية المعاصرة في عقائدها عن عقائد الخلف من أهل السنة » .

وقال النشار في الجزء المذكور ص ١١ : « وعدد الشيعة الأمامية في العالم الآن ثمانون مليوناً » .

وقال في صفحة ٢٢١ : « إن هذا التطور إنما هو دليل على حيوية المذهب – أي مذهب الإمامية – ومرونته وقبوله التطور العقلي المستمر ».

وهذا القول – كما ترى – يصور الإثني عشرية بأنهم فرقة إسلامية بحتة لا تكاد تختلف عقائدها عن عقائد السنة ، وانها فرقة متحررة ، ومذهبا يقبل التطور العقلي المستمر ، وانها كانت وما زالت مشاعل مفسرة لروح الإسلام تدافع عنه ، وترد هجمات اليهود وغيرهم عليه .

ولكن النشار كثيراً ما يسجل أشياء ، ويجزم بها ، ثم يسجل ما يناقضها من غير تحفظ دون أن يشعر بتهافته وتناقضه . . . من ذلك قوله : « أثر الغلو حتى في المعتدلين ، ودخل في أعماق المذهب الإثني عشري » . . . وقال في مكان آخر : « وسبب الغلو عند الشيعة اليهود » . . .

ولا أدري كيف جمع النشار بين غلو الإثني عشرية . وبين قوله ان عقائد الإثني عشرية لا تختلف عن عقائد السنة . مع العلم بأنه ينفي الغلو عن السنة ؟ . . . وأيضاً كيف دافع الشيعة عن الإسلام . وردوا عنه هجمات اليهود وغير اليهود . وفي الوقت نفسه أخذوا الغلو عن اليهود ؟ . . .

وليس هذا هو المورد الوحيد الذي يتهافت فيه النشار . ويناقض به نفسه..

فإنه بعد أن سجل في صفحة ٢٢١ أن مذهب الإثني عشرية مرن يقبل التطور المستمر قال في صفحة ٢٢٨ : « لا إجماع عند الإثني عشرية. ولا قياس . وإنما نص قرآني . أو حديث عن إمام من الأئمة أو اجتهاد أشبه بصلصلة الأجراس » .

ولا أدري ما الذي أوحى للنشار بهذه الصلصلة ؟ . . . ولماذا عدل عن قوله الأول ولم يبتعد عنه إلا خطوات ؟ . . . وهل هذا من الفكر الفلسفي في الإسلام . أو منهج من مناهج فلسفته الحديثة ؟ . . .

ولو نظر النشار في أي كتاب من كتب الأصول . أو فقه الإستدلال عند الامامية لرأى أن مصادر التشريع : الكتاب والسنة والإجماع والعقل، وأن سنة الرسول (ص) تثبت عندهم بخبر الثقة شيعياً كان أو سنياً . وقد اشتهر بينهم هذا المبدأ : « خذوا بما رووا . ودعوا ما رأوا » ونقلت ذلك عن أوثق المصادر . وأعلنته في كتاب « مع الشيعة الامامية » . وكتاب « الشيعة والتشيع » . . وفي الصحف مرات ومرات بمناسبة ردودي على الذين يكذبون ويفترون على الشيعة بلا مبالاة . . . ولكن ما الحيلة فيمن أبى إلا أن يقول هكذا . وأن لا يرى الحقيقة إلا في وهمه وخياله . . .

وكل الناس ، حتى الأطفال والعجائز يعلمون أن الشيعة هم أهل الإجتهاد ومظهره [1] ، وأنهم فتحوا بابه ، ولا يزال ، ولن يزال مفتوحاً على مصراعيه ، وهذي كتبهم في الأصول العقلية تعد بالعشرات ، منها كتاب فرائد الأصول للشيخ الانصاري والجزء الثاني من الكفاية للشيخ الخراساني المقرران للتدريس بجامعة النجف وغيرها من معاهد إيران ، وإذا لم ير النشار هذه الكتب فإنه — ولا ريب — رأى وقرأ كتب الفلسفة وعلم الكلام ، لأنه دكتور في الفلسفة الإسلامية ، وقرأ أكثر من مرة أن الشيعة يقولون بالحسن والقبح العقليين ، ويؤمنون بأن الله سبحانه أمر هذا لأنه حسن، ونهى عن ذاك لأنه قبيح، وان السنة ينفون الحسن والقبح العقليين ، ويقولون بأن هذا حسن لأن الله نهى عنه ، ولو أمر بما نهى عنه لصار حسناً ، ولو نهى عما أمر به لصار قبيحاً .

أما القياس فان الامامية يوجبون العمل به إذا كان قطعياً ، ويأخذون بجميع المبادىء والقواعد العقلية ، حتى غير المنصوص عليها شرعاً ، على شريطة ان تؤدي إلى العلم والجزم بالحكم الشرعي ، كي لا يقولوا على الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ويحرمون العمل بالظن الذي لادليل من الشرع على اعتباره ، أما السنة فيعتمدون عليه ، وهم يتلون كتاب الله ، وقوله عز من قائل :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ يونس ٣٦ .

---

(١) جاء في كتاب اسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل المعاصر للنشار ص ٣٩١ طبعة سنة ١٩٥٥ : « وقد كان للشيعة فضل ملحوظ في اغناء المضمون الروحي للاسلام ، فان مثل حركاتهم الجامحة تأمن الاديان التحجر في قوالب جامدة » .

وعزف النشار معزوفة الرجعة والجفر والبداء والتقية والغلو ومصحف فاطمة والعصمة والمهدي المنتظر ، عزفها تماماً كما عزفنا المئات منذ ألف سنة ، أو تزيد ، ولم يطوّر أو يعدل فيها شيئاً . . لذا أحيله على كتاب « المهدي المنتظر والعقل » وكتاب « الشيعة والتشيع » الذي جمعت فيه كل نقد أو اعتراض ونقص قيل ويقال عن الشيعة ، ودحضت الاقوال الطائشة وفندتها بالارقام الصحيحة الثابتة ، ولا أدري للاعادة سوى التطويل ، وتضييع الوقت .

الامام علي :

كتب فصلاً خاصاً في الجزء الثاني بعنوان « الفصل الرابع ، صورة علي عند أهل السنة والجماعة والشيعة المعتدلة » جاء فيه :

«تولى أهل السنة والجماعة الشيخين أبا بكر وعمر ، وأنكرهما الشيعة انكاراً كاملاً .. أما علي بن أبي طالب فيدعيه أهل السنة لهم ، ويدعيه الشيعة لهم .. أما أهل السنة فيعلنون ان اسلافهم الاول قد رأوا من علي بن أبي طالب أول غلام[1] آمن ، وقد عاش في حجر النبي العظيم ، ورعاه الرسول العظيم قبل بعثته . كما رعته أم المؤمنين الاولى خديجة العظيمة برعايتها وحبها وجدبها ووقف الطفل المكي العظيم منذ اللحظة الاولى للنبوة بجانب صاحبها في الكبير وفي الصغير ، ولا يقل اعجاب أهل السنة عن اعجاب الشيعة به حين تركه رسول الله في فراشه ليلة الهجرة العظيمة ، تحرسه الملائكة وهو يواجه قريشاً العاتية . ثم هاجر إلى المدينة مع فاطمة الزهراء ، وبدأت الحروب ، وفتى بني هاشم يحمل بسيفه المنايا يحطم بها عتاة قريش ، ويكلم كل بيت من بيوتهم ، وكم فدى الرسول بنفسه في معظم مواقع القتال » .

---

(١) ذكرت في كتاب « علي والقرآن » : ان المتعصبين لم يروا وسيلة الانكار ان علياً أول من سبق إلى الإسلام ، وفي الوقت نفسه صعب عليهم الاعتراف بهذه الحقيقة فلجأوا إلى التلاعب بالألفاظ ، وقالوا : أول غلام آمن بمحمد ولم يقولوا : أول من آمن الخ .

وقال النشار في هذا الفصل بالذات ص ٢٨ : « يعلن أهل السنة أيضاً ان علياً عالم المسلمين وفقيههم مصداقاً لحديث : « انا مدينة العلم وعلي بابها » فقّه القرآن كما فقه السنة ، وغاص في أعماق كل منهما ، وكان فقيه ابي بكر كما كان فقيه عمر – أي انهما كانا يرجعان إليه في الفقه ويأخذان عنه – وقد عاش عيشة ايثار وانكار لذاته في حياة كل من الشيخين . . واخيراً انه الوحيد من بين الصحابة الذي احتفظ في كتب اهل السنة بكلمة امام ، ودعاه الحسن البصري رباني هذه الامة . وبرغم ما قام به الامويون من دعاية ، وما اعلنه النواصب من عداوة لعلي فقد احتل ابن عم الرسول وصهره في عقائد أهل السنة والجماعة المكان الاول في الحياة الروحية للمسلمين ، ورفعه اهل السنة والجماعة على جميع الصحابة بلا استثناء روحياً على مقام كل من ابي بكر وعمر » .

وقال النشار في ج٢ ص ٢٢٣ طبعة ١٩٦٤ ما نصه بالحرف الواحد : « انه من المؤكد ان الامام علي بن أبي طالب كان يرى انه احق بالخلافة بعد رسول الله (ص) وكذلك ابناؤه واحفاده من بعده » .

وقال في صفحة ٦ ما نصه بالحرف ايضاً : « كان ابو بكر يتذكر فاطمة ، ويبكي ، بل واعلن حين موته ندمه ان اقتحم منزلها بالرجال وكانت فاطمة تؤمن بلا شك بالحق الالهي لعلي في الخلافة » .

وقال النشار في صفحة ٨ : « عهد الرسول بالصلاة إلى ابي بكر ، وهي الامامة الصغرى فقاس المسلمون الامر بأن تكون له الامامة الكبرى اي الخلافة » .

وقال في صفحة ٢١٧ : « يعلن الاشاعرة – أي السنة – عصمة الجماعة للحديث المشهور : « لا تجتمع امتي على ضلالة » .

ونستلخص من مجموع هذه الاقوال القضايا التالية :

١ ـ ان المسلمين جميعاً السنة والشيعة قد اعترفوا بعلي . ولم يعترفوا كذلك بأبي بكر وعمر .

٢ ـ ان كل ما أجمع عليه المسلمون فهو حق . وإلا لما كان للعصمة من معنى [1] .

٣ ـ ان علياً كان يرى نفسه أحق بالخلافة من ابي بكر وعمر . وانه كان منكراً لذاته في حياة كل منهما . وان فاطمة بضعة النبي وانها كانت تؤمن وتعتقد ان الخلافة حق إلهي لعلي دون سواه .

٤ ـ ان أبا بكر قد آذى فاطمة [2] .

٥ ـ ان المبرر عندالسنة لتقديم ابي بكر على علي في الخلافة امامته في صلاة الجماعة .

(١) قال الغزالي في كتاب المستصفى ، الباب الثاني في بيان اركان الاجماع : « المعتمد ان العصمة انما تثبت للامة بكليتها ، قال تعالى : « وما اختلفتم فيه من شيء» فحكمه إلى الله — الشورى ١٠ » . وقد وردت اخبار تدل على قلة أهل الحق .. وقال تعالى : « اكثرهم لا يعقلون » ، فالعصمة ، اذن ، على مبدأ السنة تلازم الاجماع فقط ، أما الكثرة الغالبة فغير معصومة عن الخطأ ، بل كثيراً ما يكون الحق بجانب القلة .

(٢) جاء في صحيح البخاري ج ٥ باب مناقب فاطمة : « قال رسول الله (ص) : فاطمة بضعة مني فمن اغضبها اغضبني » .

وفي صحيح مسلم القسم الثاني من الجزء الثاني باب فضائل فاطمة : « قال رسول الله (ص) : فاطمة بضعة مني ، يريبني ما رابها ، ويؤذيني ما آذاها » .

ولسنا بحاجة إلى المزيد على هذه القضايا الخمس التي آمن بها السنة ، ونقلها النشار عن كتبهم ومصادرهم . . . وإذا جمعنا هذه القضايا بكلام واحد ، وربطنا بعضها ببعض كانت البناء المنطقي للحكم ، والدليل الوافي الكافي على ان الخلافة حق إلهي ، وان غيره غاصب لهذا الحق ، ما دامت الامة المعصومة عن الخطأ قد اعترفت بعلي ، واختلفت في غيره ، وما دام الثابت قطعاً عن الذي اعترفت به الامة المعصومة انه هو صاحب الحق دون سواه . . إذن ، لا شيء وراء هذا الا الضلال ، والافضل المعلول عن علته ، والنتيجة الحتمية عن اسسها ومقدماتها . .

وهذا بالضبط ما فعله النشار في كتابه نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام.. آمن بالمقدمات ، وجحد نتيجتها .. فكان شأنه في ذلك شأن من اعترف بأن لك يداً يمنى ، ويداً يسرى ، ثم انكر ان تكون لك يدان . . وهكذا يفعل التعصب بصاحبه . . يبعد العقل ، ويحكم الهوى الذي ينفي الشيء بادلة الثبوت ، ويثبته بادلة النفي . .

واغرب من هذا المنطق ، أو مثله في الغرابة ان يؤمن النشار وغير النشار بأن الحق الإلهي لعلي في الخلافة قد نسخه ائتمام ابي بكر في الصلاة ، مع العلم بأن القائلين بهذا النسخ يجيزون الصلاة خلف البر والفاجر ، والفاسق والعادل . . وان الكثير من أئمة المساجد لا يأتمنهم الاسلام ونبي الاسلام على عنزة جرباء من أموال المسلمين والصالح العام .

وبعد ، فهذي بكل بساطة هي عقيدة الشيعة الامامية بالخلافة – علي أولى بها من غيره – وهذا هو الفارق الجوهري بينهم وبين غيرهم من الفرق الاسلامية . . واقوال السنة تبرر هذه العقيدة . وتدل صراحة عليها ، وتنتهي حتماً إليها . . إذن ، كيف صارت هذه العقيدة غير معقولة ، ولا مقبولة ؟ .

ألان الحراني ابن سبا وضع أسسها وقواعدها في كتب السنة أو لانها لا تعترف بغير علي بن أبي طالب ؟ . . وأي ذنب للشيعة إذا اجمعت الامة المعصومة على الاعتراف بعلي ، ولم تجمع على الاعتراف بغيره ؟ . . وهل يجب على الشيعة ان يكذبوا هذه الامة المعصومة ، لا لشيء إلا لأنها اعترفت بعلي ، وإلا لان علياً وفاطمة بضعة الرسول يعتقدان بأن الخلافة حق إلهي له ؟ . . وكيف لا يكون علي محقاً ، في قوله : (انه أولى بالخلافة) ، وقد اعترفت به الامة المعصومة ، واختلفت في غيره ؟ . . وإذا كان محقاً وصادقاً في كل ما يقول ، فكيف صار المعترفون بصدقه العاملون بقوله مبطلين مفترين ؟ .

كلا أنا لا أصدق أبداً أن الذين يثيرون العجيج والضجيج حول عقيدة الامامية ويكتبون وينشرون عنها مستنكرين ، لا اصدق أبداً — مع هذه البراهين والالزامات — انهم يؤمنون بما يقولون . . بل هناك سر خفي ، يفتح أفواههم . ويحرك أقلامهم . . وقد يكمن هذا السر في التعصب الاعمى ، وقد يكون في الجيوب ، لا في القلوب . .

لا حد ولا أساس :

وهكذا يمضي النشار في كتابه الذي لا حد فيه ولا أساس لاحكامه ، ولا لطرائق اثباتها . . فتراه تارة يرسل أقواله ارسالاً اعتماداً على قول مؤلف من غير تمحيص ، كايمانه بابن سبا وغيره . وتارة يسترسل مع التخيل والتخرص ، كقوله بان فكرة الاثني عشر اماماً غير اسلامية وما إليه ، وحيناً يقرر أشياء ، ثم ينقضها ، كقوله بتحرر الامامية ومرونة مذهبهم ، ثم الحكم عليهم بالتحجر والجمود ، وفي مورد آخر تبدو أقواله قريبة من الواقع ، كالذي كشف بها حقيقة العثمانية والاموية ، وعن مكانة الامام

علي أمير المؤمنين . . ولكن أخطاءه تلك قد ذهبت بلفتاته إلى الحق والواقع ، وكل ما بذله من جهود في كتابه . . وحيث قدمنا في الفقرات السابقة أمثلة من أقواله التي لا تقوم على أساس من الحقيقة نذكر فيما يلي أقواله التي كشفت عن الحق والصدق . لا لشيء إلا للتدليل على ان النشار يسير في كتابه الضخم بغير خطى ثابتة ، وعلى طريق غير محدود المعالم ، ولا يهدف إلى شيء معين .

العثمانية والاموية :

قال في ج ٢ ص ٢٢٨ طبعة ١٩٦٥ : « كره العثمانية والاموية الاسلام أشدالكراهية ، وامتلأت صدورهم بالحقد الدفين نحو رسول الله وآله واصحابه ، كرهوا أبا بكر وعمر ، كما كرهوا علياً سواء بسواء ، ولكن الفرصة آتتهم فقط حين قتل عثمان . وباسم الشيخ الشهيد ، وامام جمهور الشام قاموا يعلنون انهم انما غضبوا لعثمان وخدع أهل الشام حقاً ، وتابعوا الكذب والخداع ، ولم يعلموا حينئذ ان من يتمسحون بالشيخين كانوا أشد أعداء الشيخين . وانهم خضعوا خلال حكميهما خوفاً من سطوة المسلمين ، وتمكيناً فقط لاقدامهم في المجتمع الجديد ، وقد كانوا بالامس الطلقاء ، والمؤلفة قلوبهم » .

وقال في ص ١٨٧ : « اعتنق أبو سفيان بن حرب الزندقة ، ولم يتنبه الباحثون إلى سبب عداوته الكبرى ، وضغنه المرير على الاسلام ، سواء في الجاهلية ، أو بعد أن أرغم على اعتناق الاسلام غداة فتح مكة ، أما السبب في هذا فهو انه كان في الجاهلية زنديقاً ، ونحن نراه يشهد حنيناً مع رسول الله (ص) وكانت الازلام معه يستقسم بها ، وكان كهفاً للمنافقين ، وكان يتشفى في المسلمين إذا كشفوا بعض الكشف يوم اليرموك ، فلم يؤمن ، حتى بعروبته » .

وقال عن عثمان بن عفان ص ٢٢٧ : « اخذت الخلافة من علي لكي تعطي لشيخ متهاوٍ متهالك . لا يحسن لامر . ولا يقيم العدل » .

وقال في ج ٢ ص ٣٣: « تولى معاوية الطليق وابن آكلة الأكباد الخلافة بعد مقتل علي بن أبي طالب . . ولكن معاوية لم يهدأ له بال . والحسن حي لذلك قرر قتله ، وتخلص منه بالسم . . ومات الطليق آخر الامر بعد ان قتل جماعة من كبار الصحابة صبراً . كحجر بن علي واصحابه . مات بعد ان بايع بالخلافة لابنه يزيد . وانتهى الامر إلى ملك غاشم يتوارثه الامويون واحداً بعد واحد » .

وقال في مقدمة الجزء الثاني : « عاد الامر إلى معاوية ابن ابي سفيان . ولم يكن المسلمون قد تناسوا اباه الثنوي المجوسي الذي لم يؤمن بالله ابداً . وسرعان ما اطلقوا – أي المسلمون – على معاوية الطليق ابن الطليق ، والوثني ابن الوثني . ومهما قيل في معاوية . ومهما حاول علماء المذهب السلفي المتأخر وبعض أهل السنة من وضعه في نسق الصحابة فان الرجل لم يؤمن ابداً بالاسلام ولقد يطلق نفثاته كثيراً على الاسلام ولكن لم يكن ليستطيع أكثر من هذا . وبدأ أبناء فاطمة يكتبون بدمائهم أكبر الملاحم » .

ويظهر ان النشار قد وجد وقتاً للتفكير والتأمل . وهو يكتب عن ابي سفيان ، وولده معاوية ، وحفيده يزيد ، وقد أدى به ذلك إلى الجزم واليقين بكفرهم وعدائهم للاسلام . . ويا ليته فكر وتدبّر في كل ما سجله بكتابه . . ولو فعل لخدم الاسلام ، وعمل على توحيد المسلمين . . ولكنه – يا للاسف – أقام بينهم الحواجز والعوائق التي لا يستفيد منها إلا أعداء الاسلام الصهيونية والاستعمار . . وهل يجهل النشار ، وهو دكتور في الفلسفة ان المشكلة الكبرى للمسلمين والعرب اليوم هي الصهيونية والاستعمار ، وليست الشيعة والتشيع .

ولا أدري : لماذا يستغل النشار ؛ وغير النشار بعض الفوارق بين المذاهب الاسلامية ويؤلفون فيها الكتب الضخمة ، ويخلقون منها الحدود والسدود بين أمة محمد (ص) في هذا الوقت بالذات ، وهم أحوج إلى التكاتف ووحدة الكلمة . . . وهل عجز النشار عن فهم هذه الحقيقة وادراكها او أنه لا يشعر بالمسؤولية اتجاه الاسلام والمسلمين ، أو هو دائماً في حيرة محزنة ؟ وبالتالي هل تريد الجمهورية العربية المتحدة ان تقود العرب والمسلمين بمؤلفات النشار وما إليها ؟

من هو علي ؟

روي عن رسول الله (ص) انه قال لعلي بن أبي طالب : يا علي ما عرف الله الا انا وانت ، وما عرفني الا لله وأنت ، وما عرفك الا الله وأنا .

وسواء أصحت هذه الرواية، او لم تصح فان كل ما يعرفه الناس عن علي انه عالم وزاهد وشجاع ، وهذا أقصى ما تدركه عقولهم . . اما حقيقة علي فلا يعرفها الا من كان فوقه أو نظيره . . وقديماً قيل : لا يعرف الفضل إلا ذووه . . وقال هو : « العالم يعرف الجاهل ، والجاهل لا يعرف العالم » . . . ان الانسان يفسر الحوادث بإملاء من منطقه الخاص ، وفي ضوء اخلاقه وعاداته، ولم يكن علي في شيء من هذه العادات والاخلاق التي عليها الناس ، ومن هنا كان خطأ التفسيرات والتقديرات بشتى اشكالها والوانها لشخصيته وذاته ، وخصائصه وسماته .

ومن تتبع سيرته ، ومحصها بروية ، وتأملها بعمق لا بد وان ينتهي إلى هذه النتيجة : إذا كان علي انساناً حقاً فغيره من ابناء هذا البشر ليس من الانسان في شيء ، وانما اصطلح الناس على تسميته بهذا الاسم ، والتعبير عنه بهذا

اللفظ ، تماماً كما يحلو لمن يسمي ثوره قمراً أو غزالاً ، وامته السوداء او ثلجة . . وإذا كان غير علي انساناً فعلي فوق الانسان .

ومما لا شك فيه ان افراد الناس تتفاوت في الكسل والنشاط ، وفي البخل والجود ، وفي الجبن والاقدام ، والطيبة والخبث ، والبلادة والذكاء ، وما إلى ذلك ، كما تتفاوت افراد الحبوب والخضار والفواكه من نوع واحد . . ولكن مهما بلغ مدى هذا التفاوت تبقى نسبة الجميع إلى الماهية والنوع واحدة ، اما إذا كانت النسبة بين شيئين تماماً كالنسبة بين الظلمات والنور ، وبين الحياة والممات فمن الخطأ والجهل القول بأنهما فردان لمفهوم واحد .

واحسب باني لست بحاجة إلى ضرب الأمثال من سيرة الرجال والمقارنة بينها وبين سيرته ، لاقنعك بأن علياً فوق الناس اجمعين . . وان كان لدي الكثير من سيرتهم وسيرته الدقيقة العميقة التي لا يعرف اسرارها على وجهها وحقيقتها الا من كان فوق علي ، او من هو في منزلته وعظمته . لست بحاجة إلى هذا التطويل والتدليل فان الاشارة التالية كافية وافية بالغرض وتحقق القصد :

تصرخ عائشة ، وهي على جملها ، وتنادي محرضة على عليّ بن ابي طالب : من يأتيني برأس الأصلع ، فله هذه البدرة . . . حتى إذا ظفر بها الأصلع ، واصبحت حياتها بين شفتيه بجملها وكرمها ، واعطاها بدراً ، لا بدرة واحدة . . ويضربه ابن ملجم ضربته القاتلة بتحريض عاهرة فاجرة ، فيطعمه الامام من طعامه ، ويسقيه من شرابه ، حتى إذا شعر بدنو أجله اوصى بقاتله خيراً ، قال لابنائه : وان تعفو اقرب للتقوى .

وتصدى لقتله وغد من الاشرار ، فأخذ الامام بتلابيبه ، والقاه على ظهره وجلس على صدره ، ووجهه إلى وجهه ، وحين رأى الوغد لمعان السيف ،

وايقن انه مقتولاً لا محالة بصق في وجهه ، فقام عنه الامام واخلى سبيله . . ولما قيل له : لم تركته ؟! . . قال : خشيت إذا انا قتلته يكون ذلك غضباً لنفسي ، لا لله . . وفي احدى المعارك برز لقتاله بطل من المشركين يلقب بكبش الكتيبة فصرعه الامام ، والقى به على الارض . ولما رفع السيف ليقطع الرأس قال له أتقتلني يا علي ، ومن لصبيتي الصغار ؟ ! فقام عنه وقال : انت لصبيتك . . لقد وهبتك لهم .

وفي موقعة اخرى شهر السيف على فارس ينازله ، وقبل ان يهوي به على رأسه قال : يا علي هبني سيفك هذا فقال له الامام : اجل ، هو لك ، فأعطاه السيف ، ووقف امامه أعزل . ولهذه الحوادث مثيلات . وكلنا يعرف قصة ابن العاص وبسر ابن ارطاة ، والكشف عن السيئات والسوآت . .

وما تفسير هذا ؟ . . هل هو كرم واريحية ، او انكار للذات بالكلية ، او ترجمة للارادة الالهية ؟ . . وهل يأبى الله القضاء على العنف بالعنف ، ودفع القاتل بالقتل ؟

الله اعلم . . ولكني اعلم علم اليقين ان هذه الخصائص والسمات ليست في شيء من هذه الطبيعة التي عليها الناس

علي انسان ، وهذا المخلوق الناطق انسان ؟ ! . . علي امام ، وهذا الذي ينافس ويبني له ولاولاده امام ؟ ! . . علي خليفة . . رسول الله ، وذاك الغاصب المساوم خليفة رسول الله . . . (ص) ابداً اما ان يكون علي وحدانياً في ذاته وحقيقته ليس كمثله احد من الائمة والخلفاء ولا من غيرهم ، واما ان هذه المقاييس التي نقيس بها الفضيلة والرذيلة ضلال واوهام . .

وربما وجدت واحداً يرفض الحكم والسلطان زهداً ، او تهرباً من المسئولية اما ان تجد من يكره السلطة والامارة بفطرته ، ويأبى الظهور والتفوق بغريزته ، ومع ذلك يستسلم لتولي الحكم مكرهاً ، تماماً كما يستسلم المريض لعملية جراحية اما هذا فلم نعهده الا من علي بن ابي طالب الذي قال : ما لعلي ولنعيم ، يفنى ، ولذة لا تبقى؟!.. قبل الامام البيعة لنفسه ، وهو يعلم ما تجره عليه من الاذى والمتاعب ، قبلها لا لشيء الا لاصلاح البلاد ، وامن العباد ، والا ليدفع ظلامة عن مظلوم ، وينفس كربة عن مهموم ، فمن اقواله . « اللهم انك تعلم انه لم يكن الذي كان منا مُنافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام ولكن لنرد المعالم من دينك ، ونظهر الاصلاح في بلادك ، فيأمن المظلوم من عبادك ، وتقام المعطلة من حدودك » .

هذا هو الهدف الاول والاخير لعلي بن أبي طالب من قبول الخلافة .. أمن العباد ، والاصلاح في البلاد ، اما الدنيا وحطامها ، اما الشعور بذاته ، والعمل لنفسه فلا وزن له في حسابه . وهل يشعر بذاته ونفسه من خاطب الله قولاً وعملاً : ما عبدتك طمعاً في جنتك ، ولا خوفاً من نارك ، وانما وجدتك اهلاً للعبادة فعبدتك ؟

من هنا ، من عدم شعور علي بنفسه ، واللامبالاة بها في هناء كانت او بلاء وعدم الاهتمام بشيء الا بالحق . . من هنا يفترق علي عن هذه الطبيعة البشرية التي من ابرز خصائصها الانانية والشعور بالذات ، والعمل من اجلها فقط اما الحق فكلام فارغ الا بمقدار ما يجلب النفع ، ويدفع الضر .

وبالتالي ، فأنا مسلم قرآني محمدي . اؤمن بأن الله وحده هو الخالق الرازق ، وهو وحده يحاسب غداً ، ويعاقب ، واتبرأ من المغالاة والغلاة ، واعتمد في كل ما ادين القرآن الكريم ، والعقل السليم ، واعلم بأن الله سبحانه

قد اكد في كتابه العزيز بأن محمداً بشر يأكل الطعام ، ويمشي في الاسواق ، واعتقد بانه الاستاذ والمعلم لعلي بن أبي طالب ، ولكن ليس معنى هذا ان الله سبحانه لم يخص محمداً وعلياً بقوى ذاتية تميزها عن جميع الناس ، وترتفع بهما إلى ما فوق الانسان ، ودون الخالق بما هو خالق . واي محذور ان يخص الله واحداً او اثنين من عباده بقوى وغرائز دون الكائنات جميعاً ؟.. بل ان العقل ليدرك هذه القوى الخاصة الذاتية بمحمد وعلي دون سواهما بعد ان شاهد من افعالهما وآثارهما ما لم يكن ولن يكون من غيرهما على الاطلاق .

علي والقرآن

الاسلام
وضربة علي يوم الخندق

أين نزل القرآن ؟ وفي أي بيت ولد الاسلام ونشأ وترعرع ؟ ومن الذي تعهده ورعاه حتى اصبح قوياً منيعاً ؟ ومن الذي كدح في سبيله ، وتحمل الاذى ، وضحى بالنفس والاهل والاولاد من اجله؟ ومن الذي فدى الرسول بمهجته، وسبق إلى دعوته؟ ومن الذي قاتل الاقارب والارحام، وشهر سيفه في وجوه الابطال والشجعان، ولم يدع بيتاً في العرب إلا ترك فيه ناعياً أو ناعية من اجل كلمة « لا إله إلا الله ومحمد رسول الله » ومن الذي سبح ابناؤه في بحر من دمائهم ، وذبحت الرضع من احفاده في حجور الامهات ، وتقيأ ولده البكر قلبه قطعاً من السم ، وسبيت بناته على رؤوس الاشهاد يبتز العدو نقابها ورداءها ، وأي شهيد أعجب من الشهداء أولاداً واحفاد وابناء احفاد واحفاد واحفاد؟ ومن الذي احرقت بيوته ومساكنه بعد السلب والنهب . كل ذلك من اجل القرآن واحياء مبادئه والعمل بتعاليمه .

ان هذه الصفات لم توجد مجتمعة الا بالامام علي بن أبي طالب (ع) .

عاش محمد (ص) في نفس البيت الذي عاش فيه علي ، حيث كفله عمه ابو طالب ، وزوجته فاطمة بنت اسد بعد ان توفي ابوه عبد الله وجده

عبدالمطلب[1] وكانت ام علي أبر الناس بالنبي بعد عمه ابي طالب ، واول هاشمية ولدت هاشمياً ، وقد اسلمت وهاجرت وتوفيت بالمدينة وتولى النبي دفنها وألبسها قميصه واضطجع في قبرها ، وبكى عليها ، وقال جزاك الله خيراً من ام ، ولما سئل عن ذلك قال : انها كانت احسن خلق الله صنعاً إلي بعد أبي طالب .

ولد علي في الكعبة ، وفي نفس السنة التي تبهل فيها الرسول [2] واعتزل في جبل حراء ، ومكث علي قليلاً في بيت ابيه ، ثم انتقل ، وهو طفل إلى بيت الرسول ، وذلك أن قريشاً اصابتها شدة ، وكان ابو طالب ذا عيال ، فضم العباس جعفراً ، والنبي علياً ليخففا عنه ، وبقي ملازماً له في جميع حالاته .

واسلم علي قبل ان يمضي على نزول الوحي اربع وعشرين ساعة[3] ، وشارك النبي في أول صلاة صلاها لله ، وكان معه في حروبه من اولها إلى آخرها ما عدا غزوة تبوك ، حيث استخلفه الرسول على المدينة ، ليعلم الناس بأنها لا تصلح

(١) لعبد المطلب عشرة أولاد ذكور ، العباس وحمزة والزبير وجحل ، وهو الغيداق ، والمقدم وضرار وهو نوفل ، والحارث وابو لهب ، وهو عبد العزى ، وابو طالب ، وهو عبد مناف وعبد الله ، وكانوا من امهات شتى إلا عبد الله وابو طالب والزبير ، فان امهم فاطمة بنت عمرو بن عايذ ، ومحمد وعلي ابناء عم لاب وام ، ولم يعقب الزبير ، واعقب عبد الله محمداً ، واعقب ابو طالب جعفراً وعقيلاً وعلياً ، وكان كل واحد من أولاد ابي طالب يكبر اخاه بعشر سنين « بحار الانوار للمجلسي » .

(٢) قيل : ولد علي سنة ٣٠ لميلاد الرسول .

(٣) من طرائف الحيل والتلاعب بالألفاظ ان بعض القدامى لما لم يجد مفراً من الاعتراف بأن علياً سبق الى الإسلام لف ودار ، ثم قال : أول من اسلم من النساء خديجة ، ومن الرجال أبو بكر ومن الصغار علي !

من بعده الا بعلي ، واعلن ذلك بقوله للامام : اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هرون من موسى الا انه لا نبي بعدي ، ويدل هذا الحديث دلالة صريحة على ان علياً يستوجب من محمد كلما وجب لهرون من موسى مما نطقت به الآية الكريمة :

﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي
هَرُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي
وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ طه ٣٠ ـ ٣٣ .

وكما استجاب الله لموسى بقوله :

﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾
طه ٣٧ .

فقد شهد لمحمد بأنه لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى »

استحق علي هذه المنزلة من الله والرسول لعمله لا لقرابته من محمد فقط فكما ان محمداً عظيم ، لانه على خلق عظيم لا بأعمامه واخواله كذلك علي عظيم باخلاصه وجهاده وحسن بلائه مع الرسول فقد كان يقتل من جيش المشركين النصف لوحده، ويقتل المسلمون بكاملهم النصف، كما حدث يوم بدر ، وفر جيش الرسول يوم احد الا قليلاً ، كان في طليعتهم ابو الحسنين علي.

ويوم الخندق تجمعت الاحزاب ، وتألبت قريش وغطفان وفزارة واليهود وغيرهم ، واتفقوا كلمة واحدة على غزو المدينة عاصمة النبي والقضاء عليه وعلى الاسلام ، حتى لا يبقى له عين ولا أثر ، وتراكم جيش الشرك من فوق المسلمين ومن اسفل منهم ، وزاغت أبصار الاصحاب وبلغت القلوب الحناجر ، وما رجعت إليهم انفاسهم الابعد ان شهر سيفه كاشف الكربات وكافي المهمات .

وقصة قتل علي عمرواً اشهر من ان تذكر ولكنني أود الوقوف قليلاً عند كلمة الرسول الاعظم : « برز الاسلام كله إلى الشرك كله » .

وليس من شك ان عمراً كان كل الشرك لانه رأس المشركين وقائدهم وبه وحده مصيرهم حياة أو مماتاً ، اما المسلمون فرئيسهم النبي . فهو الحامي والكفيل وبحياته يرتبط مصير الاسلام والقرآن اذن فما هو الوجه للتعبير عن شخص الامام « بالاسلام كله » مع وجود الرسول الاعظم ؟

والجواب : ان احزاب الشرك تجمعت وتراصت كتلة واحدة . وهدفها الاول والاخير القضاء على الرسول ، فهو المقصود دون غيره ؛ لان الاسلام قائم بشخصه وحده . حيث لم يقو بعد وينتشر في الاقطار ، ولم تعتنقه الا هذه الشرذمة القليلة التي التفت حول الرسول فالقضاء عليه تقطيع لا وصال المسلمين جميعاً . وقضاء على الاسلام في المهد ، واستئصال له من الجذور بحيث لا تقوم له قائمة .

وبرز علي لعكس الغاية اي ليقطع رأس الشرك . ويقضي عليه القضاء الاخير حتى لا يبقى له من اثر في جزيرة العرب ، ويزول العائق الاكبر من طريق الاسلام وانتشاره في كل مكان ، لان المشركين كانوا العقبة الاولى في سبيل الاسلام وامتداده لذا قال الرسول بعد ان قتل عمرو : « اليوم نغزوهم ولا يغزوننا » . برز علي لابن ود لتتم رسالة النبي كافية وافية ، وتخفق راية الاسلام في الشرق والغرب .

إذن مبارزة علي كانت نقطة التحول ، وأشبه بمقابلة جيش وطني لجيش أجنبي فاتح في معركة فاصلة ، والحد الفاصل هنا بين الشرك والاسلام قتال علي وعمرو ، اما ان يقتل علي عمراً فينمحي الشرك من بلاد العرب ، وينمحي

معه كل معارض للاسلام » اما ان يقتل عمرو علياً . فيذهب الاسلام ، وينتصر الشرك ، وتكون كلمته هي العليا .

ويأبى الله الا ان يكفي المؤمنين القتال بعلي ، والا ان يتم نوره بضربته لعمرو ، والا يكون له الفضل في احياء الدين وتعاليم القرآن وانتشار الاسلام . والا ان يشارك كل عامل بخير في ثوابه وحسناته . فما من مسجد يبنى ، ولا مأذنة ترفع ولا معهداً أسس للدين والشريعة . ولا من صوت يرتفع بآي الذكر الحكيم « ولا من صائم وقائم لله من يوم الخندق إلى قيام الساعة » الا يعود الفضل فيه إلى ضربة علي لابن ود . ولولاها لما كان الاسلام والقرآن . وبهذا نجد التفسير الصحيح لقول النبي : « ضربة علي يوم الخندق تعادل عمل الثقلين » وفي رواية اخرى « لمبارزة علي لعمرو أفضل من أعمال امتي إلى يوم القيامة »[1] وبه أيضاً نعرف السر لقول الشيعة بأن علياً شريك القرآن في آثاره وتأثيره في تنوير العقول واحياء العلوم ، وفي انتشار العقيدة الحقة على هذا الكوكب من يوم الخندق إلى ما شاء الله ، لانه السبب للمحافظة على القرآن ، ودفع العدوان عنه . واستمراره إلى يوم يبعثون . وكلنا يعرف « ان الساعي للخير كفاعله » « وان من سن سنة حسنة فله أجرها واجر عمل بها » .

نقول هذا مع الايمان بأن علياً حسنة من حسنات النبي ، وان كل ما اتفق له من الخير كان بدعاء النبي وتوجيهاته . فالثناء على الامام كالثناء على ضوء القمر المستمد من نور الشمس ولا شيء أدل على ذلك من قول الامام مفتخراً : أنا خاصف النعل ، أي مصلح نعل الرسول ، وقوله :

---

(١) في كتاب دلائل الصدق ان هذا الحديث ذكره صاحب المواقيت والحاكم في المستدرك ص ٣٢ ج ٣ حق السنة ..

« دخلت على رسول الله، وكانت له هيبة وجلال ، ولما قعدت بين يديه أفحمت . فوالله ما استطعت ان اكلمه » .

وقوله :

« وقد علمتم موضعي من رسول الله بالقرابة القريبة ، والمنزلة الخصيصة وضعني في حجره وانا وليد يضمني إلى صدره ، ويكنفني في فراشه ويمسني جسده ، ويشمني عرقه . وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه . وما وجد لي كذبة في قول ولا فعل ، ولقد قرن الله به من لدن كان فطيماً أعظم ملك يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العلم ليله ونهاره ، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر امه يرفع لي كل يوم نميراً من أخلاقه ، ويأمرني بالاقتداء به ولقد كان يجاور بحراء . فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول الله وخديجة . وانا ثالثهما . أرى نور الوحي والرسالة واشم ريح النبوة » .

وبهذه المناسبة أذكر حواراً دار بيني وبين أحد الادباء الذين درسوا الامام درساً وافياً . وانتشوا بعظمته وبلاغته . ولم يعرفوا شيئاً عن النبوة وجلالها .

قال : ان إنسانية الامام تفوق إنسانية الاولين والآخرين . قال هذا ، ولم يستثن ! .

قلت : لا بد من الاستثناء .

فأبى وأصر .

قلت : هذه دعوى تفتقر إلى الدليل .

قال : ان الامام يرى اراقه الدم جريمة ، مهما كان السبب .

قلت : لم تأت بالدليل ، وانما أتيت بدعوى ثانية تطلب الاثبات .

قال : اوصى بقاتله ، وعفا عن مروان بن الحكم يوم الجمل . ولم يقتل عمرو بن العاص يوم صفين ، وقد ظفر به ، وكانت النتيجة أن انتصر معاوية ، ثم قتل الامام .

قلت : ولكنه قتل الكثير في بدر وأحد والأحزاب وخيبر وغيرها .

قال : كان في هذه الحروب جندياً مأموراً ، ولم يكن آمراً .

قلت : كان في حرب الجمل وصفين والنهروان ، آمراً ، مع ذلك قتل العشرات .

قال قاتل مدافعاً لا مهاجماً .

قلت كل الأنبياء والصلحاء يدافعون ولا يهاجمون ، ويستعملون العنف للقضاء على العنف يقتلون واحداً ، ليسلم المئات .

قال : أجل ، ولكن لم يعرف التاريخ ولن يعرف انساناً أرحم من علي .

قلت : لو قلتها من الاول لأرحت واسترحت .

وأي شيء أدل على رحمة الامام وانسانيته من قوله : « إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه » . قد يكون الانسان رحيماً بالكائنات كلها ، وقد يتغلب على غضبه في حالات شتى ، وقد يتنازل عن الكثير من حقه ، أما الرحمة بالعدو والشفقة عليه فلن يفعلها إلا من جعله الله مصباحاً يهتدي به التائهون .

وكم تمنيت أن يتعظ بهذه الحكمة بعض المنتمين إلى الدين الذين يحاولون الانتقام بطريق الدس والنفاق على المخلصين الابرياء ، لا لشيء إلا لأنهم لا يتبعون سياستهم الحزبية وأغراضهم الشخصية .

القرآن والفلسفة

قال بعض الجدد من رواة الغرب : ليس للمسلمين فلسفة مستقلة . وان فلاسفتهم رواة لسقراط وافلاطون وأرسطو ، وغيرهم من فلاسفة اليونان .

وقد تصدى للرد على هذا القول جماعة أثبتوا بالدليل القاطع جهل قائله ، وتجنيه على الحقيقة . وما رأيت — فيما قرأت — من وفى المقام حقه ، كالاستاذ قدري حافظ طوقان في كتابيه اليتيمين : « الخالدون العرب » و « تراث العرب العلمي » .

قال المتحذلقون :

انى يكون للمسلمين فلسفة ، ولم يكن لهم — قبل ان يتصلوا بالامم — إلا القرآن والحديث .

وهذا حق وصدق ، لقد اتى على المسلمين حين من الدهر لم يكن لهم إلا القرآن والحديث . ولكن نسأل : هل القرآن كتاب « أبو معشر الفلكي » والحديث قصة « أبو زيد الهلالي » وقد يجاب بانه في الامكان ان نرجع العلوم العربية والفقه إلى القرآن والسنة ، أما البحوث الفلسفية ، كتقسيم الموجودات إلى جواهر واعراض ، وقدم العالم أو حدوثه ، واقسام التقابل ، والحواس الباطنية ، وما إلى ذاك من الموضوعات الفلسفية يمكن اسنادها إلى آية أو

رواية، لقد اعتمد القرآن في مخاطبة العرب على فطرتهم وعاطفتهم ولم يعتمد على البراهين وتأليف الاقيسة المنطقية . لان العرب كانوا امة امية لا يعرفون اصول الجدل والموازنات الفلسفية . وإذا لم يكن القرآن كتاباً فلسفياً فمن اين تأتيهم الفلسفة ؟ !

الجواب :

١ — ان القرآن لم يكن لجيل دون جيل . ولا لأمة دون امة . وانما هو لجميع الامم والأجيال ، هو للانسان أينما كان . هو للحق والانسانية التي لا تحد بوقت أو مكان . ولا بفئة أو جنس. وإذا كان القرآن للأمم المتقدمة والمتخلفة على السواء كان من الضروري ان يخاطب الفطرة والعقل . ثم إن العرب الذين خاطبهم القرآن كانوا على عقائد شتى . فمنهم الدهريون الذين أنكروا الخالق والبعث ومنهم المشركون عبدة الاوثان . ومنهم أهل الكتاب ، وقد ناقش القرآن هؤلاء جميعاً . وقال كلمته الفاصلة فيما كانوا فيه يختلفون، واثبت الحق بالادلة المنطقية والبراهين العقلية والشواهد الوجدانية ، وهل للفلسفة معنى أو هدف غير ذلك ؟ !

٢ — ان الفلسفة كسائر العلوم لها موضوع وغاية ، وموضوعها طبيعة الوجود كما هو ، أي انها تبحث عن حقائق الوجود في هذا الكون ، أما غايتها فمعرفة الحقيقة ، والقرآن تكلم عن الكون وحدوثه وأصله ومصيره ، وعن السماء واجرامها ، والارض وآياتها ، وعن الانسان وحقيقته وأفعاله ، وما إلى ذلك مما أصبح أساساً لكثير من العلوم

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ النحل ٨٩ .

وقد وضع العلماء كتباً خاصة في علوم القرآن ، منها منهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني والتبيان لابن قيم الجوزية والاتقان للسيوطي ومباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي صالح ، وغيرها . أجل لم يكن للعرب إلا القرآن ، وكفى به مصدراً للعلوم وبحورها ، وبه وحده أصبح العرب آباء العلم الحديث — كما قال نهرو — لا بما نقلوه من الفلسفة اليونانية ، وبالقرآن دون سواه كان العلم يثب قائماً على قدميه في كل أرض وطأتها أقدام العرب — كما قال العلامة الانكليزي ولز — لا بآراء أفلاطون وأرسطو .

لقد نقل العرب عن اليونان ، كما نقل اليونان عن مصر و بلاد ما بين النهرين ، وان دل هذا النقل على شيء فانما يدل على حضارة العرب وتفاعلهم مع الغير ، وانهم يرغبون أن يجمعوا إلى علمهم علوم الناس ، ولا يقفوابالحضارة عند حد ويطلبوها انى تكون ، ويأخذوا الحكمة من أي وعاء خرجت ، كما أمرهم النبي العظيم والقرآن الكريم .

وإذا قال أجنبي جاهل أو متحامل بان المسلمين ليسوا فلاسفة فقد كتب قادة الفكر في الغرب عن حضارة المسلمين وفلسفتهم المجلدات ، وأثبتوا بالأرقام ان الفضل في حضارة هذا العصر يعود إلى الإسلام ؛ ولولاهم لتأخرت مئات السنين . ان العرب ترجموا فلسفة اليونان إلى لغتهم ، ولكن ما أتوا به من النظريات يجعل الموازنة بين الفلسفة الاسلامية واليونانية ، كالموازنة بين المركب الشراعي والمركب البخاري . ان الامة التي انجبت الرازي والبستاني والبيروني وابن الهيثم والشيرازي والطوسي والغزالي وابن حيان والفارابي وابن سينا والكندي وغيرهم لا يصح فيها القول بأنه لا فلسفة لها . ونذكر بعض ما ابتكر هؤلاء من النظريات على سبيل التمثيل لا الحصر .

سبق الرازي نيوتن إلى نظرية الجاذبية ، حيث علل سقوط الجسم نحو الأرض بأن فيها قوة قاهرة تحكم على الأشياء بالانجذاب . والحسن بن الهيثم أول من وضع علم البصريات الذي يبحث سقوط الاشعة والضوء على الأجسام ، ووضع محمد بن موسى علم الجبر ، وكان لجابر بن حيان في الكيمياء ما كان لارسطو في المنطق . وقال هشام بن الحكم تلميذ الامام جعفر الصادق واستاذ النظام : ان الاصوات والاضواء أجسام ، لا كيفيات وأعراض . وسجل التاريخ لابي الحسن الذي عاش في بداية القرن الثالث عشر للميلاد نظريات محكمة في قياس الوقت ونصير الدين الطوسي أول من فصل المثلثات عن الفلك ، وجعلها علماً مستقلاً ، وكتابه « شكل القطاع » ترجم إلى اللاتينية والفرنسية والانكليزية ، وبقي قروناً عديدة مصدر العلماء في أوروبا . قال الاستاذ قدري طوقان في « الخالدون العرب » : « لا يعتبر الطوسي متفوقاً في الهندسة لا على معاصريه فحسب ، بل وعلى علماء الهندسة في هذا العصر » : وقال محمد بن ابراهيم المعروف بصدر المتألهين [1] بنظرية التطور وقررها على أساس متين وسبق دارون بثلاثمئة سنة . ولذا قال درويير الاميركي في كتابه : « المنازعة بين العلم والدين » : ان مذهب النشوء والارتقاء كان يدرس في مدارس العرب والمسلمين ، وكانوا قد ذهبوا فيه إلى مدى أوسع وابعد مما وصلنا إليه بتطبيقه على الجامعات والمعادن معاً . ويوجد في مدينة اصفهان بإيران مسجد اسمه «مسجد شاه » وضع تصميمه واشرف على بنائه بهاء الدين العاملي ، فإذا تكلم انسان بكلمة تحت قبته تكرر صدى الكلمة سبع مرات ، وإذا تكلم في طرفه سمعه من في الطرف الآخر ، على ما بينهما من البعد ،

---

(١) رحلة « الإمام الزنجاني » ص ٤٠٠ طبعة ١٩٤٧ ، و صدر المتألهين من فلاسفة القرن السادس عشر الميلادي .

حتى كأنه يتكلم في أعظم مكبر للصوت . وقد تبين ان السر في حجرتين بأرض المسجد صنعهما البهائي بشكل هندسي دقيق ؛ وما زال المسجد قائماً إلى الآن يؤمه المسافرون والسائحون من كل صوب .

ومرة ثانية نؤكد ان الفضل في حضارة العرب يعود للقرآن وحده ، ليس لانه كتاب دين فحسب . وانما هو كتاب دين وفن وتشريع وفلسفة وعلم واخلاق واقتصاد وسياسة . وسائر المعارف البشرية . وإذا لم نجد فروع هذه العلوم ومسائلها مبوبة مفصلة في القرآن . كما هي في الكتب الموضوعة لهذه الغاية فاننا نجد فيه جميع اصولها واسسها التي لا تشذ عنها مسألة واحدة يفرضها الواقع ، وقد تجلت هذه الحقيقة شيئاً فشيئاً بمرور الزمن وتقدم العلوم ، فكلما اكتشف جديد وجدنا لهأساساً في القرآن ، ومن هنا قال ابن عباس : في القرآن معان سوف يفسرها الزمن . وقال الامام جعفر الصادق . ان في القرآن تأويلاً ، منه ما قد جاء ، ومنه لم يجيء ، وقال: باي شيء الحلال والحرام في جنب العلم . يريد العلم الذي في القرآن (١) آي ان الفقه قليل من كثير بالنسبة إلى ما تعرض له القرآن من العلوم ، وقدم الاستاذ نوفل في كتابيه الله والعلم الحديث ، والقرآن والعلم الحديث ارقاماً تشذ لهذا القول بالحق والصدق . قال رينورث : « يجب ان نعترف بأن العلوم الطبيعية والفلك والفلسفة والرياضيات التي انعشت اوروبا في القرن العاشر مقتبسة من القرآن » وهل بعد هذا يقال ليس للمسلمين فلسفة ولاعلوم ؟ ! وهل بعد كتاب الله الخالد الذي لا ينضب له معين يستكثر على الامام علي بن أبي طالب ان يصف النملة والخفاش والطاووس ، وان يتكلم عن تنزيه الخالق ودقائق العلوم ، ثم يستنتج هذا

(١) علم اليقين لمحسن الفيض ١٢٦ طبعة ١٣٠٣ هـ .

المتحذلق ان نهج البلاغة مدسوس على الامام لا لشيء الا لانه لا فلسفة للمسلمين والا لانه فوق مستوى الامام العقلي والثقافي ؟ !

ان نفي العلم عن الامام يستلزم احد امرين لا ثالث لهما . اما نفي العلم عن القرآن وعن محمد . واما يكون الامام جامع بعلوم القرآن وسنة محمد . ولم يجرؤ عاقل على القول بواحد منهما . هذا إذا كان للفلسفة واقع تعبر عنه .

وقد يتساءل : ما هي العلاقة بين القرآن ومحمد من جهة وعلي من جهة ثانية حتى جزمت وحكمت بان نفي العلم عن علي يستلزم نفي العلم عنهما ؟

والجواب عن هذا التساؤل يعرفه كل مسلم ، وكل من ألم بتاريخ الاسلام ان القريب والبعيد يعلمان علم اليقين أن علياً ترجمان القرآن ، ولسانه الناطق وانه السبيل الواضح إلى علم الرسول ، واعلم الناس بسنته كما قالت عائشة ، وإذا كان علي جاهلاً بالقرآن والسنة فمن هو العالم من الاه حاب ؟ ! وهذه العلوم الاسلامية التي اقيمت وتقام لها الجامعات . ووضعت فيها آلاف المجلدات وكيف انتشرت في اقطار المعمورة ؟ او من اين وصلت إلى المسلمين ما دام علم الكتاب والسنة محجوباً عن علي اخص الناس بالرسول واخلصهم لله واسبقهم إلى الاسلام ؟ !

قال الرسول الاعظم : علي مني بمنزلة رأسي من جسدي [1] وعن ابي بكر انه سمع الرسول يقول : علي مني بمنزلتي من ربي [2] وقال النبي : ليهنك العلم يا أبا الحسن ، لقد شربت العلم شرباً ، ونهلته نهلاً ، وقال :

(١) ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى ص ٦٤ .

(٢) نفس المصدر .

أنا مدينة العلم وعلي بابها [1] وقال ابن عباس : أعطي علي تسعة أعشار العلم . وشارك الناس بالعشر العاشر . وقال عمر بن الخطاب : كان النبي يغزو علياً بالعلم غزاً . ومعنى الغز الغزارة والكثرة . وقال سعيد بن المسيب : لم يكن من أصحاب الرسول أحد يقول سلوني إلا علياً وقال : لو شئت أو قرت سبعين بعيراً من سورة الفاتحة [2] .

ولا ينتهي الحديث عن فضل علي ومكانه من العلم ولا يستطيع الكاتب أن يأتي بجديد بعد ان الف علماء الشرق والغرب من المسلمين وغير المسلمين في ذلك المجلدات الطوال .

(١) نفس المصدر .

(٢) المصدر السابق ص ٧٩ ، وكتاب « حياة علي بن أبي طالب » للشيخ الشنقيطي ص ٤٦ وبعدها طبعة ١٩٣٦ .

غاية الفلسفة عند الامام

إذا كانت الفلسفة اقيسة صورية ، وتقسيم الموجودات إلى ذهنية وخارجية وجواهر واعراض. وكليات لا وجود لها إلا في الوهم. وإذا كان الفيلسوف هو الذي يجلس في غرفة مظلمة يفكر في حقيقة العالم وطبيعة الوجود ، وينزع بفكره إلى التحليق فوق حياتنا هذه التي نحياها . ويتخذ من عقله مختبراً يصنع له المبادىء والقواعد ، ثم يمليها على الناس الغازاً وطلاسم . إذا كانت هذه هي الفلسفة فالامام أبعد الناس عنها وعن الفلاسفة .

وإذا كانت الفلسفة توضيح الافكار ، ثم عرضها على العقل ، ليحاكمها ويميز بين سليمها وسقيمها ، ويدعم الصحيح بالحجة والمنطق ، ثم ايمان القلب بما أرشد إليه العقل إيماناً لا تزحزحه القوى مجتمعة ، ثم العمل باخلاص على طبق هذا الايمان ، إذا كانت هذه هي الفلسفة فالامام سيد الفلاسفة ومعلمهم الاكبر .

الفلسفة عند الامام :

ولست احاول في هذا الموجز ان اتكلم عن فلسفة الامام غير اني عثرت على كلمة له : يمكن ان تحدد الاتجاه الفلسفي ، أو الغاية من الفلسفة عند الامام . قال :

« العقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة القلوب . والقلوب أئمة الحواس ، والحواس أئمة الاعضاء » .

ـ مثلاً ـ إذا عرض للانسان فكرة ان الديمقراطية افضل ، أو الدكتاتورية فعليه ان لا يسرع إلى التسليم والجزم بشيء قبل ان يحاكمه بعقله ، ويستعرض ما للحرية والاستبداد من حسنات وسيئات ، ويقارن بينها مقارنة دقيقة ، فإذا ترجح عنده احد الامرين بمقياس معقول آمن به ، وسم له ، وهذا هو دور القلب ، ومتى آمن الانسان بمبدأ ايماناً صادقاً يصبح مثله الاعلى ، ويعمل له ويضحي من اجله بالغالي والثمين ، لا يهتم بالنقد ولا يبالي بالعقبات ، وهذا هو دور عمل الحواس والاعضاء .

وبعد ان اتضح مراد الامام يمكننا ان نستخلص من قوله هذه النتائج التالية :

١ ـ ان وظيفة العقل هي التمييز وغربلة الافكار ، ولكن للعقل حدوداً لا يستطيع مجاوزتها ، كما يأتي .

٢ ـ ان العقيدة ، اية عقيدة ، لا تكون حقاً وصواباً إذا رفضها العقل وتصادمت مع حكم من أحكامه .

٣ ـ ان النظرية التي تطابق الواقع ، ويحكم العقل بصوابها ، وان تكن حقاً من وجهة النظر العلمية ، ولكن لا فائدة منها إذا لم توضع في حيز التطبيق .

وخلاصة ذلك ان الفكرة يجب أن تتحول إلى عقيدة ، والعقيدة يجب ان تتجسم بالعمل الملموس ، وهذا ما أراده بقوله : « الايمان والعمل أخوان توأمان ، ورفيقان لا يفترقان لا يقبل الله أحدهما إلا بصاحبه » .

الامام والماديون :

ان قلت : ان هذي هي الفلسفة المادية بعينها التي تجعل القيمة للعمل وحده ، وعلى أساسها يوفق الماديون بين الانتاج والتوزيع ، وينظمون العلاقات الاجتماعية بين الناس . وكلنا يعلم ان الدين يتبرأ من الماديين ويرفض فلسفتهم .

قلت أجل ، ان الدين ينكر فلسفة الماديين الذين لا يتقبلون سوى وجود المادة ، ويقولون هي الاصل ، والروح فرع عنها ، وعارض من عوارضها ، وينكر الدين أيضاً فلسفة المثاليين القائلين بأن الفكر هو الأصل ، والمادة ظاهرة من ظواهره ، وان الارض والكواكب السماوية كلها روح في صورة المادة .

والسبب الباعث على حصر الوجود بالمادة فقط أو الروح فقط ان جماعة من الفلاسفة قالوا لو كانت حقيقة العقل غير حقيقة الشيء المدرك لاستحال عليه ادراكه . لان أحد المتباينين لا يمكنه ان يدرك المباين الآخر ، لعدم العلاقة بينهما : ومن اجل التوفيق بين الاثنين ارجع الماديون العقل إلى المادة ، ووحدوا بينهما وقالوا : ان العقل اهتزاز في ذرات الدماغ والجهاز العصبي ، وعكس المثاليون الامر فارجعوا المادة إلى العقل ، واعتبروا وجود الطبيعة وجوداً عقلياً لا مادياً ، فهؤلاء « عقلوا » المادة ، واولئك « مددوا » العقل ان صح التعبير (1).

وقال آخرون : ان كلاً من العقل والجسم متميز ومستقل عن الآخر في الوجود ، ومغاير له في الحقيقة ، ولا مانع من ادراك العقل للمادة ، لان معنى ادراكه لها ان ترتسم فيه صورتها ومثالها ، لا ان توجد بعينها في العقل ، حتى يستلزم ذلك الاستحالة والامتناع (2) .

(1) أنظر كتابنا « الله والعقل » ص ٥٤ وما بعدها طبعة ثالثة .

(2) قال البعض ، يستحيل ان توجد المادة في الذهن ، لانه يتصور الأعوج والمستقيم ، والحار والبارد فيلزم ان يكون اعوجاً ومستقيماً ، وحاراً بارداً في آن واحد ، واجب ما ذكرنا من ان الموجود في الذهن صورة الشيء لا نفسه .

اما الاسلام وسائر الاديان السماوية فتعترف بوجود حقائق ثلاث : الله والعقل والمادة . وانها متأصلة في الوجود سوى ان الاخيرين يستمدان وجودهما من الله سبحانه ، فآراء الامام وأقواله ترتكز على هذا الاصل ، وهو يتنافى مع مذهب الماديين والمثاليين ، والمذهب الاثنيني الذي يعترف بتأصل الروح والمادة ، وينكر وجود الله عز وجل .

إذا تمهد هذا تبين معنا ان الماديين يقدسون العمل على أساس انه مادة ، ولا شيء في الوجود غيرها ، وان قيمة الانسان بما ينتج من مأكل ومسكن وملبس ، وإذا قال الإمام : قيمة كل امرىء ما يحسن فقد قال ايضاً : لا شيء إلا ما شاء الله ، وإذا قدس الامام العمل المثمر الذي يعود على الانسان بالنفع ، فانما يقدسه مع الايمان بوجود كائن لا تدركه الحواس ؛ لانه فوق المادة ، وهو أصل الموجودات ، أو قل : ان الامام ينهى عن اللغو والكلام والكلام لاغراض موهومة لا تمت إلى الحياة بسبب – مثلاً – يطلب منك الامام ان تؤمن بوجود الروح لأنها حقيقة ثابتة متأصلة في الوجود ، وفي نفس الوقت يطلب منك ان تقف عند هذا الايمان ، ولا تتجاوزه إلى البحث والكلام عن كنهها وحقيقتها ، وانها « جوهر بسيط »أو مؤلف من ذرات لطيفة شفافة . لان بحثك هذا تماماً كبحث بعض المؤمنين ان الكبش الذي فدي به ابراهيم الخليل ولده اسماعيل كان يزن مئة كيلو غرام أو أكثر وان سفينة نوح كان طولها ثمانين ذراعاً أو دون ذلك ، حيث لا جدوى من الكلام عن وزن الكبش وطول السفينة .

وبعبارة أخرى ان الماديين يحصرون الكائن بما يحس ، ويعتبرون الكلام عما عداه كلاماً فارغاً لا يدل على معنى موجود ، والامام لا يحصر الكائن بالمحسوس ، ولكنه يرى ان على العاقل ان يحصر تفكيره وكلامه بما يعود

عليه بالنفع دنيا وآخرة . سواء أكان عن المحسوس أو غير المحسوس . وهذا ما اراده بقوله : « العلم مقرون بالعمل . اوضع العمل ما وقف على اللسان » . ولم يتجاوزه إلى الايمان ، ويظهر اثره في الاخلاق والاعمال . وصدق الله العظيم :

﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ النساء ١١٤ .

العقل عند الامام :

العقل عند الامام أحد اسباب المعرفة ، كالوحي والحواس والتجربة ، ولكن الفرق كبير جداً بين الوحي من جهة وبين غيره من الاسباب من جهة اخرى . فالوحي سبب للمعرفة الحقة في كل ما يخبره به دون استثناء ، فإذا اخبر عن أشياء الطبيعة ، أو عما وراءها وعما كان ويكون فخبره حق اليقين[1] أما التجربة والحواس فلا تتجاوز نطاق المادة المشار إليها بالحس . وكذا العقل فهو يدرك ان الاثر لا بد له من مؤثر ، وان التنظيم يحتاج إلى منظم ، وان العدل حسن . والظلم قبيح ، وان ما ينفع فهو خير ، وما يضر فهو شر ،

(١) قال بعض المؤلفين : اليقين مراتب ثلاث : علم اليقين ، وهو ان يحكم الانسان بوجود الشيء من خلال آثاره دون ان يراه رأي العين . والثانية عين اليقين . وهو ان يراه ويشاهده ، والثالثة حق اليقين ، وهو ان يمارسه ، مثال ذلك ان ترى ضوء النار من بعيد فهو العلم ، فشاهدتها بالذات فهو العين ، وان اصابت جسمك فهو الحق . هذا بالنسبة إلى غير الامام أما معرفة الامام فكلها حق اليقين . لذا قال : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً .

ثم العقل والحواس والتجربة تتعاون فيما يعود إلى حياتنا اليومية ، وما إلى ذلك من الاختراعات والاكتشافات ، هذه هي مهمة العقل ، وكفى . اذن اشياء لا يدركها العقل ، ولا الحواس ، ولا تقع تحت التجربة ، ومع ذلك لا تفقد صحتها وقيمتها ، كحقيقة ثابتة في نفسها .

الامام والاخلاق :

ومن الحقائق التي نستفيدها من قول الامام ان الخير والشر ، والحسن والقبح صفات موجودة في نفس الشيء ، وان العقل يعبر بهذه الألفاظ عما هو ثابت ومتحقق ، لا كما يذهب إليه اصحاب النظريات الذاتية من ان المتكلم يعبر بلفظ الحسن والقبح ، والخير والشر عن ذات نفسه ، وعن شعوره نحو الأشياء من حب او كراهية بحكم بيئته وتربيته ، فنظرية الأمام في هذا الباب موضوعية عملية ، ويدل على هذه الحقيقة قوله : « يعرف الرجال بالحق ، ولايعرف الحق بالرجال .. اعرف الحق تعرف اهله » . ولا يتم هذا القول الا إذا كان حقاً الحق قائماً بذاته ومستقلاً عن كل اعتبار .

لقد جعل الامام للعقل حداً إذا تعداه ارتطم بالجهل ، وخبط خبط عشواء بخاصة فيما يعود إلى ذات الله وحقيقته قال : « كل ما يتصور في الأوهام فالله تعالى على خلافه » اي ان تصور العقل يقف عند اصل الوجود ، اما تصور الذات على حقيقتها فتقصر عنه العقول .

الامام وكانت :

ويقرب من هذا القول ما ذهب إليه « كانت » من ان العقل محفوف بالزمان والمكان ، ومحاط بالشهوات ، فيستحيل عليه ، والحال هذه ان يدرك وجود الله الذي لا يحد بحد ، ولا يتصف بشيء من صفات عالمنا الذي

نحن فيه ، فكانت تعترف بما يقول الامام من ان الله موجود ، وان للعقل حدوداً لا يستطيع مجاوزتها دون ان يقع في الاوهام والتناقضات ، ولكن الامام يرى ان وجود الله يعرف بالعقل دون ذاته وحقيقته ، ويقول « كانت » بل يعرف وجود الله بالقلب ، أما العقل فلا يدرك اصل الوجود ولا حقيقة الذات .

ولا ندري اي شأن للقلب بالمسببات وأسبابها ، والعلل ومعلولاتها ، ان الامام يستدل بالنظر العقلي على وجود الله لان بديهة العقل لا تتصور تدبيراً بغير مدبر ومعلولاً بلا علة ، وهذا أجنبي عن القلب واحساسه .

ومهما يكن ، فان الامام لا يحصر سبب المعرفة بالوحي بل يضيف إليه التجربة والمشاهدة والعقل ، على ان يبقى كل في دائرة اختصاصه .

أستاذ الكل

لم يكن في عهد الرسول وخلفائه الراشدين مدارس ومعاهد للعلم ، فكان الصحابة ينتشرون في الأرض يعلمون الناس ما سمعوه من الرسول ، وما وعوه من القرآن ، وكانت معرفتهم محدودة لا تتجاوز بعض الاحكام ، كالعبادات والفرائض ، وما إلى ذلك .

أما أسرار القرآن العلمية ومعجزاته الغيبية ، أما علومه وفنونه واحاطته بكل شيء ، وسر ملاءمته ومناسبته لكل زمان فلا يعلمها الا الله والراسخون في العلم ، وهم محمد واهل بيته . أما غيرهم فلا يعرف شيئاً ، او تنحصر خبرته بمعارف اهل زمانه ، كالعلم بانساب القبائل والخيل ، والخرافات والعيافة والقيافة ، وتأويل الأحلام وحدي الإبل ، وكي المرضى بالنار والحديد وإذا كان لأحد الصحابة معرفة تجدي نفعاً فمصدرها محمد وآل محمد ، والشواهد على هذه الحقيقة لا يبلغها الاحصاء ، وإليك بعضها على سبيل المثال :

كان عمر بن الخطاب يدخل ابن عباس مع الكبار من شيوخ بدر ، فاحتجوا على عمر ، وقالوا له كيف تدخل معنا هذا الفتى ؟ فدعاهم عمر ذات يوم ، ودعا ابن عباس ، وسألهم عن تفسير بعض الآيات ، فسكت بعضهم ، وقال آخرون : لا ندري . فأوضح لهم ابن عباس الحقيقة . فقال عمر : انه من قد علمتم (1)

---

(1) ذخائر العقبى للحافظ الطبري ص ٢٢٨ طبعة ١٣٥٦ .

وإذا افحم تلميذ ابي الحسن كبار الصحابة وشيوخ بدر فكيف بالمعلم الأكبر ؟ قيل لابن عباس : اين علمك من علم ابن عمك علي ،فقال : نقطة من بحر . وهذه النقطة من بحر علي هي البحر المحيط ، فلقد كان المسلمون يسمون ابن عباس البحر ، ويسمونه الحبر ، وعن ابن صالح قال : رأيت الناس اجتمعوا على باب ابن عباس حتى ضاق بهم الطريق ، كلهم طالب علم . وحج ابن عباس مع معاوية فكان لمعاوية موكب ، وله موكب من طلاب العلم ، وروى البغدادي عن عطاء : ما رأيت مجلساً قط أكرم من مجلس ابن عباس ، كان أصحاب القرآن عنده يسألونه ، واصحاب النحو عنده يسألونه ؛ وأصحاب الشعر عنده يسألونه ، واصحاب الفقه عنده يسألونه ، كلهم يصدرعن واد واسع .

وكل هذه العلوم التي أفاضها ابن عباس ان هي الا نقطة صغيرة من بحر أبي الحسن الذي لايدرك مداه ، ولاينتهي إلى حد ، ولم يكن ابن عباس التلميذ الوحيد للامام ، فقد كان استاذاً للكل بعد النبي دون استثناء يستمدون العلوم من معينه ، ويحتجون بأقواله ، كما يحتجون بالقرآن ، فقد صح عن الرسول : « علي مع القرآن ، والقرآن مع علي ، لن يفترقا حتى يردا علي الحوض »[1] .

ونستنتج من الحديث الحقائق التالية :

١ ــ ان قول الله ومحمد وعلي واحد من حيث الحجة ووجوب الاتباع لقد دلت الآية ٧ من سورة الحشر :

---

(١) « النص والاجتهاد » ص ٧٨ طبعة ١٩٥٦ نقلا عن كتاب معرفة الصحابة ص ١٢٤ من المستدرك ج ٣ .

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ
فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ
فَانْتَهُوا ﴾

دلت على ان حديث الرسول بمنزلة القرآن، ودل حديث « علي مع القرآن » على ان قول علي بمنزلة القرآن ايضاً ، والنتيجة الطبيعية لذلك ان علياً هو الوسيلة إلى الله ، وحجته على الخلق ، وان الراد عليه راد على القرآن بالذات .

٢ ـ ان علياً عالم بحقائق القرآن ودقائقه ، وان عنده علوم القرآن بكاملها إذ لو كان جاهلاً بها او بشيء منها لم يكن احدهما مع الآخر .

٣ ـ ان علياً كالقرآن لا يخطيء ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

٤ ـ انه خالد بخلود القرآن ، وان هذا الخلود مستمر إلى يوم يبعثون .

٥ ـ ان القرآن مفتقر إلى علي ، كما ان علياً في حاجة إلى القرآن ، لان معنى التلازم بين شيئين هو افتقار كل إلى الآخر ، فعلي يرجع إلى القرآن كمصدر للعلم ، والقرآن يفتقر إلى علي للبيان والتفسير ، لذا قال الامام : ذاك القرآن الصامت ، وانا القرآن الناطق .

انه الفارق بين الحق والباطل ، ومن اجل هذا قال له النبي : لا يبغضك مؤمن ، ولا يحبك منافق ، ومن اجل هذا ايضاً كان قسيم الجنة والنار ، اي بحبه يعرف المؤمنون الذين خلقت لهم الجنة ، وببغضه يعرف اهل النار من المنافقين .

وبكلمة واحدة ان الحديث الشريف يدل دلالة واضحة ان علياً والقرآن سواء بسواء وان كل ما للكتاب من فضل وعظمة فهو لعلي . لمكان التلازم والعلاقة بين الاثنين .

ثم إذا صرفنا النظر عن حديث « علي مع القرآن » ورجعنا إلى سيرة الامام منذ ولادته إلى حين وفاته رأينا ان علياً قد اوقف حياته كلها من اجل القرآن . تعلمه صغيراً من النبي . وقاتل معه الجاحدين على تنزيله ، وحين خلافته قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين على تأويله ، وبذل اقصى ما لديه من جهد ، لبث تعاليمه في عهد الخلفاء الثلاثة . اذن فالحديث يعبر عن شيء واقع . وثابت في نفسه ، وينطق عما اعطاه الامام من ذات نفسه للقرآن صغيراً وشاباً وكهلاً .

وهذه حقيقة ناصعة لا يتعامى عنها الا من عاند الحق ، والا من شذ عن المألوف ، وانكر ما رأته الاعين ، ولمسته الايدي . قال الاستاذ علي الجندي عميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة .

« واراد الله لعلي الخير ، واراد لامته الخير به ، فمهد النهج الامثل ، ووفقه إلى ما هو اشبه به ، وأحجى وافضل ، وكل ميسر لما خلق له » فكان كما قال الشعبي : مثل علي في هذه الأمة مثل المسيح بن مريم في بني اسرائيل . وكما قال الحسن البصري : سهماً صائباً من مرامي الله على اعداء الله . . اعطى القرآن عزائمه ، وعلم ما فيه وما عليه .

اما علي الحكيم فليس هناك بعد الانبياء من احق بهذا الوصف من ابي الحسنين ، ولو لم يكن علياً حكيماً لوجب ان يكون حكيماً ، فجميع طرائف الحكمة مفضية إليه ، واسبابها مجتمعة لديه ، كان نقي الجوهر وضاء النفس

صافي الروح ، لماح الخاطر ، يستشف الغيب من ستر رقيق ، وقد عزيت إليه نبوءات صادقة استرعت انظار اتباعه ، فقال له رجل : لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب ، فضحك . وقال : « ليس هو علم غيب ، وانما هو تعلم من ذي علم »[1] .

---

(١) هذه الكلمات اقتطفتها من تصدير طويل وقيم كتبه الاستاذ الجندي لكتاب (علي بن أبي طالب » لاحمد تيمور .

المغيبات

وقال الامام: الكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر في النار. وكلنا يعرف القصة المشهورة: حين اراد المسير إلى بعض اسفاره، وقال له بعض اصحابه : ان سرت في هذا الوقت خشيت ان لا تظفر بمرادك ، فأجابه الامام : من صدقك بهذا القول فقد كذب بالقرآن . ورأى ذات يوم منجماً ، فسأله منكراً : أتدري ما في بطن هذه الدابة اذكر او انثى ؟ ! من صدقك فقد كذب القرآن :

﴿ إنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ مَا في الأرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأيِّ أرْضٍ تَمُوتُ . إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ لقمان ٣٤ .

وقال الامام جعفر الصادق : المنجم ملعون ، والكاهن ملعون ، والساحر ملعون .

وقال علماء الامامية : من صدق منجماً أو كاهناً فقد كفر بما انزل على محمد .

واطلوا الكلام في هذا الباب ، وشددوا النكير على من سلك غير طريق الحق والعلم واستعمل الغش والكذب والرياء والتدليس في معاملاته واقواله وافعاله ، وعللوا ذلك بانه بدعة في الدين ، واخلال في النظام وافساد للأخلاق الانسانية ، واجمعوا على ان من عمل بالسحر يقتل ان كان مسلماً ، ويؤدب ان كان كافراً (١) .

والآن يتجه هذا السؤال : إذا كان السحر والكهانة والاخبار بالغيب محرماً عند علي وشيعته فكيف اخبر بحوادث تقع بعد زمانه ؟ ! فمن الجائز من الوجهة المنطقية ان يحدد العلماء وقت الكسوف والخسوف استناداً إلى قياساتهم لدوران الأرض ، أما ان يتنبأ متنبيء بحدوث حريق في مكان معين بعد عشرات السنين ، أو بقيام ثورة في بلد من البلدان ، أو بأنه سيخلق الله من صلب فلان حاكماً أو عالماً ، ما هذا التنبؤ وما إليه مما لا تناله الخبرة العلمية فمستحيل .

ويمكننا ان نستخرج الجواب عن هذا السؤال من قول الامام : « من افتى بغير علم لعنته الارض والسماء ..

لا تقل ما لا تعلم ، بل لا تقل كل ما تعلم .. ما من حركة إلا و تحتاج إلى علم » . وما إلى ذاك ، ولو جمعت أقواله في هذا الباب لجاءت في كتاب وما كان الامام لينهي عن خلق ويأتي مثله . إذن لا بد ان يكون اخباره عما يقع في المستقبل تعلماً عن ذي علم كما قدمنا في الفصل السابق حين أجاب من قال له : لقد اعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب .

(١) كتاب الجواهر باب الحدود .

وذو العلم الذي عناه الامام ، واخذ عنه هو النبي بالذات ، فكل ما اخبر به مما لا يمكن معرفته بالنهج العلمي فقد تعلمه عن للرسول ، وتلقاه الرسول وحياً من الله عز وجل :

﴿ عَالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أحَداً إلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ الجن ٢٦ .

والرسول بدوره يطلع من ارتضى من ولي حسب ما تستدعيه المصلحة .

وقد اخبر النبي بمغيبات كثيرة تحقق قسم منها قبل زماننا ، وقسم تحقق هذا الزمان ، فمن القسم الاول قوله : ان المسلمين بعده يحكمون ويفتحون كنوز كسرى وقيصر ، وقوله لام الفضل حين ولدت عبد الله بن عباس : اذهبي بأبي الخلفاء ، ومنها قوله لعلي : ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ، وانه لا يموت حتى تخضب لحيته من هامته ، ومنها اشارته إلى عائشة بأنها صاحبة الجمل ، وينبحها كلاب حوأب ، ومنها قوله لأبي ذر : كيف بك إذا اخرجوك من مكانك هذا ، مشيراً إلى قصته مع عثمان ونفيه إلى الربذة ، ومنها قوله يوم بدر لعمه العباس : أين المال الذي استودعته زوجتك ام الفضل ، وكان العباس ادعى انه لا مال عنده ، ومنها قوله لابنته فاطمة : انك أول أهلي لحاقاً بي ، فكان كما قال ، ومنها قوله لعمار بن ياسر : تقتلك الفئة الباغية ، وآخر من زادك الدنيا ضياح من لبن ، فقتله جيش معاوية يوم صفين بعد ان شرب اللبن ، ومنها اخباره عن قتل ذي الثدية رئيس الخوارج ، فقتل يوم النهروان ، ومنها قوله للزبير : ستقاتل علياً ، وانت له ظالم ، فخرج عليه يوم الجمل ، ومنها ما اخبر به عن بني مروان إذا بلغوا ثلاثين رجل اتخذوا مال الله بينهم دولا وعباده خولا ، ودينه دغلا ، ومنها ان كسرى ملك الفرس ارسل رسله

ليأتوه بالنبي حياً او ميتاً ، فلما وصلوا إليه اخبرهم بأن كسرى قتله ولده شيرويه ، فجاء الحديث موافقاً ، ومنها اخباره عن وقعة الحرة ، ومنها قوله: ان زيد بن صوحان احد الصحابة سيسبق منه عضو إلى الجنة، فقطعت يده يوم نهاوند في سبيل الله ، ومنها اشارته وتلويحاته المتكررة إلى ما حدث لاهل بيته من بعده [1] وما إلى هذه مما لا يحصى عديدها ، وهي مذكورة في ابواب شتى من كتب التفسير والحديث والتاريخ والسيرة بخاصة صحيح البخاري ومسلم .

ومن القسم الثاني ، أي المغيبات التي تحققت في هذا العصر ما جاء عن النبي في صحيح البخاري الجزء التاسع صفحة ٧٣ ، طبعة محمد علي صبيح : يوشك ان ينحسر الفرات عن كنز من ذهب » . اشارة إلى البترول .

وفي الكتاب المذكور صفحة ٦١ : « سيتقارب الزمان ، وينقص العمل » اشارة إلى سرعة المواصلات ، والاستغناء بالآلات الفنية عن اليد العاملة .

وفي مسند احمد ج ١٢ ص ١٧٣ طبعة ١٩٥٣ : « تتقارب الاسواق ، وتتقارب الازمان » ، ومن ابرز المظاهر في هذا العصر تصدير الانتاج إلى جميع الأسواق بأمد قصير .

وفي كتاب « مطابقة الاختراعات العصرية لما اخبر به سيد البرية » للشيخ احمد الصديق الغماري :

---

(١) قال الشيخ العبدي مفتي الموصل في كتاب « النواة » ص ١٠٩ ان حديث الثقلين الذي رواه مسلم والترمذي ، وفيه التكرار « اذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » نقل في هذا التأكيد اشارة إلى ما حدث بعده لأهل بيته مما كان وصمة على المسلمين ، وطعنة في صميم الإسلام نجلاء ما ان يزال يسيل دمها طرياً على مر الأيام وكر العصور .

روى احمد بن حنبل في مسنده عن النبي : « لا تقوم الساعة حتى تكلم الرجل عذبة سوطه ، وشراك نعله » . اشارة إلى الراديو الصغير ، وما إليه من آلات الالتقاط ، او الارسال التي يحملها معه الانسان ، كما يحمل عليه الدخان .

وجاء في الكتاب المذكور : « يخرج قوم يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقر » ، اشارة إلى ارباب الصحف المأجورة الذين يعيشون على الاكاذيب والشتائم .

وأعجب من ذلك كله قول النبي : « سيرى الناس اموراً يتفاقم شأنها في نفوسهم يتساءلون بينهم : هل كان النبي ذكر ذلك ؟ » . رواه احمد ابن حنبل في كتاب المسند ، وقد مضى على وفاة ابن حنبل ١١٣٨ .

ولم يكتف النبي بالخبر عن البترول في بلاد العرب ، بل اخبر ان الذين يستخرجونه ويصفونه حتى يصبح حاضراً وصالحاً للاستعمال هم المستعمرون اشرار الناس واراذلهم . فقد جاء في مسند ابن حنبل : « سيكون معادن يحضرها اشرار الناس » ، وفي حديث آخر : « ارازل الناس » .

وفي كتاب الشجرة المباركة » للشيخ علي اليزدي حديث طويل نقله عن تفسير علي بن ابراهيم من علماء القرن الثالث الهجري جاء فيه عن النبي : « تتقارب الاسواق ويظهر الربا وتتعامل الناس بالغيبة والربا ، وينفقه اقوام لغير الله ، ويكثر اولاد الزنا ، ويتغنون بالقرآن » .

ولم يبق شيء من هذه الا تحقق هذا العنصر ، ولكن الذي يبعث على الدهشة اكثر من اي شيء قوله ، « يتعامل الناس بالغَيبة » بفتح الغين ، وهو اخبار عما يجري الآن بين التجار ، يبرق تاجر في الشرق الآخر في الغرب ،

فتم الصفقة دون ان يشاهد احدهما الآخر ودون ان يحصل بينهم السوم والأخذ والرد .

وفي الكتاب المذكور عن الامام « ستخرج الارض بركاتها ، وتؤكل ثمرة الصيف في الشتاء وبالعكس وتحمل الشجرة في كل سنة مرتين ، ويزرع الرجل الحنطة والشعير فينتج الصاع مئة . . . وتكون السنة كالشهر والشهر كالاسبوع والاسبوع كاليوم واليوم كالساعة » .

وإذا اخبر النبي اصحابه بهذه المغيبات فاولى ان يطلع علياً على امثالها ونظائرها ، واي انسان احق بعلم النبي من علي ، وهو منه بمنزلة الرأس من الجسد ، كما قدمنا .

اذن جميع إخباراته بالغيب تستند إلى الرسول ، وتنتهي إليه ، وليس للامام الا الرواية ، فمن انكر عليه الاخبار بالغيب فانما ينكر على الرسول من حيث يريد او لا يريد .

ومن الطريف ان بعض من انكر واستكثر ان يخبر الامام عن الرسول يومن ويعتقد بأن شقاً وسطيحاً [1] كانا يخبران الناس بالغيب ، وبظهور النبي قبل زمانه .

قال الرازي في كتابه الكبير عند تفسير آية « عالم الغيب » : انه كان في بغداد كاهنة في عهد السلطان سنجر بن ملك شاه ، تخبر بالغيب ، فيأتي على وفق كلامها ، وانه رأى كباراً من المحققين في علم الكلام والحكمة يؤمنون

---

(١) قال صاحب العقد الفريد في الجزء الأول : ان سطيحاً كان يخبر الانسان بنيته قبل ان يتكلم . وهكذا قال كثير من المؤرخين واصحاب السير عن طبع وشق .

بأقوالها ، وان « ابو البركات » بالغ في كتاب « المعتبر » في شرح حالها ، وانه قد تفحص عنها ثلاثين سنة حتى تيقن انها كانت تخبر بالمغيبات خبراً مطابقاً .

امرأة لا يعرف لها اصل ولا حقيقة تقول الغيب فيصدقها العلماء المحققون .. بل حتى الرازي المشكك الكبير يقول : « ليس علم الغيب مختصاً بالاولياء ، بل قد يوجد في السحرة ايضاً . . » وبعد ، فاي غرابة ان يحدث الامام بالغيب عن النبي عن الله سبحانه ؟ !

رب قائل بأن ما قدمته من الادلة انما يقنع ، او يجب ان يقتنع به المسلم الذي يؤمن بالله ونزول الوحي على محمد لان كل ما ذكرته مبني على اساس التسليم بالقرآن واصول الاسلام، اما الذي لا يؤمن بالله اصلا، اويؤمن. ولا يعترف بنبوة محمد فلا تلزمه الحجة ، وبالتالي لا يجب عليه التصديق بشيء مما قلت .

واجيب باني لا اطلب ممن يشكك بمغيبات الامام ان يغير دينه وعقيدته ، كي يصدق ما اقول ، ولكني اخاطب عقله ووجدانه ، إذا كان على شيء من التمييز والانصاف واوجه إليه هذا السؤال : إذا اخبرك مخبر بوقوع حادثة ما ، وصدق قوله مئة بالمئة ، فبماذا تفسر هذا الصدق ، مع العلم بأن تلك الحادثة لا تمت إلى التنبوءات العلمية وخبرة الانسان بسبب ؟ ! . بماذا تفسر المغيبات التي نقلناها عن الرسول وعلي ؟ وإلى أي شيء تسند قول الامام : « ان في الطالقان كنوزاً ليست من ذهب ولا من فضة » اشارة إلى بترول ايران ، نقل هذا القول عن الامام ابو الغنائم الكوفي في باب الفتن ، وقد مضى على وفاته مئات السنين .

بماذا تفسر قول الامام جعفر الصادق حفيد الامام علي : انه يأتي على الناس زمان يرى ويسمع من في المشرق من في المغرب وكل قوم يسمعون الصوت

بلغتهم . وان العرب تخرج من سلطان الأجانب ، وتملك نفسها بنفسها ، وحينئذ تخلع اعنتها . وانه لا يبقى صنف من النـــاس الا ويحكم الناس [1] .

نطق الامام بهذه الحقائق منذ اكثر من ألف ومئتي سنة ، ودونت في الكتب منذ ألف سنة او اكثر ، وقد تحققت بكاملها ، ونحن الآن نراها ونعيش معها ، فنسمع اهل الغرب يخاطبون أهل الشرق بواسطة الراديو ، ويوجهون الاذاعات إلى كل قوم بلغتهم ، وعما قريب نشاهد الاوروبيين والاميركيين بالتلفزيون بعد ان وضع العلماء التصميم لان يكون البعيد فيه كالقريب تمام كالراديو . وسادت الديمقراطية في أكثر الشعوب ، واجهزت على ارستقراطية الأنساب والأموال ، وحكم الناس كل فئة من الناس من نكروها إلى كاسترو إلى كل جنس ولون . وما أوشك ان يسير العرب في طريق الاستقلال حتى خلعوا اللجام ، وشتم بعضهم بعضاً ، فكأن مصيبة الاستعمار كانت تجمع كلمتهم ، فلما استقلوا أو كادوا ألقى كل عربي بأسه على رأس أخيه .

هذه صورة طبق الأصل عبر بها الامام عما سيقع قبل عشرات الاجيال ومحال ان يعلم بحلولها قبل الأوان إلا علام الغيوب ومن ارتضى من عباده الصالحين .

(١) صفحة ١٣٥ و ١٦٣ و ١٦٨ من المجلد الثالث عشر من كتاب بحار الانوار طبعة سنة ١٢٣٣ هجرية للعلامة المجلسي ، وقد مضى على وفاته ٢٧٩ ، هذا مع العلم بأن المجلسي نقل عن كتاب الغيبة للشيخ الطوسي المتوفي ٤٦٠ ، وكتاب الارشاد للشيخ المفيد المتوفي ٤١٣ وعن كتاب المعاني للصدوق المتوفي ٣٨١ ، وهذه الكتب مطبوعة ومتداولة ، وتاريخ تدوين هذه الأخبار في كتب الامامية يرجع إلى أكثر من الف سنة .

ومرة ثانية نعيد القول بان الامام لا يعلم الغيب ، بل يخبر به عن النبي عن الله ، والفرق بعيد جداً بين العلم بالغيب ، وبين الاخبار به . وان كان الاخبار يستتبع العلم . ولكنه علم عن رواية لا عن رأي .

حلم الانسانية :

ان للإنسانية حلماً تنشده منذ وجدت فوق الارض . وكل انسان يود ان يتحقق هذا الحلم مهما كان الثمن ، ولكنه لا يجد السبيل إليه . أو يظنه محال الوقوع ، اما أهل البيت فقد اكدوا بلسان الجزم واليقين انه سيتحقق لا محالة ، ونجد وصف هذا الحلم في البشارة التالية :

جاء في كتاب الشجرة المباركة ، والمجلد الثالث عشر من كتاب بحار الانوار عن النبي واهل بيته :

« لا تقوم الساعة حتى لا يقسم ميراث ، ولايفرح بغنيمة ، ولا يظلم احداً ، ولا يخاف شيء من شيء ، ولا يراق محجمة دم وحتى تستوي الارزاق بين الناس ، ويقتسمون بالسوية ، ويكون الجميع على احسن حال ، ومن أمن وأمان ، ويرعى الذئب مع الغنم ، وتلعب الصبيان بالوحوش والسباع ، وتزيد الخيرات حتى تصبح كالتراب فإذا سافر مسافر إلى مكان بعيد لا يصحب معه زاداً ولا مالاً ، فالسماء تنزل بركاتها ، والارض تخرج كنوزها وطيباتها ويستغني الفقير ولا يعلو بعض الناس على بعض ، وتنزع ، الحمة من الهوام — البرغث والذباب — والسم من الحشرات » .

لا يقسم ميراث ، لان الانتاج كالتراب ، فلا داعي إلى الميراث والتوريث ولا تراق الدماء، لانه لا خصومة على حطام ما دامت القسمة بالسوية ، والناس في كفاية ، وتنزل السماء بركاتها ، وتخرج الارض خيراتها ، لان العلم سيعم

الاقطار جميعاً ، ولا يختص ببلد دون بلد . واينما وجد العلم وجدت الخيرات والبركات ؛ وستنزع الحمة من الهوام ، والسم من الحشرات . لان العلم سيغير طبيعة الحشرات والحيوانات . بل وطبيعة الانسان ايضاً . وسينجه العلم كله للخير والبناء لا للهدم والفناء . ويحقق للانسانية احلامها واهدافها . ولو قسنا الحياة في هذا العصر إلى ما كانت عليه قبل قرن لوجدنا الفرق بعيداً شاسعاً . ولا سر لهذا التطور إلا تقدم العلم . وما هذه المفاجآت والتغيرات التي تطرأ على افكارنا وحياتنا لا نتيجة الاكتشافات والاختراعات المذهلة . والآتي اعظم بكثير من الماضي ، وكلما اسرع العلم في سيره اسرعنا معه إلى الحياة المنشودة .

ان الشواهد تدل على ان الطبيعة ستكون اطوع للانسان ، من بنانه ، وإذا اضفنا إلى ذلك رغبة الناس في التعايش السلمي ، وفي حياة افضل ، وان لا تكون حرب بعد اليوم كانت النتيجة الحتمية ان كل شيء سيتغير ، وان حلم الانسانية سيتحقق تماماً كما اخبر به النبي واهل بيته . وكل آت قريب .

علي
في بعض خصائصه

لا يستطيع الانسان ، أي انسان ، ان يتجرد عن ذاته وانطباعاته : لا يستطيع ان يسند معلوماته وتصوراته إلى الواقع بعيدة عن شخصه ومعطياته مهما حاول واجتهد، إلا إذا استطاع ان يوجد علماً بدون عالم،ورسماً بدون رسام : وهو مستحيل كاستحالة وجود القيام بلا قائم ، والكتابة بلا كاتب .

وعلى هذا فإذا حصلت لنا المعرفة بشيء ، وتحدثنا عنهما ، فانما نتحدث عن وعينا ، وعن الصورة التي تمثلناها لذلك الشيء ، وقد تأتي مطابقة، وقد تكون مخالفة ، حيث لا تلازم بين الواقع والشعور الذي يعكسه ، فالواقع عن الفكر كما ان الفكر لا يستدعي معرفة الواقع . وهذا المبدأ يطرد في الجميع إلا في الانبياء الذين تلقوا الوحي من الله ، وإلا في الاولياء الذين احاطوا علماً بكتاب الله ، واخذوا عن الانبياء بلا واسطة ، كالامام علي ؛ فان علمه عين الواقع لا ينفك عنه بحال . ومن هنا قال : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً » حيث لا جديد يوجب الزيادة ، فالذي يحج إلى مكة المكرمة لا يزداد معرفة بأصل وجودها بعد ان يصل إليها ، وهكذا علوم الامام تمثل الحقيقة تمثيلاً صحيحاً بعيداً كل البعد عن الخطأ والالتباس .

والانسان الذي يعتمد كتاب الله ، وما تواتر عن النبي فعلمه عن الحق واليقين ، وعلى هذا الاساس نتكلم في هذا الفصل عن صفات الامام وخصائصه

فيما دل عليه الكتاب ، والحديث المروي بطريق السنة والشيعة اثبتناه ، ولا شأن لنا بغيره .

اخو الرسول :

قال ابن حجر في كتاب الصواعق المحرقة ص ١٢٢ طبعة ١٣٧٥ قال : النبي خير اخوتي علي ، وخير اعمامي حمزة . وفي صفحة ١٢٠ انه قال لعلي : انت اخي في الدنيا والآخرة . . . علي مني وأنا من علي . وقال جماعة من المفسرين: ان علياً هو الشاهد في الآية ١٧ من سورة هود :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ، وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ .

قال الرازي : في تفسير الشاهد وجوه . ثالثها انه علي ، والمراد تتلوه محمد . وقال السيوطي في الدر المنثور ، والطبري في تفسيره : رسول الله على بينة من ربه ، وعلي شاهد منه [1] .

صاحب النجوى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ المجادلة ١٢.

---

(١) كتاب دلائل الصدق ص ١٦٠ ج ٣ طبعة ١٩٥٣ .

اجمع المفسرون السنة والشيعة على ان هذه الآية لم يعمل بها احد إلا الامام : وذلك ان المسلمين اكثروا السؤال على الرسول حتى شقوا عليه ، فأمرهم الله بهذه الآية ان يتصدقوا قبل ان يسألوا . فاحجموا الا الامام تصدق وسأل ثم نسخت الآية ، وقال الامام : كنت إذا سألت النبي اجابني ، وإذا سكت ابتدأني .

سابق الامة :

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ
أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ الواقعة ١٠ .

قال الفضل بن روزبهان ، وهو من كبار العلماء عند السنة ، في كتاب « ابطال الباطل » : « جاء في رواية اهل السنة : سبّاقوا الامم ثلاثة مؤمن آل فرعون ، وحبيب النجار ، وعلي بن أبي طالب ، ولا شك ان علياً سابق في الاسلام ، وصاحب السابقة والفضائل التي لا تخفى » .

وجاء في الجميع بين الصحاح الستة ان طلحة بن شيبة قال مفتخراً : أنا أولى بالبيت لان المفتاح بيدي . وقال العباس : انا أولى ، انا صاحب السقاية فقال علي . انا أول الناس اسلاماً ، واكثرهم جهاداً . فنزلت هذه الآية لبيان أفضلية الإمام على الجميع :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ
وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، كَمَنْ
آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَجَاهَدَ
فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ
وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾
التوبة ٢٠ .

صاحب الأذن الواعية :

﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾
الحاقة ١٢ .

قال الفضل بن روزبهان في كتاب ابطال الباطل : «روى المفسرون – السنة – انه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله لعلي : سألت الله ان يجعلها اذنك قال علي ، فما نسيت بعد هذا شيئاً ، وهذا يدل على علمه وحفظه وفضيلته » . وفي كتاب ذخائر العقبي ص ٦١ طبعة ١٩٥٦ هـ : قال الرسول للامام : يا علي ما سألت الله عز وجل شيئاً من الخير الا سألت لك مثله ، ولا استعذت الله من الشر إلا استعذت لك مثله .

مكتوب على العرش :

﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ
وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ . الانفال ٦٣ .

جاء في كتاب دلائل الصدق عن السيوطي في الدر المنثور عن ابي هريرة انه مكتوب عز الله انا وحدي لا شريك لي محمد عبدي ورسولي أيدته بعلي .

باذل الاموال سراً وعلانية :

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً ﴾
البقرة ٢٧٥ .

ذكر المفسرون من أهل السنة ان الآية نزلت في علي، كما قال الفضل بن روزبهان وقال المذكور ان الآية نزلت في علي، كما قال الفضل بن روزبهان.
وقال المذكوران الآية ١٨ من سورة السجدة :

﴿ أفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ
كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ ﴾ .

ان المراد بالمؤمنين علي .

وفي كتاب ذخائر العقبى لاحمد الطبري ان هاتين الآيتين :

﴿ أفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ
لِلإِسْلامِ ﴾ . الزمر ٢٢ .

و :

﴿ أفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً
فَهُوَ لاقِيهِ ﴾ القصص ٦٣ .

نزلتا بعلي وحمزة ، وان معنى قوله تعالى :

﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ
وُدّاً ﴾ . مريم ٩٦ .

معناه انه لا يبقى مؤمن إلا وفي قلبه ود لعلي واهل بيته . اخرجه الحافظ السلفي .

وارث الكتاب :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَاهُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾

فاطر ٣٢ .

قال الفضل : علي من جملة ورثة الكتاب ، لانه عالم بحقائق الكتاب وهذا يدل على علمه ووفور توغله في معرفة الكتاب .

هادي القوم :

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ . الرعد ٨ .

قال النبي (ص) انا المنذر ، وعلي ، وبك يهتدي المهتدون .

وجاء في كتاب « دلائل الصدق » : نقل هذا الحديث بعينه صاحب كنز العمال ج ٦ ص ١٥٧ . وذكر السيوطي في الدر المنثور أربعة أحاديث في نزول الآية بعلي .

كلكم مسؤول عن ولاية علي :

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ ﴾ .

الصافات ٢٤ .

قال ابن حجر في الصواعق في الآية الرابعة من الآيات النازلة في أهل البيت : أخرج الديلمي عن ابي سعيد ان النبي قال : وقفوهم انهم مسؤولون عن ولاية علي .

حسد الناس :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ ﴾ النساء ٥٥ .

قال ابن حجر في الصواعق : أخرج أبو الحسن المغازلي عن الامام الباقر انه قال في هذه الآية نحن الناس والله .

مولى المسلمين :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ المائدة ٥٦ .

في جمع التفاسير وفي الصحاح الستة انها نزلت على علي حين تصدق بخاتمه على المسكين في الصلاة . بمحضر من الصحابة أما آية :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾

الاحزاب ٣٣ .

وآية :

﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾

الشورى ٢٣ .

فظهورهما بعلي واولاده يغنينا عن الاستشهاد بالروايات والاقوال ، كما ان هل أتى ، ويطعمون الطعام على حبه يعرفها الجميع (١) .

وهذه الآيات جزء من كل ، وقليل من كثير فقد جاء في كتاب الصواعق المحرقة نقلاً عن ابن عباس ص ١٢٥ طبعة ١٣٧٥ هـ « ان ما من آية في القرآن إلا وعلي أميرها وشريفها ، ولقد عاتب الله أصحاب محمد في غير مكان ، وما ذكر علياً إلا بخير . وان ابن عساكر قال : ما نزل في أحد من كتاب من كتاب الله تعالى ما نزل في علي ، ولقد بلغت الآيات فيه ثلاثمئة آية » .

ومن أراد التوسع في هذا الباب ، والاطلاع على ما جاء في القرآن بحق علي من طرق السنة فليرجع إلى المجلد الثاني من كتاب دلائل الصدق للشيخ محمد حسن المظفر ، فقد ذكر الآيات ، واسند أقواله إلى صحاح السنة ، وكتبهم المعتبرة وبلغ هذا المجلد ٤٠٠ صفحة . ولو افترضنا انه لم تنزل آية واحدة في علي بالخصوص فان كل ما في القرآن من ثناء على عامل بخير من أي نوع كان فإنه يشمل علياً ، ويدل عليه صراحة لانه السباق إلى جميع المكرمات . ولقد أثار دهشتي ظاهرة فريدة في بابها فاجأتني وانا ابحث وانقب في مصادر هذه الصفحات ، وهي ان ابن حجر صاحب الصواعق ، وكثير غيره من شيوخ السنة مع اعترافهم بفضائل علي واعلانها فضيلة فضيلة ومنقبة منقبة يتحاملون على شيعة الامام بما فيهم الإمامية ، ويعدونهم من أهل البدع والزيغ ، ونقدم مثالاً واحداً من هذه التحامل ، لان المقام لا يتسع للمزيد :

---

(١) لم ابسط الكلام هنا فيما دل من العقل والنقل على فرض ولاية الامام على كل من والى الرسول الأعظم ، لاني تعرضت لذلك في كتابي مع الشيعة الامامية وأهل البيت .

قال الفضل بن روزبهان في كتاب « ابطال الباطل » : كل ما ذكره الشيعة من الفضائل والمناقب لمولانا علي بن أبي طالب فنحن لا ننكره ، لان فضائل أهل البيت لا تحصى ولا ينكرها الا منكر نور الشمس والقمر . ولكنه في نفس الكتاب المذكور قال : ان كتب الشيعة من موضوعات يهودي كان يريد تخريب بناء الاسلام ، فعملها وجعلها وديعة عند الإمام جعفر الصادق ، فلما توفي حسب الناس انها كلامه . . .

كنا نظن ان مبدأ « اكذب ، واكذب ، ثم اكذب فلا بد ان تجد من يصدقك » مبدأ حديث من مخترعات الغرب والاستعمار ، وإذا به قديم ، وربما نقله الغربيون من الشرق عن ابن روزبهان وامثاله فيما نقلوا من فلسفات وحضارات .

وان الشيعة اتصلوا بالامام جعفر الصادق مباشرة ، ونقلوا عنه مشافهة ، وكل راو من رواتهم يقول : سألت الامام وحدثني الامام ، ولم يدع واحد من الشيعة انه وجد عند الصادق بعد وفاته كتباً او اوراقاً له ولا لغيره ، وهذه كتب الشيعة في الحديث والفقه والتفسير بمنظر لكل بصير .

قال المرتزقة هذا القول منذ مئات السنين لغاية الكيد والدسّ ، ونقله أحمد أمين واضرابه من قبل جهلاً او تحاملاً ، ونقله من بعد عن هذا « الأمين » الدكتور خليل الجر ، والاب حنا الفاخوري اللبنانيان اللذان يعيشان في عصر الفضاء والسماء ، نقلا هذا الدس والكذب في كتاب « تاريخ الفلسفة العربية » الذي بلغ اكثر من ٩٠٠ صفحة في مجلدين [1] .

---

(١) في هذا الكتاب اخطاء عدا الافتراء على الشيعة منها ما في ص ٣١ ج ١ ان « للاسلام ثلاثة أسس هي القرآن والسنة والحديث » مع ان المعروف عند علماء المسلمين ان السنة والحديث =

وغريبة الغرائب انكل شيء في الدنيا قد تغير الا الكذب على الشيعة والافتراء على مذهب التشيع ، منذ زمن مضى وانقضى كتب شيخ سوء او فقيه شر ان الشيعة بما فيهم الامامية يغالون بعلي ، وانهم اخذوا دينهم عن ابن سبا اليهودي ، رمى هذا المفتري رميته ومضى ، ولكن بعد ان شق طريق الضلال والتضليل . وإليك ملخص القصة لهذا الافتراء ، والسبب الباعث عليه :

كان الشيعة يثورون على حكام الجور اخلاصاً لدينهم وامتهم ، وكان هؤلاء ينعتون بالزندقة والمروق من الدين ، لانهم لا يدينون لهم بالولاء تماماً كما يتهم بعض حكام هذا العصر القوى التحررية بالشغب والتخريب . وإذا وجدت السلطات المعتدية في عصر النور صحفاً مأجورة تساندها ، وتنعت الحزب المعارض بأقبح النعوت تزلفاً وطمعاً ، فبالاحرى ان تجد في عصر الظلمات من يضع لها الكتب والمؤلفات في تكفير الشيعة . هكذا فعلوا تماماً كما يفعلون اليوم .

لقد اشترى السفاكون من ارباب الاقلام دينهم وضمائرهم ، ليتقولوا على الابرياء ويعلم كل من البائع والمشتري انه مفتر كذاب ، وجاء المتأخر فرأى الكلمة المطبوعة « للسلف الصالح » فقدسها وركع لها وسجد دون تمحيص وتحقيق ، واخذ يرددها فكرة واسلوباً ، بل نقلها بالحرف الواحد ، كأنها وحي منزل .

— شيء واحد . ومنها ما في ص ٤٨ ج ١ « الحلي ما يقال أو لا يقال موضوع كلي ، والجزئي ما يقال على موضوع كلي » . وهذا اشبه بقول القائل بان في بطن هذه الدابة ذكراً أو لا ذكرا . . ان تعريف الكلي عند الفلاسفة وأهل المنطق هو ما يصدق على الكثرة بعكس الجزئي الذي لا يصدق إلا على الواحد ، والمؤلفان جمعا بين تعريف الكلي والجزئي ، وعرفا به الكلي ، ثم عرفا به الجزئي .

ان العالم المنصف إذا تكلم عما تدين به طائفة من الطوائف، اعتمد على الكتب المعتبرة عندها ، وما ثبت من مذهبها ، اما النقل عن خصومها ، وبخاصة خصوم العقيدة والمذهب فهو تماماً كالحكم على المدعى عليه بمجرد اقامة الدعوى وقبل الاستماع إلى الشهود والبينات .

ومن الصدف اني كلما قرأت افتراء على الشيعة تذكرت كلمة لسيبويه : اجتمع هذا النحوي الشهير بنفر من نحاة الكوفة فناظروه في مسائل نحوية ، وطال بينه وبينهم الجدال والنقاش ، ولكن على غير طائل ، فسأله سائل عن سبب عجزه عن اقناعهم ، فأجاب :

« اخطئهم على مذهب العرب ، ويخطئوني على مذهبهم » ، اي تكلم هو على مقاييس منطقية ، وتكلموا على غير اساس .

الأناء بنضح بما فيه

كان الشيخ نصر الله بن مجلي من العلماء المعروفين بالامانة وللصدق عند أهل السنة ، وقد نقل ابن خلكان الشافعي صاحب كتاب « وفيات الأعيان » أن هذا الشيخ الجليل رأى في منامه الإمام علياً ، فقال له :

يا أمير المؤمنين تفتحون مكة ، فتقولون من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ثم يتم على ولدك الحسين يوم الطف ما تم ؟ ! .

فقال له الامام : أما سمعت أبيات ابن صيفي في هذا ؟

فقال الشيخ : لا .

فقال الامام : اسمعها منه

فاستيقظ الشيخ ، وبادر إلى دار ابن صيفي الشاعر المعروف بحيص بيص[1] وأخبره بالرؤيا ، فشق وأجهش بالبكاء ، وحلف بالله انه نظمها هذه الليلة ، ولم تخرج من فمه إلى احد ، ثم أنشد هذه الابيات :

(١) رأى هذا الشاعر الناس في ذات يوم في حركة مزعجة ، فقال : ما للناس في حيص بيص ، فغلب عليه هذا اللقب ، وكان فقهياً وشاعراً معروفاً ، له رسائل فصيحة بليغة ، وكان من أعرف الناس بأشعار العرب ، توفي سنة ٥٧٤ هـ .

ملكنا فكان العفو منا سجية　　فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتم قتل الاسارى وطالما　　غدونا عن الاسرى نمن ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا　　وكل اناء بالذي فيه ينضح

وقد نضح بيت علي بما فيه من القداسة والعلم والعفة والزهد . نضح باستشهاد الحسين ، وعبادة زين العابدين ؛ وعلوم الباقر والصادق . ونضح بيت خصومه بالخمور والفجور والغدر وسفك الدماء . قال الشاعر ابو فراس يقابل بين أهل البيت ومناوئهم :

لا يغضبون لغير الله ان غضبوا　　ولا يضيعون حكم الله ان حكموا
تبدو التلاوة من أبياتهم ابداً　　ومن بيوتكم حكم الأوتار والنغم
ما في منازلهم للخمر معتصر　　ولا بيوتهم للشر معتصم
ولا تبيت لهم خنثى تنادمهم　　ولا يرى لهم قرد ، له حشم
الركن والبيت والاستار منزلهم　　وزمزم والصفا والحجر والحرم

تقاضى في الجاهلية عبد المطلب جد علي ، وحرب بن امية جد معاوية نفيل بن عدي فقضى لجد علي ، وقال لجد معاوية :

أبوك معاهر وأبوه عف　　وذاد الفيل عن بلد الحرام

وقد ورث كل ابن وحفيد نصيب من ينتمي إليه ، ويتقرب به . قال الاستاذ جورج جرداق في الجزء الرابع من كتاب « الإمام علي » .

« ان ابرز الأمويين تمثيلاً لخصائص امية هو معاوية بن أبي سفيان . وأول ما يطالعنا من صفاته انه لم يكن على شيء من الانسانية والاسلام » .

اما بعده عن الاسلام فقد شهد هو بنفسه على نفسه . رآه ابو الدرداء يشرب في آنية الذهب والفضة ، فقال له يا معاوية : سمعت رسول الله يقول : ان الشارب فيهما لتجرجر في جوفه نار جهنم .

فقال معاوية : أما انا فلا أرى بذلك بأساً .

ولا يختلف هذا القول عن قول عثمان ، يقول الرسول الاعظم : « ما أظلت الخضراء ، ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر » . ويقول عنه عثمان : « أشيروا علي في هذا الكذاب ، اما ان اضربه أو أحبسه او اقتله » .

ومن قرأ تاريخ الأمويين يجدهم جميعاً من معدن واحد ، لا يختلف احدهم عن الآخر الا في الاسلوب والمظهر ، حاشا عمر ابن عبد العزيز . معاوية قتل الحسن سبط الرسول ؛ ويزيد ابنه قتل الحسين سبط الرسول ، فالأب والابن قتلا ريحانتي النبي وسيدي شباب أهل الجنة ، ولكن ذاك قتل سراً بالسم وهذا قتل جهراً بالسيف ؛ وهكذا الاشرار في كل عصر يختلفون في المظهر ويتحدون في الجوهر .

أما براءة الانسانية من معاوية وأعماله فقد شهد هو أيضاً على نفسه بأنه لم ينصف ولم يعدل ،قال المغيرة بن شعبة :

قلت لمعاوية ؛ وقد خلوت به : انك قد بلغت سناً . وقد كبرت ، فلو أظهرت عدلاً ، وبسطت خيراً مما يبقى لك ذكره وثوابه . فقال معاوية : هيهات هيهات ، أي ذكر أرجو بقاءه ! ملك أبو بكر فعدل، فلما هلك هلك ذكره ، وملك عمر عشر سنين ، فاجتهد وشمر ، فما ان هلك حتى هلك ذكره ، وان ابن ابي كبشة — يعني محمداً (ص) — ليصاح به كل

يوم خمس مرات أشهد ان لا إله إلا الله ، وان محمداً رسول الله ، فأي عمل يبقى ، وأي ذكر يدوم ، لا أبا لك.

ويشهد على براءة الانسانية منه قوله ، بعد ان دس السم بالعسل للحسن : « ان الله جنوداً من عسل » وقوله للمجرم بسر ابن ارطاة حين جهزه للسلب والقتل بالسلاح والجنود : « سر حتى تمر بالمدينة ، فاطرد الناس ، واخف من مررت به ، وانهب اموال كل من اصبت له مالاً » . وقوله لسفيان ابن عوف ، وقد سيره إلى العراق ، لنفس الغاية التي سير إليها بسراً للحجاز : « اقتل من لقيته ممن ليس على مثل رأيك ، واخرب كل ما تمر به من القرى » .

أما حلم معاوية فقد كان يضيق عن الضعفاء الذين لا حيلة لهم ولا وسيلة ، كما رأينا في وصيته لجلاوزته وشياطينه ، ويتسع للذين يخشى خطرهم على عرشه وسلطانه ، كحلمه عن جارية ابن قدامة .

وفد جارية على معاوية ، فقال له معاوية :

انت الساعي مع علي بن أبي طالب ، والموقد النار في شيعتك تجوس قرى عربية تسفك دماءهم .

قال له جارية : دع عنك علياً ، فما ابغضنا علياً منذ احببناه ، ولا غششناه منذ صحبناه .

قال معاوية : ويحك يا جارية ، ما كان أهونك على أهلك ، اذ سموك جارية .

فقال له : انت يا معاوية أهون على أهلك ، اذ سموك معاوية (معاوية كلبة عاوية) .

فقال له : لا ام لك .

قا جارية : امي ولدتني . ان قوائم السيوف التي لقيناك بها في صفين في أيدينا .

قال: انك لتهددني .

قال : انك تملكنا قسرة، ولم تفتحنا عنوة، ولكن أعطيناك عهوداً ومواثيق فان وفيت لنا وفينا، وان ترغب إلى غير ذلك فقد تركنا وراءنا رجالاً مدداً وأذرعاً شداداً ، وألسنة حداداً ، فان بسطت إلينا فتراً من غدر دلعنا إليك بباع من ختر .

فقال له معاوية : لا أكثر الله في الناس امثالك .

أجل ، لجارية وأمثاله كان يتسع حلم معاوية ، أما لأطفال عبيد الله بن العباس ، وأصحاب حجر بن عدي ، وأهل القرى الآمنين فقد ضاق عنهم حلمه وكرمه ودينه وضميره .

وعلى الشواهد على حلم معاوية سجوده « لله شكراً » حين بلغه موت الحسن ابن علي ريحانة الرسول وسيد شباب أهل الجنة . فبلغ ذلك عبد الله بن عباس، وكان يومئذ بالشام ، فدخل عليه ، وقال له : يا معاوية بلغني الذي اظهرت من الفرح والسرور لموت الحسن ، اما والله ما سد جسده حفرتك ، ولا زاد نقصان اجله في عمرك « ولقد مات ، وهو خير منك ، ولئن اصبنا بمن به فقد اصبنا بمن هو خير منه جده رسول الله ، فيجبر الله مصيبته ، ويخلف علينا من بعده احسن الخلافة ، ثم شهق ابن عباس ، وبكى فبكى من كان حاضراً .

فقال معاوية : بلغني انه قد ترك بنين صغاراً . فقال ابن عباس: كان صغيراً فكبر . فقال معاوية : كم اتى له من العمر ، قال ابن عباس :

امر الحسن اعظم من ان يجهل احد مولده (يشير إلى ان مولد الحسن كان في سنة الاحزاب يوم كان معاوية وابوه واخوه يقاتلون رسول الله).

فقال له معاوية : اصبحت سيد قومك يا بن عباس من بعد الحسن . فقال له : اما مع وجود الحسين فلا . فقال له معاوية : لله ابوك ما استنبأتك إلا وجدتك معداً .

قتل معاوية الحسن الزكي ، وكبر وسجد لله ، لأنه وفق للغدر بالامام . وقتل ولده يزيد الحسين . ووضع رأسه بالطشت يعبث به بقضيب مكتوب عليه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » حتى إذا سمع الأذان نهض ، وصلى بالناس جماعة ! . . .

هكذا فعلوا بالأمس . وهكذا يفعلون في كل عصر .

ويتسع هذا الباب لمجلدات ، نختمه بالمقارنة التالية :

رأى عبد الملك الامام زين العابدين : فاستعظم ما رأى اثر السجود ، فقال له : يا ابا محمد علام هذا الاجتهاد ، وقد سبق لك من الله الحسنى ، وانت بضعة من رسول الله قريب النسب وكيد السبب ، وانك لذو فضل على اهل بيتك . وذوي عصرك ، ولقد اوتيت من الفضل والعلم والدين والورع ما لم يؤته مثلك ولا قبلك الا من مضى ، واقبل يثني عليه ويطريه :

فقال له الامام : كلما ذكرته ووصفته فهو من فضل الله سبحانه وتوفيقه وتأييده فأين شكره على ما انعم ؟ كان رسول الله يقف في الصلاة حتى ترم قدماه . ويظمأ في الصوم حتى يعصب فوه . فقيل له يا رسول الله ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك ، وما تأخر ؟ فقال : أفلا اكون عبداً شكوراً ؟ على ما اولى وابلى ، وله الحمد في الآخرة والاولى .

ثم قال الامام لعبد الملك : والله لو تقطعت أعصابي وسالت مقلتاي على صدري لا أقوم لله بشكر عشر العشير من نعمة واحدة من جميع نعمه التي لا يحصيها العادون . . . والله لا يشغلني شيء عن شكره وذكره في ليل ولا نهار ، ولا سر ولا علانية .

ثم بكى الإمام ، وبكى عبد الملك ، وقال : شتان بين عبد طلب الآخرة ، وسعى لها سعيها ، وبين من طلب الدنيا من أين جاءته ، ماله في الآخرة من خلاق .

وكما ان الامام لا يشغله شاغل عن ذكر الله وذكره في ليل ولا نهار ، كذلك خصوم أهل البيت لا يشغلهم عن معصية الله شاغل في ليل ولا نهار ، يفسقون ويفجرون سراً وعلانية .

كان عبد الملك الذي وصف نفسه واهله بقوله طلب الدنيا من أين جاءته كان يقول : لا يأمرني أحد بتقوى الله الا ضربت عنقه . وطرب يوماً ولده يزيد ، وعنده جاريتان : حبابة ، وسلامة القس ، فقال : دعوني اطير فقالت له حبابة على من تدع المسامين . فقال عليك .

وكان الوليد بن يزيد حفيد عبد الملك مولعاً بالخمر شب عليه ونشأ ، فعمل حوضاً في بستان، وملأه خمراً فكان يفسق ويزني ، ثم يلقي بنفسه في حوض الخمر يعب منه ، ثم يخرج إلى الزنى والفسق ، إلى ان يدخل وقت الصلاة فيلبس العمامة ، ويؤم الجماعة !

وكل واحد من الائمة الاطهار هو زين العابدين ، وكل عدو لهم هو يزيد .

مناظرة المأمون مع العلماء [1]

قال صاحب « البحار » في أول الجزء الثالث من كتاب الايمان : ان صاحب كتاب « البرهان » ذكر ان الخليفة العباسي المأمون اختار أربعين عالماً من الذين يفهمون ويحسنون الجواب . فاحضرهم في مجلسه وقال لهم :

اني ادين الله عز وجل بان امير المؤمنين علي بن أبي طالب هو خير الخلق بعد رسول الله . وأولى الناس ، وأحقهم من بعده بالخلافة . فماذا تقولون ؟

فانبرى له اعلمهم . وهو اسحق بن حماد . وجثا على ركبتيه ، وقال له :

لسنا نعرف ما ذكرت من أمر علي ، وقد دعوتنا للمناظرة ، ونحن مناظروك على ذلك .

فقال له المأمون : تسألني أو اسألك ؟

فقال اسحق : انا اسألك .

فقال المأمون : سل ما شئت .

قال اسحق : اين دليلك على دعواك ؟

---

(١) المناظرة طويلة جداً وقد اوجزتها بتصرف .

قال المأمون : بأي شيء يتفاضل بعض الناس على بعض ؟

قال اسحق : بالأعمال الصالحة .

قال المأمون : لو افترض ان شخصاً كان أفضل من صاحبه في عهد الرسول ، لان عمله أحل وأفضل ، ثم أراد المفضول الذي كان متأخراً في عهد الرسول ان يلحق بالفاضل . فعمل واكثر من الخير بعد عهد الرسول فهل يستطيع اللحاق بالفاضل الاول ؟

قال اسحق : كلا ، بكل تأكيد . ان الافضل في عهد الرسول لايلحق ابداً .

وقال المأمون ان اصحابك الذين اخذت دينك عنهم ، وجعلتهم قدوة لك قد رووا لعلي فضائل ، فانسب هذه الفضائل التي يسلم بها اصحابك إلى فضائل غيره ، فان رأيت انها تشبه فضائل علي ، ولو من بعيد ، فقل بأن غيره خير منه وافضل

ثم قال المأمون : والآن يا اسحق ، اخبرني اي الاعمال كانت افضل يوم بعث الله محمداً ، ولم يكن معه احد ؟

قال اسحق : الاخلاص بالشهادة ، والسبق إلى الاسلام .

قال المأمون : هل علمت ان احداً سبق علياً إلى الاسلام ؟

قال اسحق : اجل ، ان علياً سبق إلى الاسلام ، ولكن عندما اسلم كان حدثاً صغير السن ، واسلم غيره من بعده ، وكان كبيراً قد تكامل عقله .

قال المأمون : هل اسلم علي من تلقائه ، ودعاه الرسول إلى الإسلام ؟

قال اسحق : بل دعاه الرسول .

قال المأمون : هل كانت دعوة الرسول لعلي بأمر من الله او فعلها الرسول دون امر الله ؟

قال اسحق : حاشا الرسول ان يفعل شيئاً الا بأمر الله ومرضاته .

قال المأمون : لقد امر الله نبيه ان يدعو علياً للاسلام ، وهو يعلم أنه صبي ، فدعاه الرسول امتثالاً لمرضاة الله سبحانه ، ولم يدعو احداً سواه من الصبيان ، لان الله لم يأمره بدعوتهم ، لعلمه بأن الصبي لا يؤتمن على الدين فقد يؤمن الساعة ، ثم يريد بعدها تلبية لطلب اهله وغيرهم ، اذن، لقد اختار الله علياً بدعوة الاسلام من بين الصبيان ليبين فضله على الناس اجمعين ، كي يعرفوا مكانته وعظمته ، وان هذه فضيلة لم يشاركه بها احد ، وانه لم يشرك بربه طرفة عين . فبهت اسحق ولم يستطيع جواباً .

ثم سأله المأمون اي الأعمال كان افضل بعد السبق إلى الاسلام ؟

قال : اسحق الجهاد في سبيل الله .

قال المأمون : صدقت ، فهل تجد لاحد من الجهاد ما كان لعلي ! وكم كان قتلى يوم بدر ؟ وهو اول فتح ونصر للاسلام ؟

قال اسحق : وكانوا نيفا وستين رجلاً من المشركين .

قال المأمون : كم قتل علي منهم ؟

قال اسحق : نيفا وعشرين رجلاً ، واربعون لسائر الناس .

وقال المأمون : يكفي يوم بدر شاهداً على ان جهاد علي فوق كل جهاد ، ولا اطيل عليك في امر الجهاد بأكثر منه . ولكن اريد ان اسألك يااسحق عن حديث «انت مني بمنزلة هارون من موسى » هل ترويه ؟

قال اسحق : نعم أرويه جيداً .

قال المأمون : ان هارون كان أخاً موسى لابيه وأمه وكان نبياً ، وعلي ليس نبياً ، ولا أخاً للنبي ، اذن ، ما معنى قول الرسول : انت مني بمنزلة هارون من موسى ؟

قال اسحق : لقد اراد النبي بقوله هذا ان يطيب نفسه علي ، لانه تألم من قول المنافقين بان الرسول استخلفه استثقالاً له .

فابتسم المأمون من قول اسحق ، وقال له :

اين انت عن كتاب الله ؟ ان معنى الحديث في القرآن بالذات .

قال اسحق : وكيف ذلك ؟

قال المأمون : ان الله اخبر عن موسى بأنه قال لاخيه : اخلفني في قومي واصلح ، ولا تتبع سبيل المفسدين ، وهكذا أراد محمد ان يكون علي في قومه ، وان يصلح شأنهم ، ولا يتبع اهواءهم .

قال اسحق : ان موسى استخلف هرون موقتاً ، لبينما يعود من مناجاة ربه ، كذلك استخلف محمد علياً على المدينة لبينما يعود من غزوته .

قال المأمون : كلا ، ليس الامر كما ذكرت . ان موسى ذهب إلى ربه وحده ، ولم يذهب احد معه من قومه ، فاستخلف هارون عليهم ، ومحمد ذهب معه قومه ، ولم يبق في المدينة إلا النساء والصبيان ، فتعين ان يكون علي

خليفة في قوم محمد ، كما كان هارون خليفة في قوم موسى ، وقد بين النبي ذلك بقوله إلا انه لا نبي بعدي ، وهذا يكشف بان محمداً قد استخلف علياً على كل حالٍ إلا النبوة ، لان محمداً خاتم النبيين ، وما كان قول النبي ليبطل ابداً .

فقال العلماء الحاضرون للمأمون : الحق ما تقوله ، ونحن نعتقده ، وفقك الله .

وسواء أكانت هذه المناظرة قد حصلت ، أم هي من وضع واضع ، فبان فيها من العلم ما يعبر عن الواقع ، فان لم ينطق بها مقال فقد عنها لسان الحال .

الشيعة

لكي نعرف شيعة علي علينا ان نعرف أولاً من هو علي ؟ أما المعرفة بشخصيته فلا تحتاج إلى الدرس في المعاهد والجامعات ، أو قراءة ما ألف فيه من المجلدات ، وما على الراغب إلا ان يقرأ كلمة من كلماته المأثورة المشهورة ، فسيجدها كافية وافية في الدلالة على عظمته ، وبالرغم انها كعظمة الكون لاتحدها نهاية وهنا موضع الاعجاز .

وحسب الذين لا يعرفون الامام ان يقرأوا قوله :

« والله لو اعطيت الاقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على ان اعصى الله في نملة اسلبها جلب شعيرة ما فعلت » .

يا للحنان والرأفة . يا للعلم والصدق . . . علي يقسم بالله ، وهو العارف به والصادق من غير ايمان : انه لو خير بين ان يسلب نملة قشرة شعيرة لا شعيرة ، ويملك الكون بشمسه وقمره بأرضه وسمائه ، بانسانه وحيوانه ، بذهبه ومعدنه ، وبين أن يترك للنملة قشرتها ، ويحرم من كل شيء ، بل يجر في القيود والاغلال لاختار الحرمان والآلام مع العدل ، على ملك الكون بأسره مع الظلم ، وأي ظلم : سلب قشيرة صغيرة لنملة حقيرة ؟ .

ان فناء علي في جنب الله هذا الفناء اخرجه عن افراد الانسان العاديين ، وجعله مبدأ وعنواناً للحق ، حتى اصبح اسمه مرادفاً لاسم الحق ، ومن هنا

انقسم الناس فيه إلى محبين ومبغضين ، تماماً كما انقسموا في الحق إلى موالين ومعاندين .

سئل الإمام الصادق : بماذا صار علي قسيم الجنة والنار ؟ فقال : لان حبه إيمان وبغضه كفر ، وإنما خلقت الجنة لاهل الايمان ، وخلقت النار لاهل الكفر .

وكما بلغ الإمام من التقى والتضحية لأجل الحق اقصى ما يمكن ان يصل إليه انسان كذلك هو في علمه وصدقه وشجاعته وسماحة بلغ مرتبة ليس فوقها إلا الله والرسول . وإذا كان كلامه فوق كلام الناس ودون كلام الله ، كما قيل ، فكل صفاته كذلك دون استثناء . وهذه نتيجة طبيعية لشخصيته المنسجمة المتماسكة ، وإذا كان معنى الاعجاز خرق العادات فان كل صفة من صفاته خارقة للعادة .

هذا هو الإمام ، فمن أراد أن ينتمي إليه ، ويكون في عداد شيعته فعليه أن يقتدي به ، أو قل عليه أن يلتزم الشروط التي حددها أهل البيت ، واعتبروها أساساً للدخول في حزبهم ، والانتساب إلى شيعتهم .

قال الإمام زين العابدين : « أبغض الناس إلى الله من يقتدي بسنة إمام ولا يقتدي بأعماله » . ومحال أن يكون أبغض الناس إلى الله سبحانه ، من شيعة أحب الخلق لديه . وقال الإمام الصادق : « حق على كل مسلم يعرفنا أن يحاسب نفسه في كل يوم وليلة ، فإن رأى حسنة استزاد منها ، وإن رأى سيئة استغفر منها » . وقال الإمام الباقر : « والله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه » . إذن الشيعي حقاً هو المسلم القرآني الذي يحمل روح أبي ذر وعمار ابن ياسر ، وإلا فهو شيعي بالإسم ، وكفى .

حين يذهب الشيعي إلى زيارة قبر الإمام في النجف يتجه إليه ، ويقول: « السلام عليك يا أمير المؤمنين ، وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين » فإذا لم يكن هذا القائل من أهل الإيمان والتقوى فقد شهد على نفسه بأن الإمام بريء منه ومن أعماله ، تماماً كالذي يقرأ القرآن ، والقرآن يلعنه — كما جاء في الحديث — لأنه فاسق منافق ، والقرآن يلعن الفاسقين والمنافقين . .

ومن الطريف أن بعض الذين يدخلون البرلمان باسم التشيع زوراً وبهتاناً لا يقف عند الدعوى بأنه شيعي ، لأن مأمور الإحصاء كتب في هويته « مسلم شيعي » اعتماداً على شهادة المختار والناطور ، بل يزعم أنه يمثل الطائفة الشيعية ، ويحتج بها كلما أراد السلب والنهب ، كأن مذهب التشيع قائم على الفوضى والظلم ، والفسوق والفجور ، والتحريض على اغتيال الأبرياء كما فعل ويفعل هذا « الآثم » الذي يزعم التمثيل عن الشيعة . وأراهن إذا كان يعرف شيئاً عن مذهب التشيع ، أو يستطيع أن يعد أسماء أئمة الشيعة الإثني عشر على الترتيب ، بل أراهن إذا كان قد صام يوماً واحداً ، أو أدى فريضة واحدة ، انه يسخر من المصلين والصائمين ، وممن يدين بالحب والولاء للنبي وأهل بيته . وبالرغم من كل ذلك يصبح نائباً ووزيراً باسم الشيعة ، ومن قبله نكث يزيد بن معاوية ثنايا الحسين بقضيب كتب عليه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

ومنذ انتسب هذا وأمثاله إلى الشيعة أصبحوا لنمه تاردة لكل طامع ، وصدق عليهم قول الإمام : « لا تنفك هذه الشيعة حتى تكون بمنزلة الماعز لا يدري الحابس — أي الآخذ — على أيها يضع يده ، فليس لهم شرف يشرفونه ولا سناد يستندون إليه في أمورهم ، »⁽¹⁾ أي بلغوا من الضعف حداً أصبحوا

---

(١) بحار الانوار ، المجلد الثالث عشر ، باب « ما ورد عن الإمام في المهدي » .

معه كقطيع الماعز المعد للذبح ، يأخذ الجزار منه ما يشاء ، حيث لا راعي تمنعه ولا زعيم يردعه .

وقال أيضاً : « كأني بكم تجولون جولان الإبل تبتغون مرعى ، لا تجدونها يا معشر الشيعة » (١) .

صور من الإبل والماعز يرسمها سيد الأولياء للشيعة لا تختلف في شيء عما هم عليه الآن . أنظر إلى الشيعة في كل مكان فهل تجد لهم قائداً يعمل بوحي من حلال الله وحرامه ؟ ! هل تسمع صوتاً لمتزعم أو متقدم إلا بدافع من أهوائه وسفه أبنائه ؟ ! فإن تولى أحدهم الرياسة الدينية استحال في حقه أن يفكر بضعف الطائفة وبؤسها ومستقبل أبنائها ، وأن يقوم بأي عمل للتخفيف عنها وتحسين حالها ، لأن هذا سياسة ، ولا ينبغي لرجل الدين التدخل بشيء من السياسة ، ويحصر كل همه واهتمامه بكثرة المقلدين والأتباع ، وبأية وسيلة تأتيه الحقوق والأموال ؟ ومن أين ، وان تولى الرياسة الزمنية أضاف إلى سيئاته سيئات بعضها فوق بعض ؟ فلا بدع إذن إذا أصبح الشيعة ضالة تجول ولا تهتدي إلى خير ، وماعزاً تساق إلى المسلخ !

لقد لاقى الشيعة ألواناً من التنكيل والاضطهاد منذ عهد الأمويين إلى آخر عهد العثمانيين ، حتى إذا ذهب هؤلاء ، وسيطر الاستعمار الغربي من بلاد العرب كان نصيب الشيعة من ظلمه وبغيه أكثر من نصيب أية طائفة من الطوائف ، وبعد أن ولّى الإنكليز والفرنسيون ، واستقلت البلاد العربية بقيت حقوق الشيعة نهباً لمن يشاء ، وبخاصة في لبنان

---

(١) المصدر السابق .

جاء الرئيس الأول سنة ١٩٤٣ فقرب بعض زعماء الشيعة ، وأبعد آخرين فلم تنل الطائفة حقوقها ، ثم جاء الثاني فأبعد القريب وقرب البعيد ، فكانت الحال أدهى وأمر . ورددنا مع الشاعر :

يا ليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار

ثم جاء الثالث ، وأعلن سياسة الحياد وعدم الانحياز ، ولكن ما زال المتشيع ينشد الحق فلا يجده ، لقد مررنا بكل عهد ، والحال هي الحال . إذن هناك سر . . . إنه في الداخل لا من الخارج . . . أنه الداء الذي وصفه الإمام « ليس لهم شريف يلوذون به ، ولا سناد يستندون إليه في أمورهم »

وصدق شيخنا الشبيبي :

أيها المصلح من أخلاقنا أيها المصلح الداء هنا



إننا نجني على أنفسنا حين نجني ثم ندعو من جنى؟

مولد الامام وأولاده

ولادة الامام :

ولد علي في قلب البيت الحرام بمكة يوم الجمعة ١٣ رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة . وأبوه عم الرسول ، وأمه بنت عم والده . وكان النبي يسمي السنة التي ولد فيها الإمام سنة الخير ، وسنة البركة . وكان يوجره اللبن عند شربه ، ويصب عليه الماء وقت غسله . ويحرك مهده عند نومه ، ويناغيه في يقظته . ويحمله على صدره .

كناه وألقابه :

سمته أمه باسم أبيها . وسماه أبوه علياً . وكان الحسن والحسين في حياة الرسول لا يناديانه « يا أبانا » لأنهما لا يريان أباً إلا رسول الله (ص) . فلما قبض جدهما ناديا الإمام بيا أباه ، أما ألقابه فلا يبلغها الإحصاء ، منها أمير المؤمنين . ويعسوب الدين . والمرتضى . وأخو الرسول ، وزوج البتول ، وقاتل الفجرة ، وقسيم الجنة والنار ، وصاحب اللواء ، وسيد العرب . وما إلى ذلك ، أما أمير النحل فقال صاحب البحار في آخر المجلد الثالث : روي أنه وجد في غار نحل ، فلم يطق أحد الوصول إليه ، لشدته . فقصده علي ، واستخرج منه عسلاً كثيراً ، فسماه الرسول أمير النحل .

أزواجه وأولاده :

تزوج فاطمة، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وهي بنت عشر. ولدت فاطمة بمكة بعد النبوة بخمس سنين ، وزوجه إياها الرسول في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وبنى بها الإمام في شهر ذي الحجة من السنة ذاتها ، وتوفيت ولها من العمر ثماني عشرة سنة ، وخمسة وسبعون يوماً . وجاء في الحديث « لولا علي لم يكن لفاطمة كفؤ » . وولدت له الحسن والحسين ، وزينب الكبرى ، وزينب الصغرى المكناة بام كلثوم .

وتزوج بعدها بنساء كثيرات ، منهن :

١ – أمامة بنت أبي العاص ، وأمها زينب بنت الرسول وولدت له محمد الأوسط . قتل في كربلاء .

٢ – خولة بنت جعفر بن قيس الحنفية ، ولدت محمد الأكبر المعروف بابن الحنفية .

٣ – أم حبيبة بنت ربيعة ، ولدت عمر ورقية .

٤ – أم البنين بنت حزام الكلابية . ولدت العباس وجعفر وعبد الله وعثمان قتلوا في كربلاء .

٥ – ليلى الدارمية . ولدت محمد الأصغر المكنى بأبي بكر ، وعبد الله قتلا في كربلاء .

٦ – أسماء بنت عميس الخثعمية ، ولدت يحيى وعون .

٧ – أم مسعود الثقفية ، ولدت أم الحسن ورملة . وتزوج غير الذي

ذكرناهن . رزق منهن بنات وهن نفيسة وام هاني . ورقية الصغرى . وام الكرام . وجمانة ، وأمامة . وام سلمة . وميمونة وخديجة وفاطمة .

ومجموع أولاده ٢٧ . منهم ١٤ ذكور . والباقي أناث وكان عنده يوم قتله من النساء اثنتان وعشرون ، منهن أربعة زوجات : أمامة بنت أخت سيدة النساء فاطمة ، وليلى بنت مسعود ، وأسماء بنت عميس . وأم البنين الكلابية ، و ١٨ أمهات أولاد .

صفة الإمام :

كان ربعة ، ليس بالطويل ولا بالقصير أسمر الوجه . أصلع . يحف الشعر بالصلع . كأنه إكليل ، رقيق الحاجبين مع طول فيهما وامتداد ، أسود العينين في سعة تزين لحيته ووجهه وصدره ، حسن الوجه واضح البشاشة . أغيد كأن عنقه إبريق فضة ، عريض الصدر . طويل الظهر . كبير البطن . مستوي المتن حتى كأنه قطعة واحدة لا مفاصل فيها . غليظ الكفين . ضخم الأعضاء ليس عليهما كثير لحم . لا يستبين عضده من ساعده . عبل الذراعين عظيم المرفقين والكعبين والركبتين ، رقيق الساقين

قال المغيرة بن شعبة كان علي على هيئة الأسد . يغلظ من أعضاء الأسد ويسترق ما استرق .

وكانت مشيته كمشية رسول الله (ص) ، وكان إذا أقدم على حرب هرول لا يلوي على شيء ، وكان يرفع الفارس بيد واحدة . ويجلد به الأرض من غير جهد وعناء ، وإذا أمسك بذراع إنسان احتبست أنفاسه . وكان لا يبالي بحرّ ولا برد . فربما لبس ثياب الصيف في الشتاء ، وثياب الشتاء في الصيف .

المهدي المنتظر والعقل

تمهيد

بعد أن صدر كتاب « الشيعة والتشيع » وردت إلي حوله رسائل من قرائه . وما تأثرت بشيء . كتأثري برسالتين منها :

الأولى : من شاب مدرس في احدى مدارس العراق . جاء فيها : ما كنت أحسب ان أحداً بمقدوره أن يقنعني بالمهدي المنتظر . كما هو في عقيدة طائفتي وآبائي وأجدادي . ولكني بحمد الله قد اقتنعت وآمنت بعد ان قرأت كتابك « الشيعة والتشيع » .

والرسالة الثانية : من العراق أيضاً . ولم يفصح صاحبها عن مهنته . قال فيما قال : كنت من قبل أضع فكرة المهدي في عداد المستحيلات . حتى قرأت الفصل الخاص به في كتاب « الشيعة والتشيع » فعدّلت رأيي وقلت : انها ليست محالاً . كما كنت أحسب وأعتقد .

فحمدت الله وشكرته جل وعز . وقلت في نفسي : وأية أمنية أبتغيها من التأليف وراء هذه ؟ وأي عمل أتزود به في دار المقامة أنفع وأرفع ؟ وأيضاً قلت في نفسي : ما دام هذا أجري من الكتابة فلن ألقي القلم . وفيّ نفس يتردد ، وعرق ينبض .

وكلنا يعلم ان موضوع المهدي المنتظر من الموضوعات الشائكة للغاية ، بالقياس إلى تفكير النشء وتربيتهم . بخاصة من تغلب الزهو عليه ، وغرق في الغرور إلى ما فوق اذنيه . . ومن هنا شعرت بالغبطة . . واستغفر الله . .

وان دلت الرسالتان على شيء فانهما تدلان – أولاً – على جبن من يراوده الخوف من معالجة هذا الموضوع وما إليه . الخوف من الاخفاق والاستخفاف وانه غير خليق بشيء – أقصد من له أهلية التفهم والتفهيم – ولا أصدق ان « عالماً » يحصل على شيء يذكر في آخرته ودنياه ، إذا لم يكن شجاعاً مقداماً . . فلقد سبق في علم الله وقضائه ان لايكون للجبناء من فضله الدائم نصيب محمود.

ومهما يكن ، فلم يدر في خلدي حين قرأت الرسالتين أن أضيف شيئاً على فصل المهدي المنتظر في كتاب « الشيعة والتشيع » أو أطبع هذا الفصل ثانية في كراسة على حدة . ليطلع عليه من لم يصل الكتاب إليه وانما انصرفت إلى كتاب « علي والفلسفة » ، ثم إلى كتاب « الوقف والحجر على المذاهب الخمسة » . ثم إلى كتاب « الحج على هذه المذاهب » ثم إلى كتاب « تجارب وتأملات » ، ثم إلى كتاب « أصول الإثبات في الفقه الجعفري » . ثم إلى هذه الصفحات [1] .

وفي اللحظة التي خط القلم كلمة الختام من كتاب اصول الاثبات . وقبل أن أقوم من مكاني رأيتني – بحافز لا شعوري – اشرع بالكتابة عن الإمامة بوجه عام . كما كان يبدو لي بادىء ذي بدء . لأخرج كتاباً يحمل اسم « الإمامة والعقل » . . وكنت إذا سألني سائل فيم أكتب أقول له : في الإمامة والعقل ، وقبل ان انتهي من الفصل الثالث تبين معي اني أكتب عن صاحب الأمر والزمان (ع) بوجه خاص ، لا عن الإمامة بوجه عام ، ولكن بأسلوب

(١) الكتاب الأول نشرته دار الكاتب العربي ، ووزعته ، والثاني طبعته دار النشر للجامعيين ، والثالث يعرض في المكتبات ، والرابع انتهيت منه ، ولا أدري ماذا يكون مصيره ، والخامس طبعته دار العلم للملايين ، . . . وابتدأت بهذه الكتب في ٢٠ شوال من سنة ١٣٨٢ هـ . وتمت بحمد الله في ١٥ شوال من سنة ٨٣ .

جديد ، وتفكير جديد كما خيل إليّ ، فعدلت عن اسم الإمامة والعقل إلى المهدي والعقل ، وليس هذا من باب : فسخ العزائم حيث لم يخطر العدول والفسخ ببال ، ولكنه من باب : أردت أمراً وأراد الله خلافه ، فمضيت على ارادته ، والدمعة تترقرق في عيني غبطة وسروراً .

وتقول هذا محال أو بعيد ، إذ كيف تقصد الكتابة في موضوع ، ثم يتبين أنه غير ما قصدت ؟ . . أليس هذا من باب « أردت ما لا تريد » . . لأن الكتابة في شيء لا تنفك عن ارادة هذا الشيء بالذات .

وأقول : أجل ، وقد كنت أرى – من قبل – أن مثل هذا محال ، كما تراه أنت الآن . . ولكن صدق ، أو لا تصدق ، هذا ما وقع وحصل . . أما التفسير الذي أركن إليه فلم أجده إلا في مشيئة الله وارادته ، جلت حكمته وقدرته (1) أما أنت ففسر بما شئت .

وشيء آخر أود ذكره وبيانه ، وهو اني في سنة ١٩٥٩ وضعت تصميماً لسلسلة « الاسلام والعقل » وجاء كتاب الامامة والعقل – بحسب العزم والتصميم – الكتاب الرابع ، وبالفعل صدرت كتب : الله والعقل ، والنبوة والعقل ، والآخرة والعقل ، وحين وصلت إلى الرابع إذا به علي والقرآن بدل الأمامة والعقل ، ثم فضائل الإمام علي ، ثم علي والفلسفة .

---

(1) ذكرت في كتاب تجارب وتأملات ان الله سبحانه أقام البراهين العامة على وجوده من خلق السموات والأرض ، وما إليه ، ثم أعطى كل نفس من الأدلة ما تختص به وحدها ، وإذا رجع كل إنسان إلى تاريخ حياته ، وتدبرها بامعان لمس هذه الحقيقة ، حيث يجد حوادث قد حصلت له ، ولا يجد لها أي تفسير إلا في مشيئة الله وارادته ، وأنا أضيف هذا الدليل إلى ما ذكرته في التجارب والتأملات ، وسوف أضيف إلى هذا الدليل ألف دليل ودليل ، ان أمد الله في الحياة .

وبعد أربع سنوات أو أكثر من العزم والتصميم رجعت إلى الإمامة بوجه عام – وحكيت القصة – . . ومن يدري لعلي اعزم في المستقبل القريب أو البعيد على موضوع غير الأمامة والعقل ، وإذا به نفس الإمامة والعقل ، تماماً كما حصل مع هذه الصفحات . .

بقي شيء ثالث ، وهو – أني – منذ كتبت في الله : والنبوة ، والآخرة إلى الآن قرأت عشرات الكتب في موضوعات مختلفة ، واتجاهات شتى ، وقد تبين معي انها كانت المادة ورأسمال لهذه الصفحات ، وسأضيف ، بحول الله وتوفيقه ، إلى تلك القراءات قراءات ومطالعات ، ان بقيت للكتاب والقلم . . ومن يدري فقد تكون قراءاتي غداً مادة خصبة لكتاب « الامامة والعقل » . . أو إمامة علي والعقل وإلى اللقاء .

والحمد لله الذي قدر فهدى ، ويسر لليسرى ، وصلى الله على محمد وآله الأبرار الأطهار .

ملاحظة :

الآن تذكرت ملاحظة ، تتصل بهذه الصفحات وغيرها من كتبي الصغار وأخشى النسيان والذهول عنها ، ان لم أبادر لتسجيلها ، وخلاصتها ان سلسلة « الاسلام والعقل » الله والنبوة والآخرة جاءت في كتيبات صغيرة ، وكان الأفضل ان تكون أضخم وأكبر .

وخلاصة الجواب :

١ – ان العبرة في الكيف لا في الكمّ ، وبالفكرة والدقة والأمانة لا بعدد الصفحات ، فلقد كنت ، وما زلت أكره الحشو والفضول ، واللف

والدوران ، وأحب الاختصار ، بدون ان يخل بالمعنى ، ويغير من طبيعته شيئاً ، ولو أردت لعبرت عن الصفحة الواحدة بصفحتين ، أو أكثر .

٢ ــ ان الهدف الذي أرمي إليه من كتابتي هو أن يقرأ هذا النشء الضائع عن الدين ويطلع على شيء مما لدينا عسى أن يهتدي واحد من مئة ، فان الفاصل الذي يفصلهم عنا هو جهلهم بنا ، وقد كان وما زال جهل الناس بعضهم لبعض سبباً للنزاع والصراع ، فان علموا أمكن القرب والتفاهم ، وأسهل الطرق لترغيبهم في القراءة المختصر المفيد الذي يستطيعون متابعته ، وهم في السيارة ، وحين يأوون إلى مخادعهم ، تماماً كما يقرأون الصحف . . وما زلنا نسمعهم يرددون نحن في عصر السرعة ، والاختزال ، واختصار الأوقات . . . فاختصرت ، ليقرأوا ، وهم سائرون ، تماماً كما يأكلون « السندويش » .

ولو قارن مقارن بين من قرأ من شباب هذا العصر كتاب « علي والقرآن » مثلاً ، وبين من قرأ المطولات القديمة والحديثة في هذا الموضوع لوجد ان نسبة هؤلاء إلى أولئك نسبة الواحد إلى الألف ، على أكثر تعديل . . ان لم نقل لا شيء . .

وبكلمة اني اهتم ــ أولاً ــ بأبنائنا ، وأحاول الاقتراب منهم ، وحملهم بشتى الطرق على الدين والايمان ، وادع الحجاج الصائمين المصلين إلى من أرادهم من الاخوان . والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين [1] .

---

(١) لم يبق لهذه الملاحظة مجال بعد ان حوت هذه المجموعة على الكتب الأربعة .

النقد على صعيد الرغبات

عين الرضا :

إذا احسن إليك انسان ، واستجاب لرغباتك فقد ملك عقلك وقلبك ، لأن الانسان عبد الاحسان ، والقلوب مطبوعة على حب من أحسن إليها ، فإذا نظرت إلى أقواله وأفعاله نظرت إليها بعين كليلة عن الحق ، واعتقدت بأن ما يقوله هو العدل والصدق ، وان ما يفعله هو الصواب والحق ، حتى ولو كان كاذباً في أقواله ، مخطئاً في أفعاله ، دون أن تشعر بهذا الميل والانحياز بل انك تحسب مخلصاً ان ما تمليه عليك العاطفة هو ظن من املاء العقل، ومنطق الواقع .

عين السخط :

والشيء نفسه يقال في شهادتك على من أساء إليك ، لأن عين السخط تماماً كعين الرضا كلتاهما معميان عن الحق ، وصاحبهما ينطق عن الهوى ، ويحسب انه وحي يوحيه الحق والواقع ، وليس عامل التربية والبيئة بأفضل من عامل الحب والكراهية ،في تصوير الواقع تبعاً لها .

الآراء والمعتقدات :

وإذا كانت آراء الناس ومعتقداتهم – غير البديهية – عرضة لأخطاء البيئة

والأنانية فعلى العاقل المنصف ان يتهم نفسه فيما يرى ويعتقد وان يتنبه دائماً إلى أن يؤمن به يقبل النقد والنظر ، وانه لو كان منزهاً عن الخطأ لكان نبياً مرسلاً ، وكانت جميع أقواله وآرائه مقياساً للحق ، ومعياراً للعدل .

أما الذي يحق له أن ينظر وينقد فهو المنصف العارف الذي يملك الاستعداد والمؤهلات . . فان الجاهل بالطب لا يدعى إلى فحص المريض ، ومن لا يعرف الهندسة لا يطلب إليه أن يضع فيها الترتيبات والتصاميم ، ومن لا يركن إلى ضميره لا يعتمد عليه في شيء ، ومن كفر بالله لا يسأل عن رأيه فيمن آمن وأيقن .

أجل ، لو ان من كفر وجحد كان قد قرأ الفلسفة الإلهية ، واطلع على براهين الإلهيين وأدلتهم لكان للسؤال عن رأيه وجه، ان كان من أهل الرأي والانصاف ولكن كيف يقرأ وهو يرى مسبقاً ان كل ما يتصل بالدين أسطورة ووهم ؟ ! وهل تقرأ أنت كتاباً في الحساب لمؤلف يرى ان اثنين واثنين تساوي عشرة ؟ ! وهذا هو بالذات شأن كثير ممن جحد وألحد .

وتقول : هذا هو حال المؤمنين أيضاً بالقياس إلى كتب الإلحاد حيث لا يقرأون كتب الملحدين وبراهينهم .

الجواب :

ما من باحث في الإلهيات قديماً وحديثاً الا واستعرض أقوال الملحدين وأدلتهم وتناولها بالنقد والتحليل في ضوء العقل ، واهتم بها كل الاهتمام ، أما الملحدون فترجع جميع أقوالهم وأدلتهم إلى شيء واحد ، وهو ان الإيمان بالله ايمان الغيب ، وانهم لا يؤمنون إلا بالحس .

وأجابهم من آمن بالحق والعدل : ان الإيمان بالحس هو في الوقت نفسه ايمان بالعقل ، لأن شهادة الحس ليست بشيء لولا العقل . وإذا جاز الاعتماد على العقل في الحس المباشر جاز الاعتماد عليه في الحس غير المباشر . والتفكيك تحكّم . وترجيح بلا مرجح .

ومهما يكن فان الغرض من هذا الفصل ان نبين ونؤكد ان الانسان لا يسوغ له أن ينتقد إذا كان أسيراً لمذهب أو نظرية أو تربية أو أي شيء . . ومن هنا حين أراد ديكارت أن يركّز معلوماته على المنطق السليم شك بادىء ذي بدء في كل شيء الا في الشك . ثم أخذ بالنظر والاستدلال .

وتقول أيضاً : ان معنى هذا أن نسد باب النقد من الأساس . إذ ما من عالم أو فيلسوف إلا وله نظرية خاصة . لا ينفصل عنها . وينظر إلى الشيء من خلالها . ويحكم عليه بوحي منها ، وعلى هذا فمن يلتزم ديناً معيناً . أو مذهباً خاصاً لا يسوغ له أن ينتقد من لا يدين بدينه ويتمذهب بمذهبه .

الجواب :

أولاً : ان عدم انفصال المرء عن رغباته لا يعني انه بعيد عن الحق والواقع في كل ما يقول ويفعل . فان بعض الرغبات تأتي انعكاساً عن الواقع ، وتعبيراً عن الخير ، ولو صح القول بأن الرغبات والتعصبات بكاملها لا تمت إلى الواقع بصلة لما وجد في الانسانية مصلح ، ولا مفكر ، ولا داعٍ إلى الحق والخير . . ولوجب ان يسد باب القضاء والترافع ، لأن كل من يدعي شيئاً يرغب فيه ، ويتعصب له ، فكما ان القاضي العادل العارف لا يرفض الدعوى اعتباطاً ، ولا يحكم بها تشهياً ، وانما يستمع للمدعي ، ويطلب منه البينة والدليل ، ويحكم بما تستدعيه الأصول المقررة . . كذلك علينا نحن ان لا نصدق ،

أو نكذب ما نسمع ونقرأ إلا بعد النظر والبحث . وهذا هو النقد بمعناه الصحيح .

ثانياً : ليس العبرة في صحة النقد أن يكون عقل الناقد صحيفة بيضاء ، لم يخط فيها حرف واحد . وانما العبرة ان يعتمد في نقده على ما هو مقبول في نظر العقل . أو مسلم به عند الخصم ، فلك أن تنتقد من يقول بأن الأرض مسطحة . وأنت مؤمن بكرويتها . على شريطة أن تأتي بالدليل المقنع على بطلان التسطيح وان تقول للمسيحي : انك تخالف كتابك المقدس لأنك لا تمد خدك الأيمن لمن ضربك على خدك الأيسر ، تقول له هذا ، وان لم تكن مسيحياً . . وان تقول للمسلمين : انكم تخالفون أمر القرآن الكريم :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا ﴾

آل عمران ١٠٣ .

وان لم تكن مسلماً . ويكون قولك هذا حجة دامغة . . وبكلمة ، ليس من شرط الناقد ان لا يؤمن ولا يعتقد بشيء ، وانما الشرط ان لا يتخذ من ايمانه واعتقاده معياراً لبطلان العقائد الأخرى ، وان تجول عقيدته ونظريته دون العدل ومنطق العقل . وان يعتمد على الدليل الذي تسالم عليه العقلاء ، أو آمن به الخصم على الأقل ، وبهذا المنطق يقف الناقد موقف المحايد ، وبدونه يعجز عن القيام بمهمة النقد الصحيح ، وان بلغ من العلم ما بلغ .

كتاب وجواب :

كتب إليّ عراقي يقول : انك تهدف مما تكتب إلى هداية الشباب إلى الدين ، وأنا بحمد الله مؤمن متدين ، ولست بحاجة إلى من يحببني بالدين ،

ولكني لاأرى أي شيء من صميم الدين إلا إذا اعترف به عقلي ، ورآه حسناً . أما ما ينكره فأعتقد انه ليس من الدين في شيء ، وانما هو من وضع رجال الدين الذين انحرفوا به عن أهدافه السامية ، اما جهلاً بحقيقته وجوهره واما عن قصد ، ليعيشوا عن طريق الخرافات والأساطير التي يستسيغها البسطاء وأرباب الجهالة

وهذا القول يردده كثيرون من شباب اليوم خوفاً من وصمة الالحاد . رما دروا انه اعتراف صريح على أنفسهم بالالحاد والكفر ، واقرار عليها بالجهل والحماقة ، من حيث لا يريدون . . ومهما يكن ، فقد أجبت هذا الشاب بما يلي :

أولاً : أجل ، لا شيء من الدين يتنافى مع العقل ، ولكن العقل الذي يناصر الدين شيء ، والذي تراه أنت انه من العقل شيء آخر . . ان للعقل حدوداً تستقل عن رغبات الفرد وأهوائه الشخصية ، واحكاماً يستسيغها جميع العقلاء ، ولا يقتصر قبولها على فرد دون فرد ، أو فئة دون فئة .

ثانياً : ان حكمك بأن هذا صواب ، أو خطأ لا يدل على انه كذلك في واقعه ، وانما يدل على احساسك وشعورك بأنه صواب أو خطأ ، وان أبيت الا انه صواب موضوعي ، أو خطأ موضوعي فمعناه انك قد اتخذت من نفسك مقياساً للعقل ، وخولتها الحكم على الأشياء باسمه ، وهذا ادعاء مبالغ فيه .

ثالثاً : ان قولك : « لا أؤمن إلا بما لا يراه عقلي » معناه انك لا تؤمن بدين ، ولا بشريعة ، ولا بأخلاق ، ولا تلتزم بشيء إلا بما تستوحيه من نفسك لنفسك ، وهذا يناقض قولك : « أنا مؤمن متدين » . وأي انسان تتناقض أقواله وآراؤه ، ولا ينسجم بعضها مع بعض لا يكون في واقعه من أرباب

العقائد في شيء ، دينية كانت أو زمنية ، أما ظنه وشعوره هو بأنه من ذوي العقائد الراسخة ، والمبادىء الثابتة فانه نتيجة طبيعية لتناقضه في آرائه ، وانقسامه على نفسه .

رابعاً : لو أخذنا بنظريتك هذه لوجب ان يختلف الدين باختلاف الآراء والأشخاص .. ان المؤمن المتدين هو الذي يأخذ الدين من أهل المعرفة والاختصاص الذين قضوا السنوات الطوال في البحث عن أحكامه ، والتنقيب في مصادره ، تماماً كما يأخذ المريض العلاج من الأطباء العارفين ، ولا يثق بحدسه وخياله .

وبالتالي ، فان اتهام المرء لآرائه التي لم يأخذها من معينها ومصدرها يقربه من الواقع ، أما الذي يثق بها كل الثقة فانه يعيش في دنيا لا واقع لها ، وفي عالم لا وجود له الا في مخيلته وأوهامه .

الامام

الإمام :

الإمامة في مفهوم الشيعة الإمامية وعقيدتهم رئاسة دينية وزمنية يتولاها رجل عالم بما يصلح الناس في شؤون دينهم ودنياهم ، ويعمل على ذلك دون أن يستأثر عنهم بشيء ، ولا يخطىء في علمه ولا عمله .

فالإمام في حقيقته وطبيعته انسان كسائر الناس لا يختلف عنهم إلا في الصفات التالية :

١ — انه يعلّم الشريعة بجميع أحكامها ودقائقها وأسرارها ، تماماً كما هي في واقعها ، وكما نزلت على محمد (ص)، بحيث لا يجوز الخطأ واحتمال الخلاف في معرفته لها ، بخلاف غيره من علماء الشريعة الذين قد يصيبون وقد يخطئون ، ومن أجل ذلك جاز أن يخطىء بعضهم بعضاً، ويناقشه بالدليل والبرهان ، أما الإمام فلا تجوز مناقشته والرد عليه بحال .

وتنبغي الاشارة هنا إلى ان الإمامية يعتقدون بأن الامام ليس واضعاً للأحكام بنفسه ، وجاعلها من تلقائه . . بل ان واضعها ومشرّعها هو الله جل وعز ، وانه بيّنها لنبيه محمد ، وان محمداً (ص) بيّنها للإمام مباشرة أو بواسطة إمام فالإمام علم بها بعد وجودها وتشريعها . وبكلمة انه مبلّغ عن الرسول ، والرسول مبلّغ عن الله . قال الإمام علي في الخطبة الـ ١٢٨ من خطب النهج :

﴿ عِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ ،
فَعَلَّمَنِيهِ ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ
صَدْرِي وَتَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي ﴾

٢ – إن الامام يعمل بالحق . أي ينسجم مع علمه وقوله . ولا يحول بينه وبين العمل به هوى ولا خطأ ونسيان . . وأيضاً تنبغي الاشارة – هنا – إلى أن الإمام في عقيدة الإمامية غير مجبور ولا ملجأ إلى العمل بالحق . . بل فيه قدرة نفسية تردعه عن الباطل . مع قدرته على فعله . وتدفعه إلى العمل بالحق . ومع قدرته على تركه .

أما الدليل الذي اعتمده الإمامية في اضفاء هذا الوصف على الإمام فهو العقل بضميمة قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا
اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ
مِنْكُمْ ﴾ . ٦٠ النساء .

وقوله :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ
الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
رَاكِعُونَ ﴾ . ٥٥ المائدة .

لأن امره تعالى بطاعة الإمام – وهو ولي الأمر – واقترانها بطاعته وطاعه الرسول ، يكشف بحكم العقل ان الإمام عالم ومعصوم عن الخطأ في علمه

وعمله . والا لو جاز الخطأ والخطيئة عليه لكان الله مريداً لهما ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

٣ – بعد ان فرض ان الإمام يعلم الحق ويعمل به يكون نصبه وتعيينه للإمامة أمراً طبيعياً غير منوط باقتراع المنتخبين وارادة المحكومين وانما يرشد إليه النبي (ص) ، ويدل عليه كما دل على وجوب الصوم والصلاة . والحج والزكاة . وهذا معنى قول الإمامية : ان الإمام يعرف بالنص من الرسول الأعظم (ص) ، وقول العارفين من أهل الانصاف بأن صفات علي تنص عليه بالإمامية . وتعيينه لها بحكم العقل والعدل .

المثل الأعلى والواقع :

وتقول : ان هذا المبدأ من الوجهة النظرية صحيح ، ومثل أعلى لا يقبل الشك والجدال ، بل يطمح إلى تحققه كل انسان ، ولكن المثل الأعلى شيء والواقع شيء آخر ، حيث لا نعرف أحداً في هذا الوصف بخاصة في زماننا هذا .

الجواب :

ان الامامية لا يدعون ظهور هذا الإمام الآن . واتصال الناس به واتصاله بهم فعلاً وانما يقولون : ان الذي تجب طاعته هو العالم المعصوم عن الخطأ والزلل ، فان لم يكن بهذا الوصف فهو غير واجب الطاعة ولا منصوب ومختار للإمامة من عند الله ، بل من الذين أرادوه وارتضوه لذلك . وبالاختصار لا يجب على أي انسان ان يتابع ويطيع انساناً آخر إلا إذا كانت متابعته وسيلة لعمل بالحق ، تماماً كمن يحترم العالم لعلمه ، ويعظم الأمين لأمانته ، لا لشخصه .. ما طاعة الحاكم لا لشيء إلا لأنه حاكم وكفى ، حتى ولو كان جاهلاً فاسقاً

فانها لا تجب عند الإمامية ، بل هي من أعظم المحرمات ، بل تجب معارضته ومقاومته مع الأمن وعدم خوف الضرر .

هذي هي الإمامة التي يعتنقها الشيعة ، ويدينون بها ، كمبدأ وعقيدةفأي بأس بها ، أو محذور يلزمها ؟ . وما هي الأضرار والمفاسد المترتبة عليها سوى القول بأنها أمنية ، وحلم من الأحلام الجميلة التي لم يكتب لها الفوز والانتصار .

وجوابنا على ذلك ان إعراض الناس عن القيم والمثل العليا لا يخرجها عن حقيقتها ، ولا يستدعي جحودها وعدم الايمان بها. هذا إلى أن الترابط وثيق بين الواقع الاجتماعي وبين أسلوب التفكير . وان التطور والتقدم يتبثق من النظرية الواعية ، وقد تركت عقيدة الإمام المعصوم أحسن الآثار وأقواها في الحياة الانسانية لأنها كانت وما زالت حرباً على الارستقراطية التي تعتمد على المولد والثروة والجاه ، وعلى من يحكم ويتحكم في أمور الناس بالقهر والغلبة ، وعلى من يدعي انه يحكم بأمر الله ، وهو منغمس بالجريمة إلى أذنيه . . كما انها تناصر الحرية والديمقراطية التي تكل الحكم إلى ارادة الناس في غياب الإمام المعصوم .

حكم الحق والعدل :

وبالتالي ، فان الشيعة الإمامية كانوا وما زالوا إلى اليوم ، وإلى آخر يوم يدعون إلى حكم الحق والعدل بشتى الوسائل ، وهم يطمعون ويأملون ان يتحقق هذا الحكم في يوم من الأيام ، حيث يعتقدون جازمين بأن دولة الباطل ، مهما عظمت وامتد سلطانها ، فانها إلى زوال ، وان النصر في النهاية للحق والعدل . . وهذه الحقيقة قد فطر عليها كل انسان ، وان لم يشعر بها ويلتفت إليها . والفرق بين الشيعة وغيرهم ان الشيعة أدركوها ، وعرفوا قبل سواهم ان

الحياة لا بد ان تنتهي إلى الصلاح والخلاص من الادواء والاسواء ، وان الناس ، كل الناس ، سيعيشون في أحسن حال من الخير والرفاهية ، والأمن والعدل . . أما غيرهم فجرى على مبدأه من العمل بالقياس الباطل ، حيث قاس المستقبل الغائب على الشاهد الحاضر ، وآمن بأن الغلبة للشر في كل زمان ومكان .

ابن سبأ :

ولست أعرف أحداً أجهل وأغبى ممن نسب الإمامة إلى عبد الله ابن سبأ وأنه أصلها وباعثها لا احد اجهل من هذا القائل ، لأن ابن سبأ خرافة لا أساس لها في الواقع ، وشخصيته اختلقها أعداء الشيعة للتشنيع عليهم ، والتنكيل بهم ، كما قال الدكتور طه حسين في كتاب « علي وبنوه » وأثبت ذلك بالأدلة الحسية ، والأرقام التي لا تقبل الريب السيد العسكري في كتابه الخطير الشهير « عبد الله بن سبأ » الذي طبع أكثر من مرة .

ان المصدر الأول لفكرة الإمامة هو القرآن الكريم ، والسنة النبوية . قال تعالى في الآية ١٢٤ من سورة البقرة :

﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾

والآية ٧٤ من سورة الفرقان :

﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾

والآية ٧٣ من الأنبياء :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾

والآية ٥ من القصص :

﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾

والآية ٢٤ السجدة :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾

وجاء في صحيح البخاري ومسلم ، وغيرهما من كتب الحديث : « الأئمة من قريش » . والتوضيح في الفصل التالي ، فانه متمم لهذا الفصل .

حل المشكلات

المشكلات الاجتماعية :

بماذا تحل مشكلات الجماعة ، وما تعانيه من بؤس وشقاء ومظالم ؟ وما هي الوسيلة التي تقضي على الفقر والمرض والجهل ؟ وهل من الممكن أن تعيش الانسانية بلا أحقاد وأضغان . وفتن وحروب ، أو ان هذه الأدواء والأوباء من لوازم الحياة التي لا تنفك عنها بحال ؟ وبالتالي ، هل لهذه الأسئلة أجوبة حاسمة قاطعة ؟

النظام الشيوعي :

قال من لا يؤمن إلا بالمادة والاقتصاد : ان كل ما في الناس من مظاهر ، وكل ما يصدر عن الانسان يرجع إلى نظام اقتصادي انتاجي معين ، حتى الشاعر الذي يتغنى بجمال الطبيعة ، والموسيقى الذي يضع الألحان ، وابتهاج الانسان بالأصدقاء والأخوان ، واغتباط الأم بولدها ، وحتى الحدائق في الدور ، والقطع الفنية على الجدران . كل ذلك وما إليه يتوالد وينبثق عن الاقتصاد بل ان الزهد في الدنيا وما فيها سببه الاقتصاد . بل ان الكعبة وهيكل سليمان ، والمساجد ، والحضرات المقدسة ، وكاتدرائيات القرون الوسطى

لم تبن الا وسيلة للمال . . وسقراط الذي شرب السم ، وهو يعلم انه ميت ساعته لم يشربه إلا لدافع اقتصادي . . . وكذلك جميع الشهداء الذين تقدموا للموت برباطة جأش وطيب نفس لا دافع لهم إلا الاقتصاد وحده ، لا شريك له ، منه كل شيء ، وإليه المصير .

ورتبوا على ذلك ان النظام الاقتصادي إذا تغير تغير المجتمع وانحلت مشكلاته ، وعاش في أحسن حال ، وأهدأ بال .

وأيسر عيوب هذا المذهب انه يفصل الانسان عن عقله وعاطفته ، وعن تربيته ومجتمعه ، ويسجنه في نطاق الاقتصاد فقط لا غير . . وليس من شك ان الكثير من الدوافع والصلات بين الناس ترتكز على الاقتصاد ، ولكن الشيء الذي تأباه البديهة أن يكون وراء كل ظاهرة للانسان ، وكل موقف عقلي أو عاطفي حاجة مادية ومصلحة اقتصادية . . ان الانسان يجمع بين الروح والمادة ، وليس في وسعه التخلص من أحداهما ، حتى ولو كان شيوعياً عريقاً في شيوعيته ، لأنه في واقعة انسان كسائر الناس من جسم وروح ، ولكل لوازمه ومقتضياته التي لا تنفك عنه بحال .

النظام الديمقراطي :

وقال انصار الرأسمالية أو « العالم الحر » كما يسمون أنفسهم : لا حل الا في النظام الديمقراطي وحرية التجارة والتملك .

ويكفي للرد على هؤلاء ان الديمقراطية كما هي عندهم قد انبثق عنها الثراء الفاحش والفقر الفاحش ، وان بلادهم تنتج من الغذاء والكساء والأدوات أضعاف ما يحتاج إليه السكان . ومع ذلك يوجد فيها الجياع والعراة والمشردون

والسر ان هذه الديمقراطية قد أفسحت المجال للقلة القليلة لاحتكار الثروة ومصادرها ، وبالتالي لتحكّمها بحياة الناس ومصيرهم .. ان كلاً من الديمقراطية والشيوعية لا تضمن الحل الصحيح ولا ما يقرب منه ، لأن الأولى أخضعت السياسة لرجال المال والاقتصاد . وحكّمت القلة بالكثرة ، والثانية أخضعت المال والاقتصاد لرجال السياسة المسيطرين على الحكم دون غيرهم . والنتيجة الحتمية عدم الحرية هنا وهناك .

وأعظم اسواء الاشتراكية ، كما هي في روسيا الأم الحنون لهذا النظام ، واسواء الديمقراطية كما هي عند الأميركيين سادة « العالم الحر » ان تجعلا فناء العالم رهناً بكلمة تخرج من شفتي أحد رجلين غير معصوم عن الأخطاء ، ولا منزه عن الأهواء . والرجلان هما رئيس اميركا ، ورئيس روسيا . أما الكلمة فهي الأمر بالقاء القنبلة الذرية على من يشاء من العباد والبلاد ، ومن الذي يأمن ويضمن أن لا يصاب أحد هذين بنوبة عصبية مفاجئة ما دام غير معصوم ، فيصدر الأمر بالفناء وتتحقق الكارثة بين عشية وضحاها ؟

العلم :

وقال آخرون : الحل الصحيح انما هو في تقدم العلوم .

والجواب : ان الناس لم يخشوا في يوم من الأيام من الخراب والدمار الشامل ، كما يخشونه اليوم ، حيث تقدم العلم ، وحيث أصبح العلماء أدوات في أيدي الحاكمين والمتولين يسيرونها في المصانع والمختبرات وفقاً لاهوائهم وأغراضهم .

الجنس :

وقالت فئة تدعي انها من أتباع « فرويد » الطبيب النفسي الشهير ؛ قالت

هذه الفئة : ان الحل يكمن في اباحة النساء للرجال ، حتى المحارم وانه كلما زادت الحرية الجنسية كلما كان ذلك خيراً للانسانية .

وهذه دعوة خبيثة إلى انطلاق الانسان مع نزواته الحيوانية ، والخروج به عن انسانيته إلى طبيعة البهائم والانعام ، بل أحط وأدنى [1] .

الإمام المعصوم :

وقال الشيعة الإمامية : ان الحل الصحيح الدائم هو في حكم حاكم عالم معصوم عن الخطأ والزلل . أما معرفة هذه الفكرة وبواعثها فيتضح مما يلي :

ان للانسان حاجات يستدعيها أصل وجوده بما هو موجود بصرف النظر عن أي شيء آخر ، فكما انه في وجوده يحتاج إلى حيز يشغله كذلك يفتقر في حياته واستمرارها إلى الغذاء والمأوى والكساء وما إليه مما لا بد منه ولا غنى عنه .

ويضاف إلى هذه الحاجات التي يستدعيها كيانه الطبيعي حاجات أخرى يقتضيها وجوده الاجتماعي ، كالزواج الشرعي والتعليم والأمن والمساواة ونحوها ، وسد هذه الحاجات حق من حقوق الانسان ، ولكن أية قوة تحفظها له وتضمنها ؟ هل التشريعات والقوانين ، أو الارشادات والمواعظ ، أو الايمان بالمثل والمبادىء ، أو التعليم والتثقيف ؟

وقد امتلأت الدنيا بالتشريعات والقوانين ، ولكن يعوزها التنفيذ والتطبيق ،

---

(١) سمعت من يقول : ان فكرة اشاعة الأموال والاعراض اختلقها الصهاينة ، لبلبلة الأفكار وصرف الأنظار عن خططهم من أجل السيطرة على العالم .

حتى على الذين وضعوها وشرعوها . أما الوصايا والمواعظ فانها أشبه بالجرائد اليومية تُقرأ ثم تترك للصر أو لسلة المهملات . وليست القيم والمثل بشيء عند الأكثر أمام تهديد المصالح والمنافع . فلم يبق الا الانسان الكامل الذي يعلم حاجات الناس وما يصلحهم . ويملك القوة لدفع الضرر عنهم ، وجلب المنافع لهم ، ولا هم له الا أن يستريحوا ويسعدوا . ولا يفضّل نفسه بشيء . حتى عن أضعفهم ، فان شبعوا كان آخر من يشبع ، وان جاعوا فهو أول من يجوع ، وبكلمة يكون مصداق الآية الكريمة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ . الانبياء ١٠٧ .

وللحديث الشريف : « انما أنا رحمة مهداة » تماماً كرب العائلة العطوف الذي يشعر بأنه مسؤول عن كل فرد من أفرادها ، ويضحي بحياته في سبيلها . . وبديهة ان هذا لا يكون ولن يكون الا لمن عصم الله ، وأقصى عنه الأهواء والرغبات إلا الرغبة في الخير والصالح العام .

الآيات والأحاديث :

جاء في بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ان لأعمال الجماعة التي ترتكز على الايمان والعدالة صلة وثيقة بسعادتها في هذه الحياة ، وبعدها عن المصائب والويلات ، وان تهاونها في الحق ، واصرارها على الفساد وارتكاب الحرام له تأثير فعال في شقائها ، وما تعانيه من الأسواء والبلاء .

قال تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ

مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ
كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴾ ٩٧ الاعراف .

وقال :

﴿ إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ
حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾
١٢ الرعد .

وقال :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ
مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ
حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾
٥٤ الأنفال .

وقال :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ
وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ
رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ
تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [1] ٦٦ المائدة .

---

(١) من فوقهم كناية عن خيرات السماء ، ومن تحت أرجلهم كناية عن خيرات الأرض .

وقال :

﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ في البَرِّ وَالبَحْرِ
بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النّاسِ
لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الّذِي عَمِلُوا
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ٤١ الروم .

وقال :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ
فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾
٣٠ الشورى .

وما إلى ذلك من الآيات ، ويستفاد منها أمور :

١ ــ ان ظهور الفساد ، ومنه الفقر والمرض والجهل ، انما هو من حكم الأرض لا من حكم السماء ، ومن أيدي الناس باماتة الحق واحياء الباطل . لا من قضاء الله وقدره . وان أية جماعة عرفوا الحق وعملوا به عاشوا في سعادة وهناء .

٢ ــ ان التعبير في الآيات الكريمة بقوم وبالناس يدل على ان الشقاء مستند إلى عصيان الجماعة ، وان مجرد صلاح فرد من الأفراد لا يجدي شيئاً ما دام بين قوم فاسدين ، بل ربما جر صلاحه عليه البلاء والشقاء لوجوده في بيئة فاسدة ، قال جل وعز :

﴿ واتّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ
الّذين ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾
٢٥ الأنفال .

أي ان الآثار السيئة لمجتمع من المجتمعات تعم جميع أفراد الصالح منهم والطالح . . فان الشعب الخانع الخاضع للعسف والجور لا بد أن يعيش أفراده في الذل والهوان . حتى الأحرار الطيبين .

أما الأحاديث في هذا الباب فلا يبلغها الاحصاء ، منها : « ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم أشرارهم » ونقض العهد هو عدم العمل بالحق والأمر به ، ومنها : « وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر . . وما حبسوا الزكاة إلا حبس عنهم المطر » والمطر هنا كناية عن الخيرات ، ومنها : « إذا لم يحكموا بما أنزل الله جعل بأسهم بينهم . . وإذا عملوا بالمعاصي صرفت عنهم الخيرات . . ثلاثة تعجل عقوبتها ، ولا تؤخر إلى يوم القيامة : عقوق الوالدين والبغي على الناس وكفر الإحسان . . » ومنها : « إذا كذب السلطان حبس المطر وإذا جار هانت الدولة » .

وفي الدعاء المروي عن الإمام :

﴿ اللّهُمَّ اغْفِرْ لي الذّنُوبَ
التي تُغَيّرُ النّعَمَ ، اللّهُمَّ اغْفِرْ
ليَ الذّنُوبَ التي تحْبِسُ الدُّعَاءَ
اللّهُمَّ اغْفِرْ ليَ الذّنُوبَ التي
تُنْزِلُ البَلاءَ ، اللّهُمَّ اغْفِرْ ليَ
الذّنُوبَ التي تَقْطَعُ الرَّجَاءَ ﴾

وعمل المعاصي والحكم بغير ما أنزل الله ، ونقض العهد والبغي على الناس وكذب السلطان – كل ذلك وما إليه مما جاء في الحديث والقرآن كناية واضحة وتعبير صريح عن فساد الأوضاع والمظالم الاجتماعية ، وعن

« التراست » والتنافس على السيطرة واحتكار الثروات ، وعن الفوضى والفساد والتهتك والخلاعة ، ونحوها . وقد اتفقت في هذا العصر كلمة المؤمنين والجاحدين والروحيين والماديين ان فساد الأوضاع سبب الانحطاط والتدهور والشرور والويلات . لقد كشف الاسلام عن الصلة الوثيقة بين فساد الأوضاع وبين آلام الانسانية ، ومدى تأثير تلك في هذه . وسبق إلى معرفة هذه الصلة كل مفكر ومصلح وعالم من قادة الاشتراكية والشيوعية والديمقراطية وغيرهم . ولكن ما الحيلة في الجهل « المطبق » ان صح التعبير الذي ينسب كل فضيلة ومعرفة إلى الأجنبي البعيد ، وينفيها عن أهله وقومه الذين هم أصلها ومصدرها وأولها وآخرها ، وان كان لدى غيرهم من شيء يُذكر فعنهم أخذوا ، ومنهم اقتبسوا ؟ . .

٣ – ان المراد بالايمان والتقوى في الآيات والأحاديث هو – بعد الايمان بالله – التصديق بالخير كمبدأ ، والعمل الصالح النافع للفرد وللناس أجمعين . أما لبس المسوح ، واقامة الشعائر دون أن تعمر القلوب بروح التدين الصحيح فليس من الإيمان في شيء . . وقد جاء في الحديث : « ما آمن بالله من بات شبعاناً وأخوه جائع . . خير الناس أنفع الناس للناس . . ومن لم يهم بأمور المسلمين فليس منهم . . عدل ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة »

وهذا الايمان بمعنى العمل الانساني الذي ينتج السعادة الشاملة لا يتحقق ولن يتحقق إلا إذا تولى السلطة إمام فوق الشبهات ، لا يجوز عليه الخطأ والخطيئة . أما إذ تولاها من لا حصانة له فلا محيص عن وجود المشكلات والنكبات ، سواء أكان الحاكم فرداً أو فئة ، ما داموا جميعاً عرضة للاخطاء والميل ، مع الأهواء . . وبهذا نجد تفسير ما جاء في الحديث : « ان في ولاية العادل احياء الحق كله ، واحياء العدل كله . وان في ولاية الجائر دروس

الحق كله ، واحياء الباطل كله » ، وتفسير قول أمير المؤمنين : « إذا أدى الوالي حق الرعية عز الحق بينهم ، وقامت مناهج الدين ، واعتدلت معالم العدل ، وجرت على أدلتها السنن ، فصلح بذلك الزمان » . وقد اشتهر على الألسن : إذا اعتدل السلطان اعتدل الزمان .

أما الإيمان بمعنى الصوم والصلاة ، وبناء المساجد ، ورفع المآذن ليتحقق مع وجود المعصوم وغيابه .

وبالتالي ، فان الإمامية يعتقدون بأن الحضارة والمدنية والتقدم بمعناه الصحيح لا يكون إلا بإقامة العدل ، واشاعة الأمن والرفاهية ، والا بالقضاء على الظلم والفقر والجهل ، وان بناء المجتمع الصالح السليم في دينه ودنياه لا يتم إلا على يد إمام معصوم أو عالم عادل . . ومن تتبع ، وتدبر القرآن الكريم ، والسنة النبوية يجد لهذه العقيدة جذوراً ثابتة فيهما ، وأصولاً جلية واضحة لا تقبل التأويل ، ولا القال والقيل .

حكم الفرد :

وتقول : ان حصر السلطة بالإمام المعصوم معناه حكم الفرد الذي لا يناط بإرادة المحكومين وانتخابهم ، وليس من شك أنه غير مرغوب فيه في هذا العصر .

الجواب :

ان المنتخب حقاً هو الذي يعمل على سعادة المحكومين ومصلحتهم ، أما مجرد رفع اليد والادلاء بالصوت فليس من الانتخاب الصحيح في شيء اذا انحرف المنتخب مع أهوائه ، وعمل لصالحه ومنفعته ، بخاصة إذا كان

الناخب مرتشياً أو جاهلاً ومخدوعاً مضللاً بالدعايات الزائفة والمواعيد الكاذبة ، كما هو الشأن في جميع الانتخابات أو أكثرها . ومن هنا جاء في القرآن الكريم :

﴿ ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ١٨٨ الاعراف .

﴿ وأكثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ ١٠٤ المائدة .

﴿ بَلْ جَاءَهُمْ بِالحَقِّ وأكثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُون ﴾ ٧٠ المؤمنون .

اذن وجود الحق لا يناط بارادة الموافق أو المخالف ، فان للانسان تمام الحرية في أن يقعد أو يقف ، ولكن ليس له أن يترك الحق ويفعل الباطل . بل ليس له أن يختار المفضول مع وجود الأفضل وقد روى السنة والشيعة عن النبي انه قال : « من استعمل رجلاً من عصابة ، وفيهم من هو أرضى منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

وعلّق أديب معاصر على هذا الحديث بقوله : « أجل ان الأيدي القوية النظيفة العادلة البارة هي وحدها التي تؤمن على مصاير الخلق ، وحاجات الناس ان الحكم تضحية لا تجارة ، وخدمة لا استيلاء » .

وبكلمة ان المعصوم هو الحق مجسماً في شخصه ، والعدل المحسوس الملموس ، ومن هنا وجبت طاعته ، وحرمت مخالفته ، يضاف إلى ذلك كله انه ليس في ميسور أيما امرىء أن يمثل غيره تمثيلاً حقيقياً ، كما أثبتت التجارب .

نظام الإمام :

ما هو النظام الذي يطبقه الإمام ويعمل به ، لو تولى الحكم ؟ هل هو النظام الرأسمالي أو الاشتراكي ؟

الجواب :

ان نظامه أفضل نظام للبشرية على الاطلاق ، فهو يجمع بين صلاح الدين والدنيا للجماعات والأفراد ، ويسير بهم جميعاً في طريق الرفاهية والازدهار والأمن والعدل ، ويحفظ الحرية والكرامة للجميع ، ولا يدع مجالاً للطمع والجشع ، ولا للاستغلال وسيطرة فئة على فئة ، أو فرد على فرد . . وبكلمة انه نظام الانسانية الذي يحقق الخير والصلاح العام في شتى الميادين بدون استثناء وبعد هذا سمه بأي اسم شئت .

وتحقيقاً للهدف المطلوب يترك للامام اختيار الوسائل التي تحققه من التأميم وغيره اذ بعد ان افترض فيه العصمة يكون له جميع ما للنبي (ص) من الولاية على الأنفس والأموال . . وبديهة ان العصمة تنأى به أن يفعل الا لمصلحة المولى عليه . قال السيد محمد بحر العلوم في كتاب « البلغة » : « ان سلطة الإمام على الرعية ليست كسلطة السيد على مملوكه ، الجائز له التصرف لمحض التشهي . . بل لمصلحة ملزمة راجعة إلى نفس المولى عليه ، لأن الامام في مرتبة المكمل للنقص الذي اقتضى اللطف وجوده » .

واللطف عند الإمامية ما يقرب الانسان من الخير ، ويبتعد به عن الشر ، وهي مهمة الإمام المعصوم .

وبهذا يتبين معنا ان الإمامية آمنوا بفكرة الإمام المعصوم ، ووجوب حصر السلطة به للآيات والأحاديث ، ولتحقق السعادة الدنيوية والاخروية التي

يطمح إليها كل عاقل ، ونعيد هنا الملاحظة السابقة مع جوابها ، أما الملاحظة فهي ان فكرة الإمام المعصوم صحيحة كنظرية . أما من الوجهة العملية فأين هو هذا الإمام حتى نطيعه ونتابعه ؟

والجواب :

أولاً : إنا نتخذ من هذه النظرية سلاحاً ضد حكام الظلم والجور .

ثانياً : ان كل نظام وجد ، وعمل به نشأ أول ما نشأ في عالم العقل ثم تحوّل إلى العمل . . وقد بقيت الاشتراكية نظرية بحتة وفلسفة مجردة يدور حولها النقاش والجدال السنين الطوال قبل أن تبرز إلى حيز الوجود .

قال « برتراند راسل » في كتاب « راسل يتحدث عن مشاكل العصر » « ان الفلسفة تتألف من التخمينات حول الأشياء التي لا يمكن بعد أن تتوفر المعرفة الدقيقة المضبوطة بها . . وانها تحافظ على استمرار ملكة التصور والتخمين في دقائق الأشياء . . واني أريد لمخيلات الناس ان تكون محصورة محدودة ضمن ما يمكن أن يكون معلوماً في الوقت الحاضر . . وقداستنبط الفلاسفة القدامى مجموعة كاملة من الفرضيات والنظريات التي ثبت نفعها وصحتها فيما بعد ، والتي لم يمكن اختبارها يومذاك » .

وإذا تحققت نظريات الفلاسفة وافتراضاتهم بعد ألفي عام ، أو أكثر — وقد كان يظن انها محال — فمن الجائز اذن ، ان يظهر الإمام المعصوم ويتولى السلطة . وتحل حكومته جميع مشكلات العالم ، ولو بعد سنين ، حيث تمهد الأسباب وتوجد المقتضيات .

ثالثاً : ان لكل مشكلة اجتماعية حلاً في نفس الأمر والواقع تختلف الأنظار في تحديدها ، وبيان حقيقتها ، ويرى الإمامية ان المشكلات الاجتماعية

لا تحل ولن تحل حلاً جذرياً كلياً الا إذا حكم إمام معصوم وبدونه تحل المشكلات حلاً موقتاً أو جزئياً ، ذلك ان الصواب لا يأتي من الخطأ ، والحق لا يتولد من الباطل .

هذا ، إلى انّ التجارب أثبتت وجود الترابط الوثيق بين اصلاح المجتمع ، وبين السلطة السياسية ، بخاصة بعد أن سيطرت الحكومة على جميع مظاهر الحياة من التربية والتليم والعمل والأشغال والصحة والزراعة والدعاية والأنباء والشؤون الاجتماعية والقضاء . وقد كانت مهمتها من قبل تنحصر في الدفاع عن الحدود من العدو في الخارج ، وحفظ الأمن في الداخل ، فإذا لم تكن السلطة معصومة عن الخطأ والزلل لم يتحقق الغرض المقصود منها ، وهو الصلاح والاصلاح الشامل الكامل .

رابعاً : ان نظام الحكومة البدائية كان أشبه بالنظام القبلي، بل هو، هو ثم تقدمت الحكومة مع الحياة شيئاً فشيئاً في شكلها ونظامها ، حتى أصبحت حيث نراها اليوم . ويعتقد الإمامية انها ستتقدم بعد أكثر فأكثر حتى تبلغ الغاية في الكمال ، ويعيش الناس في ظلها سعداء آمنين ، وتكون نسبة الحكومات الحاضرة إليها ، تماماً كنسبة الحكومة البدائية إلى حكومات اليوم . وما ذلك على الله بعزيز . أما مصدر هذا الاعتقاد فهو فكرة الإمام المعصوم .

وبعد هذا ، فهل تراني بحاجة إلى القول : ان فكرة الإمام المعصوم لا تتصادم مع منطق العقل ، بل يؤازرها ويناصرها . وان من يعارض هذه الفكرة فانما يعارض ويعاند الحق والخير والعدل ، من حيث لا يريد .

الدولة العامة العادلة

هذا الفصل :

نقلنا في الفصل السابق الأقوال في حل المشكلات وعلاج المعضلات الاجتماعية ، وانه يكمن في حرية التجارة والتملك عند الديمقراطيين « العالم الحر » . وفي الاشتراكية أو الشيوعية لدى خصومهم ، وفي تقدم العلم عند الآخرين ، وفي اباحة الجنس على رأي . . . ولم نشر إلى قول من قال: لا علاج ولا شفاء إلا في الدولة العامة لجميع سكان المعمورة . . . حيث كان العزم على أن نعقد فصلاً مستقلاً ، لأهميته من جهة ، ولاتصاله الوثيق بظهور الإمام المعصوم وعموم سلطانه من جهة أخرى .

حاكم واحد :

في سنة ١٨٣٨ أعلن الفيلسوف الأميركي « ويليام لويد غاريسون » المبادىء التي يؤمن بها ، فقال فيما قال :

« لا يمكننا أن نعترف بالولاء لأية حكومة بشرية ؛ إنّا نعترف فقط بملك واحد ، وبمشروع واحد ، وبقاض واحد . وبحاكم واحد للجنس البشري ان بلادنا هي العالم . وكل الجنس البشري هم أبناء بلادنا . إنا نحب أرض بلادنا بمقدار ما نحب البلدان الأخرى ، فمصالح المواطنين الأميركيين

وحقوقهم وحزياتهم ليست أعز علينا من تلك التي للجنس البشري [1] ،

ومن قبله بقرون قال الأديب الايطالي الشهير « دانتي » :

« يجب أن تخضع الأرض بكاملها ، وكل شعوبها لأمير واحد يمتلك كل ما يحتاج إليه ، فلا تنشأ عنده الرغبة في شيء لا يملكه . . . فيخيم السلام ويحب الناس بعضهم بعضاً ، وتحصل كل عائلة على جميع ما تحتاج إليه » [2] . وهذه الدولة التي يعم فيها الخير ولا تقيم وزناً الا للتقوى التي دعا إليها القرآن الكريم والنبي العظيم ، وآمن الإمامية بصاحبها الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، وغريب أن يسخر من كلمة « يملأ الأرض قسطاً وعدلاً » مثقف يدعي المعرفة بالأفكار والاتجاهات الغربية ، وهو أجهل الناس بالقديم والجديد ، وبآراء النيرين في الشرق والغرب .

إن لهذه الفكرة جذوراً ثابتة في جمهورية أفلاطون الذي سبق عصر السيد المسيح بأكثر من ثلاثة قرون ، وفي أقوال القديس أوغسطين ، وفي المدينة الفاضلة للفارابي ، ولها أنصار كثر من الفلاسفة والعلماء والأدباء القديسين منهم صموئيل جنيبون الانكليزي الذي قال : « الوطنية آخر ما يلجأ إليه الوغد » . . . و « ليسنغ » الألماني القائل : « متى لا تعد الوطنية في عداد الفضائل » ومنهم « فولتير » الأديب الفرنسي الشهير الذي قال : « يكون للفرد وطن واحد إذا كان يحكمه ملك صالح ، ولا يكون له أي وطن إذا كان يحكمه ملك شرير » . . . ومن أقوال هذا المفكر : « ما تمنى أحد العظمة لبلاده الا تمنى التعاسة للآخرين »... وقال غوته : «ان وطني الخير والنبل والجمال

---

(١) تكوين العقل الحديث ج ٢ ص ٤١٨ طبعة ١٩٥٨ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٧٠ .

وبوسعنا أن نجد الراحة في الاتجاه الكوني » إلى غير ذلك من أقوال المفكرين ، من اليساريين والمحافظين [1] . ومن الداعين لهذه الفكرة في هذا العصر « برتراند راسل » الفيلسوف الانكليزي الشهير .

ان هذا المبدأ الذي هو في حقيقته التدين بوجوب الوحدة العالمية ، والولاء لقائدها الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، وحضارة تنعم بالسلام والنظام والرفاهية والازدهار . ان هذا المبدأ من أهم الفروق التي ميزت عقيدة التشيع عن غيرها من العقائد .

علة العلل :

لقد رأى الاسلام وهؤلاء الدوليون ان القومية مظهر غير طبيعي ولا عقلي ولا انساني ، وان الحدود الأرضية الجغرافية تفصل الانسان عن أخيه الانسان ، وبالتالي تعزله عن واقعه وانسانيته ، وان التعصب والاضغان وحب السيادة والسيطرة والتنافس على قيادة العالم ، واحتكار الثروات ومصادرها ، كل هذه وما إليها كمشكلة الأقليات وحماية الأجانب والشعوب المختلفة ، والدول الضعيفة ، والحروب والاستعمار لا مصدر لها الا القوميات والشعوب المختلفة ، والدول الضعيفة ، والحروب والاستعمار لا مصدر لها الا القوميات والحواجز الأرضية ، فهي السبب الأول ، وعلة العلل ، ومتى اتحد العالم أجمع في دولة واحدة بقيادة حكيمة منزهة عن الأهواء ، بعيدة عن

(١) بالأمس القريب أصدر عشرة من الأعضاء المحافظين في البرلمان الانكليزي كتاباً بعنوان « سلطة للامن » يشرحون فيه وجهة نظرهم بانشاء حكومة عالمية ، واستدلوا بتصريحات مكملان رئيس الوزارة ، ودنكان وزير الدفاع البريطانيين .

الأخطاء اتجه كل انسان اتجاهاً كونياً ، وشعر شعوراً انسانياً شاملاً لا يحده وطن ، ولا ينحرف به تعصب إلى عنصر أو أرض أو أي شيء :

وهذا تعبير ثان عن فكرة الإمام المعصوم الذي قال الشيعة : انه يخرج في آخر الزمان ويوحد العالم تحت راية واحدة ، ويملأ الأرض عدلاً ، ويساوي بين الجميع حتى لا يرى محتاج ، ولا تراق محجمة من دم . . . إن الشيعة يؤمنون إيماناً لا يخامره الشك بهذه الدولة الشاملة وحضارتها الكاملة التي لا يوجد في ظلها كبير وصغير ، قوي وضعيف ، بل كلهم أقوياء أغنياء صلحاء إنهم يؤمنون بها وبحضارتها كعقيدة راسخة ، لا كأمنية وأحلام ، كما هو شأن الطوباثيين ، كما انهم يؤمنون أيضاً بأن الحضارة حقاً ليست في تقدم الصناعات وتكديس الثروات ، بل بإشاعة العدل والسلام وشمول الخصب ووفرة الطعام .

ولم يستوحوا هذه العقيدة من تاريخهم وبؤسهم ، من المظالم التي وقعت عليهم من الطغاة وحكام الجور — كما قيل — بل استقوها من الوحي الذي نزل على قلب محمد (ص) وأحاديثه التي امتلأت بها صحاح السنة والشيعة ؛ فقد أكدت وجود هذه الدولة وعدالتها وحضارتها و خبرت عنها بشتى الأساليب والعبارات ، ووضع لها الشيخ الصدوق الذي مضى على وفاته أكثر من ألف عام ، كتاباً خاصاً في مجلدين كبيرين أسماه « إكمال الدين وإتمام النعمة » ، كما خصص لها العلامة المجلسي المجلد الثالث عشر من بحاره .

الجاهل والمتشائم :

وإذا سخر من هذه الفكرة الجاهل الذي لايرى إلى أبعد من أنفه ،

واستبعدها المتشائم الذي لا ينظر إلا بمنظاره الأسود القاتم فإننا نؤمن بها إيماننا بالله،وبأنفسنا: «إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً» ومنطق العقل والحق معنا،أليس العالم في تغير مستمر ، والتماسك الإجتماعي في تقدم مطرد ؟! إذن لا بد أن يصغى إلى صوت العقل والضمير ، فيترك التعصب ، ويتنازل عن الأنانية في يوم من الأيام ، ويهدم الحواجز بين الإنسان في أقصى الشرق ، وأخيه الإنسان في أقصى الغرب . وهذا « راسل » أحد قادة الفكر في هذا العصر يقول : « من الممكن تطوير الأمم المتحدة ، بحيث تصبح نواة الحكومة عالمية . . . واني لأرى عندما أسرح بخيالي عالماً من المجد والفرح . عالماً تنطق فيه العقول . . . كل هذا يمكن أن يحدث إذا سمحنا له » . (كتاب برتراند راسل الإنسان لرمسيس عوض) .

وإذا قال راسل وغيره : ان هذا لا يمكن إلا إذا سمحت الأجيال ، فنحن نقول مؤمنين إيماناً لا ريب فيه بأنه سيحدث لا محالة ، سمحت الأجيال أو لم تسمح ، لأننا على يقين بأن العاقبة للخير والفضيلة . مهما طال الزمن :

﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾
فاطر ٤٤ .

من هو الرجعي ؟

وبالتالي ، فإن فكرة الإمام المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً فكرة تقدمية علمية وواقعية ثورية [1] تهدف إلى القضاء على الظلم والضعف وكل ما يعوق الحياة عن التقدم . ان فكرة صاحب الأمر والزمان لهي فكرة المجمع

(١) كل حركة من شأنها أن تغير الوضع الاجتماعي أو الاقتصادي أو الفكري إلى أحسن ، فهي حركة ثورية ، أما هذه الشعارات المزيفة التي نراها اليوم هنا وهناك فانها اصوصية مبطنة .

النهائي الكامل في دينه ودنياه ، فكرة المجتمع الذي يحطم الحدود والسدود بين الإنسان وأخيه الإنسان ، ويقضي على التعصب والاضغان ، إنها فكرة الدولة الطاهرة النقية ، ومجتمع المساواة والإخاء والحب والصفاء .

أما الرجعيون حقاً ، أما الجاهلون جهلاً « مطبقاً » فهم الذين يرون هذه الفكرة سفهاً وهراء ، وفساداً وهباء . . . وطبيعي أن يكذب هؤلاء بالإمام المعصوم ، وينكروا وجود صاحب الأمر الذي يملأ الدنيا عدلاً بظهوره . . . انه لطبيعي أن يكذبوا ويجحدوا ، لأنهم لا يجدون في دولته مكاناً للخزنة والمنافقين الذين يبيعون دينهم وضميرهم للشيطان بأبخس الأثمان .

المهدوية وأحمد أمين

أحمد أمين كاتب منتج ما في ذلك ريب. وقد سد إنتاجه فراغاً غير قليل ، كما يرى كثيرون ، حيث انتهج في دراسة التاريخ الإسلامي نهجاً جديداً لم يسبقه إليه عربي من قبل ، ولكنه – كما هو في حقيقته كاتب طائفي لا واقعي ، فلقد عجز أن يتحرر من طائفيته وتربيته وبيئته ، برغم أنه حاول ذلك ، وانضم إلى دار التقريب إلا أن العصبية الطائفية تغلبت – ويا للأسف على معرفته وذكائه ، وجميع مؤهلاته .

وتقول : ان عين الشيء يصدق فيك ، ويقال عنك : حتى حكمك هذا على أحمد أمين لا مصدر له إلا العصبية الطائفية ، لأنه قال الكثير مما يؤذي الشيعة ويسيء إليهم . . . فأنت إذن تستنكر من غيرك ما تستحسنه من نفسك.

وجوابي عن هذا : إذا كنت أنا متعصباً كأحمد أمين ، فكن أنت منصفاً يصغي إلى منطق العقل ، وينظر إلى الواقع لا الظاهر ، وإلى القول لا إلى القائل . . . كن قاضياً مجرداً يستمع إلى قوال الطرفين ، ثم يحكم بما يوحيه دينه ووجدانه ، وما يستدعيه منطق الحوادث ودلالة الأدلة الحسية ، بل نكتفي منك هنا ، وما نحن بصدده أن تستمع بتدبر وتعقل إلى أقوال أحمد أمين وحده ، وتحكم من خلالها له أو عليه .

في سنة ١٩٥١ ألف أحمد أمين كتاب « المهدي والمهدوية » ونشرته دار المعارف بمصر في سلسلة « اقرأ » رقم ١٠٣ . وقد هدف من وراء تأليفه

إلى إنكار المهدي والرد على الشيعة ، ولكنه في الواقع أيدهم وناصرهم من حيث لا يريد ، أو من حيث يريد الرد عليهم ، وان دل هذا التناقض على شيء شيء فإنما يدل على صدق ما قلناه من أنه كاتب طائفي لا واقعي ، وإليك الدليل :

قال في ص ٤١ : « أما أهل السنة فقد آمنوا بها أيضاً » أي بفكرة المهدي . . . وفي ص ١١٠ : « وأما السنيون فعقيدتهم بالمهدي أقل خطراً »... وفي هذه الصفحة : « قد كتب الإمام الشوكاني كتاباً في صحة ذلك ، سماه التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال والمسيح » . وفي ص ١٠٦ : قرأت رسالة للأستاذ أحمد بن محمد بن الصديق في الرد على ابن خلدون ، سماها « إبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون . وقد فند كلام ابن خلدون في طعنه على الأحاديث الواردة في المهدي ، وأثبت صحة الأحاديث ؛ وقال : « إنها بلغت حد التواتر » . . . وقال — أي أحمد أمين — في ص ١٠٩ « قرأت رسالة أخرى في هذا الموضوع عنوانها : الإذاعة لما كان ويكون بين يدي الساعة ، لأبي الطيب ابن أبي أحمد بن أبي الحسن الحسيني » . . . وفي ص ٤١ : « وقد أحصى بن حجر الأحاديث المروية في المهدي ، فوجدناها نحو الخمسين » .

إذن ، ليس القول بالمهدي من خصائص الشيعة ، بل آمن به السنة ، ورووا فيه خمسين حديثاً ، وألفوا في وجوده وإثباته الكتب ، وما دام الأمر كذلك باعتراف أحمد أمين نفسه فلماذا نسب القول به إلى وضع الشيعة ، كما جاء في ص ١٣ و ١٤ ، حيث قال ما نصه بالحرف : « وأذاع الشيعة فيهم — أي في أهل المغرب — فكرة المهدي ، ووضعت الكلمة على لسان رجل ماهر اسمه عبد الله الشيعي ، يدعوا للمهدي المنتظر » .

وبعد أن اعترف أحمد أمين – مرغماً – بأن السنة أيضاً يؤمنون بالمهدي المنتظر أحس أنه في مأزق ، وأنه لا بد أن يقال : أن الشيعة محقون في عقيدتهم مع أنه يريد إدانتهم على كل حال ، فاستدرك وقال : ولكن عقيدة السنة بالمهدي أقل خطراً . . .

وليت شعري كيف يجتمع قوله هذا ، مع قوله في ص ٤١ : « ان فكرة المهدي والتشيع كانت سبباً لثورة شبت ودامت سنين . . . » وقوله في ص ٣٣ « ومن فضل الشيعة أنهم كانوا في بعض مواقفهم ، وفي اعتقادهم الأئمة المهتدين يؤيدون الدين » ... ومع قوله في ص ٣٤: « ومن فضل الشيعة أنهم كانوا مؤمنين ، يدافعون عن الإسلام في الخارج ضد الصليبيين الذين يهجمون على بلادهم ، وفي الداخل ضد من أنكر الدين ، وجحد النبوة » . . . وفي ص ٣٧ : « ولكن الحق يقال أن التشيع دائماً ينصر الفلسفة أكثر مما ينصرها السنيون » .

وإذا كان الشيعة يدافعون عن الإسلام والمسلمين ، وإذا كانوا يناصرون الفلسفة أكثر من السنة ، وإذا كانت عقيدتهم بالمهدي والأئمة المهتدين تدفعهم إلى الثورة على الظلم والظالمين . . . فكيف إذن تكون عقيدة السنة بالمهدي أقل خطراً ؟ ! ألا يدل هذا التناقض على طائفيته وتعصبه ، وانقسامه على نفسه ؟!

ولسنا نستكثر على أحد أن ينكر وجود المهدي المنتظر ، ويخالف المسلمين جميعاً السنة منهم والشيعة بعد أن أنكر عصمة الرسول الأعظم (ص) صراحة . قال في ص ٩٥ : « وقد ثارت خلافات في عصمة الأنبياء بالطبيعة ورووا أن رسول الله (ص) قال : توبوا إلى ربكم ، فإني أتوب إليه في اليوم مئة

مرة ، وقال : انه ليغان على قلبي [1] . فهذه الأحاديث ونحوها لا تؤيد معنى العصمة التامة » .

وبديهة أن الاسلام بعقيدته وأخلاقه وشريعته ، وجميع تعاليمه وأحكامه يرتكز على عصمة محمد (ص) ، فمن أنكرها أو شك فيها فقد أنكر أو شك في الإسلام ، وبنبوة سيد الأنام من الأساس . . . لأن الغاية من نبوته ورسالته رفع الخطأ من الهداية وحمل الخلق على الحق . فإن لم يكن معصوماً فلا يتحقق المقصود منها ، وبالتالي لا يكون نبياً . . . استغفر الله وأعوذ به من الشك والغفلة .

وبهذا يتبين معنا أن كتاب « المهدي والمهدوية » ليس رداً على الشيعة فحسب ، وإنما هو في واقعه رد على الإسلام والمسلمين ، وإذا تحامل على الشيعة أكثر من تحامله على غيرهم ، فإنه مدحهم وذم السنة بمنطق التاريخ ، ومن حيث لا يحس ولا يريد ، قال : إن أدباء السنة كانوا يمدحون الطغاة وحكام الجور ، أما أدباء الشيعة فكانوا يمدحون أئمة الهدى والحق ، فقد جاء في ص ٨٦ من كتاب « المهدي والمهدوية » : ولئن كان كثير من الأدب السني كان يقال في مدح الخلفاء والملوك والأمراء السنيين ، فإن الأدب الشيعي كان يقال في مدح الأئمة والرثاء الحار في قتلاهم » .

أجل ، مدح أدباء السنة الطغاة وحكام الجور رغبة في المال والحطام ، ومدح أدباء الشيعة أئمة الهدى والعدل إيماناً بالله وعظمته ، وولاء للرسول وأهل بيته ، ولم يثنهم عن هذا الإيمان والولاء القتل والصلب ، ولا السجن والتشريد ولا التقييد بالسلاسل والأغلال ، ولا قطع الأيدي والأرجل ،

---

(١) أي غيمت الشهوة على قلبه .

بل ولا الدفن تحت التراب أحياء . . . ذلك أن الشيعة يسخون بحياتهم ورؤوسهم ولا يسخون بدينهم وعقيدتهم . أما الانتهازي فلا دين له ولا مبدأ إلا الدراهم والدنانير .

قال أحمد أمين في ص ٨٥ : « أن الشيعيين اضطهدوا من السنيين ، وكانوا يدعون – أي السنة – أنهم يفعلون ذلك دفاعاً عن أنفسهم ، ولكن كانت غلطة يزيد بن معاوية في قتل الحسين غلطة كبرى لم يمكن أضر منها ، فظلت تعمل عملها على طول الأزمان . ولم يكتف السنيون بذلك بل جعلوا يقتلون كل إمام طالبي يظهر ، ونحن إذا قرأنا كتاب « مقاتل الطالبيين » لأبي الفرج الأصفهاني رعبنا من كثرة ما وقع على العلويين من قتل وتعذيب وتشريد » .

هذا هو المبدأ ، وهذه هي الفلسفة لحكم من حكم من السنيين : القتل والتعذيب والتشريد ، باعتراف صاحب المهدي والمهدوية ، وليس هذا بغريب ولا بعجيب ممن حكم بالقهر والغلبة ، ولكن العجيب الغريب أن يشير أحمد أمين من طرف خفي إلى الاعتذار عنهم بهذه الجملة المعترضة : « وكان السنة يدعون أنهم يضطهدون دفاعاً عن أنفسهم » . . . وظاهر أنه يريد بالدفاع عن النفس الدفاع عن حكم البغي والجور .

بقي علينا أن نشير في هذا الفصل إلى أمر يدل على ذهوله أو عدم تتبعه ، وأنه يكتب دون أن يتثبت ، حتى حين يكتب عن السنة . لقد تحدث أحمد أمين في « ضحاه » عن الحديث بوجه عام ، وعن صحاح السنة بوجه خاص ، وعن البخاري ومسلم وصحيحهما بوجه أخص . (أنظر الفصل الرابع من ضحى الإسلام المجلد الثاني) والذي تبين من كتاب «المهدي والمهدوية »

أنه يجهل أحاديث الصحاح قال في ص ٤١ : « ووضع كل – من السنة والشيعة – الأحاديث في تأييد المهدي المنتظر . ومما يشهد بالفخار للبخاري ومسلم أنهما لم تتسرب إليهما هذه الأحاديث ، وان تسرب إلى غيرهما من الكتب التي لم تبلغ صحتهما .

هذا ، مع العلم بأن مسلماً روى في صحيحه عن النبي أنه قال : « يكون في آخر أمتي خليفة يحث المال حثياً ، لا يعده عداً » ١ .

وبالتالي فإن كتاب « المهدي والمهدوية » يسجل على صاحبه جهله بالإسلام وعقيدته ، ومصادرها السنية والشيعية ، وتحامله على الشيعية وأجهل منه من يعتمد على آثاره ، وينقل من أقواله كحقيقة ثابتة . ولا شيء أدل على ذلك من قوله في ص ١٢٠ : « إني اعتمدت أكثر ما اعتمدت على الكتب السنية التي وصفت عقائد الشيعة » . وهذا اعتراف صريح بأنه حكم على المدعى عليه لمجرد قول المدعي ، واتخذ من الخصم حكماً وحاكماً على خصمه . . . وهذا منهجه في كل ما كتب عن الشيعة . . . وإذا أردت تفسيراً صحيحاً لشخصية أحمد أمين واضرابه فاقرأ الفصل الأول من هذا البحث .

(١) القسم الثاني من الجزء الثاني باب لا تقوم الساعة ، حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت ، وجاء في التعليق ان الترمذي وأبا داود قالا هذا الخليفة هو المهدي . وجاء صحيح البخاري ٩ كتاب الاحكام باب الأمراء من قريش : « لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منها اثنان » .

العصمة
في أسلوب جديد

المعصوم هو الذي لا يمكن اتهامه بالأهواء والأغراض ، ولا بالجهل والأخطاء ، لا لشيء إلا لأنه انسان كامل بكل ما في الكمال الانساني من معنى .

والذين أوجبوا العصمة بهذا المعنى للأنبياء وحدهم ، أو لهم ولخلفائهم الحقيقيين استدلوا بأن الناس في حاجة إلى معلم مرشد ، فان كان هذا المعلم عرضة للأخطاء احتاج إلى من يعلمه ويرشده ، وهكذا إلى ما لا نهاية .

وتقول : ان علماء الشريعة الاسلامية معلمون ومرشدون ، وعلى الجاهل أن يقلدهم ويعمل بأحكامهم بدون مراجعة وسؤال ، ومع ذلك لا تجب لهم العصمة باتفاق الجميع . إذن ليس من الضروري للمعلم والمرشد أن يكون معصوماً .

الجواب :

ان الفرق كبير جداً بين النبي والعالم ، فان العالم يجد ويجتهد في البحث والتنقيب في الكتب ، وعند الأساتذة والرواة ، ويعتمد القرائن وظواهر الألفاظ ويفتي بموجبها اجتهاداً وعملاً بالرأي ، بعد اليأس من الظفر بغير ما وصل وقد يخطىء في فتواه ، إذ من الجائز أن يفهم من الظواهر غير ما تدل عليه ، لشبهة في خياله ، بل قد لا تكون تلك الظواهر والقرائن من الأدلة

في شيء إلا في ظنه وحسبانه ؛ ومن الجائز أيضاً أن يكون هناك دليل على العكس ولكنه خفي عليه وعجز عن الوصول إليه ، ومن هنا يسوغ لعالم آخر أن يقف له ويناقشه في فهمه ومعرفته، وان كان دونه فضلاً وعلماً، كما له أن يعدل عن رأيه إلى ضده ، أو يقلّم فيه ويطعم ؛ إذا استبان لديه الحق ، وهو معذور حتى لو عدل من الصواب إلى الخطأ ، ما دام السبيل إلى المعرفة منحصراً فيما استخرجه من الدليل الذي استبان له بعد افراغ الوسع والجهد في البحث والتنقيب .

أما تقليد الجاهل لهذا المجتهد الذي يجوز عليه الخطأ فلأن كل انسان بالغ عاقل عليه أن يطيع ويمتثل أوامر الله ونواهيه دفعاً للعقاب والضرر المعلوم ، لو خالف وعصى ، ولا طريق للجاهل إلى الطاعة والامتثال بالاحتياط أو التقليد والأول عسير أو متعذر ، فتعين الثاني . ولو أبحنا للجاهل أن يخالف العالم العادل لكان معنى هذا اننا نبيح له أن يخالف أحكام الله أو يؤديها مشوهة على غير وجهها ، وبدون علم بوظائفها وأركانها وأوقاتها .

هذا هو شأن العالم أما شأن النبي فعلى العكس من ذلك ، لأنه ينقل الحكم عن جبريل عن الله ، لا عن أبي هريرة ، ولا يرجع إلى كتاب لأن الكتب تبحث عن سنته ، ولا إلى أستاذ ، لأن قوله الفصل والحجة لجميع الأساتذة .

وبكلمة ان حكم المجتهد ذاتي لا موضوعي ، أي أن للذات و « الأنا » تأثير فيه ، ولذا يقول : أنا رأيت وفهمت أن هذا حكم الله في حقي ، وليس من شك أن « الأنا » تخطيء وتصيب ، بل أن جواز الخطأ عليها أثر من آثارها . ولازم من لوازمها التي لا تنفك .

أما قول النبي فموضوعي صرف لا أثر فيه للذات سوى التعبير عما في

الواقع وفي اللوح المحفوظ ، ولذا يقول : هذا هو حكم الله بالذات ، ولا يقول : هكذا رأيت وفهمت ، ولذا استحال في حقه العدول ، لأن العدول يتفرع عن الرأي ، ولا رأي ، بل وحي يوحى . . وبديهة ان حكاية الحكم عن الله بمعنى الوحي تستتبع عصمة الحاكي له وتلازمه ملازمة الظل للشاخص ، بحيث إذا انتفت ذهبت معها النبوة لا محالة ، بل ان العصمة هي النبوة ، والنبوة هي العصمة ، لأن عدم عصمة النبي معناه عدم عصمة الوحي وعليه فلا يكون القرآن قرآناً ، ولا جبريل أميناً ، ولا محمد نبياً تعالى الله عما يقول الجاهلون .

ثم هل لمثلي ومثلك ممن يجوز عليه الخطأ والزلل أن يكون مؤهلاً للرسالة والتبليغ عن الله ؟ اذن أين الفرق بين التابع والمتبوع ؟ ولماذا وجب على الناس التصديق والقبول من النبي ؟ وما هو السر لاختياره رسولاً ، واتخاذه خليلاً وحبيباً وكليماً دون سواه من الخلق ، إذا لم يكن فوق الشبهات والهفوات ؟

وأعتقد ان الذين اعترفوا بالنبوة ، وأنكروا العصمة قد خلطوا بين الذات والموضوع ، بين حكاية النبي للوحي ، ورأي المجتهد ، وظنوا ان النبي يعبر عن رأيه وتفهمه ، ولو فرقوا بينهما لقالوا بالعصمة لا محالة ، والذي يدلنا على خلطهم هذا انهم عقدوا في الأصول فصلاً خاصاً لاجتهاد النبي ، كما في المستصفى للغزالي وغيره ، فلقد جاء في الجزء الثاني من هذا الكتاب : « اختلفوا في النبي : هل يجوز له الاجتهاد فيما لا نص فيه » ؟

واختار الغزالي الجواز ، وقاس النبي بغيره من المجتهدين ، ومما قال : « كما دل الدليل على تحريم مخالفه الإمام الأعظم والحاكم (١) ، لأن صلاح

(١) جاء في كتاب الأحكام السلطانية للفراء ، وكتاب المذاهب الإسلامية لأبي زهرة ، وغيرهما ان الحاكم الفاسق تجب اطاعته ، وتحرم مخالفته عند أكثر من واحد من أئمة السنة ، وعلمائهم=

الخلق في رأي اتباع الإمام والحاكم وكافة الأمة ، فكذلك النبي ، أي ان النبي يحكم بالرأي والظن ، تماماً كما يحكم المجتهد . . وهو كما ترى مخالفة صريحة لقوله تعالى :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى
إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ
شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ النجم ٣ — ٦ .

تقول : هذا يدل على عصمة النبي فقط دون غيره ، مع ان الإمامية يقولون بعصمة الإمام أيضاً ، فما الدليل على ذلك ؟

الجواب :

ان الإمام الذي أوجب الشيعة له العصمة هو غير الإمام الذي تخيله وتصوره السنة ، فان مجرد العلم والايمان ، والكرامة والشجاعة ، والصبر والزهد والنزاهة . . كل هذه الصفات بمجردها لا تؤهل الانسان لمقام الإمامة ، كما لا تؤهله لمقام النبوة ، بل ان لذات الإمام الذي هو خليفة الرسول حقاً خصائص ومميزات لا يعلمها الا الله ، تماماً كما ان لذات النبوة خصائص ومميزات لا يعلمها إلا هو جل وعلا . وكما ان اختيار الإمام لخلافة الرسول بيد الله لا بالتصويت والانتخاب .

فالإمام اذن ، عند الشيعة فيه جميع ما في النبي من صفات ومؤهلات وله ما للنبي على الناس من ولاية وسلطان ، ولا يفترق عنه في شيء إلا في

= واعتقد أن كل من أفتى بذلك فانما أفتى به خوفاً ، أو طمعاً ، لا اقتناعاً وايماناً ، ومهما يكن ، فقد اتفقت كلمة الشيعة على انه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ومن أجل هذا كان نصيبهم دائماً القتل والسجن والتشريد .

نزول الوحي ، على ان الإمام قد أخذ عن الرسول ما نزل عليه من ربه ، والنتيجة الحتمية لذلك ان الإمام بهذا المعنى معصوم لا محالة تماماً كالنبي ، وان من نفى عنه العصمة فقد نفى عنه الإمامة ، كما هي الحال بالقياس إلى النبوة .

وبكلمة ، أن من نفى العصمة عن الإمام فقد نفى عنه خلافة الرسول بمعناها الكامل الشامل من حيث يريد أو لا يريد .

وتقول : أجل ان العصمة تجب لهذا الإمام ، وان أمر اختياره بيد الله جل وعز بحكم الطبيعة ما دام على الوصف الذي ذكرت ، ولكن ما الدليل على ان الإمام الذي هو خليفة الرسول حقاً يجب أن يكون كذلك ؟

وحيث تحتاج الاجابة عن هذا السؤال إلى التفصيل والتطويل الذي لا تتسع له هذه الصفحات فاني احيلك على كتاب الشافي للشريف المرتضى ، وتلخيصه للشيخ الطوسي [1] ودلائل الصدق للشيخ المظفر ، وإذا وفق الله إلى كتاب « الإمامة والعقل » أخذ بك في أوضح المسالك إلى الجواب . وأرجو أن يوفق الله فإلى اللقاء .

وتقول أيضاً : إذا وجبت العصمة لخليفة الرسول ؛ كما وجبت للرسول فينبغي أيضاً أن تجب للمجتهد الذي هو نائب عن الإمام مع أن الشيعة لا يلتزمون بذلك .

---

(١) أعيد طبع هذا الكتاب في مجلدين كبيرين ، وأخرج اخراجاً حديثاً ، وفيه الأدلة الشافية الكافية لاثبات الإمامة والعصمة ، والرد على كل ما قيل حولها من النقد ، بخاصة ما جاء في كتاب المغني للقاضي عبد الجبار ، وقدم له وعلق عليه السيد المعروف ببحر العلوم ، جزاه الله خيراً .

وجوابي عن هذا ان الفرق كبير جداً بين نيابة الإمام عن النبي وبين نيابة المجتهد عن الإمام ، فان الأولى تشمل كل ما للنبي من سلطات ، حتى الأولية بالناس من أنفسهم ، وليس للمجتهد هذه الولاية ولا ما يقرب منها عند الشيعة وانما تنحصر وظيفته بالقضاء والافتاء ، ورعاية من لا ولي له ، ومن هنا كانت نيابته بالوكالة أشبه ، ومع ذلك فقد تشدد الإمامية في شروط المجتهد ، ورووا عن الامام انه قال فيما قال :

﴿ أمَّا مَنْ كَانَ مِنَ الفُقَهَاءِ
صَائِناً لِنَفْسِهِ ، حَافِظاً لِدِينِهِ ،
مُخَالِفاً لِهَوَاهُ مُطِيعاً لأمْرِ مَوْلاهُ
فَلِلْعَوَامِ أنْ يُقَلِّدُوهُ ﴾

فصيانة النفس ، والمحافظة على الدين ، ومخالفة الهوى شرط أساسي لتنفيذ الحكم والعمل بالفتوى . . ولو ان رجلاً بلغ من العلم مابلغ ، ولم يكن على هذا الوصف لا ينفذ له قضاء ، ولا تسمع له فتوى ولا يؤتمن على قتيل لقاصر أو غائب .

وقد وجد في الشيعة ، ولله الحمد في كل عصر رجال يتمتعون بالخلال التي ذكرها الإمام ، ولكن — من سخرية الأقدار ، أو سخطها — ان يتفشى في هذا العصر وباء لا أدري : متى نقضي عليه ، أو يقضي علينا ؟. . وهو تطفل أغيلمة بنزوهم على الكراسي والأعواد ، وجلوسهم للدرس والافتاء والقضاء ، حتى تخيلنا ، أو كدنا نتخيل انهم القرود الذين رآهم النبي في منامه يصعدون منبره ، وينزلون ، أو أنهم المعنيون بقوله (ص) : « هلاك أمتي على يدي أغيلمة سفهاء » وقد تجلى سفههم بتطاولهم على ما ليسوا له بأهل ، وظهر جهلهم للعيان في دسهم ونيلهم من كرامة العلماء بالتصريح تارة ،

وبالتلويح واثارة الشكوك أخرى . . وإذا استمرت هذه الفوضى ولم يقف كل منا عند حده . فستفقد النجف مكانتها والدين هيبته وعظمته لا سمح الله .

وبعد هذا الاستطراد ، أو نفثة الفؤاد أعود إلى الموضوع ، لأثير هذه التساؤلات : هل الشيعة يقدسون الأئمة الأطهار الأبرار أكثر مما تقدس سادتها وقادتها هذه الأحزاب والمنظمات في الشرق والغرب ؟ . وهل كتاب رأس المال — مثلاً — أقل شأناً عند أتباعه من القرآن عند المسلمين ، والانجيل عند المسيحيين ؟ . وإذا كان العلم يحتم ان نأخذ بالواقع المجرد عن الذات . لأن النظرة الصحيحة هي التي تنظر إلى الموضوع بدون أية اضافة زائدة — كما قالوا — فهل قائد الحزب هو الواقع والموضوع ، بحيث يكون الأخذ بأقواله أخذاً بالواقع ، لا بالأنا » على حد تعبيرهم ؟ . وبالتالي ، هل للعصمة من معنى إلا الاستدلال بقول المعصوم ، وجعله دليلاً قاطعاً ، وحجة دامغة تماماً كما تستدل الأحزاب والمنظمات اليوم وفي كل يوم بأقوال القادة والرؤساء . اذن ، لماذا يستنكرون العصمة ، وينعتون القائلين بها بالجهل والرجعية ، وأثبتوا هذه العصمة بالذات ، وأوجبوها بالفعل ، لا بالقبول لمن وضع لهم الفكرة والعقيدة ، وتلقوها منه كما يتلقى المؤمنون من نبيهم ، والعبيد من سيدهم وفرضوا على الناس ، كل الناس قبولها والعمل بها ، ونعتوا من أبى وامتنع بالجهل والتخريف يكمن في لفظ العصمة لا معناها ؟

وتجد الجواب عن هذه التساؤلات في فصل النقد على صعيد الرغبات ونختم هذا الفصل بما يلي :

اتفق السنة والشيعة على فكرة العصمة ، وانها ثابتة في الاسلام . واختلفوا في التطبيق فقال السنة : هي ثابتة للجماعة ، لقول الرسول الأعظم (ص) :

« لا تجتمع امتي على ضلالة » . وقال الشيعة : هذا الحديث ضعيف ، والعصمة ثبت لأهل البيت (ع) بنص الآية ٣٣ من سورة الاحزاب :

﴿ إنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾

والمراد بالرجس الذنوب إذ لا شيء أقذر وأوسخ منها ، ولامعنى للعصمة إلا البعد عنها والطهارة منها ، ومن أنكر عصمة أهل البيت فقد أنكر على الله ، وردّ شهادته بتطهيرهم وذهاب الرجس عنهم.. بل في اعتقادي ان من انكر عصمة سلمان الفارسي فقد أنكر على الرسول الأعظم (ص) ورد شهادته وقوله : « سلمان منا أهل البيت » . . ومن كان من أهل البيت مثل سلمان فهو في حكم آية التطهير .

النجف والفوضى

عند التصحيح :

لقد شطح بي القلم في الفصل السابق إلى الحديث عن « أغيلمة » هذا العصر . وكانت تلك الشطحة أو ذاك الاستطراد نفثة مصدور ، سرعان ما ذهبت مع الريح ، كغيرها من النفثات والحسرات ، وانصرفت أنا لشأني .

والآن ، وأنا أصحح للمطبعة ما جاء في هذه « الملزمة » من أخطاء عدت إلى تلك الحسرة لأرى : هل ذهل منضد الحروف عن كلمة أو حرف . . وبصورة مفاجئة جالت في رأسي أفكار وأفكار عن أوضاع الشيوخ هنا وهناك ، وادعاءاتهم الطويلة العريضة ، وعن النجف ونظامها وطلابها وأعلامها ، وكانت تلك الأفكار الباعث الأول على كتابة هذا الفصل ، وإلحاقه بما طبع من فصول ، لصلة رئيس الدين والمذهب بالامام المعصوم نيابة أو وكالة .

حسنة الشيعة :

ان كان للشيعة — اليوم — حسنة تذكر فتقدّر فهي استقلال منصب الرئاسة الكبرى عن السياسة والسياسيين . وتعيين الرئيس الأول ، واختياره للمنصب الأكبر بالعلم والعدل فقط لا غير ، لا بمرسوم من حاكم ، ولا بشفاعة ظالم ، ولا بانتخاب من منظمة معينة ، أو أفراد معدودين ؛ بل بنص

طبيعي من سيرته وشخصيته ومؤهلاته وتاريخ حياته منذ الطفولة إلى عهد الشيخوخة حتى إذا كانت طاهرة نقية قلنا جميعاً : وجدناه ، فهو هو دون سواه . . وقد امتاز الشيعة بذلك عن سائر الطوائف ، تماماً كما امتازوا بتفسير عصمة الانبياء من انها النزاهة عن الذنوب قبل النبوة وبعدها .

الفوضى :

ومن هنا كانت هذه الفوضى والتطفلات ، وهذا التكالب على لقب تقي واتقى ، وورع وأورع ، وزاهد وأزهد ، والعلامة الأوحد ، وحجة الله وآيته ، ومرجع عالي وأعلى ، ومجتهد كبير وأكبر ، إلى آخر ما هو شائع ذائع ، بخاصة في ايران ، مصدر هذه الطنطنات ومسقط رأسها . . وقد كثر التسابق إلى هذه الألقاب بعد ان اشتهرت الفتوى بوجوب الرجوع إلى الأعلم في التقليد .

الفوضى افضل :

ومهما يكن فاني أفضّل هذه الفوضى والتطفلات على تدخل السياسة في أمور الدين والمذهب ، وأرى مخلصاً ان هذا التصدع والانحراف خير ألف مرة من تدخل السياسيين ، وأن يكون تعيين الرئيس والمرجع بيد الحاكين . . فانهم نظّموا فانما ينظمون الفساد ويجعلونه قانوناً ملزماً ينفّذ بقوة الدولة ، وان اختاروا فلا يختارون الا من هو أشد خطراً على الدين ، وأكثر ضرراً من كل فوضى وكل تطفل ، وأي شيء أضر وأخطر من تصاغر نائب الإمام ، وتضاؤل الأمين على دين الله وشريعته أمام حاكم ظالم وفاسق مستهتر ، لا لشيء الا لأنه يتحكم في هذا المنصب وصاحبه ؟ .لأجل هذا وغيره من المفاسد أفضّل التقاليد النجفية بعلاّتها على تدخل السياسة وأفضّل هذه التقاليد أنا وكل

مخلص لدينه وأمته يريد أن تتصاغر الدنيا وأبناؤها أمام دين الله وعلمائه رأمنائه ، أما من أراد العكس فما هو من الدين ولا الانسانية في شيء .

شيعة علي حقاً :

ان تاريخ الشيعة – أقصد شيعة علي قولاً وعملاً – يدل بصراحة ووضوح على انهم لم يسالموا ويتفاهموا في يوم من الأيام مع السياسة الظالمة الغاشمة ، ولا مع أي انسان لا يقيم للدين وزناً ولا للحق شأناً . . ذلك ان الدين عندهم فوق كل شيء ، وأعز من كل عزيزه، حتى من الأهل والعيال ، والنفوس والأموال أما الشاهد على هذه الحقيقة فأصحاب علي والحسين ، وزيد بن علي ، وشهداء فخ ، وغيرهم وغيرهم من العلماء والشعراء ممن ذكرنا في كتاب « الشيعة والحاكون » .

لقد أصاب الشيعة من السجن والصلب ، والتقتيل والتشريد ما تعجز عن وصفه الألسن والأقلام ، لا لشيء الا لأنهم رفضوا الانصياع والانقياد إلا لمن اختاره الله ، وأراده رسول الله ، وارتضاه أولياء الله ، لا من أراده حاكم ومترعم ليحلل لهواهما ويحرم . . ومن هنا كان لرؤساء الدين والمذاهب وكلاء الإمام حقاً هذه المكانة في النفوس ، وهذا التعظيم والتكريم .

الرئيس :

ان هذا الحب والاخلاص ، وهذا الخضوع والطاعة ؛ ان هذا الشعور الديني الخالص من كل شائبة الذي يحسه في قرارة نفسه كل شيعي في الشرق والغرب نحو من يمثل الدين حقاً ؛ ان هذا الشعور ما كان ، ولن يكون ، لو

ارتبط هذا المنصب الإلهي بالسياسة والساسة من قريب أو بعيد، واني للسياسة واباطيلها ان يكون لنا ما لدين الله من عظمة وجلال ، وهيبة وكمال ؟

وان شككت في شيء فلن أشك أبداً في ان هذا المنصب ينطوي على كثير من أسرار النبوة والإمامة الحقة ، وانه الدعامة الأولى للدين والمذاهب ، والدعاية الكبرى لنشره واعزازه [1] بل لبقائه واستمراره . . ومن هنا كان له هذا التقديس والتعظيم في نفس الموافق والمخالف .

الدعاية :

ولقد دلتنا التجارب ان في هذا المنصب سراً عميقاً ، لا نجد له أي تفسير الا في قاعدة اللطف العقلية . والعناية الإلهية . . ذلك ان كثيراً ما تهيأ الاعلانات وتعبأ الدعايات لشخص بعينه ، حتى نظن معها ان الرئاسة الدينية قد أتت تجرجر إليه اذيالها ، ولكن سرعان ما يتبخر كل شيء كأن لم يكن ، ويتولى الرئاسة رجل ما كان على البال ، ولا الخاطر ، أو على بال ناء بعيد . . وان هذا على شيء ، فانما يدل على ان الدعايات والاعلانات ، ان أجدت ، فانما تجدي في السلع والبضائع ، والمناصب الزائلة الزائفة . أما في الشؤون الدينية ،

(١) في سنة ٦٢ زرت بلاد العلويين في سورية ، وفي سهرة قضيتها في بيت أحد الوجهاء ببانياس قال لي علوي : نحن لا نعترف بأحد من العلماء سواك ، حتى « فلان » لا نعترف به ، واسمى مرجعاً كبيراً . . لأنك الوحيد الذي يدافع ، ويكافح . فساءني ما سمعت ، وقلت له : انك لا تعرف شيئاً من هذا الباب ، وان مثلك مثل رأى قائد جيش يحسن القتال ، ويدافع عن العاصمة ولوائها ، ويحرسها من أعدائها وذهل عن القاعدة الأولى ورئيس الدولة الذي لولاه لم يكن للكيان من عين ولا أثر . . ولولا من ذكرت ومنصبه السامي لم يكن للشيعة والتشيع من اسم ولا رسم ، فقال : أجل ، واعتذر .

والمناصب الإلهية فانها لا تجدي نقيراً ، وسبحان من اصطفى لدينه الأطهار ، ولملة رسوله الأبرار .

أخطاؤنا :

قلت : اني أرجح الفوضى على تنظيم الساسة والسياسة ، وأفضل أنا وكل عاقل التقاليد النجفية بعلاتها على أي تدخل خارج عن الدين وأهله ، وليس معنى هذا اني سأسكت وأصمت عما نحن فيه من عيوب وأخطاء ، حرصاً على الهيئة الدينية ، والحوزة العلمية ، كما يقولون . . كلا ، ثم كلا . كيف ، وأنا مؤمن بأن السبيل إلى القضاء على الرذيلة والأخطاء هو ان نعرفها ، ونعترف بها ، ونشعر بوجوب الخلاص منها ، أما السكوت والصمت ، اما التجاهل وغض الطرف عن العيوب فمعناه الامضاء لها ، والابقاء عليها ، ومعناه أيضاً تشجيع الاغيلمة ومن إليهم على تعدي الحدود ، والفضول والتطفل [1] .

ثم ما معنى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؟ هل معناه اننا مسؤولون عن غيرنا ، ولسنا مسؤولين عن أنفسنا ؟ ثم لماذا نحرص كل الحرص على ان يستر بعضنا على بعض ، ونخاف هذا الخوف من النقد والصراحة ؟ وهل من سر سوى الجبن والهلع من الفضائح والقبائح ؟

لو كنا على قليل من الوعي والشجاعة ، أو على شيء من حب الخير لأنفسنا لرحبّنا بالنقد والناقد ، بل وبحثنا عنه في كل مكان ، فان لم نجده . أوجدناه ، وخلقناه على شريطة أن يكون مخلصاً في أهدافه ، خبيراً بالاسواء

(١) إذن كان من شروط الأمر بالمعروف احتمال النفع فاني لأرجو أن ينتفع واحد من مئة بقراءة ما كتبت في فقرة الفوضى من هذا الفصل ، ان كان من عشاق الألقاب .

والادواء ، يجب ان نطلب هذا الناقد وندعوه للنقد ، تماماً كما يجب أن نبحث عن الطبيب الناصح الماهر ، وندعوه للعلاج .

وبالتالي ، فأني سأنتقد كل عيب ونقص أراه في قومي الذين أشهد الله وأنبياءه وأولياءه على المرارة التي أعانيهامن أجلهم . . اني ادين لهم بالاخلاص وأتمنى لهم كل الخير ، وان يكونوا فوق الناس أجمعين ، ولذلك أنتقد كل عيب فيهم ونقص ، وأعلنه على الملأ ، ولا أخشى لومة لائم من كبير أو حقير ، ما دمت مخلصاً لله ولهم ، واعياً ما أقول ، آملاً أن يتحسسوا ويشعروا بالمسؤولية تجاه خالقهم ونفسهم وأمتهم .

وأهلاً ومرحباً بمن يهدي إليّ عيوبي بقلب طاهر ، وعقل بباهر .

المهدي المنتظر

حدثتك في المقدمة عن رسالتين تتصلان بهذا الفصل ، وان صاحب احداهما اقتنع بفكرة المهدي المنتظر ، واهتدى بعد قراءته . . أما صاحب الثانية فقد رآه ممكناً بعد أن كان يراه ممتنعاً . . اذن ، لهذا الفصل أثره الصالح في هداية الحائر التائه عن سبيل الحق ، وهذا ما دعاني وشجعني أن أضعه بين يديك لتعطفه على الفصول السابقة ، فانه الجزء المتمم لها ، واثقاً كل الثقة انك ستنضم إلى صاحبي الرسالتين ، ان كنت من التائهين عن الحق ، والطالبين له .

الدين والعقل :

أشاد الاسلام بالعقل وأحكامه ، ودعا إلى تحرره من التقاليد والأوهام ، ونعى على العرب وغير العرب الذين لا يفقهون ولا يعقلون ، ويؤمنون بالسخافات والخرافات . وه الله في ذلك عشرات الآيات ، وتواترت به عن الرسول الأعظم الأحادي ايات ، وأفرد له علماء المسلمين أبواباً خاصة في كتب الحديث والكلا ول .

سؤال :

وتسأل ــ أيها القارىء ــ هل معنى اشادة الاسلام بالعقل انه يدرك صحة كل أصل من أصول الاسلام ، وكل حكم من أحكام الشريعة ، بحيث إذا

حققنا ومحصنا أية قضية دينية في ضوء العقل لصدقها وآمن بها ايمانه بأن الاثنين أكثر الواحد ؟

الجواب :

كلا ، ولو أراد الاسلام هذا من تأييده للعقل لقضى على نفسه بنفسه ، ولكان وجوده كعدمه ، ولوجب أن يؤخذ الدين من العلماء والفلاسفة لا من الأنبياء وكتب الوحي . ان للعقل دائرة ، وللدين أخرى ، وكل منهما يترك للآخر الحكم في دائرته واختصاصه ، على أن يقر كل منهما الآخر ، ولا يعارضه في شيء ، والانسان بحاجة إلى الاثنين ، حيث لا تتم له السعادة والنجاح الا بهما معاً .

ان الغرض الأول الذي يهدف إليه الاسلام من الاشادة بالعقل هو ان يؤمن الانسان بما يستقل به من أحكام ، ولا يصدق شيئاً يكذبه العقل ويأباه . ان العقل لا يدرك كل شيء ، وانما يدرك شيئاً ، ولا يدرك شيئاً ، والذي يعلم كل شيء هو الله وحده . فوجود الله وعلمه وحكمته ، واعجاز القرآن الدال على صدق محمد في دعوته ، وما إلى ذاك يدركه العقل مستقلاً ويقدم عليه البرهان القاطع . أما وجود الملائكة والجن ، والسير غداً على صراط أدق من الشعرة ، وأحد من السيف ، وشهادة الأيدي والأرجل على أصحابها ، وتطاير الكتب ، وسؤال منكر ونكير ، ونحو ذلك مما لا يبلغه الاحصاء ، وثبت بضرورة الدين — أما هذه فلا تفسر بالعلم ، وليس فيه للعقل حكم بالنفي أو الاثبات . ان الدين غير محصور ولا مقصور فيما يدركه العقل ، بل يتعداه إلى أمور غيبية يؤمن بوجودها كل من آمن بالله والرسول واليوم الآخر . ولكن الدين في جميع أحكامه وتعاليمه لا يعلم الناس ما يراه العقل محالاً ، أو مضراً . كيف ؟ ولولا العقل لاستحال الايمان بشيء من الأشياء .

وبالتالي ، فليس كل ما هو حق يجب ان يثبت بطريق العقل ، ولا كل ما لم يثبت بالعقل يكون باطلاً – مثلاً – ان مسألة المهدي المنتظر لا يمكن اثباتها بالآلة العقلية ، مباشرة وبلا واسطة ، لا لأنها غير صحيحة وباطلة من الأساس ، بل لأنها ليست من شؤون العقل واختصاصه . ان عجز العقل عن ادراك قضية من القضايا مباشرة شيء ، وكونها حقاً أو باطلاً شيء آخر ، ان مسألة المهدي يدركها العقل بالواسطة ، بحيث تنتهي السلسلة إلى حكمه ، ذلك ان العقل يحكم بوجود الله ، ويتفرع عن وجوده وجود النبوة . وعن وجود النبوة تتفرع الإمامة والمهدي المنتظر الذي أخبر عنه الصادق الأمين بحكم العقل .

العادة والعقل :

فرق بين ما هو ممتنع الوقوع في نفسه ، بحيث لا يمكن ان يقع بحال ، حتى على أيدي الأنبياء والأولياء ، كاجتماع النقيضين . وجعل الواحد أكثر من اثنين ، وبين ما هو ممكن الوقوع في نفسه . ولكن العادة لم تجر بوقوعه كالأمثلة الآتية ، وما كان من النوع الأول يسمى بالمحال العقلي ، وما كان من النوع الثاني يسمى بالمحال العادي ، وكثير من الناس يخلطون بين النوعين ، ويتعذر عليهم التمييز بينهما ، فيظنون ان كل ما هو محال عادة هو محال عقلاً .

وإليك الأمثلة لقد اعتدنا ان لا نرى عودة الأموات إلى هذه الدنيا ، وأن يولد الصبي ، ولا يكلم الناس ساعة ولادته ، وإذا جاع أحدنا لا تنزل عليه مائدة من السماء ، وإذا أصابه العمى والبرص لا يشفى بدون علاج وإذا سبّح الله وحمده لا تردد الجبال والطير معه التسبيح والتحميد . وإذا أخذ الحديد بيده لا يلين له كالشمع ، وإذا سمع منطق الطير لا يفهم منه شيئاً كما يخفى عليه حديث النمل ، ويعجز عن تسخير الجن في عمل المحاريب والتماثيل .

ولم يشاهد انسان مات منذ قرون ، ولا انقلاب العصا إلى ثعبان ، ولا وقوف مياه البحر كالجبال ، ولا جلوس الانسان في النار أو ان يناله أي أذى. فكل هذه وما إليها لم تجر العادة بوقوعها ، ولم يألف الناس مشاهدتها ، لذا ظن من ظن انها مستحيلة في حكم العقل ، مع انها ممكنة عقلاً ، بعيدة عادة . بل وقعت بالفعل .

فلقد أخبر القرآن بصراحة لا تقبل التأويل ان السيد المسيح كلم الناس وهو في المهد ، وأحيا الموتى ، وابرأ الأكمه والأبرص ، وأنزل مائدة من السماء وانه ما زال حياً وسيبقى إلى يوم يبعثون ، وان النار كانت برداً وسلاماً على ابراهيم ، وان عصا موسى صارت ثعباناً ، وان الحديد لان لداود ، وسبح معه الطير والجبال ، وان سليمان استخدم الجانّ ، وعرف لغة الطيور والنمل . ان هذه الخوارق محال بحسب العادة جائزة في نظر العقل ، ولو كانت محالاً في نفسها لامتنع وقوعها للانبياء وغير الأنبياء . فكذلك بقاء المهدي حياً ألف سنة أو ألوف السنين واختفاؤه عن الأنظار – كما يقول الإمامية – بعيد عادة ، جائز عقلاً ، واقع ديناً بشهادة الأحاديث الثابتة عن رسول الله (ص) ، فمن أنكر إمكان وجود المهدي محتجاً بأنه محال في نظر العقل يلزمه ان ينكر هذه الخوارق التي ذكرها القرآن ، وآمن بها كل مسلم ، ومن اعترف بها يلزمه الاعتراف بامكان وجود المهدي ، والتفكيك تحكم وعناد . إذ لا فرق في نظر العقل بين بقاء المهدي حياً ألوف السنين ، وهذه الخوارق من حيث الامكان وجواز الوقوع ، ما دام الجميع من سنخ واحد .

أحاديث المهدي :

ألف علماء الامامية كتباً خاصة في المهدي ، منهم محمد بن ابراهيم

النعماني ، والصدوق ، والشيخ الطوسي ، والمجلسي الذي خصص له المجلد الثالث عشر من بحاره . وذكر هؤلاء العلماء وغيرهم كل ما يتصل بالمهدي من الأحاديث النبوية بخاصة ما جاء في كتب السنة ، وبصورة أخص الصحاح منها . وقد استقصاها السيد محسن الأمين في القسم الثالث من الجزء الرابع من « أعيان الشيعة » طبعة سنة ١٩٥٤ ، ورغم ثقتي بهؤلاء الأعلام ، ويقيني بصدقهم عما ينقلونه من غيرهم فاني تتبعت بنفسي ما تيسر لي مراجعته من كتب السنة خشية الاشتباه بالنقل ، أو في فهم الحديث وقبوله للتأويل ، ولأن القدامى وأكثر الجدد من علمائنا ينقلون عن الكتاب الذي يبلغ المجلدات دون ان يشيروا إلى رقم الصفحة ، ولا تاريخ الطبع ، حتى ولا اسم المجلد ، وربما اكتفوا بالقول « جاء في كتب السنة أو قال السنة » .

وأكتفي هنا بنقل ما جاء في ثلاثة كتب من الصحاح الستة [1] لأن لفظ أحاديثها هو بالذات لفظ الأحاديث المروية في كتب الإمامية . قال ابن ماجة في سننه ج ٢ طبعة سنة ١٩٥٣ الحديث رقم ٤٠٨٢ .

« قال رسول الله : إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ، وان أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء شديداً وتطريداً حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود ، فيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون فينتصرون ، فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملأها قسطاً كما ملئت جوراً » .

والحديث رقم ٤٠٨٣ :

١) كتب الحديث الصحيحة عند السنة : البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة .

« قال رسول الله : يكون في أمّتي المهدي ، ان قصر فسبع والا فتسع ، تنعم فيه أمّتي نعمة لم تنعم مثلها قط . تأتي أكلها ولاتدخر منه شيئاً ، والمال يومئذ كدوس ، فيقوم الرجل يقول : يا مهدي اعطني . فيقول : خذ » .

والحديث رقم ٤٠٨٥ : « المهدي منا أهل البيت » .

والحديث رقم ٤٠٨٦ : « المهدي من ولد فاطمة » .

والحديث رقم ٤٠٨٧ : « نحن بني عبد المطلب سادة أهل الجنة أنا وحمزة وعلي وجعفر والحسن والحسين والمهدي » .

وقال أبو داود السجستاني في سننه ج ٢ طبعة سنة ١٩٥٢ ص ٤٢٢ وما بعدها :

« قال رسول الله : لو لم يبق من الدنيا الا يوم لطول الله ذلك اليوم حتّى يبعث رجلاً من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً » .

وفي حديث آخر : « المهدي مني ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، ويملك سبع سنين » .

وجاء في صحيح الترمذي ج ٩ سبعة سنة ١٩٣٤ ص ٧٤ :

« قال رسول الله : لا تذهب الدنيا حتّى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي » .

وفي ص ٧٥ : « قال رسول الله : يلي رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه

اسمي ، ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يلي » .

وجاء في كتاب « كنوز الحقائق » للامام المناوي المطبوع مع كتاب « الفتح المبين » ١٣١٧ هـ ص ٣ : « ابشري يا فاطمة المهدي منك » (١) .

هذا المهدي الذي أثبته الإمام المناوي وصحاح السنة ، وكثير من مؤلفاتهم هو بالذات المهدي المنتظر الذي قالت به الإمامية ، فإذا كان المهدي خرافة وأسطورة فالسبب الأول والأخير لهذه الأسطورة هو رسول الله . تعالى الله ورسوله علواً كبيراً . حتى لفظ « يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً » ، حتى هذه الجملة التي عابوها على الإمامية وسخروا منها ومنهم هي بحروفها للرسول الأعظم لا للامامية فان يك من ذنب فالنبي هو المسؤول ، حاشا الله والرسول .

ان الذين يسخرون من فكرة المهدي انما يسخرون من الاسلام ونبي الاسلام ؛ من حيث يشعرون أو لا يشعرون . وينطبق عليهم الحديث الذي نقله صاحب الأعيان في الجزء الرابع عن « فوائد السمطين » لمحمد ابن ابراهيم الحموني الشافعي عن النبي « منكراً من أنكر خروج المهدي فقد كفر بما أنزل على محمد » .

قال بعض المؤلفين : « اخترع الشيعة فكرة المهدي لكثرة ما لاقوه وعانوه

(١) نقلنا في فصل « المهدوية وأحمد امين » حديثاً في المهدي عن صحيح مسلم رداً عليه حيث زعم أن أحاديث المهدي لا وجود لها في هذا الصحيح ، كما نقلنا عن أحمد أمين بالذات في كتابه المهدي والمهدوية ان كلا من الإمام الشوكاني ، وأحمد الصديق ، وأبي الطيب الحسيني وضع كتاباً خاصاً لاثبات المهدي المنتظر ، فراجع .

من العسف والجور . فسلّوا أنفسهم ومنّوها بالمهدي الذي يملأ الأرض عدلاً ، وينصفهم من الظالمين والمجرمين » .

ولو كان هذا القائل على شيء من العلم بسنة الرسول لما قال هذا . لقد تخيل أشياء لا أصل لها ولا أساس ، ثم أعلنها على انها عين الحق والواقع ؛ ولست أعرف أحداً أجهل واجرأ على الباطل ممن يكتب في موضوع ديني ويعطي أحكاماً قاطعة قبل أن يرجع إلى كتاب الله وسنة الرسول ، وقبل أن يبحث وينقب عن أقوال العلماء وآرائهم . ان العلم معرفة الشيء عن دليله . أما القول بالظن والتخرص كما فعل الذين أنكروا وجود المهدي فجهالة وضلالة.

وبالتالي فان الإمامية لولا هذه الأحاديث التي أوردها أصحاب الصحاح لكانوا في غنى عن القول بالمهدي ، وبكل ما يتصل به من قريب أو بعيد ولكن ما العمل، وهم يتلون قوله تعالى :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ
وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾
الحشر ٧ .

وبكلمة ، لقد أخبر النبي عن المهدي فوجب التصديق به ، تماماً كما وجب التصديق بمن سبق من الأنبياء لأن القرآن الكريم أخبر عنهم .

ورب قائل : ان الأحاديث النبوية التي نقلتها عن صحاح السنة انما دلت على خروج المهدي في آخر الزمان ، دون أن تتعرض من قريب أو بعيد إلى وقت ولادته . اذن فمن الجائز انه يولد في القرن الذي يخرج فيه ، لا انه قد ولد بالفعل وقبل خروجه بقرون ، كما قال الإمامية .

الجواب :

القول بخروج المهدي وولادته ، وكل ما يتصل به لا مستند له إلا الأحاديث النبوية ، غاية الأمر ان خروجه في آخر زمان ثبت بطريق السنة والامامية . أما ولادته فقد ثبتت بطريق الامامية فقط ، وليس من الضروري لأن يؤمن المسلم بشيء ان يثبت بطريق الفريقين ، وانما الواجب ان يؤمن بما يثبت عنده ، على شريطة ان لا يناهض ايمانه حكم العقل ويصادمه ، وقد بيّنا ان بقاء المهدي حياً تماماً كالخوارق التي حدثت لابراهيم وداود وسليمان وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء ، لا تتنافى وشيئاً مع حكم العقل بالامكان ، لأنها قد حدثت بالفعل ، والدال على الوقوع الامكان بالضرورة .

هذا ، وان جماعة من كبار علماء السنة قالوا بمقالة الامامية ، وآمنوا بأن المهدي قد ولد وانه ما زال حياً . وقد ذكر السيد الأمين أسماءهم في الجزء الرابع من الأعيان ، ونقل الثناء على علمهم والثقة بدينهم عن كثير من المصادر المعتبرة عند السنة ، وهم :

١ — كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي في كتابه « مطالب السؤول من مناقب آل الرسول » .

٢ — محمد بن يوسف الكنجي الشافعي ، في كتابيه « البيان في أخبار صاحب الزمان » . و « كفاية الطالب في مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » .

٣ — علي بن محمد الصباغ المالكي في كتابه « الفصول المهمة » .

٤ — أبو المظفر يوسف البغدادي الحنفي المعروف بسبط ابن الجوزي في كتابه « تذكرة الخواص » .

٥ — محيي الدين بن العربي الشهير في كتابه « الفتوحات المكية » .

٦ — عبد الرحمن بن أحمد الدشني « عقائد الأكابر » .

٧ — عطاء الله بن غياث الدين في كتابه « روضة الأحباب في سيرة النبي والآل والأصحاب » .

٨ — محمد بن محمد البخاري المعروف بخواجة ربارسا الحنفي في كتابه « فصل الخطاب » .

٩ — العارف عبد الرحمن في كتابه « مرآة الأسرار » .

١٠ — الشيخ حسن العراقي .

١١ — أحمد بن ابراهيم البلاذري في « الحديث المتسلسل » .

١٢ — عبدالله بن أحمد المعروف بابن الخشاب في كتابه « تواريخ مواليد الأئمة ووفياتهم » .

هذي هي مسألة المهدي المنتظر عرضناها على العقل فلم ينكرها ، وعلى القرآن الكريم فوجدنا لها اشباهاً ونظائر ، وعلى سنة الرسول فكانت هي المصدر الأول ، وعلى علماء السنة فألفيناهم مجمعين عليها . ومنهم هؤلاء الذين قالوا : انه ولد ، وانه حي إلى ان يأذن الله ، فأين مكان الغرابة والخرافة في قول الامامية ؟ !

وكأني بقائل : مالك ولهذي الموضوعات التي أكل الدهر عليها وشرب ألبس من الأجدر والأليق بك ، وبالصالح العام أن تعرض عن هذه إلى أوضاعنا ، إلى الحديث عن الحلول لما نعانيه من مشاكل وآلام .

قلت : أجل، والله . ونحن في أشد الحاجة إلى الأفعال لا إلى الأقوال . إلى السكوت عما مضى وكان والاهتمام بما هو كائن ويكون . ولكن ماذا نصنع؟ ونحن نقرأ بين الحين والحين كتاباً أو مقالاً يكفر الملايين، ويطعنها في أقدس مقدساتها ، وينعتها بالجهل والسخف ، وانها لا تصلح للحياة ولا لشيء إلا للسخرية والاستهزاء . وان التشيع الذي تتمذهب به لا يعد من المذاهب الاسلامية في شيء وانما هو دين ابتدعه الاسلام وخصوم الانسانية ؟ !

ماذا نصنع ؟ هل يجب أن نسكت ونتغاضى عن هذه الهجمات والحملات ؟ هل يحرم علينا الدفاع عن النفس وبيان الحقيقة ، وابطال التهم الكاذبة التي تزداد وتتفاقم بالتجاهل والاغضاء ؟ ! ثم هل يجتمع شمل المسلمين ، وتتحد كلمتهم بهذه النزوات أو باثبات ان ما قاله الإمامية في المهدي هو من الاسلام في الصميم . وهذي هي المهمة التي يضطلع بها هذا الكتاب .